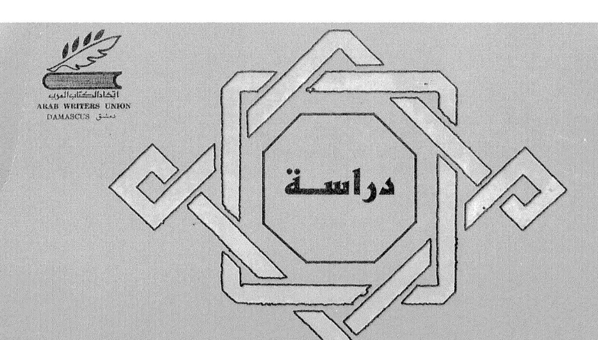


الإشراق

خلافة الإنسان في الأرض

محمد عرب

الإشـــراق

ـــــــــ خلافـة الإنســان فـي الأرض

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنانة: رولا عنقة

□□

محمد عرب

الإشـــراق
خلافـة الإنسـان فـي الأرض

- دراســة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2001

مدخل

تـــاهت الحيرة في رحلة البحث عن الحقيقة. فألقينا عصا الترحال، نطلب الإمـــداد من مالك النور... فأخذ بنا الحال في شهود صاحب الوصول إلى "قاب قوســـين" وحضر أمامنا "لقد جاءكم رسول من أنفسكم" فسلمنا عليه أو علينا في الحضرة الإنسانية الجامعة، وسألنا عن الطريق.

فقيل: لا بد من الهجرة.. رفيقاً مثل أبي بكر الصدّيق السابق بما وقر عنده في القلب..

أو عمرياً، اتحد مع اليقين فصارا اثنين وإن كانا واحداً في مرآة العين..

أو عثمانياً، سمح اليد، رقيق الفؤاد. يستحي من القيل والقال، فكان الشهيد.

أو بالوقوف على باب مدينة العرفان عند علي صاحب الأسرار، الدائر مع القرآن حيث دار.

فســـألت طامحـــاً أن أكـــون عند الجميع بعد أن ذبت في شهود حضرات الجمال والجلال في سير الأصحاب.

فقيـــل لـــي: عـــند نهاية الطريق تشاهد المصطفى صلى الله عليه وسلم... وعـــندها تشـــاهد الجميـــع بالقلب... وتفتح لك كنوز الأنوار... ولكن لا بد من المصـــاحبة في أول الطريق.. لا بد من دليل.. لأن الطريق صعب المسالك... والأشـــواق العاصـــفة قـــد تقتل عقل الطالب قبل الوصول.. فيصبح مثل قيس مجـــنوناً في حب المحبوب... فلا تغامر بالسفر وحيداً... ولكن لا تكن مجنوناً بليلى إذا كانت هي الدليل، وكن عند المالك لا الملك..

فطلبت من الناصحين اختيار الحكيم.

فسألوني من تحب...

فقلت لهم: سلطان العارفين محيي الدين بن عربي.. لو كان حياً... فكلامه

بالنسبة لي دواء، ولا أعرف حكيماً مثله سقاني من رحيق الجمال، حتى حرت من شهود الحروف على شفتيه وقد صارت جلالاً...

فقالوا لي: اذهب إليه، واطلب منه الإمداد.

فسألتهم: إلى أين وهو بين الأموات من مئات السنين.

فقالوا لي: إن الحب يصنع المعجزات. لو طلب الفقير بالحب بنت ملك الملوك ستعطف عليه، وتنظر إليه.. فكيف بمن يريد رفيقاً للوصول إلى المالك الرحيم.. وحبنا ليس سوى فيض من اسمه الرحيم.

أما سمعت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن سلمان الفارسي: "سلمان منا أهل البيت" فصار الفارسي عربياً. بل صار هاشمياً. ثم إن الشيخ كان حاتمي العطاء في الدنيا، فكيف سيكون وقد صار روحاً في السماء؟

فتوجهت إلى المقام أطلب الإمداد، وأنا حيران بين بحار الأسئلة.

فغبت في بحر الظلمات... ثم أشرق نور... وصار سماء... وتكونت شموس... وفاضت الأسماء... فغبت في بحر الحيرة، وأنا أصلي على المصطفى صلى الله عليه وسلم خير الأسماء، وسر النور المتجلي من صفاء الحقائق، بعد أن كان أغصاناً وأزهاراً وطرائقاً. فقطفت من الثمرة اليانعة التي أزهرت بالإيمان... وفهمت أن العبودية هي السلطان... وأن الأمي لا ينطق ولا يكتب إلا بأمر الحق، وإن كان يعرف أسرار الكتابة والبلاغة والكلام. فقرأت "وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى".

ثم سألت وقد أذهلتني المسألة: هل المشكلة في السمع، أم في البصر لمن لا يسمع الكلام... ولا يبصر الألوان.

فقيل لي: إنها في قلب الإنسان.. وقلب الشيء حقيقته، فلا تغتر بصلاة من صلى، أو صيام من صام، إذا كان العقل في السوق يحسب الأموال.. أما قرأت قول الله تعالى: **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾**.

فحقيقة الإنسان إما عند الله، وإما في السوق.. فكيف سيصل الراكض في كل الدروب.

واقرأ هذه الحكمة في إنجيل لوقا: "ما من خادم يستطيع أن يخدم سيدين. فإما يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلزم الواحد ويرذل الآخر. لا يمكنكم أن تعبدوا الله والمال".

ثم تجلى لي الشيخ وقادني إلى من قال: "إذا أردت أن تدخل حرمي فلا

تلـتفت بالمـلك والملكوت ولا بالجبروت، لأن الملك شيطان العالم. والملكوت شيطان العارف. والجبروت شيطان الواقف".

فسألت، أي محال سنطلب إذا ذبنا، وذاب القلب...

واستولت عليك سبحات الوجه المحرقة كلما امتد البصر...

وأشرقت في ليلك أقمار العاشقين تلوح لك، بأنها البداية، لا القصد...

وليس للغايات منتهى... وكل غاية درب...

أي محال سنطلب، إذا خرجت من ملكي وملكوتي والجبروت...!

فقال لي الشيخ، إكسر كؤوس الوجد...

ولما كسرت كؤوسي... صار الوجود كأساً لغرامي،

فشربت... وشربت... وشربت... فما ارتويت

فأدركت أن عالم الهوى لا يحاط به وإن ذاقه القلب

فقال قلبي... إنها الدنيا.. وهذا الجمال

وأنت تطارد المستحيل...

تشرب إن ظمئت..

وتظمأ إن شربت...

وتظل في يديك خيال...

وقال الوجود.. الآن جاء دوري

فكن لي كأساً لأشرب فيك أنواري

وكن لي خمراً لأنشد في جمالك أشعاري

لتعرف أي زهرة أشرقت حين كنت

وأي مجد فاضت فيه أكواني حين ظهرت...

ثم تجلى لي الشيخ في "الفتوحات" فقرأت:

"الإنســـان الكامل الذي يدل بذاته من أول البديهة على ربه هو تاج الملك، وليس إلا الإنسان الكامل. وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم على صورته" و"هو الأول والآخر والظاهر والباطن" فلم يظهر الكمال الإلهي إلا في المركب فإنه يتضمن البسيط، ولا يتضمن البسيط المركب. فالإنسان الكامل هو الأول بالقصـــد، والآخـــر بـــالفعل، والظاهر بالحرف، والباطن بالمعنى، وهو

الجـــامع بين الطبع والعقل، ففيه أكثف تركيب، وألطف تركيب من حيث طبعه، وفيـــه الـــتجرد عن المواد والقوى الحاكمة على الأجساد، وليس ذلك لغيره من المخلوقات سواه. ولهذا خص بعلم الأسماء كلها، وبجوامع الكلم. ولم يعلمنا الله أن أحـــداً ســـواه أعطـــاه هذا إلا الإنسان الكامل. وليس فوق الإنسان مرتبة إلا مرتـــبة الملَكْ في المخلوقات، وقد تلمذت الملائكة له حين علمهم الأسماء. ولا يدل هذا على أنه خير من الملَكْ. ولكنه يدل على أنه أكمل نشأة من الملَكْ. فلما كان مجلى الأسماء الإلهية صح له أن يكون للكتاب مثل التاج لأنه أشرف زينة يتزين بها الكتاب. وبذلك التتويج ظهرت آثار الأوامر في المُلكْ. كذلك بالإنسان الكـــامل ظهر الحكم الإلهي في العالم بالثواب والعقاب، وبه قام النظام وانخرمْ، وفيه قضى وقدَّر وحكمْ".

ثم همس صوت في أذني: لا تخلع تاج العقل بطاعة أهواء الجسم، فيصبح عقـــلك خادماً في إمارة صبيانكْ. قابل كنز حقيقة الجود، بحقيقة الحق الممدودة إليك لتعرف من أنت، وماذا أراد الحق منك قبل أن تدخل جنة حيرة العرفان، لا حيرة الضلال. لتشاهد ما خبأ الله للإنسان من الملْك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب...

فســـبحان مـــن لم تتسع له السموات والأرض، ووسعه قلب الإنسان العبد، فسخرها له ليظهر المالك... ويظهر الملْك.

إنها قصة الإنسان... وهو يبحث عن حقيقته في الوجود.

فأين كان قبل أن يكون...؟

وإلى أين سيمضي عندما لا يكون...؟

هل كان، ثم لن يكون...؟

أم إنـــه كان، ثم جاء، ثم ظهر بالأسماء، ثم مضى، فكان له في كل مكان وزمان.. صورة.. واسم...؟

ولكن الناس تاهوا في الخبر عندما فقدوا الأثر...

إذ كيف ستبصر العين وجه الحبيب المسافر...

وهي عين لا تبصر غير الصُورْ..؟!...

■■

مقدمة

مـــا هـــو الوجـــود وما هي حقيقته؟. هل للوجود غاية من الإيجاد، أم إن مظاهـــر الوجـــود المختـــلفة ومنها النبات والحيوان والإنسان ليست إلا نتيجة لمصـــادفات غير مقصودة نشأت في الطبيعة، وهذه المصادفات التي لا يعرف الإنسان عنها شيئاً ستذهب بكوكبنا الأرض بمصادفات جديدة لا نستطيع التأثير فيهـــا، ولا نعـــرف شيئاً عن توقيتها وقوانينها؟. أم إن الحكمة الإلهية المحيطة بـــالكون هـــي التي تتصرف وفقاً لغاياتها؟. كيف سنعرف الحقيقة إذا كان جدال الإنســـان لـــم يتوقف منذ ظهر الإنسان. فكانت مسيرة الجدال حول هذه الأسئلة ربمـــا أطـــول مسيرة في حياة الإنسان حيث لم يشبعها لا الفلسفة ولا الدين ولا العلوم كلها. وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً؟. الإنسان يتقدم ويتعلم وتزداد أسئلته وتـــزداد شكوكه ويزداد قلقه. فما هي الغاية من حياته، ومن وجوده، وإلى أين ســـينتهي بعد الموت؟. إلى التراب، أم إلى حياة خالدة جديدة؟. هذه الأسئلة كانت وســـتظل مـــرافقة للإنســـان في عالمه الغامض، ومسيرته المجهولة، ومصيره المقلق. فمن أين جاء، وإلى أين سينتهي؟. ما هي بدايته، وما هي نهايته؟. لماذا خـــلق، ولمـــاذا سيموت وهو لم يخلق باختياره، ولن يموت باختياره. فأي قوة خلقـــته ليخوض بحر الحياة، ويشهد ما فيها من حزن وفرح، وشقاء وسعادة، ثم اســـتدعته لـــلعودة من حيث جاء؟. ألا تشكل مثل هذه الأسئلة التي يطرحها كل إنسان على نفسه مصدراً للقلق والعذاب والحيرة عندما لا يعرف الجواب عنها. إذا كـــانت حياة الإنسان ستنتهي إلى التراب والفناء فأي طعم للحياة، وأي قيمة لهـــا؟. مـــا فائدة الخير والشر لإنسان سيفنى مثل أي نملة أو دودة في وقت ما طـــال أو قصـــر؟. ما أكثر الأجوبة، وما أكثر الفلسفات التي حاولت أن تجيب فأصـــابت وأخطأت، إلا إنها ظلت في حدود ما قدمته عاجزة عن الإجابة. منذ الـــبدايات كـــان الإنسان يحاول، عبر الفلسفات الشرقية واليونانية. منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو وكل فلاسفة اليونان، كانت تجري محاولات مخلصة وجادة

للإجابة عن أسئلة الإنسان القلقة. من أين جاء وإلى أين سينتهي ولماذا؟.

وجاءت الأديان هي الأخرى لتجيب عن هذه الأسئلة. وبينما حاولت جميع الفلسفات أن تبحث في العقل عن الإجابة، جاءت الأديان بأجوبة جاهزة غالباً لهذه الأسئلة الشائكة، وحملت معها فكرة الخلاص عن طريق تصعيد الروح. وقد وصل المسيح عليه السلام في دعوته إلى الخلاص بالتركيز على الروح إلى الذروة. وكان موسى عليه السلام قد قام بإيصال شريعة التطهير الجسدي من قبل. ولهذا كان من الطبيعي أن يشكل العهدان القديم والجديد كلاً متكاملاً في بناء الحياة الإنسانية على أسس صحيحة. إلا أن العهد القديم والجديد تعرضا لتعديلات وإضافات أفقدتهما الكثير مما جاء به الرسولان موسى وعيسى عليهما السلام. وكان لموقف اليهود من المسيح عليه السلام أثره في انغلاق اليهود على أنفسهم، لاعتقادهم بأنهم "شعب الله المختار" والذي قننته قوانين الأحبار اليهود بربطهم الشريعة الموسوية بالأنساب والسلالات اليهودية، مما جعل دين الله ديناً مغلقاً على اليهود بدون مبرر منطقي لإله هو رب العالم كله لا رب اليهود فقط. وإذا نظرنا إلى كل ما جرى من ضياع لأصول الرسالتين السماويتين اليهودية والمسيحية، والذي تدل عليه الإضافات المعترف بها على التوراة، وظهور عدة أناجيل معترف بها، مما يعرض كل ما وصلنا من التوراة والأناجيل إلى الشك بصحتهما، وإلى الاستنتاج بأن ما وصلنا ليس كلام الأنبياء وإنما ما فهمه التلاميذ من كلامهم، فإننا لهذا سنجد أن كل هذه الملابسات التي حدثت تقودنا إلى الاستنتاج بأن العالم كان بحاجة لرسالة جديدة صحيحة لا تحريف فيها، وكان من الطبيعي لإله يريد من البشر أمراً ما أن يرسل إليهم من يحمل هذا الأمر، وأن يخاطبهم بلغة يفهمونها، وأن يختار لهذا الأمر الإنسان المؤهل لحمل هذه الأمانة، والأمة الملائمة لنشرها. بهذا المنظار يجب أن نفهم ظهور الرسالة الإسلامية التي جمعت بين خطاب العقل وتصعيد الروح عبر تطهير الجسد. فكانت شريعة الشرائع التي أرادها الله لخلقه. فجمعت بين الإيمان والعقل للوصول إلى الإجابة على أسئلة الإنسان الكبرى.

ومع ذلك فإن الذين بالغوا بالبحث عن الإجابة في العقل حجبهم عقلهم عن المعرفة، كما إن الذين بالغوا بالبحث عن الإجابة بالإيمان لم يدركوا حتى وهم يكتشفون ما اكتشفوه أنهم توصلوا إلى الإجابة. وربما ظلوا في حيرة مما اكتشفوه ولذلك آثروا الصمت. والقليلون الذين صرحوا، اضطروا للإشارة إلى ما اكتشفوه بشكل غامض بسبب الظروف الاجتماعية التي كانت تحول بينهم

وبيـن التصـريح بما اكتشفوه، لأن الجهل المسيطر والمفاهيم المغلوطة كانت تمـنعهم من التصريح بالحقيقة، حقيقة الدين الحق المتمثل بالمعرفة، معرفة الله الصـحيحة وليس بالطريقة التي يعرفه بها عامة الناس. لهذا حاول هؤلاء الذين وصلوا إلى معرفة الله أن يحيطوا كتبهم بالإشارات الغامضة والمصطلحات التي لا تنكشـف إلا لمن وصل إلى مستوى قريب من العلم الذي وصلوا إليه. ولهذا فقدت هذه الكتب الكثير من تأثيرها لأنها لا تنكشف لغير العارف المدقق، وعبر تجـربة خاصة لها ما يؤيدها في حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن النعمان، أو الحارث بن مالك كما جاء في رواية ثانية: "عن أنس قال: (بينما رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار فقال له النـبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً. قال: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله! عُزفت نفسي عـن الدنيـا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكـأني أنظـر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيهـا. قـال: أبصرت فالزمْ. عبدٌ نور الله الإيمان في قلبه. فقال: يا رسول الله! ادع لـي بالشـهادة. فدعـا له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد"(1).

فالوصـول تحقـق بعزوفه عن الدنيا. فرأى ما رأى من الجنة والنار ولم يـنكر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الإسراء الروحي. ومع ذلك جرى الإنكـار على أهل المعرفة بعد ذلك. ولهذا استخدموا الإشارات لتجنب اتهامات الجهـلاء لأن الظروف التاريخية كانت تحول دون التصريح بكل الحقائق، لأن مثل هذه الحقائق لن تكون مفهومة إلا لقلة من الناس، فضلاً عما يمكن أن تثيره مـن مشـاكل وضـلالات قد لا تعود على الحقيقة وقائلها بأي فائدة، إذا لم تعد بالضـرر. ولهـذا آثر هؤلاء أن لا يكشفوا إلا عن ظلال من الحقائق لا تخفى عـلى الخـواص اقتداء بسيد العلماء والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي قـال: "لا تمـنحوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم"(2) و"خاطبوا الناس على قدر عقولهم"(3).

وكذلـك اقتداء بما جاء في إنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام: "لا تعطـوا الأقـداس لـلكلاب، ولا تطرحوا جواهركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجـلها"(4). ومـن الملاحظ أنه قد ورد في الإنجيل ملاحظة حول هذه الفقرة فـي أسـفل الصفحات تقول: "الكلاب والخنازير حيوانات نجسة" ولا ندري إذا

كـــان الخـــنزير نجســـاً فكيف يحلل أكله! ولكن عصرنا الذي يشهد الاكتشافات اليوميـــة، هـــذا العصر الذي أتيح فيه للإنسان أن يسير على سطح القمر، وأن يهـــبط بالمركـــبات الفضائية على سطح المريخ، وأن يكتشف بنور العلم عظمة الكـــون ومحدودية قدرات الإنسان وعجزه رغم علمه. هذا الإنسان الذي أصبح يعرف بأن الشمس ليست مركز الكون ولا الأرض كما كان يظن من قبل، وأن الأكوان ممتلئة بالمجموعات المماثلة لمجموعتنا الشمسية والتي يحتمل أن توجد فيها الحياة، وأن يكون فيها بشر سبقونا بإبداعاتهم العقلية. كل هذه المسائل التي كـــانت تـــثير اضطراباً في نفوس السامعين غدت أموراً عادية مما يتيح المجال للإفصـــاح عما كان لا يفصح عنه إلا نادراً، بسبب ظروف اجتماعية وتاريخية وعـــلمية فرضـــت نفســـها، ممـــا كان يطوف في قلوب أهل المعرفة في شتى العصـــور. ولهـــذا ظـــل هذا العلم من علوم الأسرار التي لا تلقن إلا سراً من الأستاذ إلى التلميذ أو من أهل المعرفة إلى من يرون فيه الأهلية والكفاءة لتلقي هـــذه الأسرار حفاظاً على مكانة العلم وغايته. لأن الهدف من العلم هو مصلحة الإنسانية. ولهذا إذا كان البوح بالحقيقة يضر بالإنسان وسيقوده إلى الضلال فإن الأفضـــل عدم البوح بالحقائق إلا لأهلها لئلا يدوسوها. ومع ذلك فإن القليل من العـــلم الذي باح به أهل المعرفة كان يثير الشجون والحيرة والقلق في النفوس، ممـــا بات طبيعياً في عصرنا بل أصبح من الحقائق التي لا يجادل فيها مجادل. وقـــد أشـــار القـــرآن والأحاديث النبوية إلى وجود المخلوقات في الكون بشكل صـــريح فقال الله: **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة﴾**(5). وجاء في الحديث: "قال الله عز وجل: يا جبريل إني خلقت ألف ألف أمـــة، لا تعـــلم أمة أني خلقت سواها لم أطلع عليها اللوح المحفوظ، ولا صرير القـــلم، إنمـــا أمـــري لشيء إذا أردت أن أقول لـــه كن فيكون ولا تسبق الكاف النون"(6).

وقـــد قال الشيخ أحمد الرفاعي: "لله سبحانه من مصنوعاته ومخلوقاته في الســـماء الـــرابعة بحر رمل يجري مثل جريان الريح العاصف بقدرة من خلق الســـموات والأرض لا يعلم طوله ولا عرضه إلا الله تعالى. ولا يدري من أين يجـــيء وإلى أيـــن يمشي إلا الله تعالى. بكل ذرة منها دنيا مثل دنياكم هذه. وما مـــن ســـاعة تمضـــي في الليل والنهار إلا ولله تعالى فيها قيامة تقوم على قوم وميـــزان ينصب، وصراط يمد، وقوم يدخلون الجنة، وقوم يدخلون النار، غير هذه التي ذكرت لنا، وغير هذه الجنان الموعودة لنا إن شاء الله تعالى"(7).

كان مثل هذا الكلام يدعو إلى التساؤل فهل لدى هؤلاء الناس أديان وأنبياء مثلنا، وأفكار وعلوم مثلنا؟. أو هل ستصل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث "رحمة للعالمين" إلى هؤلاء الناس. وهل العالمين كل الوجود أم أرضنا فقط، وهل الحقيقة المحمدية هنا نفس الحقيقة المحمدية هناك. وهل الحقيقة المحمدية السارية في الوجود عائدة للمعنى أم للصورة؟. وفي حديث ذكره الشيخ محيي الدين بن عربي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لقد خلق الله ألف آدم قبل آدم" وجاء عن علي رضي الله عنه قال: "خلق الله سبعين ألف آدم قبل آدم أبي البشر"(8). ويؤيد القرآن هذه الحقيقة بقول الله: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾**(9). وهذا التأكيد نفسه يتكرر في عدة آيات.

وهذا الكلام يقود إلى تساؤلات لا تقل إثارة عن التساؤلات التي يثيرها كلام القرآن والحديث وأهل المعرفة، وإن كان المقصود من مثل هذه الأحاديث الدلالة على قدم الإنسان في الوجود وبالتالي تتابع الخلق الإنساني بعد قيامة ذرية أبينا آدم في وقت لا يعلمه إلا الله. لهذا كانت كتب الشيخ محي الدين وأمثاله لا تقتنى ولا تقرأ إلا سراً. وما زال بعض المسلمين يحرم قراءتها لأسباب مختلفة. فبعض العلماء يحرمها لسوء ظنه بالشيخ، وبعضهم يحرمها لصعوبة فهمها على القارئ غير المتعمق مما لا تطيق بعض العقول فهمه وإدراكه، رغم أن فيها من الإشارات إلى بعض الحقائق المكتشفة حديثاً، مما يذهل العقول. قياساً إلى العصر الذي عاشوا فيه، والوسائل العلمية التي لم تكن بحوزتهم. فشاهدوا ببصيرتهم ما نعجز عن مشاهدته بأدوات الحضارة المعاصرة. فإضافة إلى الإشارات القرآنية عن العوالم المأهولة، تحدث الشيخ محي الدين بن عربي عن حفظ الجو للكلام الذي يقول به بعض العلماء الغربيين حديثاً فقال: "الحروف الهوائية اللفظية لا يدركها موت بعد وجودها، بخلاف الحروف الرقمية. وذلك لأن شكل الحرف الرقمي والكلمة الرقمية تقبل التغيير والزوال. لأنه في محل يقبل ذلك، والأشكال اللفظية (هي) في محل لا يقبل ذلك. ولهذا كان لها البقاء، فالجو كله مملوء من كلام العالم، يراه صاحب الكشف صوراً قائمة"(10). وقد نبه القرآن والأحاديث النبوية بلغة معاصرة لكل الأزمان إلى حقيقة تدوين كل ما ينطق به الإنسان من أجل الحساب.

ولكن رغم ما في هذه الكتب من العلوم ومن محاولات لربط الدين بالعقل والعلم والمعرفة، فإن ظروفاً كثيرة أدت إلى جعل هذه الكتب حكراً على عدد

من الناس استغلوها في بعض الأحيان لمآربهم الشخصية وتفسيراتهم السطحية، مما أساء إلى سمعة مؤلفيها، وشوه محتواها، وأدى إلى تحريمها أحياناً حرصاً على سلامة الشريعة من ضلال الضالين، وجهل الجاهلين. وأخص بالذكر كتب الشيخ محي الدين بن عربي كمثال على ما تعرض له من اتهامات بسبب سوء الفهم لكتبه أو تصرف متصوف جاهل وضع الشريعة في جيبه وادعى أنه من تلاميذه وأن الشيخ أستاذه، أو أستاذ أستاذه. وكل المتصوفة يقولون عن الشيخ إنه سلطان العارفين أو سلطانهم. ولكن لو سألتهم ماذا تعرفون عنه، فإن الجاهل منهم، وهم كثيرون، سيقول لك إنه يقول "بوحدة الوجود" أو "الحلول" مع إن الشيخ لم يقل مثل هذا الكلام. وهو العارف بالحقائق. ولهذا قال: "إن الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"(11).

وقال أيضاً: "لا حلول لأن الشيء لا يحل في ذاته، فإن الحلول يعطي ذاتين"(12). وقال: "أنت أنت وهو هو فاحذر أن تقول كما يقول العاشق- أنا من أهوى ومن أهوى أنا- فهل قدر على أن يرد العين واحدة. والله ما استطاع، فإن الجهل لا يستطاع فأتى بذكره وذكر من يهوى. ففرقْ واعتقدْ الفرقان تكن من أهل البرهان، لا بل من أهل الكشف والعيان، قد علمت أن ثم غطاء يكشف وقد آمنت به فلا تغالط نفسك بأن تقول أنا هو وهو أنا"(13). وقد نفى بشكل مطلق أي قدرة للإنسان على معرفة الله، كما هو، لكي لا يدعي مدع مثل هذه المعرفة المستحيلة. فقال: "لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت. فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته"(14). فنحن نعرف عن الله.. عن آياته في خلقه.. ليس أكثر من ذلك.

ومع ذلك، فإننا لا بد أن نعترف بصعوبة قراءة كتب الشيخ ابن عربي، وربما استحالة فهمها دون مساعدة خبير بها، مما يبرر إلى حد ما النصح بعدم قراءتها دون مرشد عارف بها. وكدليل على هذه الصعوبة نقدم ما قاله الدكتور أبو العلا عفيفي، بتواضع يدعو إلى الإعجاب، عن معاناته حين حاول أن يقوم بدراسة كتاب ابن عربي "فصوص الحكم" لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة كمبردج عام 1927. وكان قد اختار هذا الكتاب باقتراح من المستشرق الانجليزي المعروف نيكولسون، كما قال: "قبلت دعوة الأستاذ نيكولسون وأقبلت على قراءة كتب ابن عربي مبتدئاً بالفصوص فقرأته مع شرح القاشاني عليه عدة مرات، ولكن الله لم يفتح علي بشيء! فالكتاب عربي مبين، وكل لفظ فيه إذا أخذته بمفرده مفهوم المعنى، ولكن المعنى الإجمالي لكل جملة، أو لكثير من

الجمل، ألغاز وأحاج لا تزداد مع الشرح إلا تعقيداً وإمعاناً في الغموض. ذهبت إلى الأستاذ أشكوه حالي، وأذكره بأن هذه أول مرة استعصى علي فهم كتاب باللغة العربية إلى هذا الحد. فنصحني بترك الفصوص والإقبال على كتب ابن عربي الأخرى، فقرأت منها نيفاً وعشرين كتاباً ما بين مطبوع ومخطوط، منها الفتوحات المكية. وهنا بدأت تنكشف لي معاني الشيخ ومراميه بعدما أصبحت على إلف باصطلاحاته وأساليبه. فلما عدت إلى الفصوص وجدته مع صغر حجمه خلاصة مركزة لأمهات تلك المعاني، ووضح لأول مرة ما كان منه مستغلقاً، وأصبح يسيراً علي فهم ما ألفيته بالأمس عسيراً"(15). فإذا كان هذا حال المختص بالفلسفة الإسلامية مع ابن عربي، فماذا سنقول عن حال غير المختص. ومع ذلك فإن د.عفيفي أخطأ في فهم بعض إشارات ابن عربي وكلامه. ولهذا سيقول: "ولكن ابن عربي وإن وُهب بسطة في الفكر والخيال، وعمقاً في الحس الروحي، يعوزه المنهج الفلسفي الدقيق والتحليل العلمي المنظم. فهو من غير شك فيلسوف صاحب مذهب ومؤسس مدرسة، ولكنه فيلسوف آثر أن يهمل منهج العقل الذي هو منهج التحليل والتركيب ويأخذ بمنهج التصوير العاطفي والرمز والإشارة والاعتماد على أساليب الخيال في التعبير"(16). ومع أن ابن عربي لم يقل عن نفسه إنه فيلسوف. والفرق بين كلام العارف وكلام الفيلسوف كالفرق بين المشاهد وغير المشاهد، مع ذلك فإن د. عفيفي لم يفهم المنهج العقلي الذي سار عليه ابن عربي، ولم يدرك معنى "الخيال في التعبير" كما يتضح من كلامه. وسوف يقع في نفس الإشكالات تقريباً الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه "فلسفة التأويل- دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي"(17). وهذه مشكلة استوجبت التوضيح وإن كانت لا تستوجب التحريم، أي تحريم كتب الشيخ، لأن القرآن نفسه أبيحت قراءته للعالم والجاهل.

ولسنا هنا بصدد عرض الأخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين في كتب ابن عربي، ولكننا أردنا الإشارة إلى الصعوبات التي يتعرض لها قراؤه، وسوء الفهم الذي قد يتوصلون إليه حينما يعتمدون على قدراتهم العلمية والبلاغية لدراسته، دون سلوك طريق العبادة والطهارة وتنقية سريرتهم وعلانيتهم، مما يحول دون الوصول لإشراق قوى العقل الكامنة في الإنسان التي سيعرف بواسطتها نفسه وربه معرفة اليقين. لأن تكوين الإنسان هو المعلوم الأقرب والدليل الأعظم على الله، وابن عربي وأمثاله كتبوا كل كتبهم لمساعدة الناس على تحقيق هذه الغاية، تجسيداً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من عرف

نفسه عرف ربه"(18). لأن من عرف نفسه وربه، سيتصرف في حياته تصرف العبد المطيع لله عن معرفة ويقين، فلا يعدو مقامه، ولا يتجاوز حدوده، ويعطي لكل صورة في الوجود حقها الذي تستحقه، وإن كان في باطنه كالنحلة التي لا تأكل إلا طيباً، ولا تخرج إلا طيباً، كما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن.

إننا والحمد لله ونحن ندخل القرن الواحد والعشرين، وقد توصل الإنسان إلى ما توصل إليه من اكتشافات على الأرض وفي الفضاء، قد يكون آن الأوان للكشف عما يحمله الدين من معرفة تليق بأجيالنا المعاصرة التي لم يعد يكفيها منطق آمن ثم فكر، بل إنها تحتاج إلى المعرفة لكي توفق بين الدين والعلم. وقد جاء في القرآن: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يعلموا أنه الحق﴾**(19). إن آيات الله تتابع بدون توقف عن طريق العلم وجهود الإنسان المبذولة لاكتشاف الفضاء وسبر أغوار الأرض والتعرف على أسرار عالم النبات والحيوان، والمعجزة الكبرى الإنسان سر العالم وكنزه وغاية الغايات في الإبداع الإلهي، حيث خلقه على صورته وأعطاه الخلافة في الأرض ليكون المسؤول عن الأمانة الإلهية الموهوبة له عن جدارة واستحقاق لقدرته على أداء هذه الأمانة. ولكن قبل أن نخوض في فحوى هذه الأمانة لا بد أن نبدأ من معرفة الله الواهب، لكي نكون على مستوى المعرفة عندما نبلغ اليقين والطمأنينة إلى حقيقة هذه المعرفة ومغزاها. وإننا إذ نحاول فإننا سنتعرض لكل ما أثارته الأديان والفلسفات المثالية والمادية دون التعرض للتفاصيل التي لا ضرورة لها والتي لا تضيف جديداً إلى المعرفة التي نبحث عنها. إذ لا فائدة من استعراض الأسماء الكثيرة التي مرت في تاريخ الفلسفة أو استعراض الجدل الذي قام بين الفقهاء والفلاسفة المسلمين من شتى المذاهب ما دمنا نريد الوصول إلى الحقيقة عبر أقصر الطرق وأسهلها. وإنني أحب أن أشير إلى أنني لست من الذين يدعون الإبداع فيما أعرضه إنصافاً لنفسي ولغيري، وإنما أنا من المتتبعين لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما قرأته من الشروح التي قام بها عدد غفير من المسلمين لفحوى الرسالة وحقيقتها منذ بدايات الإسلام إلى عصرنا الحاضر. وأخص بالذكر لما كان له من تأثير علي فيما توصلت إليه وفهمته من أستاذي الروحي الشيخ محي الدين بن عربي الذي تعلمت منه كل ما استعصى علي من الأمور التي لم يتح لي استيعابها إلا بقراءة كتبه التي هي بحق كما فهمتها الشرح العبقري لكل ما جاء به

رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل لم يتح لي الاطلاع على مثيل له في كل الثقافات والشروح التي اطلعت عليها. وإنني إذ أعرض بعض ما شهدته في القرآن أو الحديث الشريف لا أدعي لنفسي سوى محاولة تجميع بعض ما رأيته في هذه الكتب وصياغته بأسلوبي الخاص، وإنني أتحمل لوحدي مسؤولية سوء الفهم أو أي أخطاء أو استنتاجات لا تتفق وجوهر المعرفة الإسلامية التي احتوت على إجابة عن كل التساؤلات التي نحن بصددها. فكل المسلمين في الحقيقة تلاميذ لأستاذ الأنبياء، فكيف إذا كنا تلاميذ التلاميذ. نسأل الله المغفرة والعفو وأن يجعل ما نقوم به من عمل لوجهه الكريم، فهجرتنا إليه وكلامنا إليهً. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قيل له إن البعض هاجر لامرأة يصيبها أو مال ينتفع به فقال صلى الله عليه وسلم: "كل لما هاجر له". وإذا كنا لا نملك إلا القليل من العلم، وهذا ما يشهد به العلماء رغم كل المحاولات المعرفية المبذولة. وقال الله: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾(20). وقال الخضر عليه السلام وهو الذي كلف بتعليم سيدنا موسى: "علمي من علم الله كطائر غط منقاره في بحر من الماء وخرج بقطرة واحدة". فإذا كانت هذه حدود المعرفة الإنسانية للكاملين فماذا نقول عن علومنا؟. ولكن ما لا يعرف كله لا يترك كله. فإننا لهذا آثرنا أن نطرح في هذا البحث ما تعلمناه وفهمناه مع عجزنا وضعفنا ونحن لا نملك إلا الإخلاص لله ولرسوله الأمين وللناس أجمعين من ذرية آدم.

■■■

■ مراجع المقدمة

1-كنز العمال- رقم13/36991.

2-ابن عربي- الفتوحات المكية ج8 ص259. "م" وهي إشارة إلى الطبعة المحققة.

3-محمد الرفاعي- قلادة الجواهر، ص163.

4-إنجيل متى- ص13.

5-سورة الشورى- الآية 29.

6-كنز العمال- رقم 10/29844.

7-محمد الرفاعي- قلادة الجواهر- ص163.

8-الرواس- المجموعة النادرة لأبناء الآخرة، ص40.

9-سورة ق- الآية 36.

10-ابن عربي- الفتوحات المكية، ج3 ص207.م

11-ابن عربي- الفتوحات المكية، ج4 ص2، الطبعة غير المحققة.

12-ابـــن عربي- الفتوحات المكية، ج4 ص71، الطبعة غير المحققة. وقد أشرنا إلى الطبعة المحققة بـــ م.

13-ابن عربي- الفتوحات المكية، ج4 ص401، الطبعة غير المحققة.

14-ابن عربي- الفتوحات المكية، ص212/ ج1م.

15-د.أبو العلا عفيفي- فصوص الحكم والتعليقات عليه- ص21.

16-المرجع السابق- ص9.

17-د.نصر حامد أبو زيد- فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي.

18-ابن عربي- الفتوحات المكية، ص286/ج1.م.

19-سورة فصلت الآية 53.

20-سورة الإسراء الآية 85.

■■■

الفصل الأول :

الإشراق بالعقل

وسيلة المعرفة

سنبدأ الحوار الذي نحن بصدده في البحث عن وسيلة المعرفة التي يقوم الإنسان بواسطتها في اكتشاف أسرار عالم المعرفة، أي معرفة كانت ومن أي مستوى. فما هي هذه الأداة وما هو مدى صلاحيتها في اكتشاف المجهول. وهل هذه الصلاحية مطلقة أم إنها صلاحية نسبية قابلة للصواب والخطأ. أعتقد بأننا لا نختلف بأن الأداة الوحيدة المتاح لنا استخدامها في معرفة الوجود هي الإنسان بكل ما يملك من قوى. وهذا الإنسان يجب أن يملك من الوسائل لإدراك الوجود المحيط ما يعادل الوجود المطلوب إدراكه وإلا فإن المحاولة لن تنجح. وكمثال على ذلك إذا كنت أريد أن أقوم بوزن ألف كيلوغرام من الحديد لا بد لي من ميزان مناسب للقيام بهذه العملية. ولكن إذا كان لدي ميزان لا يزن إلا عشر كيلوغرامات فإنني أستطيع أن أقوم بعملية الوزن على مراحل، كل مرحلة عشرة كيلوغرامات حتى أصل إلى الوزن الصحيح. وإنني أستطيع باستخدام المراحل أن أزن في هذا الميزان ملايين الأطنان، وأن أتحقق من صحة الوزن ما دامت كل العمليات التي أقوم بها صحيحة. والعقل في هذا الإطار هو ميزان وهو الميزان الوحيد المتاح والذي نحكم به على الحقائق. فالإنسان هو الوجود مختصراً. والعقل هو الإنسان مختصراً. وهكذا سيكون لدينا وجود غير معروف، يقابله في الطرف الآخر الإنسان الوجود مختصراً. وميزان حاكم بين المشهود والموجود، والشاهد الإنسان. هذا الميزان هو العقل، يحكم على الشاهد والمشهود، فهو كالمؤشر بين كفتي الميزان.

ولكن من أين لي الحق بالاطمئنان إلى صحة ما يشهده العقل. وقد أخطأ كثير من العقلاء والفلاسفة والعلماء، وما زالت الآراء تتناقض والأفكار تتصارع وكلها من إنتاج العقل وأحكامه؟ ومن أين جاء العقل ولماذا سأعطيه هذه الصفة والصلاحية في الحكم على الوجود؟ لهذا قد يكون علينا أن نعود إلى فهم حقيقة الإنسان. فالإنسان من حيث التركيب، وليس من حيث الخلق، فخلقه لله. هو من الطبيعة وهو من مادتها كما نشاهد من نموه بها وفناء عناصره فيها

عــند المــوت. والطبيعة هي الأم الحامل لأسرار الوجود وصوره، كما إن آدم يحمل ذرية كل أبناء آدم بالقوة لا بالفعل. والطبيعة لا تستطيع أن تظهر غير ما فيهــا، كمــا لا تستطيع أن تخفي ما فيها وإن خفي علينا. ولهذا إذا نظرنا إلى عوالــم النــبات والحيــوان من حيث الحقيقة سنجد كل هذه الكائنات مركبة من عناصر الطبيعة، والطبيعة تشبه إلى حد بعيد حروف اللغة. فكما تتألف الكلمات الــتي يــتحدث بهــا البشر ويبدعون من عدد من الحروف لا تتجاوز في لغتنا العــربية ثمانية وعشرين حرفاً. فكذلك الطبيعة تتألف من عناصر أو جواهر أو حــروف، وهــذه العناصــر هــي الــتي يتركب منها إبداع الطبيعة في النبات والحيــوان والإنسان في كل عصر ومرحلة من مراحل الزمان. وقد يكون من المناســب لتبســيط المســألة أن نقــول: إن حــروف الطبيعة التي اتفق عليها الأقدمون، وهي التراب والماء والنار والهواء، هي الحروف التي يكون الله منها ما يريد إظهاره في الوجود ويدفع به إلى الظهور. والوجود هو الوجود نفسه لا غيــره. الوجود الكامن في الكل. لهذا كان النبات في مرحلة هو الطور الأعلى لتعــبير الوجود عن نفسه. وفي مرحلة ثانية كان الحيوان أكثر كمالاً لأنه أكثر تعبيراً وأكثر تحرراً. كأن النبات هو طفل الطبيعة الذي لا يستطيع أن يبتعد عن ثدي أمه، بينما كان الحيوان هو مرحلة مراهقة الطبيعة وشبابها الذي أصبح فيه الطفــل يجــري على هواه، ولا يتعلق بثدي أمه طوال الوقت. ثم جاء الإنسان المنتصب على قدميه ليظهر ليس فقط حكمة الطبيعة وقوتها وجمالها بل عزتها وعظمــتها. فهــو صــورة التراب والماء والهواء والنار المتحولة إلى اعتزاز بوقوفه الوقور بين يدي الأبوين، الشمس والكواكب المرسلة بتأثيرها ودفئها إلى الأرض، والأم الحامــلة والمغذيــة والواهبة له الجسد من الأرض. ولهذا كان الإنسان بالحقيقة هو المرآة العاكسة لحروف الطبيعة كلها. فهو عندما ينظر إلى نفســه ويبصــر تركيــبه وتغذيته سيجد نفسه بأنه من هذا المزيج من عناصر الطــبيعة. وعــندما يــنظر إلى عقلــه سيدرك بأن هذا العقل النافذ في الصور والحــاكم عــلى الوجــود ليس غير هذا الوجود المركب من نفس العناصر وقد تجــلى في صورة جديدة هي صورة المعرفة التي ستنطق بفضل اللسان بتمجيد الوجــود فــي حروف اللغة المترجمة إلى كلمات في لوحة الحق الخالد، وهذا العقــل المؤشر بين كفتي الميزان، بين وجوده الفاني، والوجود الخالد، لغز من ألغاز الطبيعة المتمظهرة في صورة من الصور غير المادية، مثل الضوء الذي يــدرك أثره ومصدره ولا تعرف مادته. فهو نور الشمس الذي أشرق بالإنسان ليخــرق بــه حجــب ظلمة الكون، ويعرف أسرار الكهرباء والالكترون والذرة

ويطيّر الطائرات والمركبات الفضائية باستخدام قوانين الوجود المكنونة بالوجود والمضـــاءة بالمعـــرفة الإنسانية. ما أصغر حجم الإنسان بالقياس إلى الوجود. ولكنه مثل الساعة التي تقيس حركات الكواكب ودورانها بالثواني والدقائق وهو مخـــترع الساعة وفقاً لنظام الكون. إنه العقل المتجلي عن الكون ليشهد الكون. وهـــو بحجمـــه المادي لا يقاس بالكون ولكنه بحجمه المعنوي يتسع ليشمل كل الكـــون. لننظر إلى الخيال في الإنسان، هذه القدرة العجيبة. فلو قلنا للإنسان إن هـــناك مليار مليار مجموعة شمسية مثل مجموعتنا فإنه سيستوعب بسهولة هذه المســـاحة الشاســـعة لكون بمثل هذا الحجم بواسطة الخيال الذي سيمتد بشفافية ليبصـــر ويشـــهد صور الحياة في هذه الأكوان ويرسمها. **وهو ما هو الإنسان بالقيـــاس إلى حجمه؟** لهذا عندما نقول إن الإنسان هو مختصر الوجود وهبته، فهـــو أيضاً الصورة المقابلة له والعارفة به وبعظمته. ولا تُعرف عظمة العظيم إلا مـــن عظيـــم. كما لا يُقدر الحكمة إلا حكيم. لهذا يجب أن نطمئن إلى طبيعة العقـــل الإنساني وصدق أحكامه لأن الإنسان بما جُمع له في نشأته احتوى على كـــل عناصر الوجود. فهو من جهة الروح يحمل سر العقل وعظمته. وهو من ناحية الطبيعة يحمل كل عناصرها وما نشأ فيها. إذ فيه ما يشبه النبات في نموه كالشـــعر، وفيـــه ما يشبه غرائز الحيوان، بل إن فيه الأنهار التي تغذي جسمه، وجـــبال العظام التي تحفظ هيكله. فهو صورة الطبيعة ورمزها. ولهذا كما قال عـــلي رضـــي الله عنه: "أتحسب إنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر". والإنســـان وإن كـــان قطرة من بحر الطبيعة الصاخب بالحياة. فالقطرة هي كل البحر، ولهذا كان يحق للشاعر أن يقول: "أنا القطرة التي صارت بحراً".

ولكن لكي لا نختلف حول طبيعة العقل المطبوع بالطبيعة، وماهية هذا العقل العاكس للوجود، فإننا يجب أن نفرق بين أدوات العقل والعقل. فالعقل وإن كان يظل عقلاً بالأدوات نقصد السمع والبصر والشم والذوق واللمس والنطق المعبر عن كل هذه الأدوات ودون بعضها أو دونها كلها، إلا أنه بنقص إحدى هذه الأدوات سينقصه نوع من المعرفة. ولهذا طالبت الشريعة الإنسان الكامل بالكمال في أداء ما عليه وأنقصت عن الإنسان الناقص وخففت. فكان الحكم الشامل "إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب". فالأعمى منذ الولادة لا يستطيع أن يصف لنا الألوان، ولا يستطيع أن يخبرنا عما في أيدينا. والطفل المبصر لا يستطيع أن يفرق بين الماء والنار إلا بوسيلة أخرى تدخل في مجال حب البقاء وإن كان يملك عقلاً. فالعقل في مرحلة من العمر والخبرة وإن كان نفس عقل الشخص هو غير عقله في الطفولة. وعقل المريض وإن كان يمتلك كل الحواس

هو غير عقل السليم. وعقل العالم هو غير عقل الجاهل. لهذا يصبح لدينا مستويات من العقول. والعقول السليمة ترتكز إلى أدوات سليمة أي حواس سليمة. ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى خبرة الحواس دائماً. فالعاقل يستطيع أن يشهد الجمال وهو مغمض العينين. والخيال حصان العقل يستطيع أن يسافر إلى أي مكان في الكون بلحظات أسرع مما تفعله المركبات الفضائية. وفي العقل مخزون من المعارف المتوفرة منذ تكون الإنسان كبذرة في رحم الأم. وهذا ما يدعونا إلى القول بأن الإنسان الذي حمل العلوم كلها منذ ظهور الإنسان إلى آخر إنسان في الوجود هو آدم أبو البشر الذي كان يحمل كل العلوم بالقوة، ولكن الأبناء قاموا بإظهارها بالفعل. ولكن ما هو الدليل على هذا الكلام؟. إن كل قضية ستحملنا إلى الغوص أكثر فأكثر حتى نتوصل إلى الحقيقة. إن العقل كما قلنا له وجوده المستقل في الإنسان بوجود الحواس أو بدونها. ولكن العقل السليم هو في الجسم السليم. لأن الحواس هي شهود العقل. والعقل إذا نظرنا إليه من حيث طبيعته كما قلنا هو مختصر الإنسان. والأدوات، الحواس هي مختصرات أخرى لوجود الطبيعة. فالسمع هو عقل يعقل المسموعات والأصوات. والبصر هو عقل جزئي يبصر الصور. والشم هو عقل جزئي يشم الروائح ويحكم عليها. والتذوق هو عقل يحكم على ما في الطبيعة من حلو وحامض وغيره من المطاعم. واللمس هو عقل جزئي يحكم على النعومة والخشونة. والإحساس هو عقل جزئي نحكم به على الحرارة والبرودة. وحتى الغرائز هي عقول جزئية مبثوثة فينا للتعبير بلغة مادية عن حاجات الطبيعة، فبينما يهيم البصر بالجمال فيترجم العقل هذا الهيام إلى لغة جميلة وشعر وموسيقى فيأمر اللسان بترجمتها إلى حروف، فإن غريزة الجنس العاقلة تقوم بالطلب إلى العقول بترجمة لغته إلى فعل مادي للامتزاج بالآخر المحبوب حيث تعود الطبيعة إلى الامتزاج والتلاشي لتخلق من جديد في رحم الأم الأرض. كما إن جوع المعدة ينطق لدى العقل بحاجته إلى الطعام للحفاظ على توازن الجسم وبقائه. والأخبار والأحكام والطلبات تأتي إلى العقل من كل الجهات في الجسم. والعقل مصغ ملب لطلبات الجسم وحاكم على ما يريد وما لا يريد. فلو أن شوكة أصابت منطقة في الجسم، فإن هذه المنطقة ستئن بالشكوى إلى العقل فيأمر العقل اليد بالامتداد لنزع الشوكة. وهكذا فإننا لو نظرنا إلى تركيب الجسم الإنساني مع العقل لوجدنا بأن لدينا في كل ذرة من ذرات الجسم عقلاً جزئياً يدرك ما ينفعه وما يضره، وله لغته الخاصة مع عقل الإنسان الكلي الشامل والمتصل بكل ذرة في أنحاء الجسم. وهذا العقل الترجمان للطبيعة الإنسانية هو

حاكم على الجسم وخبير به. ولكنه غير حاكم على موجده، فموجده يحكم عليه في النهاية عبر رموز ومقدرات وأسباب نعي بعضها وبعضها لا نعيه، وربما لن نعيه، وإن كانت هذه الرموز موجودة في الجسم، ولكن العقل لم يتمكن من اكتشافها، أو حل رموزها. ما الذي يتكون لدينا من هذه الصورة التي نشهدها في الإنسان؟. إن العقل الإنساني يبدو كما لو إنه متربع على قمة مركز للاتصالات والأخبار تأتيه من كل جهة، والعقل ينظر إلى كل اتصال ويتفحصه ثم يرد عليه بما يناسبه. فالعقل يستفيد من الأخبار لمعرفة أحوال الجسم، والجسم يستفيد من العقل للقيام بتأمين احتياجات الجسم. وهكذا تتحقق المنفعة المتبادلة للطرفين بقدر ما يكون للعقل من سلطان على الجسم، وبقدر ما يكون للعقل من الحكمة في إقامة التوازن بين شتى حاجات الجسم. وهذا العقل الظاهر من الإنسان بالحقيقة ليس كل العقل. ويمكن أن نسمي هذا العقل بالعقل الحافظ للبقاء. وهذا العقل يرافق الإنسان منذ تخلقه في بطن الأم إلى نهاية الحياة. فالطفل المخلوق في بطن الأم يعرف كيف يأخذ حاجته من الغذاء وكفايته بدون زيادة أو نقصان لحفظ بقائه. كما يتبع هذه القواعد عندما يولد ويمد فمه إلى ثدي الأم فيأخذ من الحليب بقدر الحاجة لا أكثر ولا أقل من ذلك. كما تقوم المعدة والأجهزة الأخرى بالجسم بتصريف الزيادة وامتصاص ما تحتاجه من الغذاء مما يناسبها بعد أن يتحول هذا الطعام إلى دم وماء وأملاح مما نشهده يومياً في سلوك أجهزة الجسم. حيث تبدأ مهمتنا بتحضير الطعام وتنتهي بعد إدخال اللقمة إلى الفم ومضغها ودفعها إلى البلعوم، ثم تبدأ أجهزة الجسم بالعمل دون تدخلنا الإرادي لرعاية البدن والمحافظة على بقائه، بتوزيع الغذاء المناسب لقوانا المختلفة. وهذا ما يحدث أيضاً في الطبيعة في عالم النبات والحيوان. فكل عالم يكشف عن النظام الملائم لحفظ بقائه باستخدام الغذاء المناسب له من ناحية النوع والكم. ولكن عالم النبات كما قلنا إذا كان يشبه عالم الطفولة في الإنسان، حيث يعتمد على إلصاق جذوره في الأرض بشكل دائم كالطفل الذي لا يفارق أمه. والحيوان يمثل عالم المراهقة أو مرحلة ما بعد الفطام بابتعاده عن الأم وانفصاله عنها واستقلاله في اختيار أنواع طعامه والبحث عن هذا الطعام كلما احتاج إليه. إن هذه الحرية التي يتصرف بها الحيوان لحفظ بقائه في مختلف الظروف التي يتعرض لها هي التي تميزه عن النبات. وبهذا الظهور يُكشف أكثر فأكثر عن تجلي الطبيعة المذهل والمعقد في الصور المختلفة للحيوانات التي تعيش في الماء أو على سطح الأرض أو التي تطير في الهواء. فالطبيعة تتجلى هنا في ملايين الأنواع من الحيوانات كما تجلت بملايين الأنواع من

النبات. وفي كل تجل من هذه التجليات ينكشف لنا مستوى من مستويات العقل الذي نريد أن نطمئن إلى قدرته على المعرفة والاكتشاف والتمييز وإطلاق الأحكام. إن هذه العقول تجلت بحسب الصورة التي ظهرت فيها. فعقل الحمار غير عقل الذئب، وعقل شجرة التفاح غير عقل شجرة الياسمين، فالأولى تأخذ الغذاء من الأم الأرض والهواء والشمس فتحوله إلى تفاح لذيذ الطعم طيب المذاق، أما الثانية فتحول نفس هذا الغذاء وفق برنامجها الخاص إلى عطر طيب الرائحة يدغدغ المشاعر ويثير الشجون. فأين اللامعقول في وجود كل ما فيه يكشف عن العقول. عن ملايين العقول. فهل يا ترى تدور الأرض، وتطير الشمس والكواكب والأكوان كلها بدون عقول تدرك بها حدود مسارها، وتمضي بالصدفة وتعود بالصدفة؟. والنملة تتكلم بما فيها من الخبرة لتخزين الغذاء وقضم الرشيم من الحبوب التي تخزنها حتى لا تنبت وتفسد. والنحلة تفصح عن خبرتها في الهندسة ببناء الخلية وفقاً لأفضل الأساليب للحيلولة دون إبقاء أي فراغ في خليتها وتخبرك عن ذكائها في اختيار الرحيق اللذيذ الطعم الذي يعجز الإنسان عن جمعه وأنت تتهمها باللاعقلانية. وهذا وذاك وكل ما تراه من صور الوجود على الأرض وحتى نفسك وعقلك هو ابن لهذه الطبيعة المنسوجة من تراب الوجود، وخيوط الشمس التي تتلألأ في كل صباح لتبعث بالدفء والنور إلى الأرض الأم. وماء الحياة الذي يتدفق لإنماء الصور العطشى إلى الظهور عبر ملايين الأنواع من الأزهار والثمار والحيوانات. فإن كنت لا تعرف من أنت ومن أمك وأبوك فانظر إلى ذرية الأرض واسمع أصواتهم واشهد صورهم، وتذوق وتحسس، فإن عرفت من أنت ومن هم فاعرف حق أمك وأبيك. وإن لم تعرف فاسأل نفسك، واسأل سمعك واسأل بصرك. فإن علمت بأنك تسمع وتبصر وتعقل بأن كل ما في الوجود له عقل وسمع وبصر ونطق ولغة. فاعلم بأنك الجامع لخواصهم، وبأنك مختصر الوجود الحادث في الوجود. وبأن عقلك هو عقل الكل، وسمعك سمع الكل، وبصرك بصر الكل في عالمك المحدود ومجموعتك الشمسية. ولهذا سخرت لك المجموعة وكنت فيها السيد الذي لا ينازعه في سيادته منازع، لتعرف عظمتك بمعرفتك لعظمة من تنتمي إليه ومن أعطاك ما أعطاك. الواهب الذي أرادك لتكون له عنواناً ومظهراً فتعرف حقه بالقدر الذي وهبك من الحقوق والقدرات "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان". وأما العاق لوالديه والجاهل بهما فهو بنفسه أجهل وبحق أخوته من أبناء آدم أكثر جهلاً، وليس له إلا الطرد من حب من أحبه وأظهره وأعطاه. إن العقل الإنساني يشهد لنفسه وفي نفسه وفي الوجود مظاهر العقل المتنوعة

وتجليات العقول من الذرة إلى المجرة. وهو ابن الطبيعة المطبوعة والجوهرة المكنونة الخفية في قلب الوجود قبل أن تظهر. والظاهرة بأحكامها وجلالها وصورة حاملها بعد أن ظهرت. فهل هناك أي مجال للشك أو الإنكار لمعرفة العقل وقدرة العقل وسلطانه. ولكن لماذا يخطئ العقل الإنساني؟. ومع ذلك فإننا يجب أن ننبه إلى أن هذه القوى التي سميناها عقولاً جزئية تجاوزاً، ليست في الواقع إلا آلات تعمل وفق نظام محدد لا تستطيع أن تتجاوزه. ولكن بما أن عمل كل ذرة في الكون، ما هو إلا تجل للنظام السائد، وصورة من إبداعات العقل المهيمن على الوجود. لذا سمينا ما نراه من نظام وإبداع من حيث هو مرآة للعقل الشامل عقلاً جزئياً. وهذا يعود لرؤيتنا للمسبب وليس للأسباب. وأما إذا أردنا أن ننظر إلى الأجزاء، الصورة، في حركتها المستقلة عن الكون، من الطبيعي أن نشاهدها كآلات في النظام السائد. ولا يصح عندها أن نسمي استجابات الحواس أو الأنظمة السائدة في الكون عقولاً. لأن من أبسط مزايا العقل الإبداع. وعند هذا النظر، أي الأسباب، تصبح فعاليات الكون كله آلات في مسيرة الوجود المطلق، لتحقيق تجليات العقل الإلهي وإرادته. وسوف تتضح هذه المسألة في الفصول القادمة.

أخطاء العقل

إن الجسم الإنساني بشكل عام هو تركيب من كافة عناصر الطبيعة، ولنقل اختصاراً الماء والهواء والنار والتراب. وهذا التركيب يجعله في وضع يحن فيه إلى أصـوله الماديـة والـروحية، إلى أمه الطبيعة وأبيه العقل. ولهذا فإنه في المرحـلة الأولى مـن حياته يعيش مع أمه لا يكاد يفارقها، فهو ينشغل بغرائزه ولا يبصـر مـن العقل إلا وميضه، ولا يبصر من هذا الوميض إلا عقل حب الـبقاء. فهو يعقل ما يحفظ له حياته ويسعى لهذا الحفظ. ثم في المرحلة الأعلى حينما ينمو العقل ويقوى ويبدأ بالتفكير المجرد يبدأ الصراع بين الميل إلى الأب والاسـتمرار في العيش بأحضان الأم. والأب لا يطلب من الإنسان في مرحلة الشـباب الانقطـاع عـن أمه وإنما التفكير في أبيه والتعلم منه والالتفات إليه للوصـول إلى مرحلة الرجولة. يطلب منه أن يتعلم كيف ينظم غرائزه المنتمية إلى الطـبيعة. غريزة الجوع ومن ثم الجنس. وأن يصغي إلى غرائزه المنتمية إلى عـالم العقل والتي تتغذى بالأمور المعنوية حيث يتغذى السمع بالمسموعات

والبصر بالمشاهدات والشم بالمشمومات واللسان بالنطق للتعبير عما يسمع ويشهد ويتذوق. وهذه القوى الفاعلة في الإنسان تشترك جميعها في كل مراحل العمر بالتأثير على الإنسان. ولكن معرفة الحقائق تتعلق بنمو بعض القوى وضعف بعضها. فمن تشغله هموم المعدة، ويكون همه بطنه لا يمكن أن تنمو لديه القوى الأخرى وسيظل قريباً من الطبيعة، وستضعف لديه القوى العقلية. وأما من تشغله غرائزه الجنسية فإن هذه الغريزة بما لها من قوة وفاعلية ستضعف القوى الأخرى بشكل قد يعطلها عن العمل وقد يحطمها إذا وصل هذا الانشغال إلى حد الهوس بالجنس. أما إذا كان الانشغال بالقوتين المذكورتين، غريزة المعدة والجنس، فإن الإنسان في هذه الحالة لن يكون أفضل من الدواب، وقد يكون أضل سبيلاً، لأنه لم يأخذ من نور العقل ما يساعده في الترقي عن مستوى الدواب. أما إذا ارتقى بإحساسه إلى قواه الأقرب، إلى شفافية العقل فسمع الحكمة وأبصر جمال الوجود فإنه لا بد أن يرتقي إلى رؤية بعض الحقائق أو تذوقها. وعند ذلك يبدأ في الصعود على أول درجات إنسانيته. وبقدر انشغاله بالترقي عبر إحدى هذه القوى فإنه سيستخرج من ذاته كنزه الدفين فيه إما شعراً أو بلاغة أو موسيقى إن كان من الذين يهتمون بالمسموعات، أو تصويراً أو رسماً إن كان من الذين يهتمون بالمرئيات. إذ إن كل قوة ستفيض بما فيها من العلوم على قدر عناية صاحبها بها. أما الحكيم فإنه ذاك الذي يستخدم كل القوى التي لديه ويحيلها إلى العقل ليستخرج من خزانة العقل ما لم يتوصل إليه غيره فيكون سابقاً غير مسبوق، ومبدعاً لا مقلداً. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الحدس أو الكشف. وهذا الموضوع سنتحدث عنه في المواضيع القادمة لأننا الآن بصدد مشكلة بحث أخطاء العقل. إن العقل الإنساني، كما استنتجنا، قادر على اكتشاف الحقائق. وبقدر صفاء كل عقل فإن بعض الحقائق ستشرق لصاحبه بإمداد ذاكرة العقل المهيأة للمعرفة. وبهذه القوة الكامنة سيكتشف المكتشف قوانين الوجود أو المعارف الجديدة التي لم يسبق إليها لينال قصب السبق. ولكن العقل المشغول بالترهات لن يأتي بغير الترهات.

وكمثال على عجز عقولنا عن إدراك كل ما يأتي من عالم الحواس الأقرب إلينا وأسباب هذا العجز، نقول: إننا لو كنا مجموعة، نجلس في مكان ما، وأمامنا التلفزيون، ونحن ننظر إليه ونتحدث بأمور تهمنا غير مبالين بما يعرضه التلفزيون ومر خبر ما، فإن أحدنا قد يلتقط من هذا الخبر اسم دولة ما يهمه أمرها فيتساءل ماذا قالوا عنها. وربما سيجيب الجميع لم ننتبه، مع أن التلفزيون يعرض الصور، والمذيع يتكلم ونحن نسمع ونبصر، ومع ذلك فإن

الخبر قد فاتنا، وهذا أمر طبيعي وكثيراً ما يحدث معنا. ولهذا كانت قدراتنا على ضبط الواردات إلى عالم الحواس أصعب بكثير في حالة اليقظة منها في النوم لأننا في النوم إذا لم نكن منشغلين بالهواجس والمشاكل تكون قوانا في حالة ارتياح مما يساعد العقل على النشاط، والخيال على الانطلاق فيأتي بالعلوم والأخبار لسبب سنذكره في الصفحات القادمة. هذا الذي يحدث في النوم يمكن أن يحدث إرادياً في حالة اليقظة. فالعالم الذي يريد أن يكتشف اكتشافاً ما لا بد له من التأمل والتأمل الطويل لكي يتهيأ العقل للانطلاق إلى الحقيقة والقبض عليها. وإن حادثة اكتشاف نيوتن مثلاً لقانون الجاذبية من سقوط التفاحة لم يكن بسبب سقوط التفاحة بالفعل، وإنما كانت لحظة سقوط التفاحة هي لحظة الانكشاف التي سبقها تأمل طويل جداً، حتى إن نيوتن كان في تلك اللحظة لا يفكر وهو في نزهته بالطبيعة، وإنما بالقانون أو بسر سقوط الأجسام إلى الأسفل. وكان قد توصل بخياله إلى إدراك بعض جوانب هذا القانون، ولكنه كان يحتاج إلى دليل علمي لتفسير هذا القانون، فكانت لحظة سقوط التفاحة هي لحظة تجلي البرهان لما التقطه العقل من قبل من عالم الحقائق المنثورة في جوهر العقل. والحقائق لكي تظهر تحتاج إلى أذن تسمعها وعين تشهدها لكي يكتمل البرهان. ولهذا نطق نيوتن بكلمته المشهورة وجدتها وجدتها. وعاد إلى مكتبه ليسجل ما اكتشفه بعد بحث طويل، وصبر جميل. وهكذا تتم الإكتشافات. تبرز الفكرة في العقل، ثم تنمو، ثم تتطور على الورق أو في المخابر أو على الطبيعة، ثم تظهر ويصبح بعض الخيال حقيقة وبعضه عدماً إن كان من عالم التخيل. ونقصد بالعدم ما لا وجود له. من هنا تأتي أخطاء العقل أحياناً فيصيب بعض العلماء ويخطئ بعضهم. لأن بعضهم استطاع أن يوجه كل قواه إلى الأمر المبحوث، وبعضهم عجز عن تركيز هذه القوى بسبب انشغاله في أمور أخرى مما حال بينه وبين الاكتشاف، أو وصل إلى حدود معينة من الاكتشاف. وكمثال على ذلك إننا نستطيع أن نحرق ورقة بتركيز حزمة من أشعة الشمس في عدسة خلال دقائق، بينما لا تحترق الورقة بدون هذا التركيز ولو عرضناها لأشعة الشمس عشرات السنين. وهكذا يحتاج كل من يشتغل في مجالات الإبداع والاكتشاف إلى تركيز قواه العقلية حتى يحصل على المطلوب. وبدون هذا التركيز ستكون محاولاته عبثاً تذروه الرياح. ولكن من أين تأتي العلوم وتتطور ومن أين يظهر الإبداع؟ هل يظهر من العقل أم من خارج العقل، أي من الوجود؟.

مصادر المعرفة الإنسانية

لقد استنتجنا إن الإنسان هو مختصر الوجود. وبما أن هذا المختصر بالنسبة إلى الوجود هو مثل قطرة البحر من البحر لهذا فإنه يحتوي على كل أسرار الوجود، كما تحتوي القطرة على أسرار البحر، وهذه الأسرار الكامنة فيه تتعلق بنوعين من العلوم. فهناك قوانين أزلية للوجود وهذه القوانين كامنة في الإنسان وتتجلى لعقله عندما يبحث عنها. وهناك حوادث في الوجود لا اطلاع للإنسان عليها إلا لمن شاء الله **﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾**(1). وعلم الله يشمل العلم بالوجود وما فيه والعلم بالحوادث، أي العلمين اللذين نبحث فيهما. وقد يتاح لبعض الناس الاطلاع على القوانين الأزلية ولبعضهم الاطلاع على بعض الحوادث الكونية في اليقظة أو في الرؤيا. ولكننا في إطار بحثنا في هذين العلمين نقول إن الإنسان يحمل في تكوينه نفس القوانين الأزلية السارية في الوجود بينما لا يطلع على عالم الحوادث إلا من شاء الله. ولهذا فإننا إذا أردنا أن نصف المعرفة الإنسانية العلمية الإبداعية بأنها فيض من فيوضات العقل تتحقق بالتجربة عبر رحلة الخيال للمقارنة بين ما تحتويه الذات العارفة العالمة والموضوع المبحوث فإننا لا نعدو الحقيقة. ولدينا أكثر من دليل على هذه الحقيقة. لنأخذ مثلاً بذرة التفاح، إنها بذرة صغيرة وفي هذه البذرة سر الشجرة ونظامها وثمرها.. ولا تختلف أي بذرة عما نشهده في بذرة التفاح. إن البذرة لا تستفيد من الطبيعة عندما نغرسها في التراب إلا العون لإظهار ما فيها. فالطبيعة تقوم بدور المساعد فقط للكشف عن محتوى البذرة. ولو كان للطبيعة تأثير على البذرة لكان بالإمكان مثلاً ظهور الورد من شجر التفاح أو ظهور الرمان أو غيره من الثمار. ولكن الحقيقة التي نشهدها هي أن البذرة لا تنبت إلا نوعها ولا تثمر إلا بأصلها وماضيها. ولهذا فهي منذ ظهرت لها مواصفات لا تتغير، وعندما تتغير هذه المواصفات لا تعود نفس الثمرة التي نعرفها. ولهذا فإننا لا نشاهد في كل ما يجري في الطبيعة تطوراً للطبيعة، بل نشاهد أزليتها التي تظهر عبر الأزمان وهذا يدحض قانون الارتقاء الذي تحدث عنه داروين في أصل الأنواع. لأن حديث داروين عن نظرية الارتقاء وبقاء الأقوى تدحضه الحياة نفسها. كما يدحضه تنوع الوجود. وإن كنا قد نجد العذر لداروين لخلطه بين تسلسل ظهورات الوجود ووصف هذا الظهور بالتطور. إذ لولا تنوع الوجود في الأزل لما ظهر تنوع الوجود في الزمان. فالفيض الإلهي هو دائماً من جنس المفاض عنه. وكما أننا لا نستطيع أن نشكل من حرف واحد

فـــي الـــلغة إلا حرفاً واحداً وبذلك نلغي كل الكلام. كذلك فإن الوجود انبثق من الـــتركيب. وحتى العناصر الأربعة هي طبيعة مركبة، أي التراب والماء والنار والهـــواء. إن الارتقـــاء الذي نراه هو تتابع ظهورات الوجود الكامنة أزلاً عبر الزمان لغايات يعلمها الله. فهو الله الذي ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكـــتاب**﴾(2). وإلا لـــو أخذنا بنظرية داروين في ارتقاء الإنسان من القرد، والقـــرد من الحيوان، والحيوان من النبات، والنبات من الطبيعة، فإننا سنضطر إلى القـــبول بوجود عنصر واحد في الطبيعة ارتقت عنه جميع الموجودات في مـــراحل مختـــلفة، وإلى الاعـــتراف بقدرة الطبيعة على التطور ذاتياً. وهذا ما يتـــناقض مع ما نشهده من تنوع في الطبيعة، وفيما توصلت إليه العلوم حيث لا يوجـــد إلا الـــتركيب. البروتون والفوتون، والكهارب السالبة والموجبة حتى في أدق الـــذرات الـــتي توصل الإنسان إلى الكشف عن بعض مواصفاتها. إن هذا الـــتركيب الـــذي صـــدر عنه الوجود الحادث سببه التنوع في الوجود الأزلي. ونقصـــد بالوجود العقل والطبيعة، فالوجود قديم والعالم محدث. ولكننا نعود إلى متابعة البحث في مصدر المعرفة الإنسانية، وما نشهده من إفاضة كل بذرة لما فيهـــا. فالطبيعة تقوم بدور الحاضن. إنها تغذي البذرة بالماء والآزوت والسكر وغيـــره ممـــا يحتوي عليه التراب. ويقوم الهواء بتقديم ما تحتاجه من عناصر الحيـــاة. وتقوم الشمس بتقديم الدفء المناسب. وهكذا تتآزر آباؤنا العلويات في الســـماء، وأمهاتـــنا السفليات في الأرض، لمساعدة البذرة على النمو والتطور وإظهار ما في البذرة من الأسرار والألغاز وفق برنامج البذرة. فالشجرة تكشف عـــن الخضـــرة والجمـــال، والأزهـــار تكشف عن الروائح الطيبة التي يحبها الإنســـان. والـــثمار تكشف عن ألوان العناصر الأربعة وطعمها بشكل لا نعرفه من نظرتنا أو تذوقنا لهذه العناصر فيما لو حاولنا. ومن يطيق أن يذوق التراب أو الـــنار أو يعـــرف طعم الهواء أو الماء اللذين لا طعم لهما؟. فالبذرة هي أداة مـــن أدوات الطـــبيعة تقـــوم بالكشف عما فيها من الأسرار. وقد يكون بإمكان الإنســـان فيمـــا لـــو اكتشف برنامج بذرة التفاح أن يقوم بإنتاج التفاح في معمل عناصـــره التراب والماء والنار والهواء. فالبذرة هي أداة لإظهار بعض ما في الطـــبيعة من أسرار. وكل بذرة تقوم وفقاً لبرنامجها الخاص بهذه المهمة بجمع حـــروف الطـــبيعة لإظهار الكلمات، تفاح، ورد. لأن الطبيعة بشكلها الخام مثل حـــروف الـــلغة لا تظهر الكلمات. ولا بد من جمع هذه الحروف لتصبح كلمة، والكلمة الطيبة تظهر الطيب، والكلمة الخبيثة تكشف عن الخبيث. فالشجرة كلمة والطـــبيعة حـــروف. وإن كـــان لكل مخلوق ما يناسبه من الكمال. فإننا عندما

نـتحدث عن الكمال المحدود، نقصد به الكمال اللائق بالمخلوق وليس بالوجود، لأن كـل ما بالوجود يفيض بالكمال، وإن كان الوجود قد سخر للإنسان بحكمة الخـالق لا بحكمة المخلوق الإنسان. فصوت الحمار منكر بالنسبة للإنسان وقد قال الله: ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾(3). وإذا أردنا ظاهر الكلام، دون أن نـتعرض للـناس الذين لا ينتفعون من العلم الذي يحملونه، فإن صوت الحمار مزعج من حيث المقاييس الموسيقية الإنسانية، ولكن هذا الصوت بالنسبة لأنـثى الحمار لا شك بأنه من أجمل الأصوات. وهذا مثال على الاختلاف بين مقـاييس المخلوقات، حيث لكل وجود كماله في مظاهر الوجود، بينما لا يدرك هـذا الكمـال إلا قلة من الناس. والحكمة لا تتجلى في المسموعات فقط، ففائدة الحمار تفوق إزعاج صوته، وصوت الحمار لإنسان فقد حماره ثم عرف مكانه مـن نهيقـه هو صوت جميل. وهكذا فإن كمالات الوجود لا يمكن رؤيتها كلها وإن عجـزنا عـن فهمها في بعض الأحيان. ولهذا قيل: "مصائب قوم عند قوم فوائـد". فمـا من ضرر عند قوم إلا وينتفع به آخرون. وهذا من حقيقة كمال الوجـود. ومـن كمال الوجود هذا التنوع الذي نشهده في جمال الطبيعة، حيث تقـوم كل بذرة بصب الطبيعة في قالبها الخاص من حيث الشكل واللون والطعم والـرائحة والمـلمس. والإنسان الذي يقوم بإنتاج المعرفة لا يأخذ من الطبيعة المعـرفة الـتي تجلت فيه منذ خلقه الله، وإنما يأخذها من ذاته المبدعة العالمة. فالعلم الكوني مكنون فيه. والتجريب في المخابر تسبقه الفكرة. والتجريب يعطي الـبرهان ويؤكـد الفكـرة الهائمة في زوايا العقل. وكما إن البذرة لا تأخذ من الطبيعة إلا العناصر التي تساعدها على إظهار المكنون في برنامجها المعرفي. فـإن العقل الإنساني لا يأخذ من الخارج علومه المكنونة في ذاته، إنه يأخذ من الطـبيعة فقـط الغـذاء الملائـم لإظهار ما في ذاته مما حباه به الوجود أزلاً مـنذ صـار من ذرية آدم حيث علم الله آدم الأسماء كلها ﴿ **وعلم آدم الأسماء كـلها**﴾(4). فالإنسـان يقـوم بدور المفيض لما تعلم، وما كل ما تعلمه الإنسان يسـتطيع أن يفيضـه. فكـثيراً مـا ينسـى أقرب الدروس إليه، وحتى أسماء الأصـدقاء، فكيـف سيتذكر كل ما يعرفه ومشاغل الحياة ومشاكلها تنسيه حتى نفسـه؟. ولكنـنا لـو تتبعنا علوم الإنسان واكتشافاته التي ظهرت بتأن عقلاني سـنعرف كيف استخرج الإنسان هذه العلوم من ذاته وليس من شيء آخر غير ذاته. فعلم الطيران بدأ يلوح للإنسان تشبهاً بالطائر. ولنقل أن عباس بن فرناس كمـا يقولون قد حاول وفشل، ثم جاء كتاب وتخيلوا الإنسان وهو يطير بوسائط معينة، ثم اكتشف المحرك البخاري وجاءت السيارة ثم الطائرة ومن ثم المراكب

الفضـــائية. فمــن أين جاءت هذه العلوم للإنسان؟. إننا لو تتبعنا هذه المحاولات فإنـــنا ســنجد بــأن كل عالم اكتشف جزءاً من المعلومات، وهذا المكتشف كان الأول في اكتشافه من أبناء آدم، واكتشافه كان من ذاته وليس على مثال سابق. ثم جاء آخر وأضاف شيئاً جديداً وهكذا جاءت كل الاكتشافات في كل العلوم من ذات الإنســان وليــس من علم تعلمه من غيره. ولو استند العلم على المعلومات الإنسانية المعروفة سابقاً لما خرج الإنسان من العصر الحجري، ولهذا يصح أن نقــول إن إنسان العصر الحجري هو نفسه إنسان القرن العشرين، مع فارق أن إنســان عصرنا الحالي قد استخرج بعض ما في ذاته من العلوم المكنونة أكثر ممــا فعله إنسان العصر الحجري. إن الفارق هو في استخدام طاقة العقل أكثر مــن الســابق. وإلا لــو كــانت الطبيعة هي التي تنكشف أو تكشف عن نفسها بوضعها الراهن الخام لكانت معرفة الأوائل لا تختلف عن معرفة الأواخر. ولو كــان الغذاء سبباً فإنه سيتاح لكل الناس أن يصبحوا علماء بوصف الأنواع التي يأكلها العلماء بدلاً من الدراسة وإرهاق العيون بما هو أسهل للإنسان. لهذا لا بد من سر وراء عملية الاكتشاف والاختراع. هذا السر يكمن في اجتهاد العالم. في تركيــز قواه لاستخراج ما في عقله للإجابة على السؤال الذي يبحث عن جواب عليه وليس لاختراعه. فالوجود ينهل من الوجود وكل ما في الوجود مختبئ في الوجــود، والجــواب في العقل الذي يشع بحقائق الوجود تصوراً وفكرة وعلماً، والحدس هو هذا الوميض الذي يلتقط صورة الحقيقة في لحظة عندما يشع النور الخــاطف مثل برق في سماء العقل فيكشف العلم والنظام ويصرخ وجدتها كما فعــل نيوتــن عند سقوط التفاحة. إنه يحتاج إلى نوع من العبادة، من التصوف لإدراك الحقيقـــة، وبــدون هذه العبادة والتصوف وترك ما في العالم والانشغال بالــبحث عن الجواب لكل سؤال غامض لا تظهر الحقيقة لصاحبها وإن قضى ملايين السنين في التفكر فيها بين حين وآخر. لقد قال الجاهليون عن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم قبل أن يأتيه الوحي لأنه كان يذهب أياماً وأسابيع ويجلس في غار حراء يتعبد ربه ثم يعود إلى بيته كلما نفذ زاده ليتزود بما يحتاجه ويطمئن عــلى أسرته، قالوا عنه" محمد عشق ربه" وقد وصف القرآن حب الذين آمنوا لله قياســاً إلى الأنداد، أوثان الدنيا وشهواتها فقال:**﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنــداداً، يحــبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾**(5). بهذا الحب أعطاه الرب الجواب على حقيقة ما كان يسأل عنه. ولا بد لكل عابد من مثل هذا العشق الصافي الذي لا تكدره الحوادث حتى يتمكن من الاكتشاف. فالمعرفة كامنة في خزائن العقل. والكون هو حقل التجريب للتأكد من صحة المعرفة.

إن العـــالم قد يصل إلى معرفة قاصرة غير كاملة لأنه لم يتابع البحث عن الحقيقـــة واكـــتفى بأول وميض ظهر له فظن بأن ما شهده هو الحقيقة الكاملة، فأخطـــأ وقـــاد الناس إلى الخطأ. ولهذا عبد بعض الناس الكواكب لأنهم شاهدوا تأثيرها وعلم علماؤهم بهذا التأثير فقادوهم إلى عبادتها. وهذا التأثير حق ولكنه ليـــس كـــل الحـــق. وبعضهم عبد الشمس والقمر لنفس الأسباب. وفي نظريات الماديين القدماء والمحدثين من الماركسيين شهدوا تأثير الطبيعة وقالوا بخلودها. وهـــذا كلام صحيح، إلا أنهم توقفوا عند هذا المستوى من العلم فضلوا وأضلوا ودعـــوا إلى الإلحـــاد. مـــع أنهم لو سألوا أنفسهم كيف يصدر عن غير العاقل العقـــل؟. كيـــف يعطي من لا يملك العقل عقلاً للإنسان؟. والحكمة تقول: "فاقد الشـــيء لا يعطيـــه" لعرفوا أكثر عن أسرار الطبيعة. وعرفوا بأن سر الألوهية سار في كل أنحاء الوجود وهو الأول والآخر والظاهر والباطن. وقد قال الإمام الغـــزالي محتجاً على دعاويهم ومفنداً لها: "الطبيعة ما معناها فلا تخلو أن تكون جمـــاداً أو حياً. فإن كان جماداً كان القول فيه- الجماد لا يوصف بالفاعل- وإن كـــان حيـــاً قلنا هذا الحي لا يخلو أن يكون له فاعل أو لا فاعل له. فإن قيل له فـــاعل آخـــر فالطبيعة كآدم في افتقارها إلى محدث. وإن كانت الطبيعة حية لا فـــاعل لها ولا علة فهي الإله فأسقطوا لفظة الطبيعة وقولوا إله. فهو الذي نريد بيانه، فإن حوادث لا أولية لها محال إلا إذا قلنا فعلت الطبيعة طبيعة فذلك منتف فـــلا بد من استناد الحوادث إلى مبدأ لا علة له وليس بمعلول أصلاً"(6). ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما آذاه قومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله قـــال: "الـــلهم اغفـــر لقومي فإنهم لا يعلمون"(7). بعلمه وحلمه عرف بأنهم لن يؤمنوا حتى يعلموا بالحقيقة التي يجهلونها، ولكن بعض الناس لا تفيدهم الحقيقة حـــتى لـــو عرفوا لأن ظنونهم تفسد هذه المعرفة، وبعض الناس لا يخافون من العقـــاب الـــذي تفرضـــه قوانين الدول ويرتكبون الجرائم مع أنهم يعرفون هذه القوانيـــن. وهـــؤلاء كيف يخافون من العقاب الإلهي المؤجل إذا كان لا يخيفهم العقـــاب المعجـــل؟. ربما لأنهم يظنون بأنهم ناجون من العذاب. وربما لأنهم لا يعـــتقدون بـــالمؤجل وإن ظنوا، ولو عرفوا الحقيقة لما أقدموا على قتل نملة لا تتعرض لهم بالإيذاء. إن العلم المكنون في الصدور لا يظهر إلا للعلماء الأتقياء الذيـــن لا تشـــغلهم الدنيا عن علمهم والإجابة عن أسئلة عصرهم. ولسنا نقصد بالتقوى التقوى الدينية فقط. إذ أن رجل العلم حيثما كان ومهما كان معتقده لا بد لـــه من تركيز قواه على المسائل التي يبحث عنها للوصول إلى المعرفة الكامنة فـــي عقله، وهذا هو النور الإلهي المقصود المعطى لذرية آدم، والذي على كل

إنسان أن يبحث عنه لينهل منه. وما كشف هو مساعد ودليل لما لم يكشف عنه. ولهـذا عـلى الإنسان بسبب عمره القصير أن يبدأ بالتعلم من حيث وصل العلم لمتابعة الطريق إذا كان قد هيأ قواه ليكون من العلماء. والعلم هو تذكر كما قال أفلاطـون. هـو تذكـر لما في العقل وكشف عنه وصياغة له بلغة العالم. إن العـلماء الذيـن طيـروا المركبات الفضائية اكتشفوا قوانين الفضاء. وقبل أن يرسـلوا المركـبات الفضائية أرسلوا خيالهم إلى هناك وسهروا الليالي وفكروا وناقشـوا مـا توصلوا إليه ثم قاموا بإطلاق مركباتهم. وهذه المركبات الشبيهة حركتها بحركة الكواكب رغم أنها معجزة من معجزات العقل الإنساني، إلا أننا إذا نظـرنا إليها في ضوء مجموعتنا الطائرة والكون الطائر والذرة التي تتحرك فـي أفلاكها، فإن معجزتنا الإنسانية لا تعادل اختراع بعوضة طائرة. ومع ذلك فإننا يجب أن نفخر بمنجزات الإنسان ولما حباه الله به من النعم حيث بتنا نرى ونشـهد بعض الآيات في أنفسنا وفي الآفاق كما قال الله:﴿ **سنريهم آياتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ (8). إننا بهذا البحث نكون قد توصلنا إلى مصدر المعرفة الإنسـانية المتعـلقة بقوانيـن الوجـود ونظامـه الأزلي والإبداع الإنساني أو الاكتشاف. أما المعرفة بحوادث الوجود فليست من هذا الباب.

المعرفة الإنسانية بحوادث الوجود

إن المعـرفة الإنسانية كما رأينا، الكامنة في الوجود، كامنة في العقل. أما الحـوادث التي لا تخضع لنفس القوانين، الحوادث المتعلقة بالمشيئة الإلهية فهي وإن كانت تحدث بالأسباب إذ لا حدوث لشيء بلا أسباب وهذا قانون شامل لكل الوجـود. وقد نص القرآن على أن الله جعل سبب الحياة الماء فقال: ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾(1). فإن الإنسان لا يستطيع أن يحيط بكل الأسباب لأن الأسـباب لا تتـناهى وإن تناهت نظرياً. ولهذا فإن علمه بالأسباب هو علم محـدود لا يتجاوز الأسباب الفاعلة المباشرة على وجه الاحتمال لا اليقين. فإننا قد نتنبأ بالطقس والأحوال الجوية إلا أن هذا التنبؤ يظل من نوع الاحتمال قياساً إلى معارفـنا الحاليـة. ولكن قد تتوصل معارفنا العلمية للإحاطة بكل الأسباب المباشـرة وعـندها قـد تبـلغ نبوءاتنا الجوية مستوى اليقين فيصبح المجهول معـلوماً، والاحـتمال يقيناً. ولكننا لا نعرف على وجه اليقين حدود العلوم التي

في آدم لنقول هذا النوع من العلم مما لا يحاط به وهذا مما يحاط به. ويجب ألا ندعـــي بما لا نعلم وإن كنا نظن بأن ادعاءاتنا تخدم قضية الإيمان، لأن الله كما قـــال عـــن نفسه: ﴿ **إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيٌّ حميـــد** ﴾ (2). وقـــال: ﴿**مـــن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العـــالمين"3**. وقال: "**لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً**﴾(4). وقـــال: ﴿ **لـــو شـــاء ربك لجعل الناس أمة واحدة**﴾ (5). ولو شاء لأظهر معجزة تذهل العقول في كل الأزمنة وتدفعهم للإيمان. ولكنه أراد الامتحان بعد أن زودنا بالعقل ميزان الحق. فقال: ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شـــيء قديـــر. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيـــز الغفـــور**﴾ (6). وهـــو الذي قال: ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشـــاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفـــوراً**﴾ (7). "**ألـــم نجعـــل لـــــه عيـــنين ولســـاناً وشفتين وهديناه الـــنجدين**﴾ (8). أي سهلنا له الطريقين ليختار بينهما ويسير على أحدهما، إن الله غني عنا وعن علومنا، لهذا يجب ألا ندعي بعلم ما لا نعلم حتى نكون على يقيـــن بما نتكلم فننال بصدقنا الأجر إذا أخطأنا. ولهذا فإننا نقول بأننا لا نستطيع أن نعـــلم الحـــوادث الكونيـــة التي سترها الله عن العباد وإن كنا نقول بأن العلم بالأسباب يتيح لنا معرفة النتائج. فنحن نعلم بأن قلب الإنسان إذا توقف ستحدث الوفاة ولكن متى سيتوقف قلب هذا الإنسان أو ذاك لا نعلمه. وقد قال الله عما لا نعلمه: ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وماتدري نفس بأي أرض تموت**﴾(9). وقال أيضاً: ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**﴾(10) وهو الذي علم آدم الأسماء كلها كما قال. ولكن إظهار علم آدم لا يحـــدث إلا بإذنـــه. وقـــد حدثـــنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن علامات الســـاعة، ونحـــن نشـــهد بعض هذه العلامات أمامنا الآن. فمن أين جاءت هذه العلوم عن المحدثات. وقد نرى رؤيا عن إنسان ما فتتحقق، فمن أين جاءت هذه الـــرؤيا وهـــذا العـــلم. إذا بحثنا عن السر فيجب أن نعود إلى عالم الخيال في الإنســـان. حيث يستطيع الإنسان أن يرسل خياله ليطوف في العوالم. فإذا كانت الـــنفس صافية طاهرة غير ملوثة بالرذائل فإن صاحبها قد يشهد بعض الحقائق الـــنازلة من الأمر الإلهي إلى الأسباب التي ستحدث هذا الأمر ولهذا فإنه يصبح مـــن الذين أحاطوا ببعض علم الله بإذنه، ولهذا قيل- كل معجزة لنبي يمكن أن

تكــون كــرامة لولـــي- والولي هو الذي يوالي الله في كل ما أمر. ولكن حتى ظهــور مثل هذه الكرامات من بعض الناس يجب أن لا تخدعنا لأن بعض من توصل إلى هذا النوع من العلوم قد يضل. وبعض هذه العلوم يشبه علم من تعلم الطـــب فإنــــه قد يستخدمه لمآربه الشخصية. ولهذا قال الإمام أبو القاسم الجنيد وكـــان ســـيد أهـــل التصوف في زمنه: "كتابنا هذا- يعني القرآن- سيد الكتب أجمعهـــا، وشـــريعتنا أوضح الشرائع وأدقها، وطريقتنا- أهل التصوف- مقيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة ويفهم معانيها لا يصح الاقتداء بـــه". وكان يقول: "لو رأيتم رجلاً قد تربع في الهواء، فلا تقتدوا به حتى تروا صـــنعه عـــند الأمر والنهي، فإن رأيتموه ممتثلاً لجميع الأوامر الإلهية، مجتنباً لجميـــع المـــناهي فاعـــتقدوه واقتدوا به. وإن رأيتموه يخل بالأوامر ولا يجتنب المناهي فاجتنبوه"(11). ولهذا فإن المقياس الصحيح لمعرفة الصالح من الطالح هـــو اتباع الشريعة والسير على هديها، وليس اتباع من ضل عن الطريق وإن امتلك المعجزات. إذ إن المعجزات قد تكون من نوع السحر، وقد تكون من علم العـــارفين بالله، فالخلوات المعروفة مع الذكر توصل الإنسان إلى بعض العلوم التي لا يعرفها إلا قلة من الناس فيفتح للإنسان باب لمعرفة بعض العلوم التي لا يعرف إلا الله الحكمة من إعطائها لهذا الإنسان أو ذاك. والخلاصة التي نستطيع أن نتحدث عنها بأن الإنسان بإخلاصه وطاعته لله المتاحة له على قدر علمه قد تفـــتح له الباب إلى معرفة بعض الأسرار، إذا كان ممن يعمل بالوصايا العشر الموجـــودة فـــي كـــل الأديـــان والمذاهب. وهذا الباب إذا فتح له وتابعه بالذكر المعروف- الله- فإنه قد يتوصل إلى معرفة حقائق النبوءات والإسلام والإيمان والإحســـان. فطريق الله مفتوح للسالكين. وقد جاء في الحديث كدليل على عناية الله بعبده: "يقول الله أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني. والله لله أفرح بـــتوبة عـــبده مـــن أحدكم يجد ضالته بالفلاة. ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعـــاً. ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل إلي يمشي أقبلت إليه هرولة"12. وهذه التوبة إذا استغرقت كيان العبد بكامله فإن الطريق سيفتح له لا شـــك في ذلك لمعرفة بعض الحوادث المكنونة في علم الله سواء في اليقظة أو الـــرؤيا. ولكـــن غالباً فإن الرؤيا هي التي تسبق، الرؤيا الصادقة، ولهذا سميت الرؤيا بالمبشرات لأنها من دلائل صلاح العبد وقبوله عند الله، إذا استمرت. أما إذا انقطعـــت أو حدثـــت لمـــرة واحدة فهذا له شأن آخر. وحوادث الوجود غير حقـــائق الوجـــود الأزليـــة. ولهذا فإن معرفة الحوادث يمكن الوصول إليها عن طـــريقين: عـــن طـــريق معرفة الأسباب وهذا غاية علم العلماء. كما لو درسنا

أسـباب العواصف وعرفنا هذه الأسباب فحكمنا بأن عاصفة ستقع في مكان ما علـى ضـوء الأسـباب التي عرفناها. ومثل هذه المعرفة تبقى احتمالية. وأما الطـريق الـثاني لمعرفة الحوادث فهي المعرفة الكشفية المعطاة من الله. وهذه المعـرفة وإن لم يتوقف صاحبها عند علوم الأسباب التي يقررها العلماء إلا أن نبوءاته تسبق نبوءاتهم ولا تخطئ أبداً. وهذه المعرفة لها مجال آخر غير مجال العقـل الظاهر. وإن كانت من علوم العقل. وسوف نتحدث عنها في فصل آخر مـن هـذا الكـتاب إن شاء الله. ولكننا نشير إلى أن هذه المعرفة تتعلق بالسمع والبصر، أي بالحواس، وهي كما قلنا من قوى العقل، أو من وزرائه كما سماها الإمـام الغزالي، لأنها معرفة خارج الإنسان، وكل ما هو خارج الإنسان يشهد بـإحدى القـوى الحساسة ليعقل، وما هو داخل الإنسان فإنه يستخرج من العقل ويقـوم الخيـال بالبحث عن البرهان عليه في الوجود ليشهده السمع أو البصر ليصبح عين اليقين. وهكذا تتعاون قوى الإنسان لالتقاط الحقائق أو الحوادث من داخـل الإنسان وخارجه. وإذا أردنا أن نأخذ مثال اكتشاف نيوتن للجاذبية، فإن توقيـت سقوط التفاحة هو من عالم الحوادث وإن كان له أسبابه. وهذا لا يوجد فـي العقل. أما قانون الجاذبية وسقوط الأجسام للأسفل فهو خفي في العقل لأنه من قوانين الطبيعة التي نتكون منها والتي تعمل أجسامنا بموجبها، ولكنها خفية عنا بقدر خفاء الحروف على الأمي الذي لا يحسن الكتابة ولا القراءة. وفي مثل هذه الكشوف يتسابق العلماء ليظهر الكامل من الأكمل والعالم من الأعلم. إن ما توصلنا إليه حتى الآن يدلنا على أنواع القوى الموجودة في الإنسان التي تساعده عـلى المعـرفة. وهذه القوى إذا أردنا أن نحولها إلى لغة مختصرة فإنها تتألف من:

1- العقل الكلي وتحته تنطوي عقول .

2- الـوزراء وهـم كل القوى التي تمد العقل بالأخبار، السمع- البصر- الشم- الذوق- اللمس- الإحساس.

وكما قلنا فليس هناك في جسم الإنسان ذرة لا تخبر العقل إذا احتاجت إلى شـيء أو تـألمت، أو تأثـرت. والعقل يتصرف وفقاً لما يريد. ولما يملك من الإمكانيـات. فهـو قـادر ومقدور عليه. فهو قادر على العمل بما يعلم ويملك. وعاجز عما لا يملك ولا يقدر. فهو خليفة الإنسان في جسمه. كما صار الإنسان خليفة الله في أرضه. ولو نظرنا إلى الإنسان من حيث هو عقل. وإلى مكانة كل قـوة مـن هذه القوى فإننا سنجد بأن علو العقل أو سموه جاء من هذا التجريد

الشـــفاف لتركيب الإنسان. فهو مُدركٌ بالأثر غير مدرك بالنظر. إنه رمز، فهو فينا ولكن أين؟. قد يكون الدماغ مركز الطاقة العاقلة كإناء للعقل لأن كل وجود لا بد له من مكان، من إناء يتمظهر فيه. ولكن العقل يحيط بكل أنحاء البدن فهو في القدمين كما هو في الرأس. وهل هناك حركة أو سكون من الأفعال الإرادية يقوم بها الجسم بدون أمر العقل. لا يمكن أبداً. ولهذا قد يكون من حقه الكبرياء، ولكـــنه إذا نظر إلى مكانه الذي يؤويه وبيته الذي يحويه لا بد أن يتواضع. إنه هــذا الجســم الإنساني الآكل الشارب، الراكض وراء التفاهات أحياناً. على من ســيعلو وأصوله المتواضعة تشده، وجذوره الضاربة في الأرض تدعوه. ولهذا يظــل الإنسان في تأرجح بين ما يشهده من طاقة العقل وأحواله، وبين الطبيعة وتجــلياتها المدهشـــة. وهو يتساءل أيهما أولى وأيهما أسبق في الوجود؟. أيهما صار به إنساناً، هل بالعقل وآثاره، أم بالطبيعة وعظمتها التي تغذى بها الإنسان ومـــا زال ليكـــون إنساناً؟. إنه السؤال الجوهري الذي طرحته المثالية والمادية أيهما سبق الآخر؟. أيهما ظهر قبل الآخر؟. ومن هنا عرف من عرف. وتاه من تـــاه. وضـــل من ضل. ولهذا كان لا بد من تصحيح السؤال المطروح، وإعادة صياغته لتصح الإجابة عليه. والسؤال من حق الإنسان ليعرف.

معرفة الله

لقـــد كـــانت الفكرة تدور في ذهني كما دارت وستدور في فكر كل إنسانٍ عاقل. أيهما أسبق الفكرة أم المادة، أو البيضة أم الدجاجة؟. وكان الجواب دائماً يـــأتي وســـيأتي كلما طرح السؤال هذا أو ذاك. ولكن إذا كانت الفكرة قد سبقت الوجود فمن أين سيأتي الوجود؟. ولماذا ستقوم الفكرة أو العقل ببناء هذا الوجود واستخلاصـــه مـــن شيء لا يوجد؟. وما لا يوجد كيف سيوجد؟. كانت الأسئلة الشـــائكة والأجوبـــة الشائكة تصدني وتقودني إلى ظلمات لا فائدة منها، فأعود لأرجـــح المادة وأتساءل كيف يمكن للمادة أن تنتظم بدون عقل ينظمها؟. وكيف ستقوم المادة بإيجاد العقل ليحكمها؟. وهل يمكن للمادة أن تخلق شيئاً فضلاً عن خـــلقها لنفســـها؟. كان عجزي يؤلمني وظلمات الجهل تحيط بي أكثر مما كان يحيط بي إصراري على إيجاد الجواب. عبر سنوات وأنا أعاني من هذا العجز ومـــن إصـــراري عـــلى إيجاد جواب لهذا السؤال المحير، اللغز الذي أنفق فيه الفلاســـفة كمـــا أنفقنا من أعمارنا سنوات ونحن نبحث عنه فلم نصل إلى شيء

مقــنع، ولــم يوصــلنا إلى شيء مرض. فمرة كانت تبدو لنا الصدفة وقوانينها مرضــية. ثــم تســقط نظــرية الصدفة بفعل الواقع. فلماذا لم تختلف الصور الإنســانية؟. لماذا لم يظهر إنسان يبصر من رأسه بدلاً من عينيه ؟ وهكذا كانت مفاهيم الصدفة تسقط. كما كانت تسقط مفاهيم وقوانين التطور وبقاء الأقوى لأن مظاهــر الطبيعة كانت تنكر مثل هذا القانون الصارم، وإن كان فيها شيء من صــحة القانون. ثم إن تطور الإنسان من قرد- ليس احتقاراً للقرد- أمر يفوق فــي الغــرابة تطــور القــرود والدببة رغم جهود المدربين لتعليمها وتدريبها لإضــحاك الــناس وكسب دراهمهم. ثم إن المثالية بتفسيراتها الفلسفية الغامضة كــانت لا تقل عن المادية إجحافاً في حق العقل وإن كانت أقل ادعاء بكثير مما ادعــته الماديــة فــي مجال المعرفة. وكان الدين الذي عرفته قبل الغوص في الأحاديث النبوية لا يقل غموضاً في تفسيره لمسألة الوجود عن الفلسفات المثالية والمادية. صحيح إننا كنا نؤمن إلى هذا الحد أو ذاك. إلا إن إيماني كان عرضة للشكوك والتساؤلات كما كان شكي عرضة للشكوك والتساؤلات. وطالت رحلة الــبحث حتى أتيح لي المجال للاطلاع على كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي "الفــتوحات المكيــة" وعندها بدأت أبصر الأجوبة التي كنت أبحث عنها. وكلما تعمقت كنت أدرك بأن صيغة السؤال من أساسه كانت خاطئة. والسؤال الخاطئ ســيقود حتماً إلى جواب خاطئ، وإلى استحالة الوصول إلى جواب سليم. أيهما أســبق في الوجود، الفكر أم المادة؟. كما لو سألنا عن إنسان رأيناه، هذا زيد أو عمــر؟. وقد يكون من رأيناه لا زيد ولا عمر فكيف سنجيب. كل ما تذوقناه من الحيرة كان من سؤال محير. وإن كان السؤال من حق الإنسان. ولهذا يجب أن نقــول، من أين جاء الوجود؟. من أين جاء الفكر؟. من أين جاء الإنسان؟. من أين جاء ما نشهده ونبصره في العالم؟. من أين وإلى أين؟. إنني أحاور بالعقل، والعقل قد يخطئ وقد يصيب . وعلى المفكر أن لايدعي أمام القارئ بتفسير أو شــرح ما لايعرف لأنه لا جدوى من الادعاء بما لا نعرف إذا كان إيمان البشر كــلهم أو ضــلالهم لا يــنفع الخالق ولا يضره بشيء. هل نظن أن الله بحاجة لإيمانــنا. إذا كــنا نظــن مثل هذا الظن فإننا نخطئ ونتأول على الكامل بما لا يحــتاج إليــه. وهــذا مــن أخطاء بعض الناس الذين لجأوا إلى الادعاء بما لا يعــرفون، أو بمــا لا يؤمــنون لأن الهــوى هو الذي كان يجذبهم وليس العلم والمعرفة. فكانوا كما قال الله: ﴿ **أفمن كان إلهه هواه**﴾( ) مع أن الله أمرنا بالمعرفة وطالبنا بها. وما أكثر الآيات التي دعت إلى التفكير وإلى السمع وإلى الــنظر، لكــي نعبده عن علم، وعن يقين. لهذا قرن الله خشيته بمن يعرفه من

العلماء وليس بمن يجهله. وهذا يقودنا إلى أمرين أولهما أن الخشية مقرونة بالمعرفة وليس بالجهل. ثانياً إن هذه المعرفة، أي معرفة الله، مطلوبة وممكنة للوصول إلى العلم به. فما هو الطريق للوصول إلى هذه المعرفة؟.

المعرفة الإنسانية بالوجود

إن كل معرفة إنسانية بالحقائق الأزلية وليس بالحوادث الكونية تأتي من مصدرين:

المصدر الأول: هو عقل الإنسان نفسه.

المصدر الثاني: هو عقول أهل المعرفة المشهود لهم بالمعرفة في الموضوع المبحوث شهوداً لا يعتوره أي شك.

وهذا يقودنا إلى القول بأن المعرفة لا تعرف إلا بالعقل، وليس بأي وسيلة أخرى، كما أننا لا نملك من دليل على صحتها إلا أدلة العقل ومنطقه. وكل معرفة يجب أن نقارنها بعد اختبارنا للأدلة بشهادات الشهود من أصحاب العقول، كما يجب أن نعرضها على شهود الإنسان السمع والبصر، للتأكد من التطابق بين ما اكتشفه العقل وبين ما يحدث في الطبيعة. فإذا تطابقت معرفتنا مع معرفتهم فإننا سنكون قد وصلنا إلى المعرفة الصحيحة. أما إذا تناقضت هذه المعرفة مع معرفتهم فإن علينا أن نعيد النظر فيما توصلنا إليه، لأن كثرة الشهود في مسألة وإن كانت لا تدل على صحتها دائماً إلا إنها تدل على مستوى من الصحة إذ لا دخان دون نار. ومع ذلك، فإننا لكي نصل إلى اليقين فمن الأفضل أن نطالب الشهود بالأدلة إذا كنا نريد أن نكون من أهل العلم. والأدلة الآن والحمد لله باتت وافرة، وأصبحت عقول أجيالنا أكثر نضجاً لقبول الحقائق وفهمها دون إسفاف أو تعنت. وعصرنا وإن كان فيه الكثير من الانحطاط، ففيه أيضاً الكثير من السمو بفضل العلم. فما هي هذه الأدلة التي بحوزتنا لمعرفة الله. سنبدأ أولاً بطرح السؤال التالي: من أين جاء الوجود وكيف ومتى؟. وهذا السؤال يضعنا أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن الوجود جاء من العدم. أي إنه لم يكن هناك وجود ثم ظهر الوجود. وهذا سيدعونا إلى التساؤل كيف سيظهر الوجود من العدم، والعدم لا يمكن أن يصبح وجوداً، وليس باستطاعته أن يملك زمام إظهار نفسه فكيف سيملك إظهار غيره. لهذا فإن قوانين العقل المعطاة لنا لنعرف بها تقول لنا هذا منطق مغلوط. فالعدم لا يمكن أن يصبح وجوداً ولو

ظـل مـليارات السـنين. وفاقد الشيء لا يعطيه، فمن لا يملك وجود نفسه لا يسـتطيع أن يعطي لغيره الوجود. ولو أننا عمدنا إلى زجاجة فارغة ووضعناها فـي مكـان ما لن تمتلئ مهما طال الزمن عليها بأي شيء ولهذا لا نستطيع أن نـأخذ منها أي شيء. فالعدم هو عدم، والعدم ليس له وجود، وما ليس له وجود ليـس له ماهيـة لنتحدث عنه. ومع ذلك فإننا يمكن أن نقبل عقلياً بوجود العدم، وأن نعـرفه بأنـه كل ما هو خارج الوجود، وأنه نقيض الوجود، وهذا النقيض كان في الأزل ونعني بالأزل ما ليس له بداية ولا تحده بداية، فما كان كائن كما كـان بـدون نهايـة. وليـس لخيالنا فيما بين الأزل والأبد من تصور غير إن الأزمـان تجري بدون بدء ولا نهاية. لأن البداية تتطلب السؤال متى، ومتى لا تصلح لمنطق الأزل. إن العقل يقول: إما إن الكون كان خالياً أي عدماً ثم ظهر الوجود، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نجيب عن سؤال متى بدأ الخلاء أو العدم. بيـنما سنقول عن العدم إنه ظهر في لحظة ما دون تحديد، لأن مستوى معارفنا لا تـبيح لنا التحديد. وإما سنقول بأن العدم لا يمكن أن يصبح وجوداً وهذا من قوانيـن العقـل. وفي هذه الحالة لم يبق لدينا إلا أن نقول: إن الوجود كان إلى جـوار العدم أزلاً أي دون بداية، لأن الوجود لو صدر عن بداية، فكل بداية قبل الوجـود ستحيلنا إلىا لعدم. والعدم كما استنتجنا لا يمكن أن يصدر منه الوجود ولا يمكن أن يكون رحماً لولادة الوجود لأن العدم لا شيء، وما هو لا شيء، لا يصـدر منه شيء. من هذه المقدمات البديهية نتوصل إلى حقيقة أن الوجود كان أزلاً. وبما إن الوجود لا يصبح عدماً كما إن العدم لا يصبح وجوداً فإننا نستنتج بأن ما ليس له بداية ليس له نهاية. أي إن الوجود خالد لا يفنى ولا تفنيه الدهور ولا الحـوادث. ولهذا فهو أبدي خالد. ولو نظرنا ببساطة إلى قطرة ماء أو ذرة هـواء وأردنـا أن نفنيها فإننا لن نستطيع ولو استخدمنا كل وسائلنا العلمية التي توصـلنا إليهـا لإفناء هذه القطرة أو الذرة. إننا نستطيع أن نبخر الماء أو نغير مواصـفات ذرة الهـواء ولكننا لا نستطيع أن نفنيهما. فالماء يتحول إلى بخار، والـبخار قـد يعود ماء عبر المطر من جديد، وقد يدخل في تركيب زهرة أو ثمـرة. وهكذا لا يوجد إلا تحول المادة في الطبيعة من صورة إلى أخرى، أما فناء المادة فهذا أمر مستحيل رغم أن بعض العلماء افترضوا فرضيات لا صحة لهـا حـول تبعثر الطاقة في الكون وفنائها واستنتجوا أن بالإمكان فناء المادة. وهـذا يتناقض مع أبسط مبادئ المنطق. هذه النظرية قال بها أوسكار كلاين ثم تطـورت على يد هانس آلف فين. و"يعتمد أساس هذه النظرية في جوهره على فكـرة المـادة المضادة، وهو أمر معروف في ميكانيك الكم منذ سنوات عديدة.

وتقول هذه الفكرة بأن لكل جسم جسيماً مناظراً يسمى الجسيم المضاد. فإذا كان الجسيم الأصلي مشحوناً فإن مضاده مشحون أيضاً بشحنة ذات إشارة معاكسة. وعند دمج الجسيم مع مضاده فإنهما يتفانيان محررين قدراً هائلاً من الطاقة"1. يـتابع المؤلـف فيقول: "إن هنالك سؤالاً يطرح نفسه فيما إذا كانت هنالك سدم معيـنة أو حـتى نجـوم خاصة في مجرتنا يمكن أن تكون مؤلفة من المادة أو ضـدها. حسـب وجهة النظر التي تقول بوجود التناظر التام ما بين الجسيمات والجسـيمات المضادة فإن معظم خواص المادة ستناظر خواص المادة المضادة. وعـندما يتحد على سبيل المثال عدد كبير من ذرات الهيدروجين المضادة (أي الـذرات المؤلفـة مـن الـبروتون المضاد في المركز والالكترون المضاد في المـدار) مـع عدد مناسب من ذرات الأوكسجين المضاد فإن ذلك يعطي الماء المضـاد الذي يتجمد في درجة الصفر ويغلي عند الدرجة مائة، ولا نلاحظ أي خـلاف بينه وبين الماء العادي ما لم يتلامسا. إذا حدث مثل هذا التلامس يحدث حينـئذ انفجار كبير. وهكذا فمن الممكن أن توجد نجوم مضادة تعطي قدراً من الإشـعاع ممـاثل لإشعاع النجوم ولا نملك أية وسيلة للتمييز بينها وبين النجوم بواسـطة إشـعاعها- وهـنا يتساءل المؤلف- كم من الكون نستطيع أن نقول بصـورة مؤكـدة إنه مؤلف من المادة... ونحن هنا أمام خيارين فإما أن يكون الجـزء البعيد من مجرتنا مؤلفاً من المادة المضادة أو إن جميع النجوم الواقعة فـي جوارنا مؤلفة من المادة المضادة. ولا يمكن التحقق، حتى من النوع كبير التـناظر، بواسطة الرصد في الوقت الحالي"(2). ويعلق الكاتب على هذا الرأي فيقـول: "لقد حان الوقت الآن لمناقشة الرأيين المنفصلين لكلاين وآلف فين. لقد بنيا علم الكون الخاص بهما على مبدأين رئيسيين:

1- لا يجـب أن تفترض قوانين طبيعية جديدة "أي أن القوانين المؤثرة في مجرتنا ومجموعتنا الشمسية هي نفس القوانين السارية في الكون كله".

2- إن هـنالك تناظراً ما بين المادة وضدها- تعادل- وبسبب عدم وجود قوانين طبيعية جديدة شعرا بأن مناقشة حادثة الخلق الوحيدة مستحيلة، فابـتدآ بمناقشة مسألة غيمة الغاز شديدة الانتشار والتي تكثفت مشكلة السدم، هذه السدم التي تتحرك بتأثير جذبها التثاقلي ثم تتراجع أخيراً.

ومهمـا يكـن مـن أمر فإن تحليلاً أكثر تفصيلاً لهذه الطريقة على أساس التـناظر ما بين المادة وضدها سيقود إلى قدر كبير من الفناء ولا بد أن يتدخل شيء ما لإنقاذ الوضع وهذا الشيء هو المقدار الكبير من ضغط الإشعاع الناشئ

مــن عملية الفناء. إن ضغط الإشعاع هذا يسبب انفجار المادة بأكثر من طريقة فيما إذا لم يتواجد"3. يجب أن نشير كي نستكمل أسباب صدور هذه النظرية ما قاله المؤلف حول الحصول على المادة المضادة تجريبياً، إنه يقول: "على الرغم من وجود بعض النجاحات حيث أمكن الحصول على البروزيترون وهو عكس الالكــترون عــام 1930 من قبل أندرسن، كما أمكن الحصول على البروتون المضــاد أيضاً قبل عقدين من الزمن. إن تجارب كهذه هي في الحقيقة تجارب صــعبة الإجراء وذلك بسبب ضرورة الحصول على الجسيمات المضادة بعيداً عــن متــناول المادة العادية لأن الجسيمات المضادة تفنى حالما تصادف المادة العاديــة مصــدرة قدراً من الطاقة، كما ذكرنا من قبل. إن لدينا تناقضاً ظاهرياً وهو أن القوانين الفيزيائية متناظرة بالنسبة للمادة وضدها في حين أن كوننا إذا ما اعتبرنا ما نشاهده في جوارنا المباشر غير متناظر أبداً"(4).

إن كــليف كيلمســتر مؤلف كتاب "طبيعة الكون" قد رد على نظرية موت الكــون مســتنداً إلى القــول بعدم تناظر وتساوي المادة مع المادة المضادة في الكون. ورغم أن إمكانية مثل هذا القياس للمادة والمادة المضادة أنكرها المؤلف حــتى عــلى مستوى مجموعتنا الشمسية. أي إن الفرضية والفرضية المضادة قائمــتان عــلى اجــتهادات شخصية. فإننا نعود لنؤكد بأن كل الوسائل العلمية المــتوفرة عاجــزة عن إفناء قطرة ماء أو ذرة هواء. وحتى على فرض أن ما سيصدر هو طاقة فإن الطاقة كالصوت لا بد لها من حامل مادي فضلاً عن أن الطاقة هي مادة. إننا لا نرفض إمكانية الانفجار الكوني وتلاشيه في الفضاء إلى أمــد طويــل أو قصير ولكننا نرفض إمكانية الفناء. فناء المادة. أما تغير شكلها وتحولها، تحول المادة إلى طاقة، والطاقة إلى مادة، فهذا لا يتناقض مع ما نقوله عــن اســتحالة فــناء المادة. أما التغير في صور المادة فهو من البديهيات التي يقرها العقل ويشهدها البصر.

ربمــا إنــنا أطلــنا في بحث هذه المسألة، ولكننا آثرنا أن نستعرض أكثر الــنظريات تشاؤماً حول مستقبل الكون لئلا نترك أي فكرة بدون طرحها للبحث ســواء كــانت مما نؤيده أو نرفضه لأن غايتنا العلم. ولا نقول الله لأن الله ليس بحاجــة لــتأييدنا ونصــرتنا بما يتناقض مع مبادئ العقل. وهو الذي أمرنا بأن نفكر. أفلا يعقلون، أفلا ينظرون. ففي هذا الجدل نريد أن نطمئن، أن نعرف ما هــي الحقيقــة لمصلحتنا نحن البشر. ويجب أن نقول بأنه إما لدينا العقل القادر عــلى المعــرفة، وبــه إذا كنا نملكه سنعرف الله. وإما إنه ليس لدينا مثل هذه

الإمكانيـــة فـــي عقولـــنا وعندها لن يكون هناك أي جدوى من البحث عن الله ومعرفـــته. وما دام الله قد أمرنا بمعرفته بالتفكير والنظر فإنه لا بد أن يكون قد أعطانـــا إمكانية المعرفة لنعرف. إنني أقول هذا الكلام لأؤكد حق كل إنسان في البحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة وليس من أجل الإيمان أو عكسه، لأن قاعدة "آمـــن ثم فكر" إذا كانت تصلح للعمل بها في مراحل الطفولة فإنها لا تصلح مع ســـنوات النضج. ولهذا يجب أن يكون شعارنا "فكر ثم آمن". وفي القرآن كانت الـــبداية "اقـــرأ" وفي العهد الجديد "في البدء كان الكلمة"، أي الفكر. الله يقول لنا اعـــرفوني بـــالعقل. يجـــب أن نـــتحاور بـــدون تعصب. وقد عاب الله الذين يعيشـــون حياتهم على قاعدة ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقـــتدون**﴾(5). وقـــد قال المسيح عليه الصلاة والسلام: "ما عجزت عن إحياء الموتى ولكن عجزت عن إصلاح الأحمق"6. ومن أين تأتي الحماقة، وهل تأتي إلا من العقول المغلقة التي ترفض العلم، باحثة عما يغذي هواها. رافضة كل ما يمـــس هذا الهوى المرضي حتى وإن كان يتناقض مع أبسط مبادئ العقل. لهذا إنـــنا سنبحث بالعقل الموهوب لنا وبالشجاعة التي أمرنا الله بها لمعرفة الحقيقة. والحقيقـــة الـــتي توصلنا إليها تقول، بأن المادة أزلية لا بداية لها ولا نهاية ولا فناء. إنها خالدة خلود العدم. والعدم هو الساحة الخلفية لحركة الوجود. وبما أن كل وجود له حدود يتحدد بها من حيث الكم والكيف، الحجم والمحتوى، الصورة والمعـــنى. فإنـــنا نستطيع أن نستنتج بأن الوجود الأزلي كما أنه لا يفنى فإنه لا يـــزيد ولا ينقص وإن تغير شكله أو المساحة التي يشغلها. إنه (هو هو) سيظل وسيبقى كما كان إلى ما لا نهاية له. لقد كنا أمام خيارين لا ثالث لهما ولا بد لنا من القبول بهما عقلياً لفهم الوجود وهما:

1- *إما إن أصل الوجود الذي نراه هو العدم. وقد سقط هذا الخيار منطقياً.*

2- *أو إن أصل الوجود هو الوجود. ولا نقول البداية لأن كل بداية ستحيلنا إلى زمـــن ســـابق عـــلى البداية، ولا بداية للوجود. فهو الأول بالنسبة لـــلحوادث فقـــط. أي المخـــلوقات. ولو أننا قلنا ببداية للوجود فإن هذا يؤدي إلى تسلسل مرفوض منطقياً. وقد اخترنا الحل الثاني لأنه ينسجم مع مبادئ العقل. فالوجود المادي أزلي، ليس له بداية وليس له نهاية، ولا يمكن أن يفنى، لأن الوجود لا يصبح عدماً، كما إن العدم لا يصبح وجوداً. وبهذا نتوصل إلى نتيجة مؤداها، حتمية استمرار الوجود بدون زيـــادة أو نقصان، وإن تغيرت صور ظهوره، وتبدلت عبر الأزمان.*

فما كان لا يزول، وما لم يكن لا يوجد. فالوجود قديم، والعالم محدث. والمحدث تحيط به شطآن الأزل والأبد.

مظاهر الوجود

إننا أمام أسئلة صعبة ليس من السهل الإجابة عنها. فإذا كنا نستطيع أن نطمئن إلى القول بأن للوجود الأزلي مواصفات محددة وكمية محددة لن تزيد لأن العدم لن يضيف عليها شيئاً من عنده، فإننا سنواجه صعوبة من نوع آخر حين نحاول أن نبحث في طبيعة هذا الكم ومحتواه. وإذا كان للإنسان وهو من بعض ظهورات الوجود وفيوضاته وهو الأقرب إلينا لا نستطيع أن نسبر غوره ونستطلع الكامن في ذاته فكيف سنعرف ذات هذا الوجود الغامض وما هو كامن فيه؟ طبعاً إن الطموح للوصول إلى مثل هذه المعرفة مستحيل، ولكننا نستطيع أن نحكم على الوجود بأنه حي ما دامت تصدر الحياة منه، وبأن فيه ماء وناراً وتراباً وهواء، ما دمنا نرى بأن هذه المواد بعض من التركيب الظاهر للوجود. إننا سنختار الحكم والاستدلال على محتوى الوجود بما نراه ونلمسه مما يصدر عن الوجود مع الإقرار بأننا لن نشهد ولا نعرف كل ما يحتويه الوجود. وهذا ما يقره العقل ويشهد به العلم. فماذا نرى من هذا الوجود. إننا نرى العوالم القائمة أمامنا. الإنسان، والحيوان، والنبات والعناصر الأربعة وهذه كلها ظهورات للوجود بأشكال مختلفة. وهذه المظاهر وإن كانت تتصف بصفات تلتقي عندها إلا أنها تفترق في صفات أخرى. وإن الوجود لو كان واحداً في الجوهر لما صدر عنه التنوع. فتنوع الموجودات يدلنا على تنوع تركيب الوجود. وهذا لا يتناقض مع ترابط الوجود رغم مظاهره المتعددة. فالإنسان هو عقل وسمع وبصر وحواس وأيد وأقدام ولكنه واحد. والمادة وإن تنوعت فإن التنوع لا يتعارض مع تماسكها وارتباط كل عنصر بالعنصر الآخر. فالأكوان من الذرة إلى المجرة والمجرات كلها كما تؤكد الكشوف العلمية تسير وفق نظام مطلق شامل لا تشذ عنه، وهي فوق ذلك مترابطة مع بعضها في سيرها بأفلاكها ولا تستطيع ذرة أن تكون مستقلة بحركتها عما يجاورها من الذرات. فالكون كله يعمل وفق قوانين تحفظ له انتظامه وتماسكه وارتباطه. وإذا كنا نستطيع أن نقبل بتنوع الوجود كما قبلنا بوجود أزلي فمن أين سيأتي النظام إلى الوجود؟. وإذا كنا سنقبل بنظام في أعماق الوجود فمن الذي سيكون راعي هذا

النظام. فإذا كان للبعوضة عقل تسير به إلى هدفها، وللعصفور عقل، وللإنسان عقــل وهــو أعظــم العقــول الظاهرة، فمن أين جاءت هذه العقول، والإنسان والعصـــفور والبعوضـــة ليسوا إلا تركيبات من المادة؟ ثم إن كل نوع من هذه الأنـــواع له عقله المتناسب مع وجوده لحفظ بقائه وتوازنه. وإذا كان كما يقول المـــثل "كـــل إناء ينضح بما فيه" فهل يمكن أن يُعطى الإنسان العقل من مادة لا عقــل فيها، وفاقد الشيء لا يعطيه. إذا كان الوجود ليس فيه اللون الأحمر هل يمكــن أن يظهــر الــلون الأحمر في مظاهر الوجود. طبعاً لا يمكن. وهذا ما يدعونـــا إلى القـــول بوجـــود العقل في الوجود لأنه إحدى مظاهر الوجود التي تظهــر فـــي الموجودات بمستويات متنوعة. عند هذا الحد من الملاحظات عن الظاهــر مـــن الوجـــود لنا بالمظاهر المختلفة يمكن أن نتوقف لنبحث في نظام الوجود.

نظام الوجود

إننا نلاحظ النظام في الوجود. فمن أين جاء هذا النظام؟. والنظام يستدعي المنظم فمن أين جاء المنظم؟.

عــلى الســؤال الأول يمكن أن نجيب بأن النظام إما أنه كان وما زال قوة خارقـــة جـــاءت من خارج الوجود وفرضت على الوجود النظام. وإما إن هذه القـــوة الخارقة التي تعرف ولا تشهد كامنة في قلب الوجود ومرافقة له وهي ما ندعوه بالعقل المهيمن والضابط والمسير لحركة الوجود.

الاحتمال الأول يقتضي أن تأتي هذه القوة العاقلة من خارج الوجود لتحكمه وتتصرف به تصرف المالك بملكه. وحتى لو قبلنا أن تتصرف به بحدود معينة بـــأن تضـــيف إليـــه شيئاً لم يكن فيه. فإن هذا الاحتمال يتنافى مع المبادئ التي توصلنا إليها عندما استنتجنا بأنه لا يوجد في الكون إلا الوجود والعدم. وما دام لـــن يـــأتي من العدم أي وجود فكيف ستأتي هذه القوة الخارقة من العدم. وهذه القـــوة المهيمنة حقيقة قائمة فنحن نرى آثارها ولا ننكر وجودها. ولكننا نريد أن نعـــرف مصدرها والجهة التي تتحكم منها، ونريد أن نعرف عنها كل ما يمكن معرفـــته. لنفـــترض أننا سنقبل بوجود قوة عاقلة أزلية منفصلة عن الوجود كما قبلنا بوجود أزلي فيصبح لدينا وجودين من نوعين مختلفين لا علاقة بينهما ولا رابـــط. وإذا كانـــا قـــد بـــدءا منفصلين فإنهما سيظلان منفصلين. إن مثل هذا

الاحتمال ينتهي بنا إلى نتائج غير مقبولة ومستحيلة. ولهذا يجب أن نعيد البحث عــبر صــياغة أفضــل. وهذا ما يقودنا إلى البحث في الاحتمال الثاني. حيث افترضــنا بأن هذه القوة العاقلة كامنة في قلب الوجود ومرافقة له، أي إنها من ذات الوجــود ومن طبيعته. وإن كان لها صفات غير صفات المادة وهي كجزء مــن الوجود أو مظهر من مظاهره لم تتأخر عن الوجود ولم تسبقه ولم تنفصل عــنه ولا تــنحل فيــه إلى ماهيــة أخرى غير ماهيتها، لأن للمادة كما لاحظنا تحولات في مظاهر الوجود. فالعناصر الأربعة تتحول في النبات بشكل مختلف عــن شــكلها وتركيبها، كما تتحول في الحيوان إلى أشكال أخرى وفي الإنسان تــأخذ شكلاً وتركيباً جديدين، بينما يظل العقل يعبر عن نفسه بنفس المفاهيم في كل هذه الصور وعلى مستويات مختلفة. فالنبات له برنامج للتغذية والظهور في كــل مرحــلة بمظهر جديد لا يشذ عنه. والحيوان تتناثر في أنواعه قوى العقل ورموزه، إلا أنه خال من أي إبداع غير ما رسخ فيه من الخبرات الغريزية. ثم يــأتي الإنسان الذي اجتمع فيه من القوى العقلية ما لم يحصل لأي من مخلوقات الطــبيعة المشهودة لنا. وإذا افترضنا بأن كل كائن محدث في الطبيعة هو جرم صــغير بالقياس إلى الأجرام، فإننا نلاحظ بأن كل جرم من هذه الأجرام فيه من القــوى الكامنة ما يناسب حياته ووجوده. ولو جئنا إلى تركيبنا الإنساني وحاولنا أن نــبحث فيه عن مكان العقل وماهيته وتركيبه، فإننا قد نحكم بأن المكان هو في الرأس، ولكننا لو حاولنا أن نحصل من الجمجمة على عينة من العقل لنختبر ماهيــته وتركيبه فلن نجد شيئاً. إننا لن نجد غير لحم ودم وأعصاب، أما العقل فــلن نجــد له أثراً مع إننا نشهد ونلاحظ بأنه سار في كل أنحاء البدن لرعايته والإشــراف عليه وتأمين احتياجاته. ولهذا كانت له السيادة على البدن وإن كان الــبدن لا يبقى والعقل لا يبقى والإنسان لا يبقى إذا قطعنا للإنسان معدته وقلنا بــأن هــذه المعدة تسيء إلى الإنسان وتهبط به عن مستواه اللائق به. فالإنسان بكل ما فيه صار إنساناً من حيث الصورة والماهية. وبالعقل صار إنساناً عاقلاً وتمايــزت الصور بتمايز المعاني المفاضة عن هذا العقل. فظهر العالي والرفيع والصــغير والوضيع. وسؤالنا إذا كان الإنسان حياً، وهو كما نراه قد انتقل من عــالم الــذر من أبيه إلى أمه فنما في رحمها ثم ظهر وكبر بفضل الغذاء الذي أخــذه ممــا ســاهمت في إنضاجه الطبيعة المركبة من الأرض والكواكب في مجموعتــنا الشمســية. ألا يــدل هذا على أن الأجرام التي أمدتنا بالقوة لإظهار الحيــاة لهــا دورهــا وتأثيرها في تكوين حياتنا. وإذا كانت مجموعتنا محكومة بمؤثــرات الأجرام الأخرى فإن المؤثرات التي وصلت إلينا لا يمكن أن تتناهى

من حيث العلم بها، وإن كانت تتناهى من حيث التقدير العقلي. ولهذا يحق لنا أن نقــول على ضوء ما نشهده في أنفسنا مما حبانا به الوجود ونحن من أبنائه أو مظاهــره أن نقــول بأن هذا الوجود هو أصل كل الحقائق. وبأن ما نشهده في أنفســنا وأجسامنا من حقائق عن حياة كل عضوٍ وكل ذرة وعما يكمن فيها من نظــام متصــل بعقلــنا الكــلي هــو صورة مصغرة لدقائق هذا الوجود الذي صدرنا عنه.

إن هــذه الشهادة تقودنا إلى القول بأننا إذا كنا من أركان هذا الوجود ومن حقائقــه ومن فيضه، فإنه لا بد أن يكون المفيض الوجود مالكاً لما فاض عنه. ولا بــد أن يكــون لكل ذرة في الوجود نظامها الكامن الخاص بها، ولا بد أن يكــون لكــل صورة مركبة في هذا الوجود دورها الخاص بصورتها الظاهرة. وفي النهاية لا بد أن يكون للوجود كله عقله الشامل في مقابل الأنظمة الجزئية. هــذا مــا تقودنــا إليه الملاحظة الدقيقة. وهذه النتائج استنتاجات يفرضها العقل السليم. ولهذا يمكن أن نقول بأن الإنسان هو كون صغير، أما الكون فهو إنسان كــبير. وفــي كــلا الجــرمين يحكم العقل على المادة بحدود قابلية المادة لهذه الأحكــام. ولكــي نوضــح المسألة سنضطر للعودة إلى البحث في ماهية العقل الحاكم على الوجود، العقل الكلي. وليس لدينا من مؤشرات أو دلائل غير العقل الإنســاني، لأن العقــل الإنســاني المفاض لا بد أن يحتوي على بعض صفات المفيض، ولهذا لكي ندرك بعض ما يحتويه العقل المفيض، لابد من تأمل العقل المفاض في الإنسان.

ماهية العقل

إذا أردنا أن نتأمل العقل الإنساني منذ بدء تكوينه في رحم الأم بل قبل ذلك وهو ذرة في عالم الأبوة الخفي. إن لهذا الكائن الخفي حياته التي عاش بموجبها وانــتظر الفرصة حتى ينتقل إلى رحم الأم. ولهذه الذرة المادية التي لا ترى إلا بالمجهر عقلها الكامن فيها الذي سيرشدها إلى البحث عن مصيرها اللاحق بين ملايين الذرات من أمثالها. لنقل إنها حظوظ ولكن كل هذه الملايين من الذرات تــبحث عن حظوظها وتتسابق للدخول إلى رحم الأم في لحظة اللقاء بين الرجل والمرأة. وربما إن السباق في هذه اللحظة للفوز بجائزة الحياة لو تخيلناه كما هو حقيقــة، فهــو أشــد من السباق في مسابقة للجري بين أكثر من خمسة ملايين

متسابق للوصول إلى بويضة الأم والفوز بالحياة الإنسانية.وإذا ما تابعنا حياة هذا الجنين المتكون في رحم الأم سنشهد قوى عقلية ذاتية وهي ترعى صورة قطعة اللحم التي ظهرت. وهذه القوى ستظل قائمة في رعاية الجنين طوال فترة الحمل. مع نهاية الفترة وعندما يشهد الجنين النور سيعرف أيضاً كيف يأخذ ثدي أمه ليتغذى بالحليب. وهنا ستبدأ أفعال الطفل الإرادية بالظهور. فهو سيبكي عندما يجوع أو يتألم. وعندما سيدخل عالم الكبار سيبدأ بالتعبير عن إحساساته بلغتهم التي اصطلحوا عليها. وعندما يدخل المدرسة سيبدأ بتلقي العلوم وحفظ ما يطلب منه ونحن ولا نحتاج إلى أكثر من هذا التفصيل عن مراحل العمر المختلفة للبرهان على وجود هذا العقل الإنساني الكامن بدءاً من عالم الذر إلى نهاية الحياة. فمن أين جاء هذا العقل. ومن الذي كان يحمل هذا العقل. أليست نفس الذرة هي الحامل لهذا العقل الغريزي. ونفس هذا العقل هو الذي نما مع نمو الجسم أو صار عقلاً للطفل وللشاب والعالم والشيخ. هذا ما لا نستطيع أن ننكره. فالعقل الذي بدأ وألهم الطفل السباق لدخول رحم الأم هو نفسه الذي سيلهمه السباق في حظوظ الحياة مع أقرانه عندما يكبر. لقد اختلف نوع السباق مع اختلاف البيئة والظروف والقدرات. ألا يدلنا هذا على أن المادة هي حاضن حي للعقل غير مفارقة له وغير مفارق لها. بل إن المادة أو الطبيعة جاءت في لغتنا بالتأنيث لأنها رحم للعقل المذكر والحاكم على المادة. كل صورة في الوجود تدلنا على مستويات من العقل. النبات، والحيوان. إن كل إنسان يشهد هذه الحقائق بنفسه ويشهدها من حوله، يشهد عقول الموجودات الباحثة عن أسباب البقاء والحياة وهي أنظمة كما بينا من قبل. ولكنها تعبر عن عقل مسبب الأسباب. وبما أننا نستطيع أن نشهد التصرفات الإرادية في الحيوانات بعد تطور الأبحاث العلمية ومتابعة حياة الحيوانات في بيئتها الطبيعية، فإن كل ما نراه من تصرفات وأنظمة وتزاوج ووسائل للإنذار وكمائن لتأمين الغذاء يدلنا على عقول غاية في التنظيم. وكلها تشير إلى فيض من العقول الذي لا يمكن حصر أنواعه. وكل هذه العقول محمولة في صور الطبيعة الطائرة والماشية على أربع والزاحفة والسابحة في الماء. أشكال من العقول والخبرات تتغذى من مواد الأرض التي نراها أمامنا ونمشي عليها ونحن لا ندري بالحياة والمشاعر السارية فيها مع أننا جئنا منها وتغذينا بها. فهي وجودنا الخام وكل ما على ظهرها ليس إلا صور لهذا الوجود المادي والعقلي. فهل يمكن أن تخرج الحياة مما لا حياة فيه؟ وهل يمكن الوجود أن يخرج من العدم؟. هل استطعنا حتى الآن ولو عقلياً أن ننتج شيئاً من لا شيء.

أو نستخرج شيئاً من لا شيء؟. وإذا كان ما يصدر من العقل وما نراه من مختلف العقول لا يصدر إلا منها طبقاً لنظام دقيق غريزي ما عدا الإنسان فلماذا لم يكتشف الإنسان كل ما يحتويه عقله في سن النضج مثلاً كما يجري في عالم النبات أو الحيوان. فكل نوع من الأشجار في الأوضاع الطبيعية يزهر ويثمر عند عمر معين، أي أنه يكشف عن محتوى البذرة. قالب الطبيعة الخاص بإظهار تجل معين من تجليات العقل. والحيوانات كلها تحفظ عند عمر معين كل الخبرات وتتقنها ثم تموت بدون أي تطور يذكر. أما الإنسان فإنه في تطور مستمر. ولو كان الغذاء هو المؤثر كما قلنا من قبل لأمكن إيجاد وصفات من الغذاء لتخريج الأطباء أو العلماء أو الفلاسفة. هذا يدلنا على أن الغذاء ليس هو السبب الأساسي في إظهار قوى العقل، إنه وقود لمساعدة الجسم على العمل. ولهذا فإننا نشاهد اختلاف عقول الأبناء في الأسرة الواحدة رغم تشابه الغذاء والتربية، وعوامل الوراثة الثابتة علمياً. فمن أين جاء الاختلاف؟. هل من التعلم إذا كنا نقول بتساوي العقول أم من شيء آخر. حتى إن أبناء العلماء لا يصبحون علماء غالباً. والبطن كما يقولون بستان يخرج الغث والثمين، فمن أين جاء الغث والثمين؟. لا بد من أسباب فما هي هذه الأسباب؟. إذا كانت البذرة نفسها قد قامت بنسخ نموذجها في رحم الأم وأخرجته إلى الحياة كاملاً معافى. نحن لا نريد هنا أن نبحث في الأسباب إلا للبرهان على أن العقول الإنسانية من ذرية آدم هي واحدة في كل العصور وإن اختلفت تجليات العقل من وقت لآخر ومن إنسان لإنسان. فالإنسان كما قلنا هو مختصر الوجود، وعقله هو الميزان الذي يحتفظ بالمعلومات وسمعه وعينه هم الشهود للمقارنة والتجربة بين ما هو في العقل وما هو في الوجود، ولسانه هو المعبر عن شهادته وعما يشهد ويبصر ويسمع ويحس. ولهذا كان انكشاف ما في العقل الإنساني على دفعات كما لو أردنا أن نزن مليون طن بميزان لا يزن أكثر من عشرة كيلوغرامات في المرة الواحدة، فإن العملية ستستغرق زمناً طويلاً وقد نقع بأخطاء في المحصلة بسبب الغفلة أو النسيان فنضطر لإعادة ما أخطأنا في وزنه. إن الإنسان يريد أن يعرف الوجود والعلم بالوجود لا يتناهى ولهذا فإن علم الإنسان لا يتناهى. فالوجود يتغير ويتأثر بالمحدثات والإنسان كجزء من هذا الوجود سيتأثر، ولهذا فإن الإنسان يتعرض لنوعين من العلوم. القوانين الأزلية السائدة في الوجود وصور الموجودات وهذا ما يحتويه العقل أو ما هو كامن في العقل. وعلم آخر بالحوادث وهذا متغير في كل لحظة على مستوى الكون وهذا من مهمة الشهود في الإنسان، السمع والبصر والقوى الأخرى، أي معرفة تاريخ

الكـــون. مـــن هـــنا تبدو الصعوبة بالنسبة لمعرفة تطور الكون فمن لم يحضر الحوادث لا يلم بها ولذلك فإنه يرتقي إلى معرفتها الظنية بالأسباب والمسببات. ولهـــذا فـــإن الإنســـان كحادث لا يتوصل إلى علم يقيني تجريبي لمعرفة سبب وجـــوده، بيـــنما لأنه نسخة الكون الجامعة ومرآته يستطيع أن يشاهد بوحي من عقلـــه قوانيـــنه الأزلية وصورته. ولكن مشكلة المعرفة والجهل تأتي من تنازع عدة قوى في الجسم الإنساني. فالجسم الإنساني يتألف من عدة قوى تشع بآثارها وتأثيـــرها عـــلى العقل. ولكي نصف عملية المعرفة فإننا يمكن أن نشبه الجسم الإنســـاني بمصـــنع لـــلطاقة ومركـــز العقـــل هو الغرفة التي تحتوي على كل المعلومات المتعلقة بصورة الوجود وحقيقته. فالغذاء هو الوقود الذي نقدمه لهذا المصـــنع لتشـــغيله. وأثـــناء تشغيله ستقوم كل القوى بالعمل بدءاً من العقل إلى السمع إلى البصر والشم والذوق والغرائز، ومنها المعدة حيث تقوم بإخبارنا عن حاجة الجسم إلى الوقود، والجنس نصفنا الآخر. وهذه القوى كما هي مرتبة من الأعـــلى إلى الأسفل في الإنسان لتدل على مراتبها. فالعالي منها للعلو بصاحبه والمـــنخفض يقـــود إلى الانخفاض. وكل قوة من هذه القوى تطالب مالكها بما يماثـــلها مـــن الغـــذاء. فغذاء العقل العلوم والمعارف بالإبداع أو التلقي، وغذاء الســـمع الأصـــوات، وغذاء العين المشاهدات، وغذاء الأنف المشمومات وغذاء الـــذوق الطعـــام والشـــراب وهو أداة المعدة لتأمين الطيبات من الغذاء. وغذاء الجـــنس المـــرأة للرجل والرجل للمرأة، وبقية القوى الأيدي والأقدام ساعية في تـــأمين حاجـــات الجســـم كالخدم بأمر من العقل. ولكن العقل تواجهه النفس أو الهـــوى. فـــإذا سيطر الهوى على العقل وبرزت سطوة المعدة فإن هذا الإنسان سيصـــبح أكـــولاً، مما سيؤدي إلى تعطيل القوى الأخرى وإشغالها بهذا الهوى المســـيطر مما سيؤدي إلى حدوث عطل نسبي لقوى العقل الكامنة. وإذا سيطر هـــوى الجنس على الإنسان فإن هذا الهوى سيكون أخطر على صاحبه من حب الطعام. وإذا اجتمع هوى الطعام مع الجنس فإن مثل هذا الإنسان لن يخرج منه شيء، وهذا ما نراه حقيقة. ولهذا كان المطلوب دائماً الاعتدال وتشغيل المصنع الإنســـاني لمـــا خـــلق له، للاكتشاف والمعرفة. فإذا اشتغل المصنع بكل طاقته وأضـــاء الـــنور عـــلى غرفة الذاكرة سيتاح لنا أن نقرأ ما هو مطبوع فيها من المعـــلومات وعند ذلك يبدأ الاكتشاف ومعرفة الوجود الحق. فإن الذاكرة داخل العقـــل مـــثل غرفة مطبوع فيها كل ما في الوجود من قوانين وصور. والجسم يقـــوم بفضـــل الطاقة المنتجة من الغذاء بإضاءة الغرفة، والعقل يقوم بقراءة ما فيهـــا، وترجمـــته إلى اللغة التي يتقن النطق بها اصطلاحاً. ولهذا كلما استهلك

الإنسان من الطاقة في الأمور غير المعرفية سيضعف الضوء في غرفة الذاكرة ليضـــيء الأهواء المختلفة للإنسان. وكلما ضعف الضوء في غرفة الذاكرة لن نتمكن من مشاهدة ما فيها. ألا تلاحظ أن هذا الوضع لا ينطبق على الأفراد بل عــلى مجــتمعات كاملة. فالمجتمعات المشغولة بالحصول على طعامها لا تبدع ولا تنــتج غالــباً. إن الهــوى الذي رأيناه في النفس ليس شراً كله، إنه بحسب موقعــه مــن الإنســان، فهوى العالم العلم. وهوى الأكول الأكل، ولهذا يصبح الهــوى مفيــداً في وقت وضاراً في وقت، والعبرة في الميزان العقلي إن كان يعرف أن يؤدي لكل ذي حق حقه. وإن كان يعرف الطريقة الصحيحة لاستخدام المفــاتيح الكاشفة للذاكرة، وفي فهم ما بالذاكرة. فالفيلسوف قد يرى في ذاكرته إشــارات لــنظام الكهــرباء إلا إنه لن يعرف أي معنى لما رآه إذا كان جاهلاً بالكهــرباء، كما لو أننا تصفحنا كتاباً في لغة لا نتقنها، فإننا لن نتمكن من قراءة ما في الكتاب رغم أنه بين أيدينا. وقد يكون الكتاب في لغتنا إلا أنه يتحدث عن قوانيــن الرياضيات ولهذا حتى لو قرأنا فيه لن نفهم معنى ما نقرأ إذا كنا نجهل عــلوم الرياضــيات. إننا نستطيع أن نشبه الوضع الإنساني بالنظر إلى الذاكرة بالحاســوب (الكمــبيوتر). فالحاســوب هــو ذاكرة، ولكن اكتشافنا لما فيه من المعــلومات يــتوقف أولاً عــلى معرفة نظام التشغيل، فإذا كنا لا نعرف نظام التشــغيل لــن نتوصــل إلى الاطلاع على أي معلومة مهما كانت صغيرة مما يحويــه الجهــاز. وللذاكرة أيضاً نظام تشغيل سنشير إليه فيما بعد. الأمر الثاني للحصول على المعلومات يتوقف على معرفتنا بلغة الحاسوب فإذا كنا لا نعرف هــذه الــلغة لــن نســتفيد من المعلومات ولن نفيد أحداً ولن نتمكن من ترجمة المعلومات إلى المشاهد الجاهل بالحاسوب. والذاكرة أيضاً لها لغتها. فالذاكرة قد نرى فيها صورة لشجرة فإذا كنا لا نعرف اللغة التي سنعبر بها عما رأيناه فإننا قد نتمكن من رسم صورة ما رأينا بدون أن نعرف أي معنى لما نراه حتى يأتي إنســان آخــر ويقــول لنا هذه شجرة من نوع كذا وفصيلة كذا. وهذا بعض ما يحدث معنا في حياتنا اليومية. فإننا قد نرى شخصاً في الطريق فيسلم علينا، ثم نــتذكر فلا نهتدي إلى اسمه ولا نذكر أي تفاصيل عن ظروف لقائنا به مع أننا متأكدون من هذه المعرفة. فإذا سألنا إنسان من هو هذا الرجل فإننا سنقول إنه لا نعــرف. ثم فجأة إذا انكشفت لنا حجب الذاكرة فإننا نتذكر كل شيء فنعرف من الــذي لقيناه وكيف لقيناه. هذا مثال لرؤيتنا للصورة وعجزنا عن تعريفها بالاسم مما يمنع من حصول الفائدة من هذه المعرفة. في حالة أخرى قد نكون بانتظار إنســان مــا في مطار مثلاً ونعرف أن اسمه محمود. وقد ننسى صورته، أو قد

تكــون صــورته تبدلت عما في ذاكرتنا فإننا قد نراه بدون أن نعرفه. ولهذا لا تحصل الفائدة من معرفتنا بالاسم وجهلنا بالصورة، فلا يحصل اللقاء بيننا وبينه مع إننا قد نكون رأيناه بين القادمين. الأمر الثالث المطلوب لحصولنا على العلم مــن الحاســوب يتطلب معرفتنا بطبيعة العلم الذي نبحث عنه فضلاً عن معرفة الصــورة واللغة. فلو أننا قرأنا معادلة رياضية بلغتنا ونحن لا نفقه الرياضيات لن نحصل على أي فائدة من قراءتنا للمعادلة أو لتطبيقاتها على الواقع. والذاكرة أيضاً فيها معلومات يتم كشفها في مسيرة الإنسان عبر الزمان. فالعقل هو تجل للكون في الإنسان. فإذا كان كل إنسان سيبدأ بالبحث عن تجليات هذا الكون في نفسه من الصفر فإنه لن يكتشف في عمره القصير ما تجلى للإنسانية عبر آلاف السنين. ولهذا يصبح تطور العلوم مفيداً كوسيلة للتذكر وحصول الفائدة. فلو قال لــنا إنسان ونحن في المطار هذا محمود الذي تبحث عنه، فإن الفائدة ستحصل وســنوفر الوقت الضائع في البحث عما جهلناه من علوم الذاكرة. لهذا لا بد من مــتابعة التطور العلمي في آخر ما كشف عنه العقل البشري في علم من العلوم إذا أردنا أن نضيف جديداً إلى ما عرفته البشرية. وإننا نستطيع أن نقدم عشرات الــبراهين لــلدلالة على ما أشرنا إليه مما يحدث في حياة العلماء. فمندل الذي كشــف عــن قوانين الوراثة ظل لديه بعض الأمور التي لم يتمكن من البرهنة عــليها مــع إن العقل أنبأه بصحتها فوضعها في جدوله ثم جاء العلماء وأثبتوا صحة ما ذهب إليه بالبرهان. وبين رؤية الحقيقة والبرهنة عليها مسافة تقتضيها طبيعة الكشف سنتحدث عنها. ونيوتن كان يشهد قانون الجاذبية عقلياً كما نشهده نحــن ثــم بسقوط التفاحة عليه وهو نائم أو وهو يتنزه اكتشف البرهان على ما كان قد أنبأه به العقل. وفي حديث جرى مع الأستاذ جان- مارك ليفي- لوبلوند حــول اكتشاف المادة المضادة، ونحن نسوق هذا المثال لأن هذه المادة لا يمكن أن تشــهد بالــنظر وإنما بالتجربة. قال الأستاذ جان "هذا اكتشاف نظري يسهل نســبياً تأريخــه- إنه "نظري" لأن المادة المضادة ظهرت لأول مرة في أعمال عالم نظري هو ديراك، وكان ذلك في الثلاثينيات، إذ كان يبحث هذا العالم عن معادلـــة قادرة على وصف سلوك الالكترونات في ظل النظرية الكوانتية، التي كـــانت في هذه الآونة في أوج نموها. وكان يريد بناء نظرية للالكترون كوانتية ونسبية في وقت واحد، بمعنى أنها متفقة مع مقتضيات نظرية آينشتاين النسبية. وسرعان ما أعطت نتائج غاية في الأهمية، لأنها ساعدت على وصف خواص للالكــترون لــم تكــن قبــلها مفهومة من الناحية النظرية، كالعزم المغناطيسي للالكــترون. وهذا الجسيم لم يكن موجوداً، أو بالأحرى لم يكن قد شوهد أبداً..

ولكــن ســرعان ما اتضح وجوده تجريبياً، ففي السنوات التي تلت ذلك استطاع أندرســون أثناء فحصه للصور الفوتوغرافية المأخوذة في غرف ولسون، حيث يمكــن معايــنة آثــار الجسيمات الأولية، أن يكشف عن وجود مثل هذا الجسيم الموجــب، ففــي هذه الغرف يسود حقل مغناطيسي، فترسم الجسيمات مسارات منحــنية في اتجاه أو آخر حسب إشارة شحنتها الكهربائية. وقد كشف أندرسون عن أثر لمسار ينحني في اتجاه معاكس لاتجاه آثار الالكترونات. إنه أثر لجسيم شــحنته معاكسة تماماً لشحنة الالكترون. ثم أمكن قياس كتلته، فكانت هي كتلة الالكــترون نفسها. وهكذا إذاً وجد جسيم ديراك"(1). وهكذا يتبين أن ديراك لم يكتشــف الجسيم الذي رآه عقلياً حتى جاء أندرسون وكشف عن وجوده بالدليل والــبرهان. فــالعقول تشــهد أشياء كثيرة في الذاكرة ولكنها لا تعرف دائماً ما تشــهد، فآناً وآن. والعقل ينهل من الذاكرة، والذاكرة محجوبة أحياناً بالظلمة أو مشرقة أحياناً بنور العقل. وعند الإشراق نشهد الوجود، وما كل ما نشهده نعرفه حــتى فــي وضــح النهار. فكيف إذا كان ما نشهده مطوياً بين ضباب الذاكرة وأبجديــة العقــل الذي عليه أن يقوم بالترجمة. والهوى يشدنا، والهموم تعصف بــنا. وأي عقل سيترجم إذا كان كل عقل مشغولاً بليلاه وقتلاه كما قال بشار بن بــرد عن العيون التي في طرفها حور وكم من الحور في العيون والقلوب. ففي أي لحظــة سنغوص ونغوص في تلافيف الذاكرة لنرى الكون، والتكوين يشدنا ويحيــرنا. لهذا كان المكتشفون قلة. وهؤلاء كان العلم ليلاهم فلم يشهدوا غيره ولــم يحــبوا سواه، ولهذا نجحوا عندما قرؤوا ما في ذاكرتهم قراءة صحيحة. فشاهدوا ما تحويه الذاكرة مطابقاً لما في الوجود، فأخذوا قوانين الوجود السارية وطــبقوها فــي الصناعات مما أتاح الفرصة أمام التطور. فالماء قد يكون في الصــحراء ولكننا لا نعرف مكانه فتظل الأرض عطشى. وحينما نعرف مكانه، ونعرف كيف نستخرجه تخضر الأرض، وتزهو بنور العقل المفاض، ونحن لم نخــترع الماء، ولكننا اكتشفناه. ونحن لم نضف جديداً إلى العقل ولكننا طورناه بــالأدوات والوســائل وجعلــنا له عيونــاً أقوى، فتجلى لنا ما لم نكن نراه في الصحراء... فاخضرت الأرض وزهت بنور العقل المفاض، فأين الجديد، وأي جديــد عرفــناه فــي الوجود القديم. هل عرفنا غير ما كان وما هو كائن، كما نكتشف الجزر المجهولة في المحيطات. ويجدف العقل في عالم الذاكرة بمراكبه الشــراعية. جــدف أيهــا العقل إلى المدن المجهولة، واستخدم الرياح المواتية وابحث في الصباح عندما تشرق الشمس عما تريد أن تراه، لأن الظلمة تحجب الحقــائق. فــإذا رأيت شيئاً لا تقل إنك اخترعته، ولكن قل بتواضع إني وجدته،

لأنه كان قبل أن تكون، فأين كنت أيها العقل، وكيف جئت؟

أيـــن كـــان العقل قبل أن يصبح الإنسان أو يظهر، ومن أين جاء، وكيف؟ أســئلة تبلبل العقول وتصيبها بالحيرة والذهول. وهل لنا غير الظن، أو الإدراك مـــن خـــلال الأسباب. نحن لا نريد أن ندعي ولكن لنجرب وليجرب كل إنسان يريد أن يعرف ويسأل نفسه. من أين جاء الحادث؟ وكيف؟. والإنسان حادث من حـــوادث الوجـــود، لأن ظهوره في الوجود كان بعد سلسلة من الحوادث. إذ تم تمهيـــد الأرض وأعقـــبه ظهور النبات ومن ثم الحيوان، ثم ظهر الإنسان. فأين كان والوجود كما قلنا لا يفيض إلا مما فيه. فهل كان عدماً والعدم لا يوجد ولن يوجـــد، أم كـــان موجوداً ولم نلمس له أي وجود عبر مليارات السنين كما يقدر العلماء عمر الأرض. فأين كان؟. هنا يجب أن نلاحظ عملية الفيض أو التجلي. تجـــلي العقـــل الكونـــي، ولا يمكـــن أن نلاحظ هذه العملية إلا من عقولنا لأن المجهـــول لا يســـتدل عليه إلا من المعلوم. فالعقل أو النظام هو واجب الوجود للإنســـان كمـــا هـــو للشمس والقمر والأكوان كلها. وإلا لو فقد النظام أو العقل الذاتـــي لكـــل جـــرم لما تحرك المتحرك بنظام، ونحن لمسنا في أنفسنا المشيئة والإرادة للاخـــتيار والاخـــتراع ضمن الحدود التي تسمح بها القوانين الكونية. ولهـــذا نستدل على وجود مثل هذه الإرادة والاختيار لدى القوة التي بثت النظام والعقل في الكون. وقد علمنا أن فاقد الشيء لا يعطيه. فمن لا يملك الاختيار لا يستطيع أن يعطينا الاختيار، ومن لا يملك الإرادة لا يستطيع أن يعطينا الإرادة، لهـــذا نقـــول إن الكـــون لا يجري ذاتياً وفقاً لقوانين ذاتية. صحيح إن القوانين موجـــودة ولكـــن الإرادة موجـــودة. سنتحدث عن الإنسان. والإنسان لا يجاري الخـــالق فـــي شيء ولكن للتقريب. ومن المنطقي القول: إن ما يملكه الموهوب يمـــلكه الواهب وزيادة. ومن يعطي للكل ليس كمن يعطي للواحد. فأين الإنسان مـــن الوجود ومن الموجد، والموجد يعطي لكل العقول عقولها؟. ألا تدل البعرة على البعير، وآثار الأقدام ألا تدل على المسير كما قال الأعرابي بمنطق بسيط؟ بهذا المنطق نريد أن نبحث في تجلي العلم بالإنسان، وطريقة الفيض الإنساني. لـــنأخذ إنســـاناً ما اسمه محمود مثلاً. هذا الإنسان عالم بالرياضيات، والهندسة والموســـيقى. كيف يعمل ويبدع. تأتيه الأفكار من عقله. فكرة عن بيت جميل، عـــن لحن موسيقي، عن لوحة فنية. هذه الأفكار تتزاحم في العقل ثم يختار منها واحدة ويبدأ بتنفيذها. فكرة البيت مثلاً. يبدأ برسم ملامحه في العقل، ثم ينزل ما في العقل إلى الورق، ثم يأتي بالعمال ليحولوا ما بالورق إلى أعمال حتي ينجز الـــبيت ويظهر. الفكرة استخدمت عناصر من الوجود لإنجاز البيت. وهكذا كان

لا بــد للفكرة كي تظهر من المادة. وهكذا بتآزر الفكرة مع المادة ظهر الوجود المــبدع وتميزت الحجارة والمادة القديمة من المادة الحادثة. فكرة اللحن، اللحن يــتم تأليفــه فــي العقل ثم ينفذ على الأوتار ويكتب على الورق نوطة ليعزف. وهكذا ظهر تجل آخر للعقل الإنساني في الصوت. الصوت موجود في الوجود ولكــن الصــوت الحادث غير الصوت القديم الذي فاض عن العقل. اللوحة تبدأ كفكرة ثم تنزل إلى الورق وتكسى بالألوان فيبرز جمال الوجود الحادث ويتميز عــن الوجود القديم. دائماً كانت الفكرة تسبق العمل. ولكن الفكرة لكي تظهر لا بد لها من رداء، ورداؤها المادة القابلة والمطواعة لإظهار الفكرة. فالموسيقى لا ترســم بــالألوان ولكن بالأصوات. هذه بديهيات في الوجود، والشعر لا يظهر بالمشــاعر الجياشة ولكن بالصوت وعذوبة الألفاظ وسحر الكلام. من هنا تميز الإنسان الشاعر عن الإنسان غير الشاعر، والإنسان من الحيوان. ومن هنا تميز الكــامل من الناقص، أو الإنسان الكامل من الإنسان الحيوان المفترس المتوحش الشــيطان. فالفيض هو جزء من المفاض عنه. وهو صورة له. ولهذا نقول إن محمــوداً هو المهندس الموسيقي الرسام. إننا حكمنا عليه بما فاض منه أو ظهر وتجلى. فبعض عقله هو الذي أصبح بيتاً ولحناً ولوحة. ألا يدلنا هذا على طبيعة الفيــض مــن المفيض الكامل صاحب العقل المطلق. إذا كان لكل وجود نظامه وعقلــه، ألا يدلنا تركيب الوجود واتصاله وتكامله على العقل الشامل الكامن في الوجــود والحاكم عليه كما يحكم عقلنا على أجسامنا. فالعقل الكوني يركب من الوجــود الصور المناسبة لإظهار كل فكرة ظهرت أو ستظهر في الكون. فهو الخــالق والصانع دائماً وأبداً بأمره الأول وعنايته أو بالأسباب التي تعاقب الليل والــنهار لإظهار الإنسان الكامل الخليفة على صورة الرحمن وفقاً لإرادته التي لمســنا بعضــها فينا. لهذا استنتجنا حريتنا المعطاة لنا من العقل المطلق للحكم علينا فيما سنقوم به من الأعمال طبقاً لما نلناه من الحرية. أما إذا أخذ ما وهب أو بعــض مــا وهب فقد أسقط ما أوجب. ولهذا أسقطت الزكاة عن غير مالك النصــاب الكــامل من المال. وأسقطت الصلاة عن المريض والعاجز. وكذلك ســمح للمســافر والمــريض بالإفطار. وطولب العاقل بمعرفة الله ولم يطالب المجــنون بذلــك. فأحكــام الوجود صدرت ليتميز الصالح من الطالح. والعقل المطــلق يحيط بكل ذرة في الوجود لأنها منه وإليه. لأنها كونه وتجلي عقله، لا تخــفى عليه خافية، فهو يسمع ويبصر ويحكم على من أعطي الحكم ليعدل. أما من لم يعط الاختيار فحكمه حكم العاجز، ولهذا سقط الحكم عنه. وإن معرفة الله المســبقة للإنسان لا تعني أنه فرض عليه أن يرتكب الشر وينسبه إلى مبدعه.

فنحن نعرف أن الكهرباء تضيء وتحرق وتدفئ وتبرد. والصانع يعرف هذا، ومع ذلك فقد أعطيت لنا لما فيها من الفائدة. فإذا استخدمناها للإحراق فليست مسؤولية الصانع. نحن في أحوالنا كبشر أحرار في حدود، ومقدر علينا في حدود. وفي حدود هذه الحرية تكمن مسؤولياتنا. فنحن الخلفاء فيما استخلفنا فيه من العطاء، ونحن العبيد فيما لا نملك. وإن كان الإنسان الصادق لا يدعي امتلاك المستعار من ملك غيره. ولهذا يعترف الكامل بعبوديته المطلقة، والناقص يدعي السيادة على ما وهب له من سيده. ومن هنا نشأ الثواب والعقاب.

لقد لاحظنا حتى الآن أننا فيض من فيض، وعقول من عقل كلي، ووجود من الوجود. وقد سئل أحد العلماء، هل الأكوان التي نراها مسكونة برأيك، فقال له العالم: وهل تعمر أنت بيتاً ليس لك فيه غاية. قال لا. فقال العالم: إذا كنت أنت لا تبني بيتاً بدون غاية فهل تظن أن ربك يفعل هذا. لا يوجد عبث في الكون، وتجلى الله بأسمائه عن العبث. كيف نتكلم عندما نعجز عن الإفصاح. الموسيقي يبدع اللحن ليس للناس، هو لنفسه قبل أن يكون للناس، يبدع لأن الإبداع من طبيعة المبدع. ولكن الناس يستفيدون من ظهور اللحن، يستمتعون به، يشهدون بعظمة الفنان. والموسيقي بدون حاجة لشهادتهم يبدع، فالإبداع له، ولكنه يطالبهم بالشهادة إذا كانوا من أصحاب الفهم والشعور، ويغضب من الجاهلين الذين ينكرون عليه عظمة لحنه. يقول لهم اذهبوا وتعلموا الموسيقى لكي تعرفوا عذوبة ألحاني. أحياناً يشرح لهم لكي يفهموا، لكي يتذوقوا، لكي يحسوا، وإبداعه لا يزيد ولا ينقص بسبب جهلهم أو علمهم. إن الكون لوحة العقل الذي لا بد منه لظهور التجلي ما دام هناك سمع وبصر. والإنسان هو الشاهد، شاهد حق أو شاهد زور. والشاهد لهذا سيسأل عما أعطي له، عن الطريقة التي تصرف بها في هذا العطاء. وإذا كنا نحن سنسأل أولادنا عن حصادهم في آخر العام الدراسي، عما حققوه وأنجزوه، وعما صنعوا بما أتحناه لهم من الفرص والراحة للدراسة. إذا كنا سنفرح بنجاحهم وتفوقهم، وسنغضب لإخفاقهم وقد نضربهم وقد نحرمهم من أشياء كنا نعطيها لهم. ليس بسبب حاجتنا إليهم. فحتى لو كنا من أصحاب الملايين سنغضب لإخفاقهم. بسبب حبنا لهم، وحرصنا عليهم، بسبب هذا الحب وحده. فماذا نقول عن المبدع المعطي الذي يملك الوجود كله. أليس من الطبيعي أن يسألنا عما فعلنا بالعقل الموهوب لنا، وعن السمع المعطى لنا، وعن البصر المشهود لنا، وعن كل الحواس والقوى؟. أليس من الطبيعي أن نسأل عن الملك الذي وهب لنا كيف تصرفنا

فيه. وفيما إذا كنا قد أصلحناه أو خربناه. لهذا نستنتج أن الصانع لا بد أن يسأل المصنوع عما فعله. لا تقل لماذا سيسألنا من يملك الوجود عن أعمالنا في أرض لا تشكل ذرة بالقياس إلى الكون. فهذا من العدل كأن يسأل الغني مهما بلغ غناه الخادم عما أصلح أو أفسد في مكتبه؛ ليثيبه أو يعاقبه أو يتجاوز عنه بحسب أعماله فهذا حقه. ليس لأنه أفسد له ما يملك، ولكن لأنه أفسد فيما لا يملك. إذا كان لك عشرة أولاد واعتدى أحدهم على الآخر فإنك كأب للمعتدي والمعتدى عليه ستهب لإنصاف المعتدى عليه إن عاجلاً أو آجلاً. قد تنذر المعتدي، قد تهدده بالعقاب، وتنتظر لعله يصلح نفسه، لعله يصلح ما أفسد. ولكنك في النهاية تعاقبه إذا أصر وكرر اعتداءاته. وقد يكون متزوجاً، وقد يكون له أولاد، وقد يكون فقيراً، وأنت من الأغنياء. ولكنك حين تطرده قد تأخذ منه البيت الذي وهبته له وقد تحرمه من الإعانات التي كنت تعطيها له، فتكون جنايته على نفسه وعلى زوجه وأولاده. ولا أحد يقول لك إنك ظلمته غير ظالم مثله، أو إنك ظلمت أولاده مع أن أولاده قد يكونون صغاراً ولا يفقهون شيئاً، وقد يكونون كباراً ولا يوافقون على تصرفات أبيهم. ومع ذلك فإنهم يتحملون بعض ما جناه الأب، وقد يعطف الجد على الصالح منهم والبريء فيمد لهم يد المساعدة. وقد لا يفعل وهذا من العدل. وكلنا أبناء آدم. وأبناء آدم كلهم أحباب الله. لهذا كان لا بد من العدل لإنصاف الظالم من المظلوم. إن السؤال هو للعدل، والحساب عين العدل، والعدالة تمييز وليست مساواة. تمييز بين من أعطي كثيراً وبين من أعطي قليلاً. العدالة لا تحاسب الشرطي مثل الوزير ولا الغني مثل الفقير. لهذا وجدت موازين لا تحصى للحساب. نحن لا نريد أن نتحدث عن طريقة الحساب بعد الموت. ولكننا نستطيع أن نقرر عقلاً بأن من صنع شيئاً يستطيع أن يصنعه من جديد. وبما أن الصانع الذي صنع وأعطى طلب من المصنوع شيئاً أو أمره بشيء فلا بد أن يسأله عما فعل بالأمر المعطى إليه. العقل الإنساني السوي يرفض الظلم ويأنف منه فكيف بالعقل الإلهي الذي يحرك الوجود. لهذا قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا"(2).

ليس هناك عبث في الوجود. وكل صاحب عقل يستطيع أن يبصر الحقائق التي نتكلم عنها. لجأنا إلى العقل وحاولنا بقدر ما نستطيع أن نتجنب البحث في الأدلة الشرعية أو الدينية لأننا أردنا أن نتحاور بالعقل، وأن نفهم بالعقل، وأن نبصر بالعقل. قبل أن ندخل في مفاهيم الأديان والمعتقدات والشرائع. وإن كان لا بد لنا من البحث في الشرائع والأديان لنستمد من قبس النبوة ما تعجز عقولنا

عن الوصول إليه. فلكل علم رجاله، ونحن لا نستطيع أن نعلم علم الأنبياء والرسل إلا منهم. وهم أكثر الناس معرفة بما نتحدث عنه، ولهذا سنعتمد على أقوالهم لمشاهدة مستوى التطابق بين منطق العقل ومنطق النبوة. لنتأكد بأن ما يشهده العقل لا يتعارض مع ما شهده الأنبياء بالوحي. ولكن قبل أن نتحدث عن الوحي في إطار الأسئلة الإنسانية الكبرى، سنتحدث عن علوم العقل بالحوادث الكونية كي تكتمل اللوحة عن مدركات العقل وعلومه، ثم سننتقل بعد ذلك لمقارنة هذه العلوم العقلية مع علوم الوحي، للبحث عن الأجوبة لأسئلة الإنسان الكبرى في الوحي كما شهدناها في العقل.

الوجود القديم والوجود الحادث

لقد توصلنا إلى أن كل وجود يتحرك وفقاً لعقل أو نظام، وبهذا النظام يتحرك المتحرك ويسكن الساكن، وتنمو الشجرة، ويطلب الطفل ثدي أمه. ونحن لا نستطيع أن نقول بأن الطفل يطلب الحياة وهو لا يعرف معنى الحياة ولا معنى الموت. ولو وضعنا أمامه الماء والنار فإنه سيمد يديه إلى النار لأن لونها أكثر إثارة. والطفل المخلوق من ذرة في كيان الرجل لا يستطيع أن يفكر بخلق نفسه لغاية، وهو جاهل بما يضره أو ينفعه. والجنين في بطن أمه لا يمكن أن تقدم له الأم أي رعاية حقيقية بإرادتها. فالجنين يتحرك وفقاً لنظام، وينمو وفقاً لنظام دقيق لا يعلم عنه شيئاً، فأين العقل الذي نتحدث عنه. لهذا يجب أن نميز بين العقل القديم والعقل الحادث، فإن عقل الطفل القديم هو عقل أبويه. عقل آدم. فكما أن في البذرة سر السنبلة. ولكن السر لا يظهر إلا بموت البذرة في أرض الطبيعة. فكذلك بذرة الإنسان لا تظهر إلا حين تذرع في الأرحام، في لحظة فناء الرجل بنصفه الآخر. عندها تتشكل النطفة. والنطفة من حيث الواقع هي الوجود الحادث، والوجود القديم. إنها الوجود الحادث من حيث الظاهر، والوجود القديم من حيث الباطن، أو السر، والغاية. ولهذا نسبنا إلى النطفة العقل حيث لا توجد غايات أو معرفة أو حتى إرادة للحياة، وإنما نظام، يدفع للحياة ويقود إليها. والعقل الحادث هو في حالة كمون، إنه شمعة تتوهج من طاقة غير كافية لإظهار العقل القديم. إنه عود ثقاب صغير يحتاج كومة من اللحم والعظم والغذاء ليصبح ناراً أو سراجاً. ترى لو تمكنا من تسريع نمو الجنين إلى مرحلة النضج والرجولة خلال أيام هل سيختلف العقل الكامن عن العقل الذي ينضج

خلال سنوات، من حيث الاستعدادات الفطرية في الانسان. المسألة لاتعدو في مثالنا عن تسريع نمو شجرة حيث لن تختلف في مواصفاتها وثمارها عن الشجرة التي ستنمو ببطء. فالبذور هي كلمات العقل الكلي المصنوعة من آنية الطبيعة، العقل يبدع والطبيعة تظهر. والفكرة مثل العقل. كما أن العقل لا يدرك ولا يوصف ولا يقال عنه إنه في مكان أو له زمان. فكذلك الفكرة هي غيب في العقل لا تظهر إلا في الطبيعة. ولهذا كانت الطبيعة لوحاً للعقل. ولذلك كان العقل سيداً والطبيعة لوحاً للكتابة. منذ الأزل كان العقل القديم في قدمه، في أزليته هو نفس العقل المطلق لم يتغير ولا يتغير. لأن العقل المطلق هو عقل الكون. والكون، الوجود كما إنه لا يزيد ولا ينقص فإن العقل لا يزيد ولا ينقص. فالعقل المطلق للوجود المطلق. لهذا اختلف القديم عن الحادث. فالإنسان كحادث يتطور بالغذاء. عقله وهو في عالم الذر من جنس حجمه. ومناسب لوجوده. ولهذا لا تظهر ثمار العقل إلا مع مرحلة النضوج الكامل حيث تصبح الطاقة كاملة. وتنقص هذه الثمار عندما يبدأ الانحدار في سلم الهرم. أو إذا تعرضت هذه الطاقة لخلل ما. هذا هو الإنسان الحادث في قدمه. فهو يتقلب بين مستويات النضج الطبيعي في مراحل العمر المختلفة. وكل جرم يكشف عن عقل مختلف عن العقل الذي سبقه. فالإزهار غير الإثمار. فالحادث هو حادث له بداية وله نهاية. ولكن الحادث كان في ذات المبدع أزلاً وإلا ما خرج إلى الوجود. ولكن وجوده كان فكرة ممكنة. والممكن لا بد لظهوره من إرادة للإظهار أو ترجيح. لأن الحادث لا يخلق نفسه ولا يستطيع وإن كان فكرة مشهودة للموجد. فلا بد من وقت للإيجاد. إنه مثل فكرة المهندس الذي يريد أن يبني بيتاً. تظل الفكرة في ذات المهندس إلى حين ظهور البيت. وبين الفكرة وظهور البيت ستمر مرحلة التكوين. وفكرة التكوين تبدأ من تكوين الأساس إلى مرحلة البناء فالكسوة حتى يكتمل البيت بالتزيينات ويصبح كاملاً صالحاً للسكن. لذلك اختلف القديم عن الجديد. كان فكرة فأصبح حقيقة. كان غيباً فأصبح شهادة. لهذا اختلف الحادث بأن له تاريخ، له ماض وحاضر ومستقبل، إنه يسير عبر الآنات إلى حقيقته الغائية المرهونة بالآنات، بالزمان. لهذا انقسم العلم الإنساني إلى نوعين من العلم. علم بالحقائق الأزلية، وعلم بالحوادث. علم الحقائق مطبوع بالعقل. أما علم الحوادث فهو علم بالتاريخ الكوني، وهو علم مجهول للإنسان، لأن الإنسان لم يشهد تطور الكون وتطور خلقه. ولأن مثل هذه الشهادة تتعلق بالسمع والبصر. وعلوم السمع والبصر ليست من جنس علوم العقل. لهذا ظل الإنسان يعبر عن علمه بالتاريخ بخياله والخيال يخطئ

ويصيب. لأن التحقق مما نتوقعه عن تطور الكون شبه مستحيل وإن أصبنا، فالتحقق يحتاج إلى إعادة شريط الحوادث الكونية بعكس الاتجاه، إلى الماضي. وهذا ما لا نستطيع أن نفعله إلا بالخيال. وهذا الخيال لا يملك البرهان على ما نتخيله. بينما نستطيع في الحقائق الأزلية أن نتقصى عن البرهان حتى نجده. فالذاكرة تنبئنا بوجود المادة المضادة مثلاً في الكون. فنرسل الخيال إلى الطبيعة لنبحث فيها عن هذه المادة. وباستخدام الإمكانيات العلمية المتوفرة نتحقق من وجودها أو عدمه، حيث يشهد السمع أو البصر بوجودها لأنها من مركبات الطبيعة. أما الحوادث مثل تاريخ شخصي لبيت أثري فنحن نستطيع أن نعرف العناصر التي يتألف منها، ولكننا لا نستطيع أن نعرف ما أنجز في كل لحظة حتى اكتمل البناء، والأدوات التي استخدمت في هذا الإنجاز. وإن كان خيالنا يستطيع أن يذهب شتى المذاهب لرؤية ظنونه في الطبيعة ومحاولة التحقق منها. ولكن الحقائق في هذه الحالة تظل أقل شفافية من صورة معكوسة في الماء تهتز في كل حين، فلا يتمكن الخيال من ضبطها. وكل حقيقة تحتاج لكي تعرف إلى شهادة الشهود. والشهود في الإنسان هم الحواس، السمع والبصر. ولهذا لكي ترقى الحقائق إلى مستوى عين اليقين يجب أن تشهدها العين كما شهد العقل بصحتها. وإذا اختلف المشهود عن المعقول، فإن المشهود يرفضه العقل. والعكس يحدث إذا عرف المعقول ولم يشهد. لهذا قد نتفق على تركيب المواد التي بنيت منها الأهرامات. ولكننا سنختلف على تاريخ وطريقة بنائها. لأن العقل يدرك النظام. يدرك ما هو من جنسه، المعقولات الكلية. يدرك بأن بيضة الدجاجة ستصبح دجاجة بعد ثلاثة أسابيع مثلاً إذا وضعت في حرارة معينة ونظام معين. ولكنه لا يدرك لحظات التطور في البيضة إلا إذا أحاط بالأسباب. وتعدد الأسباب الكونية لا يسمح بمثل هذه الإحاطة. ولذلك على العقل أن يعرف حدوده في المعرفة. ومعرفة هذه الحدود علم كما أن البحث فيما لا يمكن معرفته جهل. "العجز عن درك الإدراك إدراك"(1). كما قال الصديق. ومعرفة ما لا يحاط به علم. وكما إن العقل الإنساني يعرف ولا يُشهد، وليس له مكان في الجسم وإن كان في كل مكان. فكذلك العقل الإلهي يعرف ولا يشهد ولا يحاط به لنعرف الحوادث منه. والكون كله في تجدد. وكل لحظة تجري فيها الحوادث فنشهد آثار العقل المطلق الحاكم على كل شيء بما أراد أن يحكم. فأين الامتزاج وأين التخلق. وأين شهود العين ممن لا يشهد بالعين. تعالى الله عن العلم ليعلم، وعن الجهل ليجهل. فهو المعلوم المجهول. وتعالى عن المواد ليدرك بها. والطبيعة مظهر أحكامه ومنصة ميزانه. وإن ظهر لنا منها ما

أظهر. فهو ليس الظاهر بالحقيقة وإنما الظاهر بالحكم، بالأسماء. وكما قال الشيخ محي الدين بن عربي: "لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت. فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته. فهو هو لهو لا لك. وأنت أنت لأنت وله. فأنت مرتبط به، ما هو مرتبط بك"2. فكيف سيحيط العقل الإنساني بالحوادث. والعقل الإنساني فيض من فيض العقل الإلهي وحادث من الحوادث. ولهذا كان العجز الإنساني في إدراك حوادث الوجود عجزاً لا شفاء منه. وبهذا العجز تميز العابد من المعبود. وتميز القديم من الحادث. وإن كان الإنسان أكمل العقول الآن في الوجود الحادث في مجموعتنا. ونقول الآن لأننا لا نعلم شيئاً عن الإبداع الإلهي في الأكوان القريبة منا، فكيف بالبعيدة. ولا نعلم شيئاً عن المستقبل وما سيبدع فيه، فهو الله المبدع من ذاته لذاته، لرؤية الإبداع. لنقل إن العقل هو الرب في الإنسان، والكون هو الصورة، هو الطبيعة. إن العقل المبدع سيفيض بالإبداع لأن الإبداع من طبيعته. الموسيقي محتاج إلى الموسيقى، إلى التأليف بين الأنغام لصياغة أصوات تتردد في أذنيه وفي الوجود. والرسام محتاج إلى الرسم لتأليف ألوان تعشقها العين تضفي على الوجود الجمال والكمال. والشاعر محتاج إلى الكلام لإطلاق كل المشاعر التي تجيش في عقله وحواسه. ولكن الموسيقي والرسام والشاعر غير محتاج لإبراز هذا اللحن أو اللوحة أو القصيدة بالتحديد، فهو غير محتاج، وإن كان لابد من الإبداع للمبدع. لهذا إن أماتنا الله يأتي بغيرنا. وإن بدل صور الأكوان سيأتي بصور جديدة. التبديل جار في كل لحظة وهو حقيقة. ولكن التوقف عن الإبداع غير وارد. فهذا من صفات المبدع ولابد من ظهور صفات العقل في الكون لظهور العقل ومعرفته. في نطاق القوانين يتصرف العقل. ما تقبله المادة، كما قلنا لا يمكن أن نحول الأصوات إلى بيت جميل. ولكن الصوت نفسه يمكن أن يتحول إلى طاقة مدمرة. لأن حقائق المادة وتركيبها تسمح بكذا، ولا تسمح بكذا. هذا النظام مطبوع في العقل الإنساني. ولهذا يتم كشفه قبل أن تبصره العين في العديد من الاكتشافات العلمية. فالاكتشاف يبدأ من تقديرات العقل، من انشغال العقل بالذاكرة، العالم يغلق بابه ويتأمل الحقيقة التي يبحث عنها في رأسه، ويرسل خياله إلى الوجود. يتأمل ويتذكر. يضغط على الدماغ لكي يرفع المزلاج عما في الرأس، في الذاكرة. وعبر التأمل الطويل يكتشف ما كان يبحث عنه، مثل بريق تبدو الفكرة مضاءة في سماء العقل. والعقل ينهل من العقل. من شيء آخر داخل العقل. من ذاكرة الإنسان. والاكتشاف قد يكون كاملا. وقد يكون نصف اكتشاف ثم يبدأ السمع أو العين، الحواس بالتجريب للتأكد ثم تظهر النتائج، إما متطابقة مع منطق العقل

أو مناقضة له. في كل مرة وعبر الأزمان الإنسانية يدخل العلماء إلى غرفة ذاكرة تحتوي على نظام الوجود الذي تشكل الإنسان وفقاً لحقائقه ومعهم المصابيح المؤلفة من سجل كتبه من سبقوهم. كما لو أن رحالة وصف لنا مدينة في القرن التاسع عشر. فإننا لو دخلنا المدينة في نفس الزمن فسوف نجد بعض المعلومات الناقصة أو التي أغفلها المؤلف، أما لو دخلنا في القرن العشرين فإننا قد نفاجأ بأن المؤلف يتحدث عن مدينة أخرى. ولكن بعض الحقائق الرئيسية ستدلنا على أن المدينة التي وصفها هي نفسها كما لو أنه وصف لنا القاهرة والأهرامات والنيل. فهذه علامات وحقائق مميزة للمدينة، ولهذا سنحكم بأن المدينة تطورت وتغيرت. لهذا قد تكون بعض معلومات الإنسان صحيحة في وقت معين وخاطئة في وقت آخر. فلو اختفى النيل أو الأهرامات ستقل الدلالات عن المدينة التي يتكلم عنها المؤلف. وإن كان اسم المدينة سيظل كتعبير عن تجمع بشري كبير. لهذا يصبح الاكتشاف في بعض الأحيان مرهوناً بزمن معين ومكان معين. فقانون الجاذبية صحيح على الأرض، ولكن هل هو صحيح في الفضاء أو في المجموعات الكونية الأخرى بنفس النسب الرياضية. الجاذبية موجودة كقانون مطلق مثل قانون تحول المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة لأن الجاذبية ضرورية لترابط الكون. أما الأخطاء فإنها تتعلق بالأرقام. بما افترضنا صحته دون اعتبار للمكان والزمان. وهذه مسألة مثل النار التي لا توجد إلا محمولة في المادة. فهي في زمن مضى حالت دون ظهور الحياة على الأرض حسب تقديرات العلماء. ثم عندما أصبحت في درجات أكثر انخفاضاً ساعدت على ظهور الحياة. ثم جاءت الشمس لتقوم بالمهمة. لهذا فإن علم الإنسان بالحوادث يخطئ ويصيب لأنه علم مرتبط بالتجارب والخبرة والأحاسيس، علم مرتبط بالشهود، السمع والبصر والحواس. والشهود لا يمكن أن تطلب منهم الشهادة فيما لم يشهدوه، لأن شهادتهم ستكون مزورة. ولهذا سيرد العقل العادل السليم هذه الشهادة. بينما شهادة العقل العارف بنفسه ستكون هي الصحيحة، في بحثها عن الحقائق الكلية المنطقية. وعندما يسرق شيء يحكم العقل بأن السارق هو إنسان ما، ولكنه لا يقبل شهادة الشهود إذا لم يشهدوا برؤية السارق. والظن لا يكفي. ولهذا تبدأ مهمة العقل، بربط المادة المسروقة بالمحتاج لسرقتها، حتى يتحقق المطلوب ويعترف المذنب بذنبه فتسمع الأذن وتشهد العين فيرتاح العقل إلى حكمه الصائب. فيصدر الحكم المناسب. إن كل تركيب في الوجود يشهد على نفسه بما فيه. وللعين حكم على هذا التركيب، وللسمع حكم، وللعقل حكم. هذا فيما يشهد. ولكن كيف سنحكم على

مالا يشهد. هل هناك من وسيلة للإدراك غير مقابلة مالا يشهد بالحواس بما لا يشهد لنا وهو فينا أي العقل. لننظر إلى تناسب الأحكام ولنتأمل كيف نحكم بالغيب فينا على ماهو غيب في المادة مما لا يُشهد بالسمع أو البصر. كيف اصدر العالم حكمه على وجود المادة المضادة عندما رآها بالعقل. فصار العقل هو السمع والبصر والحواس. ثم اكتشفت بالتجارب. لهذا قلنا إن العقل هو مرآه للقوانين الكلية. لأننا بالتجربة نلمس بأن المكتشف علمياً هو كامن فينا. هو في الذاكرة. وإلا لو كان خارج الذاكرة فمن أين سنكتشف مالا نراه قبل أن نراه. لهذا ميزنا بين العلم القديم بالقوانين الأزلية المطبوعة في ذرية آدم، وبين الحوادث الكونية. بين قضية الماء كأصل للحياة، وبين جريان النهر ووجود النيل أو اختفائه. بين ما يدرك بالعقل. فالعقل هو المحيط غير المحاط به. هو الكمال الإنساني مع أنه لا يشهد ولا يعرف إلا بآثاره. فأين العقل، وأين الذاكرة، وأين الضمير، وأين النفس، وكلها قوى للعقل مختبئة في ضباب الهالة الجسدية. ولو شرحنا الجسم والرأس لما وجدنا إلا عظاماً ودماً ونخاعاً فهل هذا هو العقل. إن كل هذا المزيج من اللحم والدم والعظم والأعصاب هو من أجهزة العقل. ولابد أن يكون للعقل موقعه في الجسم أو في الرأس. وقد يكون العقل في الجسم مثل نور الشمس الذي نكشف به الشمس والأرض. فإننا لا ندري حتى الآن وإن كنا نعرف بأن إصابة الدماغ تؤدي إلى خلل عقلي للمصاب. ولكن الرأس قد يكون مثل مركز للاتصالات إذا أصيب بخلل سيؤدي إلى تعطيل كافة الاتصالات. ولهذا فإن تحديد مكان للعقل غير ممكن بالاعتماد على ملاحظة العلاقة بين سلامة الدماغ وسلامة العقل. إن المغناطيسية تدلنا على وجودها بالآثار. ويمكن أن نفسرها بوجود الكهرباء وحتى أن نصنع الحديد الممغنط ولكن الهالة المغناطيسية التي تنتشر حول القطعة الممغنطة لا تحتاج إلى مركز أو لنقل إلى دماغ لإحداث المغنطة. فإذا بحثنا في قطعة لن نجد، ولن نلمس شيئاً ما قد تشكل في منطقة معينة في القطعة نتيجة المغنطة، ما عدا التيارات الكهربائية التي قد يكون لها مركز تتقاطع فيه. أو تلتقي. ونحن لا نريد أن ندخل في بحث المغناطيسية، ولكننا نشير فقط إلى أن مادة الحديد الممغنطة تنشر هالة تحيط بكامل قطعة الحديد بنفس القوة في محيط القطعة بدون أن نرى أي إشارات ملموسة لهذه المغناطيسية التي لا نستدل على وجودها إلا بالتجربة. وإن السمع والبصر وكافة القوى الإنسانية عاجزة عن التمييز بين الحديد الممغنط وغير الممغنط بدون رؤية المغنطة في التجربة. وقد يكون هذا لغز بسيط من ألغاز المادة، أو الحديد تحديداً، يشير إلى صعوبة رؤية كل ما نشهده

في المادة ونحن نمسك بها بين أيدينا. فكيف سندرك كل ما يحتويه العقل المحدث وهو فيض من فيوضات العقل القديم. إن قطرة البحر قد تكون من حيث التركيب هي من نفس تركيب البحر. من حيث الماهية. ولكن هذه القطرة لا تدرك كل ما يجري في البحر من الحوادث. وقطرة البحر في السماء عندما تصبح غيماً غير هذه القطرة وهي في البحر. وهي غير ذلك عندما تسقط مطراً. فأين الإنسان من بحر الوجود الصاخب بإبداع صور الحياة. لهذا اختلف العلم والاجتهاد والمعرفة والإدراك. لأن المكتشفين مثل عدد من الرحالة قاموا بوصف مدينة واحدة في أزمان مختلفة. فكل واحد منهم سيصف ما يهمه مما رآه. وكل واحد سيصف ما رآه في زمنه. وللعقل توجهات، وللعين مشاهدات. ولهذا ستختلف الأوصاف طالما أن الحياة الإنسانية نفسها في تغير مستمر صاخب لا يتوقف، مع أن الماهية الإنسانية لا تتغير. واللسان قد يتعلم أن ينطق بالسرياني أو العربي إلا أن هذا من العلم المكتسب لا العلم المطبوع في الذاكرة، إنه من علوم الحواس، السمع هنا يتعلم الألفاظ، والبصر يتعلم الألفاظ، والبصر يتعلم القراءة بلغة العصر. أما العقل المتكون المطبوع فلن تتغير فيه الحقائق سواء سمينا الماء مطراً أو بحراً أو نهراً. وسواء كتبناه بهذا الحرف أو ذاك. فما في الطبيعة لا يتغير بناء على أوصافنا أو تسمياتنا أو لغتنا. وكذلك ما في العقل لا يتغير، لأن العقل صورة الطبيعة ومرآتها. كما إنه صورة الإنسان العارف بنفسه وبغيره، ولهذا رأينا أن كل اكتشاف تحقق لنظام الطبيعة وقوانينها فاض من العقل ثم قام العقل بإرسال شهوده الحواس للتحقق من صحة ما رآه. أما رؤية الحوادث. معرفة تاريخ الكون وتطوره المستقبلي فهذا شأن آخر لا يمكن إدراكه وإن كان بالإمكان إدراك بعضه ومعرفته معرفة يقينية فهذا له مجال آخر في البحث سنتعرض له.

لقد تحدثنا حتى الآن عن العقل الإنساني عبر فهمنا وتأملنا لحقيقة العقل، لإنتاجه وإبداعه. وحاولنا أن نعتمد على كل ما أوردناه بتأمل العقل الإنساني كما شهدناه، وكما يشهده كل إنسان. العقل كحقيقة كامنة في الوجود ومرتبطة به، متعالية على الطبيعة من حيث أحكام العقل وقدراته وحريته وسيادته على كل ما هو مادي في الوجود. كل ما يلمس ويظهر، وكل ماهو مركب من عناصر الوجود. فالعقل هو السيد لأن له السيادة، وهو العظيم لأن عظمته لا يجاريها أي وجود آخر. لأن العقل هو مبدع صور العالم. الصور التي لم تخلق على مثال سابق. لولا الإنسان لا يوجد تاريخ للإنسانية. فتاريخ الإنسانية هي أفعالها التي لم تكن ثم كانت، فهي عدم قبل أن تكون، وعندما تكونت الإنسانية

تكون تاريخ الإنسان. ليس العدم الذي نقصده في عملية الإبداع هو ما لا وجود لــه. وإنما الوجود المبدع من الفكرة العظيمة والمتحقق في المادة القابلة. وبهذا كــان مــا لم يكن. وما هو كائن لا يظهر إلا بارتدائه ثياب الطبيعة ليزهو بأبيه وأمــه، ويــزهو بمن أوجده. الفكرة والثوب، العقل والطبيعة، العظيم والقدوس، اللاهــوت والناســوت، الروح والمادة. أي فكرة شئت لا تظهر بدون أن تشهد، والشــهود لا يشــهدون إلا بالســمع والبصــر والحواس. هل تعرفت طعاماً لم تــتذوقه، أو رائحة لم تشمها، أو أجمل الصور بدون أن تراها، أو أعذب الشعر وآياته وطقوسه وأحزانه بدون أن تسمعه. إن القصيدة تقول للشاعر أكتبني لكي أظهــر، والموسيقى تقول للموسيقي إعزفني لكي أسمع ويدوخ بي السامعون،، لكــي تبكي القلوب أوتفرح. كل لون يستمد من العظيم والمقدس لكي يتألق في نهــر الوجــود الــثري بأشكال الحياة وبذورها وجمالها وتعاستها. لكي تظهر الأضــداد ويمتاز المبصر ببصره كي يقود الأعمى إلى شمس الحياة الدافئة التي لا تغيــب وإن أشــرقت الشمس وغابت، حيث لا موت، ولا حياة لمن هو حي بــالوجود. لقــد حاورنا العقل بالعقل. والعقول الإنسانية وإن كانت واحدة، فقد مــنعها مــن إدراك الحقيقة مانع، ولهذا لابد لكي يكون تأملنا لحقيقة العقل أكثر يقيناً، أن نلجأ إلى من كانوا أكثر علماً منا. لابد أن نلجأ إلى الذين تطهروا حتى فاضــت حقــائق الوجود على ألسنتهم رموزاً تناسب عصرهم. لابد لكي نعرف العقل الإلهي من البحث في سيرة الرسل وكلامهم وإشاراتهم لكي نتأكد فيما إذا كــان ما نقوله يتطابق مع ما قالوه أو يتناقض معهم. فالرسل أكثر الناس معرفة بالله. وأكثر الناس معرفة بأنفسهم. وقد كنا نود أن نعتمد في هذا البحث على ما جــاء عــلى لسان الرسل المعروفين وهم موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام. ولكــن ظروف كتابة التوراة والإنجيل التي حالت دون وصولهما إلينا بشكلهما الصــحيح السليم، هو السبب الذي يمنعنا من تتبع الإشارات المعروضة في هذه الكتب لحقيقة الله والإنسان. ولهذا فإننا سنكتفي بالاعتماد على القرآن والأحاديث النــبوية التي لا مجال للطعن في صحتها لإظهار رأي الدين الإسلامي وموقفه مــن المواضــيع التي نحن بصدد مناقشتها. وإن كنا لا نشك بصحة كل ما جاء عــلى ألسنة الرسل والأنبياء. ولكن المشكلة تكمن في صحة ما وصلنا مما أتى به هؤلاء الرسل. وليس لدينا أي وثيقة صحيحة غير القرآن والحديث وهما مما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام. يضاف إلى ذلك أن القرآن والإسلام كخاتم لكــل الرسالات السماوية، يحتوي على التوراة والإنجيل وكل الكتب التي سبقته من حيث المعنى. ولا نريد أن نعتمد في هذا الحوار على المجادلات اللفظية، بل

على الحقائق. وكل من يريد الحق سيجد كل دعوة إلى فضيلة وردت في التوراة والأناجيل موجودة في القرآن. وهذا مما يدل دلالة قاطعة على أن أمر الله الواحد لم يتعدد وإن تنوعت الألفاظ. فما أمر به الله وما نهى عنه اكتمل واجتمع في القرآن حتى لم يبق قول لقائل ولا جدل لمجادل، إلا لمن دفعه هواه وتعصبه أو جهله لهذا الجدال. ولسنا هنا بصدد الدفاع عن صحة عقيدة الإسلام. ولكننا نريد قبل أن نحكم على صحة الإيمان وأن نقارنه بصحة العلم وسلامة العقل. ولكي نوضح بعض الحقائق عن الظروف التي تم فيها تدوين التوراة والأناجيل الأربعة المعترف بها رسمياً لدى الكنائس، مقارنة بظروف تدوين القرآن والأحاديث النبوية. لابد لنا من عرض سريع لهذه المشكلة التي أدت إلى طمس الكثير مما كان بالإمكان الاعتماد عليه في الاستفادة لمناقشة المسائل التي نحن بصددها. والتي وردت توضيحات حولها في التوراة والأناجيل. ولنلاحظ أن لدينا أناجيل أربعة وليس إنجيلاً واحداً. لأن ما وصلنا من التوراة والإنجيل هو ما فهم من الرسل وليس ما نطقوا به. وهناك فرق بين كلام الرسول الدقيق، وبين كلام التلميذ أو رسول الرسول أو رسول رسول الرسول. ولهذا حتى إذا حاولنا أن نستفيد من بعض ما ورد في العهدين القديم والجديد فعلى أساس أن ما ورد في العهدين هو من كلام التلاميذ لا الرسل وهذه حقيقة لا يجادل بها حتى أصحاب هذه الكتب. فالذين كتبوا التوراة والأناجيل هم التلاميذ كل بحسب فهمه. وعندما نقول التلاميذ فلا نقصد الذين سمعوا كلام موسى أو عيسى عليهما السلام، وإنما الذين تناقلوا هذه الأحاديث ثم دونوها بعد عشرات السنين. بينما حافظ المدونون الذين دونوا القرآن على دقة اللفظ والحرف وطريقة الكتابة كما أمر بها رسول الله عليه الصلاة والسلام. وعندما بدأ تدوين الأحاديث حافظ المدونون على الكلمة كما وردت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم. وابتكروا طرقاً في تحقيق الأحاديث للتحقق من صحتها والحيلولة دون وقوع أي تزوير في الأحاديث، ولم يكتفوا بالمعنى، بل كانوا يطلبون النص كلمة بكلمة وحرفاً بحرف. وقد بين المحققون مستويات الحديث قويها وضعيفها حتى جعلوا من هذا العلم، علم الحديث علماً قائماً بذاته لا يمكن تصل إلى دقته أكبر المعاهد والجامعات العلمية في عصرنا لتحقيق النصوص القديمة. ولهذا سيكون اعتمادنا لأي نص ورد في التوراة والأناجيل على أساس أن النص هو مما فهم عن الرسول وليس ما نطق به. أي إنه كلام التلاميذ. والتلميذ قد يخطئ وقد يصيب في أداء المعنى. ولهذا سنأخذ ما نراه صحيحاً في حوارنا. وإن صحة بعض المعاني والأفكار لا تجعل كل ما ورد في التوراة أو الأناجيل صحيحاً،

كما أن كل ما ورد من أحاديث مما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليس صـــحيحاً وإن أصاب المعنى. ولهذا سجل المحققون رأيهم في كل حديث حتى ممـــا اطمـــأنوا إلى صحة معناه، مما جعلنا أمام مستويات متعددة من الأحاديث النـــبوية من حيث دقة اللفظ والنقل. وهذا لا يقلل من أهمية الكلام الواصل إلينا ولكـــنه يقـــلل مـــن دقته وصحته. وإذا كنا نريد العدل والإنصاف، فإننا سنقبل بأحكـــام العقل وليس بما يناسب أهواءنا. وهذا هو ما نريد أن نتوصل إليه عبر هذا الحوار.

المعرفة بالحيرة

هـــل يســـتطيع الإنســـان أن يعرف الله الخالق؟ وما هي الحكمة من خلق الإنسان؟ كلما أوغلنا في هذا البحر المضطرب العميق، تبرز أسئلة جديدة. فهل نســـتطيع أن نخوض في هذا البحر؟ لنجرب لأن هذا قدرنا، أن نحاول بصدق، بإخلاص، ليس من أجل الادعاء بل للحقيقة وعندها ستنكشف لنا الحقيقة. لماذا؟ لأن المـــبدع إذا كان قد أبدع شيئاً لغاية لابد أن يكون هذا الشيء المبدع مناسباً لـــتحقيق الغاية التي أبدع من أجلها، وإلا أصبح الإبداع عبثاً لا طائل منه. فأنت كإنســـان لا تصنع السيارة إلا لتركبها. والشاعر لا يكتب القصيدة لكي لا تفهم. وقد قال الله: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾( ). قال ابن عباس: "ليعـــرفون". فما هي حقيقة العبادة، ومن هو أكثر عبادة، من يعرف المعبود أو مـــن يجهله. وهل يمكن أن نعبد ما لا نعرفَ بدون أي دليل من العقل أو السمع أو البصر. لهذا نقول إن حقيقة العبادة تتحقق بالمعرفة، معرفة الله. ولكي نعرف الله لابـــد أن يكـــون لدينا العقل القادر على المعرفة. ولابد أن يكون الموضوع المطـــلوب معرفـــته بالإمكان معرفته. نحن أمام موضوع مطلوب معرفته بأمر الله، وعقل سنقوم بواسطته بهذه المعرفة فإذا كان العقل عاجزاً عن الإدراك في هذا المجال لن تحصل أي فائدة معرفية. ولهذا كان من شأن المبدع لكي يطالب الجـــن والإنـــس بعبادته أن يزودهم بأدوات العبادة، وأدوات العبادة كما قلنا هي أدوات معـــرفية كامـــنة فـــي العقل والسمع والبصر والحواس، ولهذا قال الله: ﴿**إنمـــا يخشى اللّه من عباده العلماء**﴾(2). ولم يقل، الجاهلون، وخاطب الله الـــناس الذيـــن لا يدركـــون بالعقل بلغة الحواس فقال: ﴿ **أفلا يسمعون. أفلا يبصرون. أفلا ينظرون**﴾ ولكـــن الخطاب الأعلى للعاقلين "أفلا يعقلون". ولكن

إذا كـــنا نستطيع أن نعرف الله بالعقل فما هي حدود معرفتنا به، الحدود المتاحة لنا كبشر.

لقـــد تعددت مستويات الخطاب الإلهي للإنسان. بدأ القرآن بـــ **﴿اقرأ باسم ربـــك الـــذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾** (3). وهو خطاب تعليمي للعقل والسمع. فلو كـــان الإنسان غير قادر على معرفة الله، فإن مثل هذا الخطاب لا جدوى منه. ولهـــذا لم يك مثل هذا الخطاب خطاباً إلا لكي يعرف الله. لكي يكون موضوعاً للمعرفة الإنسانية. وقد جاء في الإنجيل من بشارة القديس يوحنا: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان لدى الله وكان الكلمة الله"4-. فالكلمة هي تعبير عن تجليات العقـــل العـــارف، وهي شهادة لما يتجلى للعقل في الموضوع المشهود. والكلمة هي الأمر الإلهي الذي كان به الوجود المحدث، وكان به الإنسان "اقرأ" هكذا بدأ القـــرآن. أول ســـورة أنـــزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في غار حراء **﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾** فالمعلم هـــو الله. هـــو العقـــل المطلق الذي اختار الإنسان لكي يعرف الله. ولكن ليس المعرفة الكاملة كما نظن. وإنما هي معرفة بحدود قدرة الإنسان. كما نعرف أن المهندس مهندس من إبداعه في البناء، والرسام رسام، والشاعر شاعر، هذا من بـــنائه وهذا من رسمه، وهذا من شعره. مع إننا قد لا نعرف أكثر من ذلك عن المهـــندس والرســـام والشـــاعر، وقد نعرف أكثر على قدر قربنا منهم وتتبعنا لأعمـــالهم. ولكننا مهما حاولنا لن نعرف كل ما يخص هؤلاء، كل ما يدور في عقولهـــم، وهـــؤلاء بشـــر نســـتطيع أن نجالسهم، أن نحدثهم، ومع ذلك فإننا لا نســـتطيع أن نعـــرفهم حق المعرفة. فكيف سنعرف الله حق المعرفة وهو الذي يـــدرك ولا يـــدرك، المحيط بكل شيء. كيف سيدرك من هو منبع كل العقول، وكـــل مـــا سكن أو تحرك؟ تعالى الله عن الإدراك، وعن الشهود، وإن كان ما نشـــهده منه، فهو المشهود الذي لا يشهد. فلوحة الفنان ليست الفنان وليست عقل الفنان، ولكن اللوحة هي تجلٍ لعقله. ولهذا تتعدد لوحات الفنان ولا يحاط بعقله، وليســـت هي كل عقله. وعقل الفنان لا يشهد إلا كطاقة للمعرفة، فما يشهد منه آثـــار العقـــل وليس العقل، فما يدرك هو تجليات العقل، إبداعه. ولكن العقل لا يـــدرك ولا يبصر ولا يسمع، وإن العقل يدرك ويسمع ويبصر. ليتأمل الإنسان نفســـه، ليغلق أذنيه ويغمض عينيه وليتأمل كيف تجري الأصوات والصور في عقلـــه، ليتأمل كيف ينام وهو يشهد أصواتاً وصوراً يعرف بعضها وبعضها لا

يعــرفه، فمن أين رأى ما رآه وهو يغط في نوم عميق؟ قد تكون بعض الرؤى مـن الـنفس كمـا يقولون، ولكن كيف شاهد العقل لوحات النفس وشاهد ما لم تعــرفه النفس من صور وأصوات؟ أين سافر العقل وكيف وهو فينا ومعنا في حلـنا وترحالـنا وسفرنا ونومنا ويقظتنا، وبأي وسيلة؟ لنقل ببعض قوى العقل، لنقل بالروح، بالخيال، المهم إن السفر يحدث والمعرفة تحدث. فماذا نعرف عن عقولـنا وهـل عرفنا كل شيء عنها؟ إذا كانت معرفتنا بعقولنا محدودة، فكيف سنعرف العقل الإلهي. لهذا أخطأ المشبهون فيما شبهوا إن كانوا قد فهموا أن الله يتجسـد فـي الصـور أو الأزمنة أو الحوادث. كما أخطأ الذين منعوا التشبيه وحـرموه إن كـانوا قد فهموا أن الألوهية لا تدرك من حيث الصفات فاختاروا لغـة الـنفي بـدل الإثـبات مع أن الألوهية يمكن أن تعرف بالإثبات والنفي، والحوادث المشهودة في الكون، مع أن كل ما يشهد وإن شهدنا كل ما حدث في الماضـي لا يدل على حقيقة الله، لأن الله ليس من صنف الحوادث. والحوادث هـي من أفعال العقل، ولهذا نحن لا نشهد ولن نشهد غير الأسباب والمسببات. إنـنا نشهد الوجود، ولا نشهد الصانع المبدع في الوجود. ولهذا طلب منا الله أن نعرفه بالعقل، بالأداة المناسبة للمعرفة، والتي لا يحيط بها التشبيه أو الإثبات أو الـنفي. ولكن لأن العقول اختلفت في مستويات المعرفة، خاطبنا الله خطاباً آخر يتناسـب مع قدرات العقول في المرتبة الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، فورد في أسماء الله الحسنى هو الغنُيْ لإثبات الغنى المطلق له بامتلاكه للوجود. كما ورد أنه المغني ليظهر فضل العطاء وصفته وأثره في المحل المحتاج والمفتقر إليه. فـالوردة محتاجة للجمال والعطر وهو الذي يغنيها بالجمال والعطر. والإنسان محـتاج إلى العقـل وإلى المال والرزق، والجود الإلهي يمد الفقراء بما افتقروا إليـه ليكشـفوا عن مكونات العقل المطلق الذي لا يتقيد بالصور. ولا تحيط به العقـول والأفكار. ولهذا قد تكون أعظم معرفة لله وأصحها هي أن يعرف من خـلال الحيرة الإنسانية. والحيرة الإنسانية في معرفة الله هي المعرفة المنصفة للإنسـان. ولهذا رأينا أنها أكمل مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان في معرفته لله. فـالله يحـب العـدل وقد أمرنا به وحذرنا من الادعاء، لأن الادعاء كذب. والكـذب محرم. لهذا قلنا إن الحيرة هي أكمل معرفة. فالإنسان قد يعرض عليه مهـندس قصـراً مشيداً وحين يدخله ويشهد جمال القصر وروعة بنائه سيشهد بعظمة المهندس. فإذا نقله المهندس إلى قصر أجمل منه وفيه أمور غير مألوفة لديـه يصاب الإنسان المشاهد بالدهشة. وسيقول للمهندس أو لمن معه إنه قصر عجيـب. فـإذا نقلـه المهـندس إلى قصر ثالث أروع من الاثنين وأعظم وفيه

عجائب من المخترعات والفنون فإن المشاهد سيصاب بالذهول وسيحتار في تقدير عظمة المهندس إذا ما سئل عن رأيه فيه، مع إنه لم يشهد غير بعض إبداعات عقل إنسان مثله. والإنسان يحتار أحياناً أمام طائر يقطع آلاف الكيلومترات ليبني عشه في منطقة مألوفة لديه، ثم يعود مهاجراً في فصل آخر بدون أي خطأ. فكيف لو شهدنا حركة الكون في لحظة ما. وكل ما يجري هو من تجليات العقل وإرادته؟ ألا يذهلنا البحر ونحن نجلس أمام التلفزيون ونشاهد حياة الأسماك وصراعها وتوالدها؟ ألا تذهلنا الغابة ونحن نشهد فيها صخب الأحياء وحساباتهم؟ ألم تذهلنا المركبة الفضائية التي ذهبت إلى المريخ لتستكشف ما فيه. فكيف لو رأينا كل الأفلاك والكواكب وهي تطير في سرعات هائلة لا يمكن للعقل أن يحيط بها. كيف بنا لو رأينا سعة الكون وحاولنا أن نحسب طوله وعرضه بالسنوات الضوئية كما يفعل العلماء لا بالكيلومترات مع أن الضوء يقطع /300000كم/ في الثانية. وكل ما نراه ونحسه ونشهده ماهو إلا تجليات لعقل واحد هو الله. وقد قال عن ذاته **﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شان﴾**(5). فالتغيير جار بالوجود بأمره، والحوادث تتتابع والأكوان تسير والخلق لا يعرفون إلا ما يشهدون من الله وليس كل ما يجري ويحدث. فهل يمكن أن يعرف الله إلا بالحيرة؟ وهل تظهر الحيرة إلا من عارف مشاهد لبعض ما يحدث، متفهم لما يحدث؟ يقول السكندر كيتا يجورودسكي "لقد ثبت بالتأكيد استناداً إلى دراسة ظاهرة (دوبلر) في الأطياف العائدة لنجوم المجرات المختلفة، بأن تلك المجرات تجري (مبتعدة عنا). وقد تمت البرهنة على أن سرعة ابتعاد المجرة تتناسب طردياً مع المسافة التي (تفصلها عنا)، إن أبعد المجرات المرئية تتحرك بسرعات تقترب من نصف الضوء"(6). ويتساءل المؤلف "لماذا وضعنا عبارة (مبتعدة عنا) أو (تفصلها عنا) في داخل أقواس؟. إن سبب ذلك يتلخص في احتواء هذا التأكيد على شيء غير معقول. إن مثل هذا المنطق يمكنه أن يرضي فقط ذلك الإنسان البسيط الذي يعتقد بأن الأرض قد ظهرت إلى الوجود قبل كل شيء ثم ظهرت حولها الكواكب والوجود بعد ذلك"(7). إن المؤلف أشار بكلمة (غير معقول) إلى سرعة المجرات، والمسافات التي تفصلها عنا. هذه هي الحيرة، حيرة العلماء فيما يشهدون. فالعقل يعقل السرعات والمسافات مهما بلغت الأرقام، ولكنه من جهة أخرى يصاب بالذهول "سأل الرسول صلى الله عليه وسل جبريل: أزالت الشمس؟ فقال: لا. نعم. قال وكيف؟. قال: منذ قلت لا. إلى أن قلت نعم قد تحركت مسيرة خمسمائة عام"(8). هذا من إشارات النبوة التي عرفها

الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن تتوصل العلوم الحديثة إلى اكتشافها. وجاء في القرآن عن الجبال: **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾**(9).

كلما ازدادت المعرفة سيكون الذهول أكبر والحيرة أشد. لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو يتأمل عظمة المصنوعات التي تدل على الصانع: "زدني فيك تحيراً"(10) أي زدني فيك علماً، واجعلني من المشاهدين لمظاهر عظمتك وإبداعك. من يعرف الله غير الله. أما حدود الإنسان فهي أن يعرف القدرة ومظاهر من هذه القدرة، بما وضعه الله فيه من الإمكانيات **﴿ الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان﴾**(11)، بما وضع الله في الإنسان من علم يعلم. يستخرج ما وضع فيه. يكتشف ويعرف الله، معرفة العبد الضعيف، معرفة الإنسان المحدودة بحدود ما هو كامن في آدم عليه السلام. ولابد للإنسان لكي يعرف الله من وسيلة، من أداة للوصول إلى هذه المعرفة اليقينية. فما هي هذه الأداة، هل هي آمن ثم فكر أم فكر ثم آمن؟ لابد لكي يحدث اليقين من العقل ومن الشهود كي تتحقق معرفة عين اليقين. عقل يعرف وعين تشهد لتكون النتيجة إيماناً لا يتزعزع أي –أن تعبد الله كأنك تراه– فما هي حقيقة رؤية عين اليقين.

عين اليقين

إن العقل الإنساني يدور بين الظنون والحقائق في معرفة الله. وكل إنسان طبيعي يريد أن يعرف الحقيقة. وكل إنسان يريد أن يستبدل بظنونه اليقين، واليقين هو علم لا يتحقق إلا بالعلم. فهل يستطيع كل إنسان أن يأخذ من العلم في أي اختصاص علمي مثل الإنسان الآخر. وهل يستطيع كل إنسان أن يتجاوز علم أستاذه ليصبح عالماً مبدعاً. لقد رأينا أن العلم كامن في الإنسان كما تكمن الشجرة في داخل البذرة. ولكن هل يتاح لكل بذرة أن تخرج ما فيها. هنا يلعب المجتمع دور الطبيعة، فالبيئة قد تساعد الإنسان على النمو والتطور وقد لا تساعده. ولكن إذا كانت البيئة ملائمة فهنا تلعب استعدادات الشخص وإرادته الدور الرئيسي. وبما أننا نتحدث عن معرفة الله، فإن مثل هذه المعرفة تحتاج إلى جهد كبير وإرادة صلبة. وهذه المعرفة مثل كل العلوم تحتاج إلى بدايات. إن أول ما نتعلمه في المدرسة حروف الأبجدية، ثم نتعلم ربط هذه الحروف

ببعضــها لتشكيل الكلمات. فلو جاء أحد الأطفال أو الكبار وكان أمياً. وقال: أنا جـئت لأدرس فـي الكتب وليس لتعلم الحروف، فإننا سنقول له لا بد من تعلم الحروف أولاً. وإذا أصر وعجزنا عن إقناعه بمتابعة الدراسة من الحروف فإنه لـن يتعلم شيئاً من العلم. وإذا نظرنا إلى الحروف مجردة فإنه لا معنى لها إلا لفائدتها في المستقبل. ولهذا سنقول للإنسان الجاهل بها آمن ثم فكر. وإذا قال لا أسـتطيع أن أؤمـن بمـا لا أعرف. سنخاطبه بمستويات الخطاب التي يعرفها ويفهمهـا. فإذا أراد أن يتعلم سنقول له قف عند حدك، وإذا كنت تريد أن تفكر لـتؤمن فـنحن لا نمنعك ولكن عليك باتباع طرق العلم المعروفة. وكل علم أو مسـتوى من العلم يوصلك إلى حقيقة، والحقائق متعددة بتعدد العلوم. ولكل علم لغته ومنطقه ومصطلحاته وحقائقه. والدين الإسلامي له مستويات، فالمسلم غير المؤمن، والمؤمن غير الواصل إلى درجة الإحسان. وبين كل مستوى ومستوى حقائق وعلوماً لا يعلمها إلا الخبير بها. لهذا تنوع سلوك الناس بتنوع المعارف والعـلوم. ولهـذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد معركة أحد، وبعد أن نال المشركون ما نالوا من المسلمين كما جرح الرسول وأصيبت رباعيته قال: "الـلهم اغفـر لقومـي فإنهم لا يعلمون"(1). وفي موقف آخر في الطائف قال: "الـلهم أهـد قومي". العلم هو عماد كل معرفة. وكلما كانت المعرفة المطلوبة عزيزة ونفيسة احتاجت لبذل المزيدُ من الجهد والسهر والعمل. فأستاذ الابتدائي ليس كمدرس الجامعة. وعلم الطب يحتاج إلى علوم لا يحتاجها علم التمريض. والمؤمـن يحـتاج إلى عـلم لا يحتاجه المسلم. فكيف إذا كان الطالب يريد أن يعـرف الله ليعـبده عـبادة معرفة ويقين. هذه المعرفة تحتاج إلى بصيرة نافذة وقـلب لا يخالطــه الشـر، ونفس مطهرة من كل دنس. لهذا بدأ الإسلام بتعليم أبجدية معرفة الله للمسلم. وهذه الأبجدية مناسبة لكل الناس وضرورية لمصلحة المجـتمع. ومـن تعلم الأبجدية وأتقنها فإنه يستطيع إذا تابع العلم أن ينتقل إلى المرحـلة الثانية الأعلى ليصبح مؤمناً. والإيمان يعلو على الإسلام لأنه يتضمنه ويـزيد عليه بشيء آخر هو توافق الظاهر مع الباطن. لهذا فإن الإيمان تجاوز للإسلام وناسخ له بالنسبة للمؤمن، ومن ارتقى إلى درجة الإحسان فإنه سيكون قـد تجاوز الإسلام والإيمان إلى درجة أعلى حيث سيحسن لمن أساء إليه داعياً لـه بالخيـر وليس بالشر "اللهم أهد قومي إنهم لا يعلمون" لعلم وقر في قلبه لا يفارقـه ولا يغيـره مهما تغير عليه الناس وتغيرت عليه الدنيا. ولهذا رأينا بأن شريعة المحسن ليست شريعة "العين بالعين والسن بالسن" إنها شريعة تلوذ برب الكـون وتنظر إليه في كل ما يمس هذا الإنسان. ولهذا قال رسول الله صلى الله

عـــليه وسلم حين دخل مكة فاتحاً ووقف أمام أهل مكة الذين آذوه وأجبروه على الهجرة من بلده وهم أسرى بين يديه. قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء". كما إنه لم يســمع إلى إذلال زعيم الحزب المعادي أبي سفيان فقال رحمة به وبمكانته بين قومــه" من دخل دار أبي سفيان فهو آمن". موقف سماحة ورحمة وحكمة. لأن حكمـــة المحسن هي الرحمة الدائمة للخلق، ليس لأي حساب لأبي سفيان أو من شـــارك أبا سفيان في معاداة الإسلام. والإسلام في أوج قوته وانتصاره وعزه. وكـــان الرســـول صلى الله عليه وسلم قد وقف في غير هذا الموقف عندما كان ضعيفاً مطارداً أمام عمه أبي طالب وقال له، وعمه يطلب منه الكف عن الدعوة إلى الإسلام إذعاناً لإغراءات قريش وتهديداتها: "يا عم والله لو وضعوا الشمس فـــي يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته"(2). فالإحسان درجة في معرفة الله تزول عندها كل الهواجس، ولا يـــبقى غيـــر اليقين والتسليم لأمر الله. فلو اجتمعت البشرية كلها في طريق وكـــان المحسن في طريق آخر فإنه لا يتزعزع حتى لو قطعوه إرباً. لقد هاجر موســـى صـــلى الله عليه وسلم من مصر ثم واجه فرعون. وكذلك فعل المسيح صـــلى الله عـــليه وســـلم مع تلاميذه حين لاحقه الكافرون من اليهود والرومان وعرف بنواياهم ومكائدهم لقتله ولم يتزعزع. ذلك لأن الإنسان المحسن لا يريد الشـــر لأعدائه، ولا يقابلهم بالمثل. لهذا رأينا بأن كل شريعة تحمل صاحبها إلى شريعة أعلى إذا أخلص لها كما تقود الحروف إلى الكلمات والكلمات إلى الجمل المفيـــدة. ولهذا فإننا نستنتج بأنه لا يوجد ناسخ ومنسوخ في القرآن إلا بالقياس لمرحلة سابقة أعلى في العمل والمعرفة. بمعنى أن هناك مراحل ما قبل الإسلام والإســـلام والإيمـــان والإحسان. وكل مرحلة تحتاج إلى سلوك وأعمال وعلوم. كمـــا أن الجاهـــلية موجـــودة في كل وقت. والجاهلية أنواع فيها الحسن وفيها الـــرديء و "خيـــارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"(3). كما قال الرســـول صلى الله عليه وسلم. والإسلام نقلة للإنسان من الظلمات إلى النور. فالاســـلام يزيد الكريم كرماً، والشجاع شجاعة، لأن الأجور إذا كانت تعطي في الدنيـــا مديحـــاً أو ذمـــاً من الناس للكريم والشجاع غير المؤمن، فإنها ستصبح بالإيمـــان أكـــبر قيمـــة لأن أجر العمل الصالح لن ينتهي بانتهاء حياة الإنسان. وعطـــاء العقيدة أصدق وأبقى من عطاء أهواء النفس. فإذا كانت جاهلية العربي تحضـــه عـــلى الكرم، فإن الكرم يصبح في الإسلام عقيدة واجبة ملزمة. وقس الفضـــائل كـــلها بنفس الميزان حيث كل فضيلة واجبة كما أنها أداة للترقي إلى مستوى أعلى. وهذا ما يدلنا عليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاء

جبريل وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان. "عن عمر بن الخطاب أن رجلاً عليه ثياب بيض وذلك في آخر عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فقال: أنـت رسـول الله. قـال نعم. قال: أدنو منك؟. قال: ادن مني. فوضع يده على ركبـتيه فقال أنت رسول الله؟ قال نعم مرتين. قال ما الإسلام؟ قال أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك له وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الـزكاة وتصـوم رمضـان وتحـج البيت. قال: فما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله وملائكـته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله. قال فما الإحسان؟ قال: تعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك. قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن. قال نعـم"(4). إن هـذه الشـروط لاعتبار المسلم مسلماً والمؤمن مؤمناً والمحسن محسـناً، وهـذه الشروط لكي تصح لابد أن تظهر نتائجها في العمل والسلوك. وإلا مـا فـائدة الصـلاة لمن لم تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر. لهذا سنجد تفسـيراً لكل مستوى من مستويات الإيمان ومراحله بتوضيح الرسول صلى الله عليه وسلم "عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم المسلمين إسلاماً مـن سـلم المسلمون من لسانه ويده"(5). فذروة إسلام المسلم هو الامتناع عن إيـذاء الخلق بحواسه الظاهرة. لا يسيء إليهم بالكلام والغيبة ولا باليد، فلا تمتد يده إلى ما ليس من حقه شرعاً. وهذا يتضمن الحواس الأخرى، البصر وغيره، وإن لـم تذكر. وأما الإيمان فهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عن ابـن عمرو عليه السلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء حقيقة وما يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحبه لنفسه. وحتى يأمن جاره من بوائقه"(6).

لماذا كان الإنسان

جاء في الحديث الشريف: "عن أبي هريرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: إذا ضـرب أحدكـم فليجتنب الوجه، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن"(1). وجاء في حديث آخر "عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم لا يقولن أحدكم لأخيه قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله عز وجـل خلق آدم على صورته"(2). وجاء في حديث: "عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شبه الله بشيء، أو ظن أن الله يشبهه شيء فهو من المشركين"3-. فالإنسان خلقه الله على صورته من حيث القوى التي فيه. وهذا

هــو المقصود من الأحاديث. ومما ورد في القرآن: ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾(4). إشارة إلى العناية الإلهية بالإنسان. وورد في وصف بعض الـناس "إن هم إلا كالأنعام" وإن كانوا من حيث الصورة ليسوا كالأنعام. فمكانة الإنسان ناتجة عن عقله. فإذا ذهب العقل فهو كالأنعام "بل أضل سبيلا" إذا تعمد أن يسـتخدم عقله في شرور لا تستعملها الدواب تلبية لغرائزه. فإشارة الرسول صـلى الله عـليه وسـلم تتضـمن معاني كثيرة، أهمها جمال وكمال الصورة الإنسـانية. فهو الوحيد المميز بالوقوف على قدميه بين مخلوقات الله الظاهرة، والمكتسـي بالجمـال والاعتدال في كل قواه. وهذا هو كمال الظاهر. أما كمال الباطن فهو كمال القوى الإنسانية في المعرفة والإدراك وتجلي كل ذلك في قواه العقـلية، ولسانه الناطق بما يعرف ويشهد. فهو القادر دون كل المخلوقات على معـرفة عظمة الله. وإذا وجد خلق آخر في مجموعة كونية فلا نظن بأنه سيزيد مـن حيـث القوى عما أعطي للإنسان، ما دام خالق الوجود قد وصف الإنسان بأنـه خلقه في أحسن تقويم، وبأنه على صورته، وهذا منتهى الكمال من حيث المعني. ولهذا أسجد الله له الملائكة. والسجود ليس لآدم عليه السلام فقط، وإنما لذريته الصالحة. فكل إنسان هو آدم من حيث الأصل. وكل إنسان يعلم الأسماء كـلها كما علم الله آدم الأسماء كلها فاستغربت الملائكة علمه، بعد أن رأت في تركيـبه مـا يشير إلى فساده. فقالت حين علمت بخلق الإنسان ﴿**وإذ قال ربك لـلملائكة إنـي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسـفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾(5). فما هي الحكمة من خـلق الإنسـان. ومن هم الملائكة الذين سجدوا لآدم وما زالوا ساجدين لأبنائه الصالحين والطالحين. إن المسألة محيرة، والأجوبة في هذا المجال أكثر حيرة. ولكنـنا سـنعتمد على ما حبانا الله من العقل ومن الإشارات النبوية لمن أوتي جوامع الكلم، وبلغ ما بلغ من الوصول في إسراءاته فقال ما قال وهو يشاهد من آيات ربه الكبرى ﴿ **وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ماكذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على مايرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جـنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾(6). إن كل مالك لابد له من إظهار ملكه إذا شاء أن يظهر ما يملك. وكل عظيم لابد له من إظهار عظمته في الأقوال أو الأفعال

إذا شـــاء إظهـــار عظمته، وكل مبدع لابد له من إظهار إبداعه لخلق يتذوقون الإبـــداع إذا أراد أن يكشف لهم عن إبداعه. والمُلك يتطلب مالكاً ومملوكاً، سيداً وعـــبيداً، والإبـــداع يتطلب متذوقاً مدركاً للإبداع. لهذا كان الإنسان على صورة الـــرحمن ليـــدرك إبداع وملك وعظمة الرحمن. ولهذا وهب ما وهب من فيض العقـــل الإلهي ليكون شاهداً بين يدي خالقه للقدرة، للإبداع. فالأسماء في الوجود تطـــلب حقائقهـــا. لا يوجـــد الجميل بدون ظهور الجمال في الوجود. ولا يوجد جمال إذا لم يبصر الجمال من الشهود. فالناس هم شهود الحق للحق، في مملكة الحـــق. فيمـــا أراده الله من الإظهار لملكه خلق المملكة وخلق الإنسان الخليفة. ولهـــذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله"(7).

وهـــذه الشـــهادة هي شهادة نفي وإثبات، فإذا أخذنا الكلمة الأولى فهي من حيـــث النظر لمن يفهم الحقيقة بأنه لا يوجد سواه، وحينما لا يوجد غير الله فما ثم مألوه، لأن الألوهية تظهر بالمألوه. كما يظهر الملك بالمملكة، والألوهية هي الأصـــل فمـــا ثم غيره فهو الوجود المطلق ظاهراً وباطناً. ولكن عندما شاء الله الظهـــور أظهـــر الخـــلق، فظهروا في الظاهر وظل الباطن على أصله. ولهذا اقتضـــى القول بما استوجبته حقيقة ظهور الخلق (إلا الله) تمييزاً للحقيقة الثانية عن الحقيقة الأولى وإن تضمنت استثناءاً للحقيقة الأولى. فإذا حذفنا (لا) الأولى و (إلا) الـــثانية لم يبق غير (إله الله) فهو الإله المطلق فيما ظهر وأظهر وفيما بطـــن وأبطـــن، لا إله سواه، وإن اقتضت المظاهر الوجودية ظهور العقل من جـــانب والطـــبيعة من جانب لظهور الألوهية (الله) مع بقاء الذات الإلهية على حالهـــا بـــدون تغيير. "كان الله ولا شيء معه" كما قال الرسول صلى الله عليه وســـلم وإن أضـــاف العـــلماء "وهو الآن على ما عليه كان" فهذه نسبة للذات، وليست للوجود الذي تظهر فيه كلمات الله. كما كانت هذه الشهادة رداً على كل مـــن اعتقد بتعدد الآلهة أو المشاركة لله، لأن الصورة المحدثة مالها حكم، وكل موجـــود مؤلف من صورة مركبة من عناصر الطبيعة ومن هوية تظهر معناه بعـــد جمعه في تركيب معين ليظهر بالاسم الذي هو له ظاهراً وباطناً. صورة ومعـــنى. كمـــا أراد الله أن يظهـــره. فعناصر الوجود المختصرة بالماء والنار والـــتراب والهـــواء هـــي أبجدية الوجود التي خلقت منها الكلمات، بنظر العقل الإلهـــي لما شاء إظهاره من ذاته لذاته. ولهذا كان الإنسان بالمشيئة الإلهية حراً ومقيـــداً، ســـيداً وعـــبداً، وأعطـــي بمـــا ركبه الله فيه من القوى حرية الطاعة والعصـــيان لكي تكتمل المملكة وتظهر الحقيقة الإلهية في الوجود بظهور رب

وعبد. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن ربه في حديث قدسي "كـنت كـنزاً لـم أعـرف فأحبـبت أن أعـرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني"(8).

ولهـذا عندما ستحدث العودة إلى الحالة الأولى، حالة فناء صور المحدثات فـي الأرض، حيث لا يبقى غير الله. سيقول الله بعد أن يقبض روح عزرائيل آخـر الصور في كوكبنا الأرضي والمسؤول عن قبضها "لمن الملك اليوم" فلا أحد يجيب فيجيب الله نفسه بنفسه "لله الواحد القهار".

لنتصـور هـذا الموقف حيث يلتقي العلم مع الدين في الإقرار بنهاية حياة الكائـنات والـنظام السـائد فـي مجموعتنا أو في الكون بسبب اختلال قوانين الجاذبية أو لأسباب أخرى لا نتوقعها. ولكن هل سيفنى الوجود. إن العقل يقول لا والدين أيضاً، فالوجود باق. وستبدأ مرحلة أخرى عندما يبث الله روح الحياة في الوجود الجديد.

ودمار الكون هو مما أقره العلم بالاستناد لنظرية توسع الكون حسب رأي بعـض العلماء، إذ شبهوا الكون بالبالون الذي سينفجر. ومع ذلك فإن توقع مثل هذا الانفجار في مجموعتنا لوحدها أولى، لأن ما نراه من ظواهر موت النجوم واحـتراق الكواكب في الكون يدل على أن مثل هذا الربط بين نهاية مجموعتنا الشمسـية والكـون لا مبرر له. وقد ورد بيان القرآن عن القيامة على الأرض تحديـداً فقـال الله **﴿حـتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قـادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾**(9).

فالأمر يتعلق بالأرض وما عليها. وحتى هذه الإشارة لا تعني فناء الأرض وإنمـا فـناء حيـاة الأحياء عليها. وقد ذكر القرآن سبب هذا الفناء بالنفخ. وقد اسـتطاع الإنسان الآن اختراع أسلحة تدمر المنطقة التي تلقى عليها بالصوت – موجـة الصدمة– والنفخ هو صوت يؤدي إلى صعق المخلوقات كما وصفه الله فقال **﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾**(10).

نحـن لا نستطيع أن نحدد طريقة النفخ في الصور، وإن كان من الحق أن نشـير إلى أن استخدام الصوت في تدمير المخلوقات كان حين أنزل القرآن في عـلم الغيب، ولا يمكن تصوره. ومع ذلك فقد اكتشفه الإنسان وصنع بناء على هذه الفكرة أسلحة مدمرة. أما النفخ الثاني فهو نفخ الروح في الأرض. ولا نعلم

كـم سيمضـي من الأزمان بين النفختين، وليس في الأمر غرابة. فالهواء الذي نحيا به ونتنفسه يصبح بسبب موجة الصدمة قاتلاً. وعندما تمر الموجة وتنتهي يصبح مناسباً للحياة. هذه أسباب. وعلم الله لا يتعلق بعلمنا بالأسباب. إن العلماء يـتوقعون دمـار الكـون بسبب توسعه واختلال قوانين الجاذبية. وقد قال الله **﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾(11).**

وقـد تكـون كلمة موسعون تعني التوسع في الخلق كما تحتمل التوسع في المكـان. ولكن فناء المحدثات هو حقيقة لا يجادل فيها مجادل. ويشهد على هذه الحقيقـة موت النجوم ودمارها. وإن كان الخلق لا يتوقف فالله (كل يوم هو في شـان). ولهذا سيأتي إحياء إسرافيل بعد الموت لينفخ في الصور. والصور هو الجـامع للصـور المحدثة من قبل. إنه فكرة العقل الإلهي عن المخلوقات قبل إعدامهـا حيـث سـيخلو الوجود من الخلق وإن بقي كفكرة في ذات الله، وفي الطـبيعة فـي حالة كمون من حيث الصورة الممكنة للظهور بمشيئة العقل الله. لهذا اقتضت إعادة الإبداع اللاحق بالمظهر السابق كسوة الفكرة المبدعة بأثواب الطـبيعة القابلة. ولا جديد تحت الشمس وإن تجدد الجديد والنهر هو النهر وإن قـال هيراقـليطس "لا يستحم الإنسان بمياه النهر مرتين". فالوجود هو الوجود القديـم الجديد. فمتى كنا ومتى عدمنا. وكل شيء في الوجود يسير على ضفتي الوجـود. والضفتان هما الظاهر والباطن. والحقيقة هو الأول والآخر. وقد جاء في الحديث الشريف "عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولون هذا الله قبل كل شيء فما كان قبل الله. فإن قالوا لكم ذلك فقولوا هو الأول قبل كل شيء. وهو الآخر فليس بعده شيء. وهـو الظاهـر فـوق كل شيء. وهو الباطن دون كل شيء. وهو بكل شيء عليم"(12). فهو الوجود قبل أن يظهر وهو المتجلي فيما ظهر وأظهر. فالطبيعة ثـوب العقل وفكرته. والوجود مرآته. والإنسان صورة إبداعه وميزان مملكته. فهـو القائم بأداء حق العبودية عن كل مخلوق بالنيابة، لهذا كان الخليفة والنائب إن قـام بمـا أمر بعلم ومعرفة. فصلاته في وقوفه شهادة على عظمة من خلقه بالمعنى والصورة، وركوعه نيابة عن كل ما خلق الله في الأرض من مخلوقات تسـير عـلى أربـع. وسـجوده نيابة عن المخلوقات الأكثر ضعفاً الزاحفة أو الملتصقة بالأرض. ووضع جبهته على الأرض كتقبيل الابن لأمه وشكرها لما حبته به من العطاء والغذاء. وتوجهه إلى الكعبة لتقديس الطبيعة التي صدر منها والتواضـع لهـا. فصلاة المسلم في كل حركاتها معاني لمن يفقه هذه الحركات

وطاعـــة لمـــن لا يفهمها، حيث لا يوجد عبث في خلافة العبد المؤمن ولا في أعمالـــه. فهـــو لتواضـــعه نال ما نال، ولعلمه رغم تركيبه الذي يحرضه على الشـــهوات أعطـــي الخلافـــة مـــن الله، ولهذا كان التسامح الإلهي والغفران مع الإنســـان لمـــا يتعرض له بسبب نشأته من عقل وطبيعة. حيث يشده عقله إلى كمالـــه وخلافـــته ووقـــاره وإبداعه وعلمه، وتشده طبيعته إلى الطبيعيات ونار الشـــهوات وشـــيطانه الجاري في عروقه. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سدوا منافذ الشيطان".

بهـــذا الجهاد نال الإنسان الخلافة لمن أطاع الأمر الإلهي وعرف المنزلة الـــتي وهبت له، وعمل لهذا الوهب. ألا يطرد الملك رئيس وزرائه إذا تصرف تصرف الصعاليك. لهذا كان الاستخلاف لمن كان مع الله، والطرد والإبعاد لمن عمل لشهواته فقط. ناسياً حتى معرفة نفسه وربه. وقد قال رسول الله صلى الله عـــليه وسلم: "من عرف نفسه عرف ربه"(13). فما هو المقصود بهذه المعرفة. ولمـــاذا؟ إن معرفة الإنسان لنفسه تقتضي منه أن ينظر لنفسه مما يتألف. عليه أن يـــنظر إلى تركيبه، جسم مركب من عناصر الطبيعة، وعقل متصرف بهذا التركيب، سيد عليه، وهو على الصورة الإلهية. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسـلم: "والـــذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله"(14). فالله هو الوجود كله حقيقة. ولكن وجود الأسماء اقتضى ظهور الصـــفات. وإدراك الإنســـان مـــرهون بشهود ما يشهد. والإنسان لا يشهد إلا التـــنوع، والأنـــواع. وإن كانت حقيقة العقل واحدة لا تتعدد. فإن ما يصدر عن العقـــل مـــتعدد. فـــالعقل الإنساني تصدر منه الرحمة والكرم والبخل وهو هنا "المـــانع". والإنســـان يتصـــرف في كل لحظة بحسب ما يصدر من العقل من قـــناعات وأوامـــر إلى الجســـم، وإلى ما يملكه الإنسان في خلافته. والحواس والسمع والبصر والذوق واللسان والغرائز كلها من نوع الملائكة ساجدة للإنسان فـــي الباطن. فالسمع يقبل أن يستمع إلى الحلال المشروع، كما يقبل أن يستمع إلى الحـــرام. والعيـــن قابـــلة للنظر إلى الحلال والنظر إلى الحرام. واليد قابلة للعمل بالحلال والحرام. والرجل قابلة للسير في طريق الخير والشر. والغرائز كـــلها مـــرهونة لإرادة العقـــل. فـــالقوى في الإنسان كلها نور لمساعدة العقل. والملائكة نور لمن يريد أن يستعين بها للسير على الطريق الصحيح. فهي قوى مســـاعدة. ولكـــن ملائكة آدم حينما أمرت بالسجود أطاعت وأصبحت بالتسخير لذريـــة آدم قابلة لغواية الشيطان الذي يجري من الإنسان مجرى الدم لكون نار الغواية والغرور من قوى الإنسان. وقد جاء في الحديث "ليس منكم من أحد إلا

وقد وكل به قرينه من الشيطان"15-. ولهذا ستشهد هذه الملائكة على الإنسان يوم الحساب لكونها كأعضاء في جسم الإنسان مسخرة لتنفيذ أوامر العقل. وقد جاء في القرآن **﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون. إصلوها اليوم بما كنتم تكفرون. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾**(16). ولهذا سيكون القصاص من العقل الذي أمر بالفساد. وقد جاء في الحديث الشريف عن وصف الملائكة "خلق الله الملائكة من نور وإن منهم لملائكة أصغر من الذباب"(17). وقد ظهرت الملائكة على جند أبرهة مثل طيور **﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل﴾**(18). وظهر جبريل على شكل إنسان، وظهر على شكل الصحابي دحية، ورآه الرسول صلى الله عليه وسلم وله ستمائة جناح. فالملائكة لها التشكل في الصور، لأنها من الأنوار، والأنوار من جنس العقول والعقول تسري في الصور ويتشكل فيها. فالعقل يصبح لوحة فنية، ويصبح سيارة وطائرة ومركبة فضائية. هذا بالنسبة لتجليات العقل الإنساني. أما الإنسان فإنه لا يستطيع أن (يشكل) كالملائكة لأنه ليس من نور خالص وطبيعته تحكم عليه. ومع ذلك فإنه يستطيع أن يتحكم في هذه الطبيعة إذا صار نوراً كله. والإيمان يزيد وينقص لهذا لا يستطيع دائماً. ولهذا تظهر كرامات الأولياء في أوقات وتختفي في أوقات. فالإنسان بحسب وقته. وأحواله تحكم عليه. ومن حكم على أحواله دائماً صارت أحواله تابعة لإرادته. ومن حكمت أحواله عليه صارت تبعيته لأحواله. والإنسان غالباً بين بين إلا من عصمه الله. وكما قال الشيخ محي الدين "بقاء الحال من المحال" لهذا لابد للأحوال من أحكام. وإن كانت المقامات ثابتة وباقية مع أصحابها، لأن المقامات علوم. والعلم الذي وصل إليه الإنسان لا يتغير إذا كان علماً يقينياً. وعلم الولاية هو علم عين اليقين. ولهذا لا يتغير المقام وإن تغيرت الأحوال إلا ما شاء الله. **﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**(19). ولهذا فالنور باق لمن امتلك النور، والنور هو العلم. فبالعلم عرفنا أن الذرة تتألف من نواة وإلكترونات ونيترونات. وعرفنا تركيب الماء والهواء. وقد جاء في الحديث الشريف "إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة" أو "سبعين ألفاً" وقيل للرسول صلى الله عليه وسلم: "أرأيت ربك". فقال: "نور أنى أراه"(20). وحجاب النور هو الذي يمتد إليه عقل الإنسان وحواسه الشهود ليعرف خلق ربه. فإذا نفذ نور العقل بالحجاب تلون العقل بالنور وأبصرت

العين. كالشمس حينما تشرق فإنها تكشف عن معالم الوجود والوجود على حاله لم يتغير، وبهذا التلون يحدث العلم. ولكن الإنسان لا يستطيع اختراق كل الحجب لأن النور لا يدرك كله وإن أدركنا بعضه. فنحن نعرف بنور الشمس ولكننا لا نستطيع أن ننظر إلى مصدر نور الشمس ولو نظرنا لدقائق لن نرى فيها غير النور. ولهذا لا يدرك النور إلا النور. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء سجوده: "اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره. تبارك الله أحسن الخالقين. اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، واجعل لي نوراً. واجعلني نوراً"(21). لشهود التجليات الإلهية في الوجود. ولكن هل يستطيع كل إنسان أن يشهد ما شهده الرسل والأنبياء.

شهود الوجود

إذا كان الإنسان تاج الملك كما وصفه الشيخ محي الدين وبه اكتملت المملكة ونال الخلافة عن ربه. فإن هذه الخلافة لم تكن بدون سبب، وبدون جدارة. فلولا جدارة الإنسان من حيث الجوهر ما أعطيت له الخلافة. فالخلافة كامنة فيه كالثمرة في بذرة الشجرة، ولكن عليه تحصيلها. فكل أخلاق لها حظ في الخلافة. فخلافة العبد في المملكة هي خلافة الخدمة. وخلافة رئيس الوزراء هي خلافة الرئاسة. وحديثنا عن الخلافة الكاملة، لا الناقصة، ولهذا اقتضت هذه الخلافة أموراً للوصول إليها. وكل إنسان مؤهل للخلافة "وأبواه يهودانه أو ينصرانه"(1). فينقص حظه في الخلافة. فالخلافة باختصار لها مقدمات، ومقدماتها تطهير الحواس عن كل ما يناقض الشريعة الإسلامية. وسلوك طريق معرفة الله. وهذه المعرفة ليست بالأمر الصعب، ولا تحتاج إلى العبادة الدائمة كما يظن البعض. فالعمل عبادة. والجهاد أمام الأسرة عبادة. وحتى استمتاع الإنسان مع زوجه عبادة. جاء في الحديث "إن الله ليعجب من مداعبة الرجل زوجته، ويكتب لهما بذلك أجراً، ويجعل لهما بذلك رزقاً حلالاً"(2). "إذا سقى الرجل امرأته الماء أجر"-3-. فالإنسان الملتزم بأمر الله هو في عبادة دائمة. فالسعي لتأمين لقمة العيال بالحلال عبادة، ومجاهدة النفس عبادة. فأوقات المسلم كلها عبادة لو أدرك معنى العبادة. وكل هذه العبادة لا تتحقق بدون النية. فالنية

تســبق العمل. ولهذا لا يتوضأ المسلم أو غير المسلم إذا استحم ولم ينو الوضوء رغم أنه من حيث الظاهر توضأ. فالأصل في كل فعل هو نوايا العقل. ولهذا لا يــتم الوصول إلى الحق إلا بإرادة العقل. والإنسان لا يتميز عن المخلوقات إلا بهــذه الإرادة. فالمخــلوقات كــلها مــا عدا الإنس والجن مطيعة طاعة ذاتية **﴿وإن مــن شــيء إلا يســبح بحمــده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾(4)**. **﴿لا الشــمس ينــبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فــلك يســبحون﴾**(5). التسبيح طاعة، والسباحة طاعة، والكل مطيع، ما عدا الإنس والجن. فالخلافة عهد يقتضي حرية الإنسان، حريته فيما يملك وأول ملك للإنســان هــو نفســه التي بين جنبيه وجسده. ولهذا جاء في الإشارات الإلهية **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾**(6).

ولو شاء الله لعلم. **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾**(7). ولكنه تــركهم لمشــيئتهم، وهو العالم بهم، لأنه شهدهم وهم في عالم الذر، في صلب آدم. وهــو أســهل عــلى الله مــن معرفتنا بأن بذرة التفاح ستثمر تفاحاً وبذرة البرتقال ستثمر برتقالاً. والآن نحن نعرف بأن ذرة الهيدروجين إذا اجتمعت مع ذرة الأوكســجين ســيخرج مــن امتزاجهما الماء. **﴿ ألا يعلم من خلق وهو الــلطيف الخبير﴾**(8). ولكن لحكمة أراد الله هذا الامتحان فنصب الميزان له. لــو جاء أستاذ لبعض طلابه وحكم عليهم بالرسوب قبل أن يدخلوا الامتحان لما رآه مــن تقصــيرهم في الدراسة، سيقولون لــه لقد ظلمتنا يا أستاذ فاسمح لنا بدخــول الامــتحان واحكم علينا ليكون حكمك عادلاً في حقنا. ولو قال لهم لقد حكمنا عليكم من تقصيركم وإهمالكم خلال العام، سيقولون له دعنا نجرب حظنا -أرجعــنا نعمــل صــالحاً- ولن يعملوا غير ما عملوا. ولهذا سيتركهم الأستاذ ليجــربوا حتى لا يبقى أي سبب للشكوى. ومع ذلك لو سألتهم بعد ظهور النتائج عــن سبب رسوبهم سيقولون كانت الأسئلة صعبة أو غير متوقعة. وإذا سألتهم هــل جــاءت من الكتب التي معكم أم من غيرها. سيقولون من الكتب ولكن.. وســيجادلون وهم يتلعثمون. فمن حكم عليهم غير أعمالهم. إن الله أرسل الرسل بــنور الهداية **﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من الــتوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾**(9). ولكن الناس الذين استقاموا قلة، لأن شــهوات الغالــبية انتصــرت عــلى العقل. كثير من الناس يسرقون ويدخلون الســجون بدون حاجة للمال إلا لرغبتهم في جمع المزيد منه بأي وسيلة كانت. فطــلاب الدنيــا كلابها. وهم لا يكفون عن نهش العظام وإن شبعوا. فمن حكم

عليهم غير شهواتهم. مع أنهم شاهدوا مصير غيرهم، إلا أن كل ما شاهدوه لم يردعهم، فكيف سيردعهم العقاب المؤجل. لو أسلموا حقاً لما ارتكبوا المعاصي، ولما تعرض الناس لإيذائهم. ولو آمنوا حقاً سيأمن الناس من شرورهم "المسلم من سلم الناس من يده ولسانه". فإذا لم يسلم الناس من يده ولسانه فقد خرج من الإسلام حتى يتوب. وإذا لم يسلم الناس من يده ولسانه فهو في دائرة الإسلام ولكنه غير مسلم. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "من آذى ذمياً فأنا خصمه. ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة.(10). فكيف بمن يؤذي المسلم وهو من المسلمين. لهذا رأينا أن أولى خطوات الترقي في سلم المعرفة يبدأ من الإسلام للمسلم ويبدأ من دائرة الإسلام لغير المسلم. فالعبرة في الأعمال لا في الأقوال. الأعمال الصادرة عن النوايا الطيبة. فإذا توفرت النية الطيبة للمعرفة ورافقها العمل سيكون الوصول سهلاً. وطرق الله على عدد أنفاس الخلائق. ولكن الإسلام هو الطريق الأسهل والأقصر. لأن لكل معرفة أصول وقواعد ومقدمات، ومقدمات هذه المعرفة تطهير الجوارح من الحرام. وفي المرحلة الثانية أن يحب للناس مايحب لنفسه. وهي مرحلة الإيمان. أي أن يتطابق الظاهر مع الباطن للوصول إلى صفاء العقل وعدم إشغاله بمطالب الحواس والحسد والغيرة. وعندما نتوصل إلى صفاء العقل سنتمكن من جمع قوانا كلها لمعرفة ما نريد أن نعرف. فإذا كنا نريد أن نعرف الله فإن معرفتنا به تتعلق به وبنا. فهو الذي سيفتح لنا المفاتيح المغلقة. ولكن لما كان عدل الله شاملاً لا استثناء فيه لذلك رأينا بأن الأبواب ستفتح لكل طالب بقدر صدقه وجهاده **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾**(11). وقد قال الله **﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله﴾**(12). وأمرنا بالذكر فقال **﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾**(13). وقال **﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾**(14). **﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾**(15). **﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾**(16). والذكر المعروف والمأمور به للوصول هو ذكر اسم الله الأعظم (الله) بالجلوس في عزلة عن الناس وتصفية النفس بالذكر، وانتظار الإمداد من الله. وقد يطول الأمر على حسب الحال وقد يأتي الإمداد سريعاً. وأول ما سيفتح للعبد في حاسة السمع. فإذا ترقى إلى ما هو أعلى تنفتح له حاسة البصر عن حقائق غير مألوفة لديه. ثم إذا ازداد في الترقي يصبح كلامه بإلهام من الله. وكل ترقي ترافقه حقائق يراها العبد من نفسه. وقد لا يشعر بها أحياناً رغم رؤيته لآثارها لانشغاله بالله عن المعرفة حتى يتمكن في

المقام. وآثار المقام تدل عليه الكرامات. وقد صح أن كل معجزة لنبي يمكن أن تكون كرامة لولي، لأن المعجزة هي نتيجة لأحوال وأعمال وعلوم ونوايا. فإذا اجـتمعت الأحـوال والأعمال والنوايا حصلت الكرامة. وقد سميت كرامة لأن الفضـل فيهـا للمعـلم الذي تعلمنا منه وهم الرسل الذين لا يستطيع أي إنسان الوصـول إلى مقامـاتهم لمـا فطروا عليه من الصفاء والصدق، وإن كان من المشـروع الطمـوح إلى نيل ما نالوه من العلوم والتخلق بأخلاقهم. لذا أمر الله بطاعـة الرسـول فقـال **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**(17). وإذا وصل الإنسـان إلى هـذه المقامات أو إلى بعضها فإنه سيعرف الله. وسيعرف عندئذ حقيقـة النـبوات والرسـل ولـن ينكر على أي رسول الشريعة التي جاء بها. وسـيعرف بعـلم لدنـيّ من الله حقيقة الشريعة الإسلامية الجامعة لكل الشرائع معـرفة يقيـنية. وهـو في أحواله تبعاً لأمر الله قد يعلن إسلامه وقد لا يظهر الإسـلام لحكمـة يريدها الله. إن طريق الله مفتوح لكل الخلائق بدون استثناء، ومن يطلب الله سيجده، ومن يطلب الدنيا سيجدها، وكل ميسر لما خلق له، فأهل الجـنة يعمـلون بعمل أهل الجنة وإليها يسيرون. وأهل النار يعملون بعمل أهل الـنار وإليها يسيرون. فقد حكم عالم الذر في عالم الظهور، كما حكم سر البذرة المكنون على الشجرة التي ستبرز إلى النور. والكل يستمد من بحر الجود. هذا لجنـته، وهذا لناره "وهديناه النجدين" والإنسان "إما شاكراً وإما كفوراً" وهنا سر الأقـدار التي أخطأ بها القائلون. إن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. لأن الـبطن بسـتان ماهو منتج للبذور. وإن كانت البذرة الصالحة لا تنمو في الأرض المالحـة. فقـد اختلفت الأغصان وإن كانت الشجرة واحدة **﴿كلاً نمد هـؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾**(18). لقد دلـنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطريق كي نشهد رب الوجود فقال فـي حديث قدسي عن عائشة رضي الله عنها: "قال الله تعالى من آذى لي ولياً فقـد استحل محاربتي وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء الفرائض وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها وأذنه التي يسـمع بهـا ويـده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وفؤاده الذي يعقل به ولسانه الذي يتكلم به إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن وفاته وذلك لأنه يكره الموت وأنا أكره مساءته"(19).

والـنوافل هـي عبادة التطوع بعد أداء الفرائض للمسلم. وهذه العبادة هي التي يتم بها الوصول إلى شهود حقائق غيبية في الوجود قد تبدأ بالرؤيا الصادقة

الــتي يــتحقق الإنسان منها بوقوعها كما رآها. ثم يترقى لشهود بعض الأمور مكاشــفة في اليقظة، عندما يسمع بسمع الله ويبصر بربه لا بنفسه. فيعرف قدرة الله ويــتحقق بهــا معــرفة عين اليقين فلا يشهد من الوجود غير رب الوجود. فيصــبح مــن أولياء الله بموالاته لله لا لنفسه. فيقر ما أقره الله ويحرم ما حرم بــدون التفات إلى حظوظ نفسه وشهواتها. لقد قيل لأبي بكر الصديق في مرض وفاته: "ألا ندعو لك مطبباً ينظر إليك. قال: قد نظر إلي. قالوا: فماذا قال لك؟. قــال: إنــي فعّــال لمــا أريد"(20). وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "الله الطــبيب"(21). وقــال: "يــا أيها الناس تداووا فإن الله لم يخلق داء إلا خلق له شــفاء، إلا السام والسام الموت"(22). الرسول صلى الله عليه وسلم شرع للناس ليوســع عليهم. ولكن كما رأينا فإن لكل مقام مقال. فمن كان في كل أحواله مع الله فهــو لله يتصرف به كيف شاء. فهو يتصرف فيما يلهم بإلهام من الله لا من نفســه. ومــن كانت أحواله مع نفسه فإنه سيتصرف تبعاً لأحواله النفسية. وكل إنســان مرتــبط باختياره. فمن كان التفاته إلى رب الوجود لا يختار سواه، ولا يخــتار إلا باخــتياره عن معرفة. ومن كان اختياره عن عقله المتصل بنفسه لا بــربه فــإن الله سيوكله إلى اختياره. ولهذا قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في فهمه لكمال العبودية "إذا أردت أن تدخل حرمي فلا تلتفت بالملك والملكوت ولا بالجــبروت لأن المــلك شيطان العالم. والملكوت شيطان العارف. والجبروت شيطان الواقف فمن رضي بواحد منهما فهو عندي من المطرودين"(23).

ولهــذا إمــض إلى الله بــالله لا بنفسك. لا تعتقد باستحقاقك ولا تنظر إلى أعمالك. واعتقد بأنه سيعطيك. وقد قال الله "أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً فله وإن ظن شراً فله"(24).

ضع قلبك وحواسك وعقلك وقواك كلها عنده وامض إليه كورقة في مهب الــريح، لا تمــلك لنفسها نفعاً ولا ضراً لتصل إليه. فإن وصلت ستعرف. ومن عــرف ســيعمل بمــا يعلم. وعندها سيكون من الذين يستجيرون من الجنة كما يستجير أهل النار من النار، لأنه يريد رب الجنة لا الجنة.

ولكن ماهي حدود هذا الشهود للوجود. وهل يستطيع الإنسان أن يعرف كل ما يريد معرفته.

مشكلات في المعرفة، لا تكذب

إن الرسل هم أصدق الخلق في كل ما قالوه وفعلوه. وهم أحرص الخلق على نصح الناس. وقد تجسدت هذه الحقيقة خيّر تجسيد في الرسول صلى الله عليه وسلم سيد أبناء آدم. ولهذا وصف الله الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾**(1). وأشار الله إلى الغاية من إرساله للرسول وهو المرسل له فقال **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(2). والرحمة لا تظهر آثارها بدون مالك ومحتاج إليها، راغب فيها. فالمالك مالك لا يفيده من يعرف ملكه وغناه، ولا يضره من يجهله، وإن كان حكم الجاهل ضاراً في نفس الوقت لأنه مبني على الظن. ولكن ضرره بأمثاله أكبر لا بحقيقة من يحكم عليه بجهله. ولهذا يثير حكم الجاهل الغضب، كما تثير شهادة الزور هذا الغضب وإن كانت بحق الإنسان. لأن من بعض صفات المسلم عدم إيذاء الناس بلسانه، ولهذا لا يخوض المسلم فيما يجهل. وقد جاء في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم: "كل خلة يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب"(3). وقد ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم "دخل علي وأنا أفلي رأس أخي عبد الرحمن، وأنا أقصع أظفاري على غير شيء. فقال: مهلاً يا عائشة، أما علمت أن هذا من كذب الأنامل"(4). وقال "أعظم الخطايا اللسان الكذوب"(5). وقال "ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم. ويل له، ويل له"(6). وقال محذراً من الكذب بكل أشكاله "إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً، وعليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً"(7).

وقد أرسل الله الرسل رحمة بالناس لأن كل الناس محتاجون إلى معرفة الله. ومن جملة دواعي هذه الرحمة الابتعاد عن الكذب في إصدار أي حكم. ولذلك جاء التحذير من الكذب في كل الديانات. ولهذا كانت شدة حرص الرسل على الناس في دعوتهم لمعرفة الله ومعرفة أنفسهم لئلا يخوضوا فيما لا يعلمون. وجاؤوا بالحقائق والأدلة والإشارات المختلفة لإفهام الناس حقيقة

الإنسان وماعلموه عن الله. وكان على كل إنسان إما أن يسلم بالعلم الذي جاؤوا بـــه، أو أن يــتحقق بنفسه. فالدليل هو أنت، وإذا كنت لا تريد أو لا تستطيع أن تســتدل بنفســك فلا خيار أمام الإنسان إلا أن يقتدي بعلم من هو أعلم منه. لهذا طولـــب الإنسان بالعلم ومعرفة ما يشهد به لكي يكون منصفاً عند أداء شهادته. وبمـــا أن المعــرفة شــرط لأداء الشهادة الصحيحة والعادلة، لهذا كان الإنسان مؤهلاً من حيث التركيب للمعرفة. وعلوم الرسل وإن سبقوا فيها الناس بجهادهم وعصـــمتهم، فإن تعلمها من قبل الناس ميسر لمن شاء. وقد قال الله: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾(8). فالعلم متاح لكل إنسان. وما على الإنسان إلا أن يســعى بالطــريقة الملائمـــة للوصول إلى المعرفة الإلهية. وإن الطريق للوصـــول إلى هــذه المعــرفة يبدأ من الإسلام "من سلم الناس من لسانه ويده". فالإســـلام طــريق لـــلمعرفة لأن العبادة الصحيحة لا تقوم في حقيقتها إلا على معـــرفة صحيحة، ولكن الإسلام في حقيقته تسليم واستسلام بين يدي الرسول أو رســـول الرسول وهم العلماء القائمون على حفظ الشريعة. وهذا الباب من العلم يقـــود الإنســـان إلى معــرفة الأوامر الشرعية العامة بدون دخول في تفاصيل المعـــاني الكامـــنة فـــي الشريعة. ولهذا يكون حال المسلم في هذا الوضع حال التســـليم، أي آمـــن ثم فكر. لأن هذه العبادة لا تقوده إلى أي إجابة عن الأسئلة الكبرى التي نحن بصددها. وإن سمعها فإنه لا يرقى لدرجة الشهود، لأن عبادته لا تصـــدر عـــن معـــرفة وإنما عن حسن الظن بالله. وهو يثاب على هذا الظن الحســـن. ولكن العلم في هذا المستوى من المعرفة يتعرض لكثير من الأخطاء والمخالفات، لأن الإنسان الذي يجهل الحقيقة ولا يشهد حقيقة الثواب والعقاب لا يستطيع أن يصدق في عبادته. فالإنسان لا يستطيع أن يحب من لا يعرف. ولا يستطيع أن ينصف من يجهل. والإنسان لو قيل له عن إنسان إنه كريم أو جميل لا يســـتطيع أن يتحقق من صحة ما سمع إلا إذا التقى بهذا الإنسان ولمس كرمه أو أبصر جماله. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم " أنا أتقاكم لله وأعلمكم لحـــدود الله"(9). فـــالخوف اقترن بالمعرفة لا بالجهل. ولهذا استنتجنا بأن حالة الإســـلام إذا لم ترافقها حالة الإيمان فإن المسلم سيظل في حالة صراع فيما بين قواه الظاهرة وقواه الباطنة. وإذا كان لا يؤذي الناس بقواه الظاهرة فإنه سيتمنى إيـــذاء مـــن آذاه فـــي أقل تقدير بقواه الباطنة وقد يتجاوز فيما يطلب القصاص العـــادل، ويرغب في الإنتقام. وهذا التمزق بين حالته الظاهرة والباطنة سيمنعه مـــن الـــترقي في سلم المعرفة ولهذا قال الله: ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما**

يقاتــلونكم كافــة﴾(10). والكــلام يشمل أعداء الإنسان في جسمه كما يشمل الأعــداء في الخارج. لأن فاقد الشيء لا يعطيه. ومن لا ينتصر على نفسه فهو أعجــز عــن إصــلاح غيره. لهذا جاء الإيمان لإغلاق هذه الفجوة بين الظاهر والباطن، لتسخير القوى كلها في فعل الخير. والانطلاق من تساوي حب الخير لكــل الــناس باطناً كما يحبه لنفسه. فالمسلم المؤمن يقول اللهم إهد المسلمين، ويتمنى الخير لكل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها. ولهذا فإن دعوته تكون خاصة، أما المحسن فإن دعوته بالخير تشمل كل ذرية آدم لأنه فضلاً عن حبه الخير لما فيه من الخير. فإنه يعرف بأن صلاح المجتمع يتكامل بصلاح أفراده وصــلاح أفراده يتحقق بصلاح الأمم والمجتمعات. وإذا كان له عدو يؤذيه من الــناس فإنه يدعو له بالصلاح لأنه يعرف بأن توبة هذا الإنسان ستعود بالخير عــليه وعلى الناس حيث سيكف عن إيذائهم. ولهذا فإنه يترقى إلى مستوى من الحكمــة العقلية، تبعده عن الشر، فلا يصدر منه إلا الخير ظاهراً وباطناً. وبهذا الســلوك يــتحقق للمحسن الانسجام الكامل بين قواه فتكون متعاونة في السراء والضــراء، ممــا يــتيح له المجال لتحقيق الصفاء الداخلي والرضى عن نفسه، والإنسان هو أدرى الناس بنفسه. وموازين الخير والشر لا تفارق الإنسان مهما كــان سيئاً. ولهذا فإن حالة الرضى الداخلي عن النفس هي التي ستقود الإنسان إلى قمــة الإيمان حيث تتحقق طهارة القلب وتبدأ مرحلة الاكتشاف. فتأتي رؤيا المؤمن في كثير من الحالات صادقة. وتتحقق على يديه الاكتشافات إن كان من العــلماء. وكل عالم بحسب اعتقاده إذا انسجم ظاهره مع باطنه لابد أن يكون له حــظ فــي الاكتشاف والإبداع. لهذا نشاهد الدول والشركات تعطي للمبدعين أو لمــن تنتظر منهم الإبداع كل ما يتحاجون إليه في حياتهم وزيادة لتوفير الأجواء الملائمــة لهــم لتركيز قواهم وعدم تشتيتها لنجاح البحوث. وقد قام العديد من الباحــثين بدراســة ظاهــرة الإبداع فأصابوا وأخطؤوا. وهذا مجال لسنا بصدد الخــوض فيــه. وإن كنا نشير إلى حقيقة إضافية تتجلى للمؤمن لا يراها غيره. وهــي تســليمه فــي كل ما يتعرض له إلى الله واتكاله عليه. وهذا الاتكال لا التواكل يجعله في حالة اطمئنان وارتياح لا تتحقق لغير المؤمن، مما يؤدي إلى تحقيــق الانســجام الكــامل للإنسان المؤمن. وهذا الانسجام سيتجلى في سلوك المؤمــن وحياتــه عــلى قدر إيمانه. في هذه المرحلة لابد للمؤمن إما أن يسلم تســليماً مطــلقاً طاعة لله بكل ما جاءت به الشريعة، أو أن يتساءل عن أسباب طلب الإيمان منه إن كان من أصحاب الفكر. وفي هذه المرحلة يتعرض المؤمن صــاحب الفكر إلى الامتحان الأصعب في حياته. وهو تشكيكه بالشريعة لما قد

يظـنه فيهـا من تناقضات ظاهرة وإشارات غامضة، مما يضطره للخوض في تجـربة المعرفة لإدراك حقيقة الأسئلة التي كانت توقعه في الحيرة، وهو يتقلب بيـن الإيمـان والشك. وفي هذه المرحلة من الحيرة قد يكون الأفضل للإنسان الـلجوء إلى رجـل عارف مطلع على الحقائق لاختصار الوقت والوصول إلى الحقيقـة، لأن الكـثير من الأمور التي يتعرض لها الإنسان في هذه المرحلة لا يمكن له أن يفقه منها إلى القليل. والكتب لا يوجد فيها إلا شرح للأحوال العامة. فـالحديث النـبوي أشـار إلى مستوى من الأحوال يسمع بها الإنسان بسمع الله ويبصـر ببصـر الله، ولكـن كيـف سيسمع ويبصر ليتحقق بربه. هذا لم يتم توضيحه، لأن الفتوحات الإنسانية على عدد أنفاس الخلائق. والإنسان إذا سافر إلى مدينة س وهو لا يعرفها لا يمكن أن يعرفها بدون دليل يخبره بوصوله إليها وإن وصل. وقد رأينا أن الإنسان إذا كان يريد أن يتعلم أبسط المهن يحتاج إلى معـلم، مـع أنه يستطيع أن يتعلم بدون معلم على طريقة المبتكر الأول. إلا أن الوقت سيطول ونحن في عصر السرعة. كما أن الكتب ليس فيها تعداد لأحوال البشـر، وإنما تحتوي على قواعد عامة للمعرفة. ولهذا فإن السير بدليل متحقق مما تريد أن تعرفه، ومتقيد بشروط الشريعة ظاهراً لأن الباطن لا يعلمه إلا الله، هـو أفضل وسيلة للوصول إلى المعرفة الكاملة، "أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك". والمعرفة الثانية دون الأولى في المستوى والكمال. فإذا لم يهـتد الإنسان إلى مثل هذا الرجل الذي لا يسعى إلى حظ نفسه كما يفعل كثير مـن الـناس، وإنما يريد الله في كل ما يصدر عنه فإنه سيضطر إلى الاعتماد على نفسه بالذكر الدائم لله في كل أحواله والإخلاص له بعمل ما أمر به وتجنب ما نهى عنه والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم والصالحين. والمثابرة على صلاة قيام الليل وقضاء بعض الأوقات بذكر الله بعيداً عن الناس، حتى يفتح له مـن الله فيسـمع بـه ويبصـر به. فيترقى في مدارج الكمال على قدر صدقه وإخلاصـه وشهوده لربه. وهذه غاية الشريعة ونتيجة السير فيها، كما أوجزها القرآن في سيرة إبراهيم عليه السلام وهو ينتقل من طور إلى طور متسائلاً عن الحقيقة ﴿ **فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربـي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون**﴾(11). إن إبراهيم عليه السلام حين وصل إلى مرحلة من الوعي دفعته للتساؤل عن حقيقة الخالق، وكـان قـد شاهد القمر والشمس منذ ولادته. فالأسئلة جاءت في مرحلة النضج

والوعـــي. ولهذا بدأ يتساءل وحين عجز عن الإجابة آمن بأنه لن يعرف الخالق إلا بتعريف منه. فكان عطاء الله له: **﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾**(12). فإجابة الله للعبد الصادق حاصلة يقيناً **﴿ والذيــن جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾**(13). فهذا عهد من الله. ونحن في وقــت والحمــد لله فيه من الخير الكثير. فقد كان إبراهيم عليه السلام في زمن يفـتقر للعــلم، وتعـبد فيــه الأصنام. بينما الشريعة في زمننا واضحة. وعلوم الشــريعة والهدايــة مــتوفرة، بالقرآن والأحاديث وشروح الشارحين الغزيرة. فطــريق المسلم الراغب في الكمال ممهد، وهو ينتقل من خير إلى خير. ونحن فــي زمــن فيه من الخير الكثير بفضل العلم الذي كشف وما زال يكشف عما كان يحيط به الغموض من آيات الله على الذين سبقونا. وإن كان العلم إنما وجه لهــدف آخــر، وإن كان بعض العلماء قد سعوا إلى إثبات الصدف والعبثية في الكــون، فقد كذبهم العلم. وهذا مما يساعدنا على الوصول إلى اليقين بصحة ما نؤمــن به، وصحة ما نسعى إليه. وقد تحدثت كتب كثيرة عن الإعجاز القرآني فــي عصــر العــلم، الإعجاز الذي أشار إليه القرآن في مظاهر الكون. ولكن الإعجــاز الأهــم هو أن نشهد المعجزة في نفوسنا، أن نشهدها كما شهدها أهل الكمال. لنشهد الوجود بها شهود معرفة وتحقيق. فما هو المستوى الذي ستتيحه لــنا مثل هذه المعرفة. أو ماهي المعلومات التي سنتحقق بها في عمرنا القصير قبل خلودنا الطويل في عالم الأبد.

■■■

■ مراجع " الإشراق بالعقل "

مراجع "مصادر المعرفة الإنسانية"

1-سورة البقرة، الآية 255.
2-سورة الرعد الآية 39.
3-سورة لقمان، الآية 19.
4-سورة البقرة، الآية 31.
5-الغزالي، رسائل الغزالي ص 56.
6-الغزالي- رسائل الغزالي، ص56.
7-كنز العمال- رقم 10/29883.
8-سورة فصلت، الآية 53.

مراجع المعرفة الإنسانية بحوادث الوجود

1-سورة الأنبياء، الآية 30.
2-سورة ابراهيم، الآية 8.
3-سورة العنكبوت، الآية 6.
4-سورة يونس، الآية 99.
5-سورة هود، الآية 118.
6-سورة الملك، الآية 1-2.
7-سورة الإنسان، الآية 2-3.
8-سورة البلد، الآية 8-10.
9-سورة لقمان، الآية 34.
10-سورة البقرة، الآية 255.
11-الشعراني- تنبيه المغترين، ص18.
12-كنز العمال، رقم 1/1136.

مراجع "المعرفة الإنسانية بالوجود"

1-كليف كيلمستر، طبيعة الكون، ص232.
2-المرجع السابق، ص236.
3-كليف كيلمستر، طبيعة الكون ص237.

4-المرجع السابق، ص233.
5-سورة الزخرف، الآية 23.
6-الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص176.

مراجع "ماهية العقل"

1-عدد من المؤلفين، المادة كما ترى اليوم ص107.
2-كنز العمال، رقم 15/43590.

مراجع "الوجود القديم والوجود الحادث"

1-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج1/ ص227.م
2-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج1/ 212.م

مراجع "المعرفة بالحيرة"

1-سورة الذاريات، الآية 56.
2-سورة فاطر، الآية 28.
3-سورة العلق، الآية 1-5.
4-إنجيل القديس يوحنا ص175.
5-سورة الرحمن، الآية 29.
6-الكسندر كيتايجوررودسكي، الفوتونات والنويات، ص341.
7-المرجع السابق.
8-الغزالي، مجموعة سائل الغزالي، ص272.
9-سورة النمل، الآية 88.
10-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج6 ص265.م
11-سورة الرحمن، الآية 1-4.

مراجع "عين اليقين"

1-كنز العمال- رقم 10/29883.
2-ابن هشام، السيرة النبوية ج1 ص201.
3-كنز العمال- رقم 37421/ج13.
4-كنز العمال، 1/1359.
5-كنز العمال، رقم 1/63.
6-كنز العمال، رقم 1/103.

مراجع "لماذا كان الإنسان"

1-كنز العمال، رقم 1/1146.
2-كنز العمال، رقم 1/1150.

3-كنز العمال، رقم 1/445.
4-سورة التين، الآية 4.
5-سورة البقرة، الآية 30.
6-سورة النجم، الآيات 3-18.
7-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج5 ص119.م
8-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج12، ص574.م
9-سورة يونس، الآية 24.
10-سورة الزمر، الآية 68.
11-سورة الذاريات، الآية 47.
12-كنز العمال، رقم 1/1252.
13-ابن عربي، الفتوحات المكية، ص286/ج1م.
14-جزء من حديث رواه الترمذي، 3294. ابن عربي- الفتوحات المكية، ص370/ج7م.
15-كنز العمال، رقم 1/1275.
16-سورة يس، الآية 63-65.
17-كنز العمال، 6/5175.
18- سورة الفيل، الآية 3-4.
19-سورة التين، الآية 4-6.
20-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4 ص140.م
21-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج6 ص346م.

مراجع "شهود الوجود"

1-كنز العمال- رقم 1306/ج1

الحديث "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

2-كنز العمال، 16/44404.
3-كنز العمال، 16/44435.
4-سورة الإسراء، الآية 44.
5-سورة يس، الآية 40.
6-سورة محمد، الآية 31.
7-سورة هود، الآية 118.
8-سورة الملك، الآية 14.
9-سورة المائدة، الآية 46.
10-كنز العمال- رقم 10913/ج4.

11-سورة العنكبوت، الآية 69.
12-سورة البقرة، الآية 282.
13-سورة آل عمران، الآية 41.
14-سورة المزمل، الآية 8.
15-سورة الإنسان، الآية 25.
16-سورة النساء، الآية 103.
17-سورة النساء، الآية 80.
18-سورة الإسراء، الآية 20.
19-كنز العمال، رقم 1157/ج1.
20-كنز العمال، رقم 8639/ج3.
21-كنز العمال، رقم 10/28073.
22-كنز العمال، رقم 10/28090.
23-الجيلاني، الفيوضات الربانية، ص11.
24-كنز العمال- رقم 5850/ج3.

مراجع "مشكلات في المعرفة. لا تكذيب"

1-سورة التوبة، الآية 128-129.
2-سورة الأنبياء، الآية 107.
3-كنز العمال- رقم 8211/ج3.
4-كنز العمال- رقم 8227/ج3.
5-كنز العمال- رقم 8203/ج3.
6-كنز العمال- رقم 8215/ج3.
7-كنز العمال- رقم 8219/ج3.
8-سورة العنكبوت، الآية 69.
9-كنز العمال- رقم 31964/ج11.
10-سورة التوبة، الآية 36.
11-سورة الأنعام، الآية 77-78.
12-سورة الأنعام، الآية 75.
13-سورة العنكبوت، الآية 69.

■■■

الفصل الثاني :

الإشراق بالإيمان

المعرفة والموت

لقد رأينا أن لكل صورة ظاهرة في الوجود بعض المزايا والصفات التي لا تـتغير، وهـي الحقيقـة التي تتجلى فيها. وتنقسم إلى قسمين الظاهر والباطن. والحقيقـة التي تؤثر فيها وتتأثر بها لكونها جزءاً من الوجود منفعلة عنه وفاعلة فيـه. والصـورة في الجوهر من حيث حقيقتها الظاهرة معدومة قبل أن تظهر. ولكنها ممكنة وقابلة للظهور كماهية خاصة مختلفة عما نعرفه عنها بعد تركيبها وتـآلف أجـزائها. ولهـذا رأينا أن ظهور الصور مرتبط بالأزمان، وإن كانت الصـور تجري في بحر الوجود المدهش متنقلة من حال إلى حال. فما سيكون الآن صـار الآن، وما سيكون في المستقبل سيصير. لأن الوجود في كل لحظة هـو صـورة لإرادة العقـل الإلهي في نفس اللحظة. والإنسان ليس له في هذا الوضـع أي تأثيـر، إلا ذلك التأثير المحدود كمبدع من إبداعات الوجود منفعل عـنه، يحيـط به النظام الشامل من كل جانب. ومحكوم من جانب آخر بولادته وأحكـام زمانـه، ومصـيره المحتوم بين بداية لم يخترها، ونهاية ليس بيده أن يحددهـا. فهـو عاجز كل العجز، لا يملك غير أن يمضي في خط سير حياته باحـثاً عما يحفظ له هذه الحياة بدون أي حماية من الموت الذي يداهم الأصحاء كمـا يداهـم المرضى، ويداهم الأغنياء كما يداهم الفقراء، ويداهم الشجعان كما يداهـم الجبـناء. ولعـل الإنسان هو الوحيد الذي يدرك أن الموت هو مصيره المحـتوم الـذي يلاحقـه في كل لحظة، ويحاول أن يهرب منه في كل لحظة باسـتخدام كل الوسائل التي أتاحتها الحضارة للإنسان، مع أن كل هذه الوسائل ظلت وستظل عبثاً أمام هجوم الموت ومصادفاته التي تختفي في كل عضو من أعضاء الجسد، كما تختفي في الطريق والسيارة والطائرة وفي كل مكان يسكنه الناس ويذهبون إليه. فالموت يرافق الإنسان مثل ظله حتى يصيبه ويستعيد منه كـل ما وهبه له الوجود من كمال. وهذا مصير كل محدث، وكل صورة منفعلة عـن الوجود، ومركبة من أجزائه. فالوجود في لحظة ما يستعيد منها ما منحه لهـا ليـركب صوراً جديدة ليتم التجديد الدائم والإمداد الذي لا يتوقف بعطاءات

العقل الشامل بين ضفاف أزل ليس له بداية وأبد ليس لها نهاية. فما هو الإنسان فـــي كل هذا النظام. وهل له حق التطلع إلى الخلود بصورته وحقيقته الإنسانية الموهوبـــة له، وليس كمادة من مواد الوجود التي لا تفنى. إن هذا السؤال الذي ســـيظل يشغل الإنسان لا يمكن الإجابة عليه إلا من خلال الدين، وأقوال الرسل وأعمـــالهم. وهـــذه الحقـــائق كلها يجب أن نأخذها بعين الاعتبار للوصول إلى الحقيقة والتأكد منها بقدر ما نستطيع، لأن حصن الموت المنيع لا يمكن اقتحامه والعـــودة لإخبار الناس عما سيعقبه من الحوادث. وكل إنسان يستطيع أن يدعي ما يشاء عن حصن لا يمكن تجاوز أسواره. ولهذا لابد لنا من تأمل هذا الحصن بمـــا نمـــلكه مـــن القوى العقلية، وبما سمعناه من الرسل أو من غيرهم لمعرفة الحقيقـــة الغامضة عن المصير اللاحق لوجودنا بعد الموت. وهذا التأمل لكل ما عرفـــناه عـــن الموت والحساب يمكن أن نتحقق من صحة ما أخبرنا المخبرون عنه بعدة أمور قد تكون البداية لإدراك الحقيقة منها:

1-الـــتطابق بيـــن الأقوال والأفعال بأن يكون المخبر لنا عن وجود حساب بعد الموت قد تصرف على أساس أنه سيحاسب. ولذلك فإنه عمل لينجو بنفسه مما سيتعرض له بعد الموت.

2-بما أن كل مخبر أو ناقل لخبر لابد له من دليل على صحة أخباره. فإن كل مـــن كان رسولاً لابد له أن يتميز بصحة أخباره سواء في الحياة الدنيا أو الآخـــرة. وإن صحة نبوءات الرسل في الحياة الدنيا تقوي صحة أخبارهم عـــن الحياة الآخرة. لأن المخبر عن الله لا يمكن أن تتناقض أقواله طالما أن مصدر علومه الله الذي لا تخفى عليه خافية في الوجود.

3-إن ممـــا يقوي صحة الأخبار التي وصلتنا عن الرسل هو تصرف أصحابهم الأقـــرب إليهم لأن كل إنسان لابد أن يتصرف في ضوء معتقده ومعرفته، فـــإذا كـــان أصـــحاب الرســـل قد شاهدوا من الرسل أي إخلال بموازين المعـــاملات، أو أقل تهاون بأمور المعتقدات، لابد أن ينتقل هذا الحال إلى الأصحاب الأقرب إليهم. كما أن هؤلاء الأصحاب سيضطرون للدفاع عن أنفســـهم تجـــاه المعترضين، بالاستناد إلى أقوال أو أعمال قام بها الرسل لتـــبرير مـــا تصـــرفوا به. ولهذا فإن الأسرار الغامضة لا يمكن أن تبقى أســـراراً عـــندما يـــتداولها عدد كبير من الناس. كما إن وجود معارضة وأعـــداء للرســـل سيساعد في الكشف عن المرحلة التاريخية التي عاشها الرســـل، وعن حياتهم الشخصية، لأن سلاح أي معارضة سيكون كما هي

العادة دائماً الكشف عن سلبيات الخصم لإضعافه ومواجهة المعتقدات التي يدعـو إليهـا. ولا نشك بأن التهويل والأكاذيب سترافق مثل هذه المعارك كـلما كـانت المواجهة شديدة وحامية، لهذا فإن شهادات الخصوم ستصلنا بكـل ما تحمله من مبالغات وأسرار وحقائق مهما كانت المحاولات ناجحة لطمـس بعـض معالم تلك المرحلة من قبل الفئة المنتصرة. لأنه لا يوجد انتصـار أبدي في النهاية إلا للحقيقة. فما هو حق وصدق سيبقى، وأما ما هـو مـن نـوع الدعاية، المبني على الافتراءات سيسقط لأن ما فرضته المرحـلة من دعاوى غير صحيحة سيسقط بانتهاء تلك المرحلة. والحقيقة تظـل كالشمس وإن اختفت لبعض الوقت فإنها ستسطع من جديد. وخاصة عندما تكون الأمة في مرحلة من الوعي الذاتي والتاريخي بنفسها وكرامتها مما لا يسمح لها بالانجرار وراء أي دعوى دون لمس أثر يشعرها بصحة العقيـدة المدعوة لها. وهذا ما تشهد به حياة العرب عندما نبحث عن سر نجـاح الدعـوة الإسلامية بينهم. فالعرب كانوا أمة الكلمة والأنفة والفخر والتاريخ كحفاظ لأنسابهم وحتى لأنساب خيولهم. فهم أول أمة اتفقت على كتابة الكلمة الجميلة بالذهب ووضعتها في أقدس الأمكنة (الكعبة)، قبل أن تـتفق عـلى بـناء دولة أو حتى إمارة لأن أنفة العربي كانت تمنعه من الخضـوع إلا لشـيخ العشيرة بالحق. وعن هذه الإنفة نشأ العلم بالأنساب والفخـر بماضي الأجداد. وفي مثل هذه الأمة التي لا تدين لحاكم أو ملك، ولا تخضـع إلا لشـيخ العشيرة سيكون من الصعب القبول بأي زعامة لا تمـلك قـدرات خارقة فكرية للسيطرة على الوضع وإقامة دولة تدين لها العشـائر المتنافسـة بالولاء، وإذا كان للنجاح العسكري حدوده الجغرافية والزمـنية فـإن النجاح العسكري لا يستطيع أن يطمس الحقائق، لأن كل نجاح عسكري مهما كان كبيراً هو نجاح مؤقت. بينما ستظل الحقيقة تفعل فعـلها بمـا لهـا من أثر وإشعاع حتى تأخذ مكانها الذي تستحقه في حياة البشـر. ولهـذا سـقطت الفلسفات الشرقية واليونانية رغم وفرة الجيوش لنشـرها ورغـم أن الاسـكندر المكدوني هو تلميذ أرسطو. فإن كل هذه الفلسفات لم يبق منها إلا بريقها وأسئلتها، بينما نجح الإسلام وبقي وتسللت أفكـار المسـيح عليه السلام إلى روما التي لاحقته مع اليهود والتي بدت منتصـرة بخلاصها منه، سواء برفعه إلى السماء كما يعتقد المسلمون، أم بصـلبه كمـا يعتقد المسيحيون واليهود بما "شبه لهم". تسللت أفكاره إلى رومـا وحطمـت حصونها بدون أي حرب لأنها كانت الأصدق والأرفع

والأطهر في مواجهة كل الفلسفات والمعتقدات والمذاهب المعاصرة لها. وهذا لا يعود إلى قوة المسيح عليه السلام الذي غاب عن تلاميذه وهو في الثالثة والثلاثين من العمر، ولا يعود إلى سحر كلماته في شعوب قرأت أفلاطون وأرسطو والإلياذة والأوديسة وعرفت بلاغة شيشرون، وإنما يعود إلى الإشعاع والصدق الذي تحمله معاني الكلمات التي وصلت إلى روما التي كانت غارقة في وثنيتها وتائهة بين عبادة الامبراطور، وعبادة اللذة التي لا طائل من ورائها. فكانت كلمات المسيح عليه السلام هي الدواء للقلوب المحطمة بسبب أحزانها ويأسها وطغيانها وآثامها وضعفها. كانت كلمات المسيح تخاطب العقل كما تخاطب الروح، تخاطب الكمال في الإنسان. بينما كانت الفلسفات تخاطب العقل، وتتصارع بالعقل، وكان نجاحها يقوم على التفنن في الأقوال لا في الأفعال. وكانت الجيوش تخاطب الأجسام لتخضع العقل بالتهديد والوعيد وقتل الخصوم. لهذا انتصرت المسيحية لأن كلمات المسيح كانت حياته. لأنه نطق بالصدق، وكان تلاميذه على هذا المستوى من الإخلاص ولهذا نجحوا. وإخلاصهم له أسبابه، أي إنه لم ينشأ من فراغ، بدون إشراق ذاتي، وبدون مشاهدة لنور الحق الذي عرفوه من المسيح عليه السلام، ولهذا نجحوا حيث أخفقت الجيوش وعجزت الفلسفات. فانتشرت الأناجيل في بيوت كل الناس، العباقرة والحكام والعوام، وكان كل إنسان يجد فيها بعض الزاد لما يحتاج إليه. وهذا التأثير لم يتوصل إلى بلوغه أي كاتب قديم أو معاصر رغم تطور فنون النثر والشعر وبلاغة البلغاء وعبقريات القدماء والمحدثين. فمن أين جاء هذا التأثير الذي سيبقى إلى قيام الساعة وإن أنكره المنكرون وشكك به الجاحدون، رغم ما قلناه عن اختلاف كلمات المسيح عليه السلام عما وصل إلينا من تلاميذه. فكيف لو وصلت إلينا نفس كلماته بحذافيرها. ولكن لأمر يريده الله حصل ما حصل وضاع ما ضاع ووصل ما وصل. وما قلناه عن الأناجيل ينطبق على التوراة (العهد القديم) وإن ضاع الأصل. ولكن إشراقات الحق التي فيه لا تخفى على المؤمن الذي يريد وجه الله بالتزامه بالوصايا العشر نحو أبناء آدم. لأن الله لم يرسل الرسل إلا هداة لا جباة للأموال ولا سعاة لجمعها وإن تصرف رسل الرسل، أو من ادعوا أنهم رسل الرسل في ضوء مصالح الجيوب والغرائز لا الأخلاق السامية التي دعا إليها الرسل. وكم حمل الناس رسلهم مالاً يحملون ونسبوا إليهم مالا يعلمون، فكانوا دعاة نبذ للدين القويم ودعاة

هدم، لا دعاة إحسان بالإحسان ولا دعاة بناء للإنسان، فحل القتل بين بني الإنسان لأن الإيمان بما في الجيوب، ووثنية عبادة الدرهم والدينار والدولار قد حلت محل عبادة مكون الأكوان. إن كل هذه الحقائق التي يمكن أن نتأملها بالعقل، وأن نطلع عليها عند دراستنا لتاريخ الأفكار والأشخاص وجدلهم وصراعهم، لابد أن يكشف لنا عن الحقيقة التي لا تخفى على المنصف. والسؤال الذي يفرض نفسه هو لماذا بقي ما بقي من الأفكار في التاريخ وذهب ما ذهب؟ ولماذا كانت الأفكار والفلسفات مثل موضات تذهب وتختفي وتعود بين الحين والآخر بأثواب جديدة وكلمات معاصرة، بينما ظلت الأديان تترسخ في حياة البشر عبر كل العصور، رغم كل دعوات الإلحاد وجيوشه الجرارة. ولماذا كان من السهل على غالبية الناس أن ينسوا لغتهم وقوميتهم بينما ظلوا يتمسكون بالدين، فكانوا وإن تركوا دينهم ينتقلون إلى دين آخر ليظلوا في حظيرة الرحمة الإلهية التي يتطلعون للدخول إليها من بوابات الرسل لا من فلسفات المتفلسفين، ولا من وعود الداعين إلى دنيا تعاش وغرائز تلهو لتشبع، رغم قرب الغنيمة في الدنيا وبعدها في الآخرة؟. إن كل هذه الأسئلة تفرض نفسها على الإنسان المنصف الذي يريد الحق والحقيقة بغض النظر عن جحود الجاحدين وتقصير المقصرين. فهل يمكن أن نتهم العقل البشري بالضلال إذا كان في غالبيته يدين بالولاء للدين أكثر مما يدين للفلسفة. ويجب ألا ننسى أن البوذية والكونفوشيوسية لا تخرجان في حقيقتهما عن الدين لكونهما دعوة أيضاً إلى سمو الإنسان الروحي بالعمل الصالح وخدمة الإنسان. ونحن نعرف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكر بأن الله قد أرسل إلى الناس آلاف الأنبياء. ونحن وإن كنا لا نعلم عن نبوة كونفوشيوس وبوذا شيئاً، أو عن المصادر التي أخذوا عنها وتعلموا منها، إلا أننا نستطيع أن نلمس من الأفكار التي تذخر بها كلا الدعوتين إشراقات النبوة وآثارها فيما تدعوان إليه من سمو روحي لمعرفة الله، وإصلاح الإنسانية. ولهذا صمدتا أمام شتى الأفكار التي حاولت أن تحد من تأثيرهما. وظلت دعوات الإلحاد رغم كل ما أتيح لها من الحرية لنشر أفكارها تعيش في جزر معزولة عن روح الناس وطبيعتهم. فكان كل ما ساهمت به أنها خلقت الأزمة وعجزت عن حلها. حاولت أن تدمر الدين بالتشكيك فيه، فدمرت المجتمع، بظهور فلسفات للقلق والغموض والحيرة واللاأدرية والإباحية فأصبح على الإنسان أن يستمد سموه من عورته أو

مــن معدتــه أو من جيبه، لأن قدسية الروح وإشراقها تحطمت بين يدي المديــنة الحديــثة. وإن ظلت طهارة الإنسان وروحانيته وإيمانه تتردد في جوانحــه مــثل ومضات في لحظات الصفاء لاستعادة ما دمرته حضارة العصـــر برفعها شعار إفعل كل ما يسعدك، ودع كل ما يعذبك، في فلسفة الأبيقوريـــة الجديدة، التي انحطت بالإنسان، ولم تنقذه من العذاب بل زادت من عذابه حين حولت الحب إلى لحظة عابرة من لحظات المتعة. وحطمت أقــدس ثمار الحب، الطفولة البريئة بحرمانها من دفء الأسرة وحنان الأم والأب، وإنــتاجها لأولاد الزنا الذين سيردون لمجتمعهم ثمار القسوة التي عومــلوا بها بقسوة وحقد لا نعرف حدودهما. ولكن القليل من هذه الثمار يدل على الكثير القادم في مجتمع المصالح القائم على المتعة لا الحب. إن الإيمــان بالدين باق. ولكن المدينة الحديثة حرمت الناس من ثمارها حين حولــته إلى وســيلة لاستعادة توازننا الإنساني في لحظات خرابنا الجسدي والـــروحي بعــد كل الانحطاط التاريخي الذي يمارسه الإنسان في حياته. والدين ليس ماءً ساخناً يغسل أوساخ الروح في لحظة وقوفنا تحت أنواره. إنه بداية لإشراق الروح، وكل بداية لابد لها من متابعة للدخول إلى أعماق الـــروح لشـــهود ما فيها من ينابيع النور الفياضة التي لا تساويها كل متع الدنيــا وغرائـــزها. ولكــن الحماقة إذا كانت كنز الحمقى، والحكمة كنز الحكمـــاء، فإن الحكماء ليس لديهم إكسير لتحويل الحمقى إلى حكماء. لهذا قال المسيح بحق "ما عجزت عن إحياء الموتى، ولكن عجزت عن إصلاح الأحمق"(1). وعصرنا ويا للأسف عصر الحماقات رغم كل المطابع التي تطبع وتنشر الثقافات. وقد غدونا كما قال الله عن الذين يقرؤون العلم ولا يستفيدون منه **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمــل أسفاراً﴾**(2). فغدونا ننعم برفاهية دور العجزة وحضانة المسنين، بســبب إلغائــنا لــدور الأســرة وحرمانــنا من علاقات الجيرة الحميمة، وصــداقات الإخوان الصافية. فكان نجاح أفلام – القتل من أجل الدولار– تــتويجاً لحالــة الانحطاط الإنساني المعاصر وتعبيراً عنها. بعد أن حنطنا عقيــدة الإيمــان في كتب مزخرفة على رفوف المكتبات، ننظر إليها بين الحيــن والآخــر. إنهــا مأساتنا التي يجب أن نواجهها بالعودة إلى العقل. وطـــرح كــل الأســئلة التي من شأنها إعادة الإنسان إلى سموه الروحي ومكانــته اللائقة به. ليس كحشرة من الحشرات التي تعيش لتأكل وتستمتع بدون إدراك لوظيفتها المرسومة من الخالق. لأن الخلق ليس فيه أي عبث.

والإنسان الخليفة لم يخلق للاستهلاك والأكل، وإنما لشهود عظمة الخالق في المخلوقات، ومنها نفسه التي بين جنبيه. لإحياء روحه بالعلم، ومشاهدة جمال الخالق في مخلوقاته، والحكم بالحق على الخلق، للوصول إلى ما هو أسمى بصعود الروح وتصعيدها لرؤية النور وتجنب الانحطاط الذي يقود إلى العذاب بخراب الروح وموتها بالجهل بمعرفة الله. لقد حاولنا أن نتأكد من صحة الأخبار التي وردت عن الثواب والعقاب بعد الموت في كل الأديان. ولا دليل لدينا على صحة هذه المسألة غير أقوال الرسل. وقد رأينا أن المشاهد للخطر المحدق بالإنسان بعد الموت لابد أن تدفعه معرفته إلى تجنب الأخطار باتباع السلوك المأمور به من الله. أما إذا كانت هذه الأخبار المنقولة إلينا ناجمة عن الرغبة في إصلاح المجتمع، أو لأي غاية إنسانية نبيلة فلابد أن تقود هذه الأفكار الإنسانية صاحب الدعوة إلى التهاون في تطبيق الشريعة على نفسه وإن تشدد في تطبيقها على غيره. ومهمتنا لحسم هذا النقاش والوصول إلى نتيجة صحيحة ستقوم على ما يلي:

1- تتبع حياة الرسل في أقوالهم وأفعالهم.
2- تتبع إخبارات الرسل في الحياة الدنيا للتأكد من صحتها، لأن الناقل عن الله لا يمكن أن يخطئ فيما نقل من أخبار عن الدنيا أو الآخرة. وإن صحة أخباره ونبوءاته عن الدنيا تدل على صحة علمه بالآخرة.
3- تتبع حياة الأصحاب الأقرب إلى الرسل للتأكد من حقيقة الإيمان الذي امتازوا به من غيرهم لأن الإيمان والزهد في الحياة لا يمكن أن يأتي من فراغ بدون وجود قناعة لدى هذا الإنسان بأنه اختار الطريق الأفضل لحياته ومماته، ما دام على قناعة بأن الموت هو مرحلة أخرى من الحياة سيعقبها الحساب.

وبما أن حياة الرسل العامة قد تشابهت من حيث الصراع ضد الوثنية والشر، وظلم الإنسان لأخيه في كل المجتمعات سواء في عهد موسى والمسيح عليهما السلام، وأتباعهما بعد ذلك. ونظراً لعدم وفرة الوثائق الدقيقة التي تؤرخ لحياتهم وحياة أصحابهم، وتوفر هذه الوثائق عن العصر الإسلامي. لذلك فإننا سنقتصر في بحثنا على تتبع بعض الجوانب في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأقرب إليه من الذين تخلقوا بأخلاق الإيمان وجاهدوا للوصول إلى مقام الإحسان أو وصلوا إليه. وبما أن غرضنا من هذا البحث

الموازنـــة بيـــن الأقوال والأفعال، بين الإيمان بالحساب بعد الموت إيماناً يقينياً وســلوك صاحب هذا الإيمان. لهذا سنقتصر في دراستنا على تتبع هذه الجوانب فـــي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه. لأن كل سلوك هو تعبير عن حاجـــة إنسانية، عن مصلحة ذاتية للإنسان. وإن دراستنا للأحوال النفسية للبشر تكشــف لـنا بأن كل سلوك إنساني للإنسان سواء كان حسناً أو سيئاً في عرف الجماعـــة يهدف إلى تحقيق مصلحة فيها خير للفرد من وجهة نظره. فالسارق يسرق ليستفيد من المال أو ليصبح ثرياً وهذا بالنسبة له سيعود عليه بالخير وإن كـــان سيعود بالشر على المسروق. ولهذا سيكون الكشف عن السارق وقطع يده أو سجنه، وإعادة المال المسروق إلى صاحبه عملاً فيه كل الخير لمالك المال. وعلى هذا المنوال سنجد بأن السارق والمسروق يتفقان على أن المال هو خير، ولكـــنهما يختلفان على طريقة تحصيله وأسلوب الوصول إليه وإن كان محبوباً لكليهما. وبما أن كل الناس يحبون المال فإنهم أيضاً يختلفون على طريقة إنفاقه. فالكـــريم يجـــد متعة في الإنفاق لحكمة يؤمن بها أو عقيدة يحملها بينما يحرص الـــبخيل كل الحرص على تكديس المال وإخفائه حتى عن أقرب الناس إليه، وقد يمـــوت وهـــو يشـــتهي ثوباً فلا يشتريه. وإذا راقبنا تصرفات كل البشر، فإنهم جميعـــاً يتصــــرفون وفقاً لحكمة اهتدوا إليها أو علم توصلوا إليه أو عقيدة آمنوا بهـــا. فالإنســـان لا يتصــــرف إلا وفقـــاً لأهداف وغايات. وقد ورد في بعض الحكايـــات أن أحـــد الخلفاء طلب من أحد أقاربه، وكان زاهداً، أن يتولى إحدى الولايـــات فاعتذر فقال له "والله ما رأيت أزهد منك". فقال له "بلى يوجد يا أمير المؤمـــنين" فســـأله "من" فقال له: "أنت". فسأله مستغرباً "أنا" فقال له "نعم، أنت زاهـــد في خالد، وأنا زاهد في فان". فالمؤمن الزاهد ليس أقل طمعاً في السعادة مـــن محب الدنيا. ولكن محب الدنيا والعامل لها قد يريد الدنيا والآخرة فيختلط عملـــه ويكون فيه الحسن وفيه الرديء بحسب أحواله، أما المؤمن المشاهد فإنه لا يســـتطيع أن يخـــلط أبـــداً، ليس الحلال بالحرام، بل لا يستطيع أن يختار إلا الصـــافي والنقي من الحلال، بل إنه يؤثر غيره على نفسه، لرغبة في إيثار الله. فكـــل إنســـان يطلب الجزاء والثواب، هذا من العبيد، وهذا من رب العباد. فمن عـــرف الله لا يستطيع أن ينظر إلى أفعال الخلق، ولا أن يرجو منهم خيراً، لأن نظـــره مرتـــبط بخالق الدنيا والآخرة. ومن لا يعرف الأمر كما هو عليه حقيقة تكـــون عيونه إلى الدنيا منصوبة وكرامته بما يظن أنه يرضي العبيد محسوبة. ولهـــذا فهو يهرج، أو يكذب، أو يسرق، أو يأتي أفعالاً لا يقبلها كريم أو عاقل ليســـوي أمـــر دنيـــاه، ويفوز فيها بالغنيمة. وبينما يتحير العقلاء والكرماء من

البخيل ويضحكون من حرصه على الفلس والقرش، فإنه يضحك منهم في قرارة نفسه لحماقتهم وإسرافهم حتى حينما يكون على مآدبهم. ولهذا فإنه لا يتورع عن حشو معدته حتى الامتلاء بطعامهم ليوفر وجبة أو وجبتين. وربما كان لفرط حكمته في مثل هذه المناسبات ممن يحسد الجمال لما حباها الله من القدرة على استرجاع طعامها من معدتها لاستخدامه غذاء لعدة أيام. وعند هذا المستوى من الأعمال يتميز الإنسان من الإنسان. فإنسان يصعد بخيره، وإنسان ينزل بشره. إنسان رأى الموت ولم يشاهد الحساب. فقال: "واغنم من الحاضر لذاته" لأن حياة الإنسان ستنتهي إلى فناء محقق لا شيء بعده. وإنسان رأى الموت ورأى شيئاً آخر وراءه. رأى جنة وناراً وحساباً. فتوقف عند هذه الحقائق وراح يعمل للفوز بالنعيم الدائم. والناس سائرون بين شتى الحكم إلى مصائرهم التي اختاروها، وإن ظنوا أنهم سائرون لسعادتهم، فهذا جنته من علمه، وذاك ناره من علمه. قالت رابعة العدوية:

أحبك حبين حب الهوى	*وحباً لأنك أهل لذاكا*
فأما الذي هو حب الهوى	*فشغلي بذكرك عمن سواكا*
وأما الذي أنت أهل له	*فكشفك لي الحجب حتى أراكا(3)*

ولهذا قال أهل المعرفة "حسنات الأبرار، سيئات المقربين" فالأبرار الذين آمنوا بالجنة عملوا للفوز بها. والمقربون الذين أتيح لهم أن يشهدوا رب الجنة كان مطلبهم المالك لا الملك، لأن من كان مع المالك لا يحرم من الملك. ولهذا قالت آسية زوجة فرعون حينما كانت تعذب حتى الموت بسبب إيمانها ﴿**رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة**﴾(4) والبيت الذي طلبته إنما يعني القرب لا المكان –عند الله– فهل يمكن لإنسان أن يستبدل بقصور فرعون بيتاً –عند الله– لا يعرف عنه شيئاً. هذه هي المسائل التي سنحاول أن نكشف عنها في عقول رأت وشاهدت فشهدت، وإلى ميزان الحق نظرت فانتظرت، فقال معلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له"(5).وقال "سددوا وقاربوا وأبشروا، فإن أحدكم لن ينجيه عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته"(6). ولهذا حين جاءته البشرى بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ظل يقوم الليل حتى تتورم قدماه. وحين سئل عن سبب مواصلته لعبادته بعد الغفران، أجاب "أفلا أكون عبداً شكوراً"(7). فماذا رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المشهد حتى كان يقوم الليل ويصلي حتى

تتورم قدماه مع أنه قد غفر له. فهل هناك من جزاء للعطاء إلا زيادة الشكر كما قـال الله ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (8) فغاية الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكـن نيـل الغفران بعد أن تحقق، وإنما كان يعمل لغاية أسمى، غاية الغايات، عـبودية العبد الكامل في عبودتيه لسيده، حتى يستحق الخلافة الكاملة، بعبوديته الكاملة. بأنْ تكون حياته كلها لله كما أمر، وكما أراد، ليفور بكنز العطاء الإلهي فـي الدنيا والآخرة. وقد كان كنزه في الدنيا نجاح الإسلام وتبليغ الرسالة وكنزه في الآخرة أن ينال المقام الذي طلبَ من المسلمين الدعاء له بالوصول إليه وهو مقـام الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود الموعود به. وهذا هو السر الذي يجب أن يتطـلع كـل عاقل لمعرفته. يجب أن يسأل عن سر هذا الزهد الذي اختاره الرسـول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حياتهم، حتى إن الرسول صلى الله عـليه وسـلم حيـن توفي "كانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشـعير"(9). واحـتاجت أم المؤمنين عائشة لقليل من الزيت أو السمن لإشعال المصباح ليلة مرض الرسول صلى الله عليه وسلم فلم تجد، فأرسلت "بمصباحها إلى امرأة من النساء وقالت لها أقطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن"(10). هذه هي بعض كنوز خاتم النبيين الذي أعطى للناس عطاء من لا يخشى الفقر، فـلم يجد أهله الزيت لإشعال مصباحهم عشية مرضه. لقد أعطى واغتنى بكنوز كثيرة خالدة، كنز التوكل على الله والتسليم له، لسر عرفه وصرح به "والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له". فمن عرف الله خاف، ومن جهله طاش.

مهمة التبليغ والكفاح الدامي

إن أول مـا يلفت انتباه الباحث في تاريخ الإسلام هو حجم الصعوبات التي تعـرض لها المسلمون الأوائل وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم مما اضـطر بعضهم للهجرة مرتين إلى الحبشة قبل أن يأتي الأمر بالهجرة الشاملة إلى المديـنة فراراً من اضطهاد قريش. وهذا يدل على حدة الصراع وعنفه إذ استخدمت قريش في مكة كل الوسائل التي تستخدمها الدول الحديثة الديكتاتورية لمحاصرة الحركات السياسية المناوئة. مما اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الهجـرة للمديـنة رغم الحماية النسبية التي استطاع بنو هاشم أن يوفروها للرسـول فـي بداية الدعوة، ثم عجزوا عنها بسبب ضغط القبائل بزعامة أبي سـفيان وأبي لهب واستخدام الزعامة القرشية لكل الوسائل للقضاء على الدعوة

الإســـلامية، مـــن تعذيب بعض المسلمين وسجنهم وقتل بعضهم ومقاطعتهم، ثم مقاطعة بني هاشم بأجمعهم لمدة ثلاث سنوات ومحاصرتهم في شعب من شعاب مكة، وقطع كل العلاقات الاجتماعية معهم من بيع وشراء وزواج وتعامل. حتى وصـــل الحال بالمقاطّعين إلى جوع شديد اضطرهم إلى أكل الأعشاب وأوراق الشجر إن وجدت مما لا تطيقه إلا نفوس تساوى لديها -في ظل إيمانها- الموت والحيـــاة. والروايات التي تحدثت عن أحوال الناس في هذه الظروف كثيرة نقدم مـــنها بعـــض هذه الصور. فالمشركون لم يكتفوا بملاحقة المسلمين في مكة بل طـــاردوهم إلى الحبشة، عندما اتخذت هذه الحروب بين الإسلام والشرك طابعاً جديداً بلجوء بعض المسلمين إلى الحبشة هرباً من المعاناة والتعذيب والظلم. لقد استخدم المشركون دبلوماسيتهم لدى النجاشي لطرد المهاجرين وسد كل الأبواب أمـــام المســـلمين لخنق الإسلام في مهده ومحاصرته والقضاء عليه. وكان من جمـــلة الأســـلحة تعذيب من استطاعوا تعذيبه من العبيد ومن الذين ليس لهم أي حماية في النظام القبلي السائد حتى الموت ليرتدوا عن الإسلام، وليكونوا عبرة لكـــل من يفكر بقبول الدين الجديد. فكان "بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيـــه وأمـــه، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة. فأما أمه فقتلوها". وكـــان الرســـول صـــلى الله عليه وسلم يمر بهم فيقول لهم "صبراً آل ياسر إن موعدكـــم الجـــنة"(1). وتعرض خباب بن الأرت لمثل هذه الأنواع من العذاب. وبـــلال أيضـــاً. وهذه ملامح مما جاء في كتب التاريخ عن أنواع التعذيب التي اســـتخدمت لإرهـــاب المؤمنين وإجبارهم على الردة ولو بالكلام. جاء عن عبد المطلب بن عباس "كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يســـتوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حـــتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. حتى أن الجعل ليمـــر بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم مما يبلغون من جهده"(2).

كـــانت قريش قد جربت كل الوسائل لإغراء الرسول صلى الله عليه وسلم بالمال، والمكانة، والنساء. وحين فشلت جاء أشراف قريش إلى أبي طالب عمه الـــذي كـــان يحميه يهددونه قائلين "يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنـــا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنه.. وإنا -والله- لا نصبر على هذا مـــن شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين"(3).

لـم يـترك الإنـذار أي مجال للاختيار. وكان على أبي طالب أن يختار الطريق الأسلم من وجهة نظر العقل. لأن بني هاشم لا يستطيعون مواجهة قوة قـريش الغاضـبة. وربما ظن أبو طالب أن بإمكانه إقناع الرسول بالتوقف عن الدعـوة إلى الإسـلام لما له من مكانة كسيد لبني هاشم، ولما له من مكانة عند الرسول صلى الله عليه وسلم. فهو ليس العم فقط بل والمربي والحامي والرجل الـذي تكفـل بمعيشـة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الطفولة حتى كان من الرسـول صلى الله عليه وسلم بموقع الأب. وكان أبو طالب يعرف من أخلاق ابـن أخيه وحنوه على أهله وعشيرته والناس جميعاً ما يطمئنه لإقناع الرسول صـلى الله عـليه وسـلم بـالكف عن الدعوة إلى الإسلام ما دام موقف قريش المـتحدي يملي مثل هذا القرار، حيث لا طاقة لبني هاشم في مجابهتهم. وكانت حكمـة الرسـول صلى الله عليه وسلم الواضحة تبعث الآمال في نفوس من لا يعـرف حقيقة الرسالة على قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لمنطق حسابات القوة وموازينها، والعمل بمقتضاها ما دامت قريش هي الأقوى. ولهذا بعث أبو طـالب إلى الرسـول صلى الله عليه وسلم لإقناعه بسبب تحدي قريش بالتوقف عن الدعوة إلى الإسلام. ولا شك أن أبا طالب قد عرض الموقف على الرسول صـلى الله عـليه وسـلم حين اجتمع به، وبين له موازين القوى الراجحة كلياً لصالح قريش. وقال له "يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني، وكلموني في أمرك، فـأبق عـلي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق"(4). كلمات فيها الرجاء والأمل والخوف على النفس والأهل وابن الأخ، كلمات من شيخ العشيرة وحكيمهـا فـي موقف صعب. فماذا كان جواب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهـو المحـب لعمه والمشفق عليه. قال له "ياعم..والله لو وضعوا الشمس في يميـني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته"(5). فقال أبو طالب له:"قل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً"(6).

هـذه خلاصـة الحديث. ولكن لابد أن يكون الحوار قد اتخذ طابعاً تقييمياً لكل الأمور من زاوية العقل. ولابد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاب عمه من زاوية الإيمان التي لا تتفق مع مقولات العقل الظاهر حتى اطمأن أبو طالب وقال له "قل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً".

لابـد أن أبـا طالب قد رأى شيئاً خارقاً للمألوف والمعتاد –وهو الذي ظل حـتى آخـر لحظة في حياته لا يقبل الإسلام –حتى اتخذ هذا القرار الحاسم في مواجهـة قريش. وإلا فإن أبا طالب كمسؤول عن مصير بني هاشم كان سيلجأ

إلى كل أنواع الضغوط الممكنة للحوار، إرسال آخرين من العشيرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأخراجه والضغط عليه، لولا أنه رأى شيئاً ما طمأنه على مصير ابن أخيه والعشيرة، مما دفعه إلى الوقوف إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يقتنع برسالته. وربما كان في حيرة من أمره بشأن الرسالة وإن اتخذ قراره الحاسم بدعم صاحبها. فما هو السر الذي أبصره أبو طالب. لقد ظهر لبني هاشم بعض الإشارات الغريبة من إطعام الرسول صلى الله عليه وسلم للعشيرة مرتين من طعام قليل. فقد ذكر المؤرخون أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته إلى الطعام مرتين، وعرض عليهم الإسلام فقال أبو طالب: "ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب. فقال أبو لهب: هذه والله لسوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا"(7).

ومثل هذه الظاهرة، أي تكثير الطعام القليل ستتكرر أمام الصحابة، وإن كان الأمر سيظل محيراً لغير المؤمن لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتعرض في غالب الأوقات مثل بقية المسلمين إلى الجوع وقلة الموارد المالية. فكيف ستتفق إمكانية حصول المعجزة وتكثير الطعام مع ظاهرة الفقر التي عاش فيها الصحابة وعانوا منها، والرسول صلى الله عليه وسلم مثلهم يعاني، مع ظاهرة مناقضة أيضاً وهي ظاهرة السخاء التي تميز بها الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قيل عنه "والله إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر". وقد امتعض ذات مرة من عمر بن الخطاب رغم مكانته عنده، حين جاءه رجل وسأله المال، فوعده الرسول صلى الله عليه وسلم بالمساعدة، ولم يكن لديه المال. فقال عمر "يا رسول الله ما كلفك مالا تقدر عليه، فكره النبي قول عمر حتى عرف في وجهه. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بهذا أمرت"(8).

إنها مسائل تدعو إلى التأمل والحيرة. لأن كل واحدة منها تنقض الأخرى، وتكشف عن حقيقة من طبيعة تخالف غيرها. فكيف يجوع من يملك معجزة إكثار الطعام. حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف على المنبر في المدينة وخطب معتذراً عن تأمين طعام غير التمر لأهل "الصُفّة" من الفقراء بعد

أن اشـــتكى أحدهم فقال "أحرق بطوننا التمر، وتخرقت عنا الخنف". أي الثياب فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "والله لو وجدت اللحم والخبز لأطعمتكموه"9 - وكيــف أطعـــم أكثر من ألف من طعام لا يكفي عشرة. أحد هذه المعجزات وقعــت عندما كانوا يحفرون الخندق حول المدينة. قال جابر بن عبد الله "عملنا مـــع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق، فكانت عندي شويهة، غير جد ســـمينة. قـــال فقـــال: والله لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فأمـــرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من شعير، فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاة، فشويناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فلما أمسينا وأراد رسول الله صـــلى الله عليه وسلم الانصراف عن الخندق -قال: وكنا نعمل فيه نهارنا، فـــإذا أمســـينا رجعـــنا إلى أهالينا -قال: فقلت: يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معـــي إلى منزلي. وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده. قال: فلما أن قلت له ذلك، قال نعم، ثم أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مـــع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر بن عبد الله، قال: إنا لله وإنا إليـــه راجعـــون. قال: فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل الناس معه. قال: فجلس وأخرجنا إليه. قال: فبرك وسمى الله، ثم أكل وتواردها الناس، كلما فـــرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها"10-. في حادثة ثانية ستأتي أخت النعمان بن بشير بطعام لأبيها وخالها عبد الله بن رواحة أثناء حفر الخـــندق "دعتني أمي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، أي بـــنية، اذهـــبي إلى أبيك وخالك بغذائهما. قالت: فأخذتها، فانطلقت بها، فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألتمس أبي وخالي. فقال: تعالي يا بنية ما هـــذا الـــذي معـــك؟. قالت: فقلت يارسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشـــير بـــن ســـعد وخالي عبد الله يتغذيانه. قال: هاتيه. قالت: فصببته في كفي رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالـــتمر عليه، فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: إصرخ في أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء. فاجتمع الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب"(11).

إن مـــثل هذه الحوادث ستتكرر في مناسبات مختلفة، وستشمل زيادة الماء أيضـــاً. ولكن لنعد بعد أن استمعنا إلى الرواة عن هذه الحوادث المتباعدة، لنعد إلى الـــبدايات. كـــان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الناس إني رسول الله، ولابد للإنسان العاقل أن يتساءل إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله،

لمــاذا لا يحمينا الله من العذاب الذي نتعرض له، إذا كنا نحن جنوده كما تقول. لابــد أن يقال له: يا رسول الله إطلب لنا الحماية من ربك. من ينسب نفسه إلى حــاكم ويتكــلم بتكــليف منه لابد أن يطلب الحماية من هذا الحاكم إذا تعرض لــلأذى، وإذا امتنع الحاكم عن حمايته لابد لهذا الإنسان من ترك الحاكم وشأنه، فكيــف بمن يقول إنه يتكلم بأمر حاكم الكون ومالكه. إن أي تعليل أو تبرير لن يكون مقبولاً عند الذين تعرضوا للأذى إذا لم يشهدوا بعضاً من مظاهر الإعجاز للوصــول إلى الطمأنينة التي تدفعهم للثبات، ولابد أن الصحابة الذين تعرضوا لــلعذاب قد شاهدوا شيئاً من المعجزات حتى استطاعوا أن يتحملوا ما تحملوه. في وصف لعذاب عمار بن ياسر قال عمرو بن الحكم "كان عمار يعذب حتى لا يــدري مــا يقول". وقال عمرو بن ميمون: "أحرق المشركون عمار بن ياسر بالــنار، فكــان رســول الله صلى الله عليه وسلم يمر به ويمر يده على رأسه ويقــول: يانــار كوني برداً وسلاماً على (عمار)، كما كنت برداً وسلاماً على إبــراهيم" (12). وكــان الرسول صلى الله عليه وسلم يزور آل ياسر، فقال له عمــار ذات مــرة: "يــا رسول الله لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ". فكان جواب الرسول صلى الله عليه وسلم: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة".

وكما مر معنا لابد أن يتساءل الإنسان العادي بعقله المضطرب أمام جحيم العــذاب لماذا الانتظار إلى الجنة، إلى عالم الغيب المجهول. لماذا لا يعاقب الله معذب آل ياسر فوراً أو يميته. لماذا لا يدافع عن الذين آمنوا. ولابد أن تتعرض الــنفس البشــرية لشــتى الهواجس في مثل هذا الوقف، كلما بلغ العذاب والظلم مداهما. ومع ذلك فقد صبر آل ياسر راضين بالإيمان والعذاب، فما هو سر هذا الصــبر والرضى؟ في حديث الذكريات يقص عمار بن ياسر أنواع العذاب التي تعــرض لها من الكي بالنار إلى إغراقه بالماء، ويتذكر أن الضعف أصابه ذات يــوم وهــم يأمرونه بأن يذكر آلهتهم بخير، فقال لهم ما أرادوا ليرتاح قليلاً من هــول العــذاب. إلا أنــه ندم أشد الندم وجلس يبكي بعد أن تركوه. وحين لقي الرســول صــلى الله عليه وسلم كانت دموعه تنساب على خديه وأراد أن يتكلم لتوضــيح ما تعرض له، وما نطق به. فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يمسح الدمــوع عــن عينيه بيده وهو يخبره عما حدث معه "أخذك الكفار فغطوك في المــاء، فقــلت: كذا.. وكذا -نفس الكلمات التي نطق بها عمار، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان حاضراً معه -أجاب عمار وهو ينتحب: نعم يا رسول الله. فقــال له الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم: إن عادوا، فقل لهم مثل قولــك هذا.. ثم تلا عليه الآية الكريمة (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)".

وفــرح عمـــار بــنجاته من الذنب الذي نغص عليه حياته. كما تأكد عمار بأن إطـــلاع الرســـول صلى الله عليه وسلم على عذابه وكلامه لا يمكن أن يتم إلا بـــإطلاع الله له. ولهذا كان يقينه يزداد بالإشارات المعجزة التي سمعها وتذوق معناها.

فـــي موقف آخر أعلن خباب بن الأرتّ إسلامه على ملأ من قريش بدون اضـــطرار لذلـــك. كان ذلك النور قد أذهله فلم يعد يطيق الصمت. وكان خباب عبداً لأم أنمار وصانعاً للسيوف. فطلب أعداء الإسلام من أم أنمار أن تساعدهم لــرده عـــن الإسلام بالإرهاب المتبع. وأفقت أم أنمار وأتت بالجلادين وبدؤوا تجـــربة العذاب معه "جعلوا يلصقون ظهره العاري بالرضف –الحجارة المحماة –حـــتى ذهب لحمه". لقد استخدموا كل فنون التعذيب، الحديد والحجارة والماء والصحراء دونما فائدة. ولكن خباباً كان يتألم وهو يتعرض لألوان العذاب التي لا تطـــاق. وكان من حقه أن يشكو لعل الرسول صلى الله عليه وسلم ينقذه مما يـــتعرض له بدعـــاء أو نصيحة. فذهب كما يروي خباب مع عدد من المعذبين أمـــثاله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببرد له في ظل الكعبة، فقلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ فجلس صلى الله عليه وسلم وقد احمر وجهه وقال: قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الـــرجل فيحفـــر له في الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه ما يصرفه ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ما يصرفه ذلك عن ديـــنه. وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من (صنعاء) إلى (حضرموت) لا يخشـــى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون"(13). –عليكم بالصبر– هذا هو مغزى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن إلى متى، وأي خيـــال سيتصـــور بأن الإسلام المطارد في مكة سينتشر منها إلى صنعاء وحضـــرموت وهـــم يطلـــبون رفع العذاب عنهم فيقال لهم اصبروا. أي حيرة ستصيب الإنسان في مثل هذا الموقف، وأي إيمان سينقذه إن لم يشاهد إشارة ما تعينه على الثبات؟. لقد مر الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً وشاهد خباباً وهو يعـــذب بوضـــع الحديـــد المحمى فوق رأسه، فرفع يديه إلى السماء وقال "اللهم أنصـــر خباباً"(14). وبعد أيام قليلة أصيبت أم أنمار بمرض عصبي غريب في رأسها جعلها تعوي مثل الكلاب كما يذكر المؤرخون، فجاؤوها بالأطباء إلا أن أدويتهم عجزت عن شفائها. فاقترحوا لها كي رأسها بالحديد المحمى، وهذا كان علاجهـــا الـــذي لم يشفها حتى ماتت. أمور غريبة في نظر العقل، ومصادفات ليـــس لهـــا أي تفســـير. إذ مـــا العلاقة بين كي خباب بالنار ومرض أم أنمار؟

وقصص النبوة من هذا النوع لا تخضع لمنطق وقوانين العقل الظاهر، بل لقوانين مكنونة في العقل الباطن مستمدة من العقل الكلي التي تقول بأن –الله معكم أينما كنتم، وبأنه أقرب إليكم من حبل الوريد– وبأن ﴿ **من يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾(15). وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو بغى جبل على جبل لدُكّ الباغي منهما"(16). هذا هو القانون الإلهي الشامل للكون. ميزان يقيس الأعمال بالذرة ويحاسب عليها. وهذا الميزان يجهله كل ظالم كما جهلته أم أنمار. فالعقل يفهم العدالة ومنطقها. ولكن، لا يفهم كل عقل العلاقة بين الظالم والمظلوم. لا يفهم هذه العلاقة إلا عقل الإيمان المشاهد للعدالة الإلهية السارية في الكون. ولو شاهد كل ظالم حقيقة العدالة ولغة القصاص الإلهي لما أقدم إنسان على الظلم. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما آذاه سفهاء أهل الطائف بضربه بالحجارة ومطاردته في طرقاتهم وهو يدعوهم إلى الله، وقد أوى إلى بستان يحتمي بحائطه من الحجارة الموجهة إليه، قال: "اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون". وراح يطلب من الله العون والتأييد مثله مثل بقية الصحابة الذين كانوا يعذبون فقال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟... إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى.. ولا حول ولا قوة إلا بك"(17). كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم حقيقة كل كلمة نطق بها. وكان يعلم أن الامتحان سيصيب كل مؤمن بالنفس والأهل والولد والمال. وإشارات القرآن ليس فيها أي لبس. وهو القائل لخباب "ولكنكم تعجلون". لم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم على قومه بل دعا لهم بالهداية وقال "لعل في أصلابهم من يأتي ويوحد الله". والقرآن يبشر وينذر ﴿**أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون"18–. "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾(19). لو كان الإسلام للدنيا والربح بدون جهاد فإن أول من سيؤيده محبو الدنيا وعشاقها، ولكن الإسلام حتى في الدولة المسلمة حين لا يوجد عذاب ولا اضطهاد ولا خوف، طالب المسلم بالزهد والاستقامة والصدق، بمشاهدة أوامر الله وتطبيقها حتى يثاب على جهاده بأن يكون لبنة صالحة في

بـناء المجتمع، وفي المسيرة الكونية للوجود. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم يصف نفسه وموقعه في هذه المسيرة بالنسبة للأنبياء والرسل الذين سبقوه بكـل تواضع: "مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وتـرك فيهـا موضع لبنة يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين تلك اللبنة"(20).

كـانت الامتحانات تتوالى والصحابة يشهدون معجزات الرسول صلى الله عـليه وسـلم المتـتالية في البلاغة، في الحكمة، في معرفة السرائر، في تكثير الطعـام والشراب عند الأزمات. في كرم الرسول صلى الله عليه وسلم وإنفاقه إنفـاق من لا يخشى الفقر، في زهده وتقشفه، في الطب وتطبيب ما يعجز عنه الطـب حـتى الآن ووصـف أدويـة لأمراض اكتشفها الطب حديثاً وتأكد من صـحتها. معجـزات تحدثـت عنها كتب التاريخ، ومعجزات بقيت أشار إليها القرآن، ومعجزات أشارت إليها الأحاديث، ومعجزات مضت وانتهت، وكرامات مسـتمرة مـا زالت تتوالى وتظهر على أيدي الصالحين، وكأن النبوة باقية في الإسـلام وإن مضـى صـاحب الرسالة المحمدية. كان المشركون يخافون من الاستماع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويحذرون أتباعهم من سحر كلامه. وكانوا يعرفون الكهانة والعرافة والسحر، إلا أنهم كانوا يشهدون سحراً من نوع لم يألفوه. وكان جهلهم وكبرياءهم ومصالحهم تمنعهم من الانصياع لأمر الحق. ولهذا حذروا الطفيل بن عمرو الدوسي الشاعر حين جاء لزيارة أصدقاء له في مكـة من الاستماع للرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا له: "إنما قوله كالسحر يفـرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته. وإنا نخشى عـليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئاً"(21). ما هـذا الكـلام المعجـز الـذي يؤثر إلى هذا الحد، وهم أ هل الذوق والبلاغة، ومسـابقات الشعر والمعلقات، وفنون الكلام. وهل كلام الرسول صلى الله عليه وسـلم غيـر نـوع مـن أنواع كلامهم المنسوج من حروف لغتهم؟ لقد اختلت موازيـن بلاغـتهم أمـام كلام القرآن وقال الوليد بن المغيرة وهو يتشاور مع زعماء مكة للاتفاق على رأي موحد لمواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم أمام القـبائل القادمة للحج. فقالوا: "نقول كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهـان فمـا هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: نقول: مجنون. قال: ماهو مجـنون، لقـد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه، ولا وسوسته. قـالوا: فـنقول شـاعر. قال: فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ماهو بسـاحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عُقدهم. قالوا: فما نقول

يــا أبــا عــبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجـناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولــوا ســاحر.. هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته"(22). لقد حيرهم الرسول صلى الله عــليه وسلم برسالة الإسلام فماذا يقولون وقد ضاقت بهم الحيل، وسدت أمامهم الدروب. لقد حفظوا كلام الوليد وراحوا يرددونه أمام كل قادم وزائر، كما فعلوا مع الطفيل. مما اضطر الطفيل خوفاً على نفسه إلى سد أذنيه كي لا يسمع شيئاً من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال "فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه... فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة.. فقمت منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً. فقلت في نفسي: واثكــل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعــني أن أســمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كــان قبيحاً تركته.. فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته إذا دخل بيته، دخــلت عليه، فقلت: يا محمد: إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك... ثم أبى الله إلا أن يســمعني قولــك فسمعت قولاً حسناً، فاعرض علي أمرك. فعرض الرســول علي الإسلام، وتلا علي القرآن.. فلا والله، ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.. فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال عليه السلام: اللهم اجعل له آيــة"(23). لقــد حــدث السحر وأثر كلام الرسول صلى الله عليه وسلم. وعاد الطفيــل إلى موطن قبيلته دوس يدعوهم إلى الإسلام. فأسلم أبوه وأمه وزوجته، وأبــو هريــرة. ولكن بقية العشيرة لم تقبل الإسلام. وضاق الطفيل من رفض عشــيرته للإســلام. فعاد إلى مكة ولقي الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض عــليه وضــعه وغضبه من العشيرة وقال له "يا نبي الله... إنه قد غلبني على دوس الــزنا، فــادع الله عــليهم" وكانت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الجديــدة أنــه دعــا لهــم بدلاً من الدعاء عليهم كما طلب الطفيل فقال: "اللهم اهــد دوســاً". ثم التفت إلى الطفيل وقال لــه: "ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم"(24). لقد شاهد الطفيل بعض سعة ورحمة هذا القلب الكبير فعاد لقومه وقد

فـــاض مـــن رحمـــة قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الرحمة إلى قلب الطفيـــل الـــذي امتلأ غضباً على عشيرته. فأخذ يدعوهم بالحسنى إلى الإسلام، وبـــدأ الإســـلام بالانتشار بينهم، ولم تمض سنوات قليلة حتى كانت العشيرة قد أســـلمت. وجـــاء الطفيل إلى -خيبر- أثناء فتحها من المسلمين، ومعه ثمانون أسرة من دوس أقبلوا مهللين مكبرين وبايعوا الرسول صلى الله غليه وسلم على الإســـلام. فأي سحر كان في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم أو دعائه. كان إيمان الطفيل يتصاعد كلما شهد الآيات والإعجاز فملك الإيمان عليه جوارحه.. وكـــان يتمنى أن يعطي ما بقي من حياته لهذا الدين. وجاءت الفرصة حين تهيأ المســـلمون لقـــتال مسيلمة الكذاب فذهب الطفيل ومعه ابنه عمرو للقتال. وفي موقعة اليمامة قاتل قتال الشهادة وفاز بها ليكون قدوة لابنه، الذي تبعه في فداء الإسلام بحياته التي يملكها، ولكن في موقعة اليرموك بالشام.

رسول الحب

فـــي ظـــروف مختلفة سنكتشف إعجازاً من نوع آخر. وما أكثر إشارات النـــبوة ومعجزاتها. سيتعرض خبيب بن عدي إلى الاختيار بين القتل أو الردة، وهو أنصاري من أوس المدينة. كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسله في مهمـــة ومعه عشرة رجال بقيادة عاصم بن ثابت الأنصاري لاستطلاع تحركات قـــريش في مكة بعد غزوة بدر. إلا أن السرية اكتشفت من قبل حي من (هُذيل) يقـــال لهـــم (بـــنو حيـــان). فحاصروهم بمائة فارس ووعدوهم بالأمان إذا ما استســـلموا. إلا أن عاصـــم قال: "والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً.. اللهم أخـــبر عنا نبيك"(1). وبدأ القتال بينهم فاستشهد عاصم وسبعة آخرون. واستسلم زيـــد بن الدثنة وخبيب بعد أن أعطوهما الأمان. ولكن بنو حيان قاموا بعرض زيد وخبيب للبيع في مكة. وكان خبيب قد قتل في موقعة بدر الحارث بن عامر بـــن نوفـــل. ولهذا سارع بنو الحارث إلى شراء خبيب للانتقام منه، كما تنافس آخـــرون عـــلى شراء زيد بن الدثنة. وبدأت عملية تعذيب خبيب بكل ما تملكه مشاعر الجاهلية من حقد وتشف ورغبة في الثأر. أي مؤمن يستطيع أن يمارس التعذيب الفظيع الذي كانت تلجأ إليه قوى الشرك والضلال في كل العصور. لقد شاهدنا أسرى الجاهلية لدى المسلمين وكيف عوملوا مع أنهم اشتركوا في القتال وقتـــلوا مـــن المسلمين. ولكن أين رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم.ورحمة

المسلمين من شراسة الشرك وبهيميته. كانت بهيميتهم تلهمهم التفنن في أساليب التعذيب حتى مات زيد بن الدثنة. وطلبوا من خبيب الكفر ووعدوه بالعفو عنه. ولكن خبيباً أبى وراحوا يجربون فنونهم أياماً وخبيب لا يتغير. وكان صموده أمام جلاديه معجزة لا يفقهون مغزاها. كل ما طلبوه منه أن ينطق بكلمات ترضيهم، لعله ينجو. ولكن خبيباً كان يعرف سر صموده وهم مندهشون ومتحيرون ويائسون. وذات يوم انكشف لهم لغز أشد غموضاً وإدهاشاً لعقولهم. لقد دخلت ماويّة، مولاة حجير بن أبي إهاب على خبيب وهو مربوط بأغلاله فأخذها العجب عندما شاهدت قطفاً كبيراً من العنب بين يديه قالت "كان خبيب عندي، حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً وإن في يده لقطفاً من العنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل"(2.).فمن أين جاء العنب، وما فائدة تجويع خبيب. لقد طاش صواب المجرمين فأخذوه إلى مكان يسمى التنعيم لقتله. فاستأذنهم خبيب في الصلاة قبل موته. فسمحوا له، ولعلهم كانوا يأملون بتراجعه، ولكنه بعد أن صلى قال لهم: "والله، لولا أن تحسبوا أن بي جزعاً من الموت لازددت صلاة" ثم رفع يديه نحو السماء وقال "اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً" وراح ينشد:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً — على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزع

لقد أخذه المشركون وربطوه على جذوع النخل على شكل صليب، وبدؤوا بوخزه بالرماح والسيوف ببطء شديد لإطالة عذابه، والمشركون بين متفرج وقاتل يشهدون في إحساس بهيمي الدم وهو يتفجر من شرايين المصلوب. وهنا خطر لأبي سفيان أن يقترب منه ويسأله: "أتحب أن محمداً مكانك وأنت سليم معافى في أهلك". فانتفض خبيب وقال: "والله ما أحب أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة"(3) ما هذا الحب العجيب. "لقد ضرب أبو سفيان كفاً بكف قائلاً: والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً"(4) كيف سيفهم البعيدون عن الإسلام سر التربية المحمدية. كيف سيفهمون سر فدائهم لقائدهم بالأرواح. كيف سيفهمون قول الله **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾**(5). كيف سيفهمون سر هذا التآلف والحب، كيف سيفهمون سر اندفاع أبي عبيدة بن الجراح ومزاحمته لأبي بكر الصديق لرفع حلقات الدرع عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إصابته في معركة أحد، مما أدى

إلى سـقوط أضـراس أبي عبيدة حين رفع الحلقة الأولى، وسقوط أضراسه في الطـرف الثاني حين رفع الحلقة الثانية فأصبح أثرم، وكان فخره بما أصابه لا يعادله أي فخر رغم تواضعه وزهده.

في مناسبة غريبة قبل النبوة سيختار زيد بن حارثة الرسول صلى الله عليه وسلم على أبويه رغم فخر العرب بأنسابهم. وقصة زيد أنه أخذ طفلاً في إحدى الغـارات وبيـع في سوق عكاظ فاشتراه قريب لخديجة رضي الله عنها وأهداه لها. وحين تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وهبته زيداً ليكون خادماً فقبله وأعـتقه. وراح يربيه تربية الابن. وكان والد زيد يبحث عن ابنه حتى علم أنه فـي مكـة، فجاء إليها مع أخيه، وزار الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فقال له: "يا ابن عبد المطلب.. يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم، تفكون العاني، وتطعمـون الأسـير.. جئناك في ولدنا، فامنن علينا وأحسن في فدائه" فقال لهم الرسـول صلى الله عليه وسلم "ادعوا زيداً وخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فـداء.. وإن اخـتارني فـوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء" فقال حارثـة بعـد أن لمس كل هذا الكرم "لقد أنصفتنا وزدتنا على النصف". فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم وراء زيد وحينما وصل سأله "هل تعرف هؤلاء. فقال زيد: نعم، هذا أبي وهذا عمي" فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخـتار بيـنهما. فأجاب زيد "ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت الأب والعم". فجـرت دمعة من عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بيد زيد إلى فناء الكعـبة حيـث قريش مجتمعة ونادى "اشهدوا إن زيداً ابني.. يرثني وأرثه"(6) فعاد الأب والعم فرحين مطمئنين ببنوة ابنهما من سليل بني هاشم. ولكن شاءت الظـروف أن يتعرض حب زيد للامتحان مرة ثانية بعد الإسلام حيث كان زيد ثـاني المسـلمين إسلاماً في مكة وقيل أولهم. فقد اختار الرسول صلى الله عليه وسـلم زوجـة لزيد قريبته زينب. وقال مبرراً هذا الزواج "إنما زوجت مولاي زيد بن حارثة زينب بنت جحش وزوجت المقداد ضباعة بنت الزبير لتعلموا أن أكرمكم عند الله أحسنكم إسلاماً"(7). ومن الواضح أن زينب قد وافقت على هذا الـزواج طاعة للرسول صلى الله عليه وسلم. إلا أنها حين عاشت مع زيد بدأت المشاكل والخلافات تنتاب حياتهما حتى وصلا إلى الطلاق. فقام الرسول صلى الله عـليه وسـلم بضم زينب إليه لأسباب عديدة منها مسؤوليته الأدبية نحوها، وزواجهـا امتثالاً لأمره بالرضى بما اختاره لها. واختار لزيد زوجة جديدة هي أم كلـثوم بنت عقبة. وبدأت الأقاويل والشائعات تسعى للنيل من الرسول صلى الله عـليه وسـلم ومـن زيد. وجاء القرآن موضحاً للمسألة في كل أبعادها في

سورة الأحزاب ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً**﴾(8). وقيل بأنها نزلت في عبد الله وأخته زينب لكراهتهما الزواج من زيد. وجاءت الآية التي تليها مفسرة للوضع الذي نشأ بعد الزواج حيث كره زيد كما كرهت زينب استمرار الزواج. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متردداً في الموافقة على الطلاق وفي زواجه لزينب بعد طلاقها. وربما كان تردده بسبب حبه لزيد وتبنيه إياه. فجاء القرآن ليحكم بأمر الله لا بأمر الناس، ولتصحيح ما كان شائعاً في التبني من إلغاء نسب المتبنى مما يؤدي إلى اختلاط غير صحيح في الأنساب وربما إلى وقوع حوادث مخالفة للشريعة في قضايا الزواج والإرث، فقال الله: ﴿**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمرا لله مفعولاً**﴾(9). ثم جاءت الآية لتوضح موقع النبي من الصحابة ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً**﴾(10). لقد أزال القرآن كل التباس في هذه القضية التي دارت حولها الشائعات دون مبرر. وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها وقد أدركت حرج الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية "لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية"(11).

ولكننا في بحثنا هذا عن إخلاص زيد وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنجد زيداً كما عرفناه لا يختار إلا باختيار الرسول له حيث سيتزوج المرأة التي اختارها له مرة ثانية. وسيعطي زيد للرسول وللإسلام ليس مشاعره فقط وحبه بل روحه أيضاً حيث سيستشهد في معركة مؤتة مع الروم مع جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة الذين اختارهم للقيادة حسب تسلسلهم فاستشهدوا جميعاً حتى عاد خالد بن الوليد بالجيش منسحباً. وكما قالت السيدة عائشة عن زيد "ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم"صلى الله عليه وسلم. وفي موقف آخر سيكشف الرسول صلى الله عليه وسلم عن حبه لأسامة بن زيد حين كلفه بقيادة جيش وهو لم يتجاوز العشرين ليطأ حدود الروم وفيه كبار الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر. فتهامس البعض مشككين بقدرة أسامة مع صغر

ســنه. فصــعد الرســول صلى الله عليه وسلم المنبر حين بلغه بعض الأقوال وخطب في المسلمين فقال "إن أناساً منكم قد طعنوا في تأمير أسامة وإنما طعنوا فــي تأميــر أســامة كما طعنوا في تأمير أبيه من قبله، وأيم الله إن كان لخليقاً للإمــارة وإن كان من أحب الناس إلي، وإن ابنه من أحب الناس إلي من بعده، وإني لأرجو أن يكون من صالحيكم فاستوصوا به خيراً"(13). ومرض الرسول صــلى الله عليه وسلم حين كان أسامة يعد العدة لتهيئة الجيش للتحرك. وتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يوصيهم "أنفذوا بعث أسامة" وحين تولى أبو بكر الخلافة نفذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم واستأذن أسامة في إبقاء عمر بــن الخطــاب معــه للاســتعانة به في إدارة شؤون الخلافة. وفي موقف آخر سيكشف عمر بن الخطاب عن حبه لأسامة طاعة لأمر الرسول صلى الله عليه وســلم حين قام عمر رضي الله عنه بتقسيم أموال بيت المال على المسلمين تبعاً لفضلهم وأسبقيتهم بالإسلام "ففرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف وفرض لعبد الله بــن عمــر (ابنه) ثلاثة آلاف. فقال: يا أبت لم زدته علي ألفاً. ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي، وما كان له ما لم يكن لي. فقال: إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله صــلى الله عــليه وسلم منك فآثرت حب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حــبي"(14). هذا قليل من كثير من وفاء الصحابة ليس فقط للإسلام ورسوله، بــل لمــا أحبه الرسول في حياته وبعد وفاته. وهذا الحب لا يمكن أن تحيط به العقول إلا بكمال الإيمان. وكمال الإيمان لا يتحقق إلا بحب الخير للناس، وحب الأفضــل فيهــم وفدائــه بالروح. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله. قال عمر: والله لأنت أحب إلي من نفســي وأهلي"(15). من يستطيع أن يحب أحداً أكثر من نفسه، وأن يفدي أحداً بــروحه غيــر أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم. إنه لأمر غريب لمن لا يعرف الحقيقة. حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة. ولكن من يعرف لا يقــول إلا كمــا قــال خبيب وهو يقتل مصلوباً "والله ما أحب أني في أهلي وولــدي ومعي عافية الدنيا كلها ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة". والأغرب مــن هذا وذاك أن بعض الصحابة الذين لم يطيقوا فراق الرسول صلى الله عليه وســلم كانوا يقاتلون في حروبهم الشرك رغبة بالشهادة، رغم إقبال الدنيا عليهم بعد الفتوحات. وهم يقولون "غداً ألقى الأحبة، غداً ألقى محمداً وصحبه". ومنهم مــن قــاتل ليــنال الشهادة تكفيراً عن مقاومته للإسلام قبل الهداية. من هؤلاء عكرمة بن أبي جهل الذي عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه فقال:

"إنــي أكـثر قريش مالاً -و- كل نفقة أنفقتها لأصد بها عن سبيل الله فوالله لئن طـالت بي حياة لأضاعفن ذلك كله في سبيل الله"(16). ولكن عكرمة لم يكتف بالإنفـاق. وكـان الفـارس الذي نادى بالمسلمين من يبايعني على الشهادة يوم معـركة اليرموك مع الروم بعد أن تراجع المسلمون في الهجوم الأول "فقال له خـالد بن الوليد لا تفعل فإن قتلك على المسلمين شديد، فقال: خل عني يا خالد! فإنـه قد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة، وإني وأبي كنا من أشـد الـناس عـلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم. فمشى حتى قتل"(17). واستشهد معه ابنه. كان إيمانه بالإسلام، وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه كل حب للحياة، فكأنما كان يريد أن يعتذر، وأن يلقى الرسول صلى الله عليه وسلم بثياب الشهداء بعد أن أخره التزامه بأمر أبيه عن الإسلام.

فـي موقف من المواقف تعرض المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم عـند الكعبة يهددونه فتدخل أبو بكر رضي الله عنه فوثبوا عليه وضربوه بشدة، حـتى ظـنوا أنـه مـات. فحملوه في ثوب إلى بيته، ولما أفاق حاولت أمه أن تطعمـه، فقال: "إن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله"(18). وذهـب مستنداً على أمه وأم جميل بنت الخطاب حتى رأى الرسول صلى الله عليه وسلم واطمأن عليه.

إن الأحوال النفسية لرجال أي قائد لا تنكشف إلا في الملمات، لأن الشدائد هـي محك صدق الرجال، ومحك إخلاصهم. فأي وفاء سيبلغ هذا الوفاء ونحن نشـاهد ما نشاهد من فداء للرسول صلى الله عليه وسلم بالأموال والأرواح. في معـركة بـدر سيتجلى حب الصحابة للرسول بصورة أوضح. فقد كان يستشير قادة المهاجرين والأنصار في الإقدام على حرب المشركين رغم عدم التكافؤ. إذ كـان المسـلمون ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً بينما كان المشركون حوالي ألف مقـاتل. فقال له سعد بن معاذ أحد قادة الأنصار "إني أقول عن الأنصار وأجيب عـنهم، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله: لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمـدان لنسـيرن معـك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك"(19). ولما اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم قرار الحرب، ونظم مواقع المسـلمين، جـاء سـعد خائفاً على الرسول صلى الله عليه وسلم من التعرض لـلأذى فقال: "يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم

نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخـرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله، ما نحن أشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك"(20). فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم وبني له عريش ليقود المعركة، وما هو بأحرص على نفسه من نفوسهم. ولكنها مسؤولية القيادة، ورغبة المسلمين، وحرصهم على فدائه بأرواحهم. فقد كان قائداً ليس كالقواد في التاريخ. كانت نبوة العدل والإيثار والعطاء. وهل تحقق هذا الحب بدون تربية وتأثير من أخلاق النبي وعشرته وحنوه عليهم. وقف الرسول صلى الله عليه وسلم يسوي صفوف جيشه استعداداً للمعركة. وكان سواد بن غزية خارجاً من الصف، فطعن الرسول صلى الله عليه وسلم بطنه بقدح كان في يده وقال له "إستو يا سواد" "فقال سواد يا رسول الله أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، وقال: إستقد. فاعتنقه سواد وقبل بطنه. فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟. قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك"(21). ربما كان سواد ينتظر الشهادة، وينتظر معها رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو رجل من عامة المسلمين، لا ينتظر مركزاً ولا كسباً. ولكن هل بالإمكان كبت عواطف المحبين.

في موقف أكثر حساسية سيتعرض موقف عبد الله بن عبد الله بن أبيّ للامتحان، بعد أن شاهد ما شاهد من نفاق أبيه. وكان الابن رجلاً صالحاً، وقد سمع بقول أبيه الذي أكده القرآن ﴿ **ليخرجن الأعز منها الأذل**﴾(22). فخشي عبد الله أن يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل أبيه. فجاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له "يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله يمشي في الناس، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل نترفق به ونحسن صحبته"(23). ولكن الابن لم يكتف بسماحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفوه. فوقف على باب المدينة ومعه سيفه بانتظار أبيه. ولما دخلها قال له "والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه العزيز وأنت الذليل"(24). فأتيا النبي حتى أذن له فتركه ابنه. إننا

بين هذه المشاهد التي لا نريد أن نطيل في عرضها ولهذا نختصر روايتها بقدر المستطاع، نريد أن يبحث الباحثون في علم النفس، وأسرار القيادة عن سر هذا الحب الذي لم يصل إليه أي إنسان خلال التاريخ.

سـنعرض لروايـتين من روايات المشركين عما رأوه وشاهدوه. الأولى لعـروة بـن مسعود الثقفي. فقد أرسله قومه قبل صلح الحديبية لاستطلاع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه فعاد إليهم بعد أن قابل الرسول صلى الله عـليه وسلم ورأى حب أصحابه له، بل تقديسهم له بطريقة لم يشهد مثلها، ولم يسـمع عـنها. فعاد ونصحهم بالصلح قائلاً لهم: "أي قوم! والله! لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي. والله! ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظـم أصـحاب محمد محمداً. والله! إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل مـنهم، فدلـك بهـا وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره. وإذا توضأ كادوا يقتتـلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده. وما يمدون إليه النظر تعظيماً له. وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها"(25).

بعـد صلح الحديبية ونقضه من المشركين في العام الثامن للهجرة، باعتداء بـني بكر على بني خزاعة ليلاً، حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم. جاء أبو سـفيان إلى المدينة بهدف تثبيت صلح الحديبية مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتمديده، ودخل في المدينة على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها "فلما ذهـب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه. فقال: يا بـنية: مـا أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فـراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعـدي شر. ثم خرج"(26). أي شر هذا الذي رآه أبو سفيان. ولكن هل يستطيع غير المؤمن أن يفقه سر هذا الإيمان ومعناه.

فـي حـادث غريب سيلتقي فروة بن عمر الجذامي ببعض المسلمين الذين قاتـلوا فـي معركة مؤتة. ثلاثة آلاف في مواجهة مئتي ألف. وكان فروة قائداً رومانيـاً من العرب يسكن في معان فأسلم وبعث للرسول صلى الله عليه وسلم رسولاً ليخبره بإسلامه ومعه بغلة بيضاء هدية. ولما "علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسـوه، ثـم خيـروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة، فصلبوه بفلسـطين عـلى ماء يقال له عفراء، وضربوا عنقه"(27). هذا الرجل رأى من رأى الرسـول صـلى الله عليه وسلم. ولم يتح له أن يعرف عن الإسلام إلا ما

ســمعه من الصحابة الذين اجتمع بهم. فعرضه إيمانه لامتحان الموت أو الردة، فرضي بالموت في سبيل هذا الإيمان.

في معركة أحد لا يمكن أن نعدد مواقف الرجال والنساء، سواء في دفاعهم عــن الرســول صــلى الله عليه وسلم، أو في قتالهم ضد عدوهم المتفوق عدداً وعدة. ولكننا سنشير إلى حادثة واحدة بعد عودة المسلمين إلى المدينة ووصول أخــبار الشــهداء. فقد روى سعد بن أبي وقاص قال: "مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صــلى الله عليه وسلم بأحد. فلما نُعوا لها، قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عــليه وســلم؟ قــالوا: خيراً يا أم فلان، هو الحمد لله كما تحبين، قالت: كل مصــيبة بعدك جلل! تريد صغيرة"(28). فأي موقع كان للرسول صلى الله عليه وســلم في نفس هذه المرأة التي لم يشغلها استشهاد ذويها الثلاثة عن الاطمئنان على الرسول صلى الله عليه وسلم، والسعادة بعودته سالماً. هل يصلح أي كلام بلاغــي لوصــف حال هذه المرأة المؤمنة. فماذا بقي لها إذا ذهب الأب والأخ والعشير؟ لا شك أنها كانت راضية بقضاء الله، وقد بقي لها الله ورسوله.

لقد استعرضنا بعض الحوادث التي تدل على مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابه والذين عرفوه قبل البعثة وبعدها. فقبل البعثة كان يلقب بــالأمين بين قومه، وكان الحكيم عندما عجز كل سادات أهل مكة عن الاتفاق عــلى وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة عندما قاموا بإصلاحها، وكادوا يتقاتــلون عــلى هذا الشرف، لولا اتفاقهم على تحكيم أول داخل، فكان الرسول صــلى الله عــليه وسلم، فلم يتلكأ عندما عرضوا عليه أسباب خلافهم عن إيجاد حــل، ببديهة نادرة وحكمة مرضية للجميع. ومثل هذا الموقف وحده كان يؤهله لزعامتهم، كما كان يكشف عن سجاياه وحكمته. وإذا أضفنا إلى هذه المؤهلات أمانــته، وكرمه، ورحمته بالناس، مما دفع زيد بن حارثة إلى تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على أمه وأبيه عندما جاء أبوه ليسترده. كل هذه الإشارات تنبئ عن طبيعة الإنسان الذين سيوزن بالأمة فيرجح عليها. فالرسول صــلى الله عــليه وســلم صــنع تاريخاً، وغير مجرى التاريخ بما امتلكه من المؤهلات التي حباه الله بها. وجاء القرآن يشهد له **﴿لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**(29). **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(30). فكان مــن رحمــته بالخــلق أن يعطي ليغني الناس بينما كان أهله وابنته وأصحابه المقــربين يفتقرون إلى الطعام "فيكلهم إلى إسلامهم" وإيمانهم كما قال للأنصار.

فقيـــادة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تنشأ من فراغ، ولم يعط الله النبوة بدون مؤهلات لمن أعطى. فلو استعرضنا حياة الأنبياء كلهم لن نجد عندهم إلا الورع والـــتقوى والإيـــثار، وبهذه الصفات والأخلاق صاروا قادة للبشرية وقدوة لها. فانحنت العقول الطبيعية لإرشادهم، وحلقت أرواح العلماء إلى عوالم النور بقدر أخذهـــم من علومهم. بينما حاربهم أصحاب النفوس المتكبرة والمتجبرة بالصلف والغـــرور فقصموا وخسروا ولو بعد حين مع من تبعهم. وقد قال الله في حديث "العـــز إزاري، والكـــبرياء ردائي، فمن نازعني فيما عذبته"(31). لقد كان أبو ســـفيان وأبـــو جهل والمطعم بن عدي والمغيرة بن شعبة وهم من كبراء قريش وزعمائهـــا يتســـاءلون كيف ستنزل رسالة السماء على من هو دونهم في المال والعمـــر والـــزعامة، لا الجاه. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان من حيث النسب من أبناء السادة المعروفين بالكرم والأخلاق الفاضلة، ولهذا ظن أبو جهل أن النـــبوة تدخل في سباق قريش مع بني هاشم. فقال جواباً لسؤال الأخنس بن شـــريق عـــن رأيه فيما سمعه من الرسول "ماذا سمعت. تنازعنا نحن وبنو عبد مـــناف الشـــرف أطعمـــوا فأطعمنا، وحملوا فحلمنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذيـــنا عـــلى الـــركب، وكـــنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه. والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه"(32). وهذا هو حـــال المـــنافق عبد الله بن أبيّ الذي كان يكيد المكائد للإسلام وللرسول خاصة بسبب غروره كما فسره أسيد بن حضير الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم فـــي توضيح حالته: "يا رسول الله، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون لـــه الخـــرز ليـــتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً"(33). والجهل والصلف والغـــرور هو الذي دفع زعماء مكة والمدينة للمقاومة، كما فعل فرعون حينما جاءه موسى بدعوته إلى الله فقال أنا ربكم الأعلى.

لقد نجح الإسلام وسقط الفراعنة، كما رأينا، وظل حب بعضهم للظهور لا يفـــارق مخيلتهم. ولهذا قال العباس للرسول صلى الله عليه وسلم أثناء فتح مكة "إن أبـــا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: نعم، من دخل دار أبي ســـفيان فهو آمن. ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"(34). كـــان الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف بالرحمة حرصاً على الناس وعلى دماء من سيكونون سنداً للإسلام. ولهذا عزل سعد بن عبادة عن قيادة المجموعة الـــتي كلفه بها أثناء الإعداد لدخول مكة حينما قيل له إن سعداً يقول "اليوم يوم المـــلحمة، اليوم تستحل الحرمة"(35). وحين فتحت مكة للرسول صلى الله عليه وســـلم طاف حول الكعبة قائلاً: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده،

ونصـــر عبده، وهزم الأحزاب وحده"(36). في هذه المناسبة كان الرسول صلى الله عـــليه وســـلم قـــد أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ودخلها فوجد فيها حمامـــة من عيدان فكسرها وطرحها لتطهير البيت من كل أثر للشرك. فقام إليه العـــباس أو علي رضي الله عنهما في بعض الروايات فقال "يا رسول الله اجمع لـــنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيـــن عـــثمان بن طلحة؟ فدعي له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان. اليوم يوم بر ووفاء"(37). هذه هي أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم التي غيرت الرجال، وغيـــرت التاريخ، فارتفعت أصوات الرحمة والعدل في كل مكان دخله الإسلام بالتكـــبير خمـــس مـــرات فـــي اليـــوم "الله أكبر" ليفهم الناس أن الملك كله لله، وليـــتذكروا ويفهموا أن عبوديتهم للمثل العليا بشكل لم يكن له مثيل في التاريخ. فبدأ الله خلق الإنسان بالكلمة، وختمه بدعوة الكلمة، بدأه بالعقل، وختمه بالعقل، عـــندما اكـــتمل فيض النبوات وأشرق في ذروة العقول وقمتها محمد صلى الله عليه وسلم، وكان إلى جواره العرب الذين نصروه وآذروه بشكل لم يسبقهم إليه أحـــد من أمم الأنبياء أو أصحابهم. ومن هذا الباب قال الرسول صلى الله عليه وســـلم "أنـــا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي"(38). وقال "حب العرب من الإيمان وبغضهم كفر"(39) وقال "خير الناس قرني ثم الثاني ثم الثالث ثم يجيء قـــوم لا خيـــر فيهم"(40). وليس كل القوم، والحديث يشير إلى زيادة الفساد مع الأيام.

لقد خذل اليهود موسى عليه السلام في عدة مواقف، كما خذلوا الأنبياء من بعـــده وقتـــلوا فـــريقاً منهم. كما لاحقوا المسيح عليه السلام وقاتلوه، ولم يدافع تلاميـــذه عـــنه كما فعل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هاجروا معه وقاتـــلوا معـــه وأحبوه أكثر من أنفسهم، وإن كان ما حدث بتوفيق من الله، فالله أعلم حيث يضع رسالته، ويختم نبوته، بالمؤهلين من عبادة وتوفيقه. ولهذا رأينا ومـــا زلنا نرى تآمر العالم الكاره للإسلام على المسلمين عامة والعرب خاصة، لأنهم هم عماد الإسلام ورأسه. ولهذا أخطأ من كره العرب من المسلمين ونسي بـــأنهم هم الذين حملوا رسالة الإسلام والتقوى إلى العالم ليتبين فضلهم بين أبناء آدم "إن أكـــرمكم عـــند الله أتقـــاكم" فهم وإن قاتلوا واختلفوا وبغى بعضهم على بعـــض، فقد دافعوا بأرواحهم وأبنائهم عن طريق الحق، قبل أن يأتي المتأملون والمتفلسفون والمنظرون لتفتيت عرى الإسلام بالفتن والتحامل على العرب. إننا لا نتكـــلم من أية مواقع عنصرية. فالعربية هي لسان، ولكن العربي يولد ومعه إســـلامه، وإن ضل من ضل، ويولد ونداء "الله أكبر" يرتفع في سمائه، وتراث

الإسـلام كلـه بين يديه. يتنفس منه، ويتزود منه، ويشم رائحة تاريخه ووجوده منه. فالعرب لضرورة لا يستطيعون إلا أن يرجعوا لإسلامهم ودينهم وإن ضلوا في بعض الأوقات أفراداً وجماعات. سماؤهم تناديهم، وتاريخهم يناديهم، وحتى مصـيرهم الـذي كتبه أجدادهم بدمائهم في ساحة الإسلام، وصراعات الإسلام، وجهـاد الإسـلام، واختلاف الإسلام، ووحدة الإسلام. وهم قوم كما قال عنهم بعض أعدائهم ولورنس منهم -إنهم لا ينقادون إلا لنبي- وإن بدوا منقادين. وقد كـان الرسـول صلى الله عليه وسلم بينهم كشخص منهم. وهو الذي قال "سيد القـوم خادمهم". وقام ليساعد أصحابه في تحضير طعامهم بجمع الحطب، فقالوا له: "نحن نكفيك. فقال: قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكـره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه"(41). وهو الذي قال لأصحابه حين هموا بضرب الأعرابي الذي كان يبول بالمسجد عن جهل "لا تقطعوا عليه بولـه" فمنعهم ليس من ضربه فقط، بل من إيذائه بحصر بوله في مثانته. فقال الأعـرابي وقـد رأى ما رأى من رفق الرسول صلى الله عليه وسلم به "اللهم ارحمـني ومحمـداً ولا ترحم معنا أحداً". فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم وهـو يبتسـم "لقد ضيقت واسعاً يا أخا العرب". هذه هي الأخلاق التي بنى بها الرسـول صـلى الله عليه وسلم الأمة وقادها إلى عالم النور، لتكون بفضل هذا النور وبسببه (خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر).

لقـد استعرضنا في هذا الفصل بعض الصور المعبرة عن الأحوال النفسية لـبعض الصحابة، التي تجلت في مظاهر الحب، وقدمنا بعض الشهادات لرجال قـبل إسـلامهم، لنتعرف من خلال هذه الصور على حقيقة النبوة، ومظاهرها وتأثيـرها، لـرجل لم تصنعه الأساطير، فهو إنما عاش بين قومه منذ الطفولة، فعرفوا عنه كل خطوة، وسجلوا له كل كلمة، ليناوئوه في حربهم الإعلامية، فما وجدوا ما يتهمونه به غير السحر. وقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وسـتين سنة وأربعة أيام. إذ ولد "في صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيـع الأول، لأول عـام مـن حادثـة الفيـل ويوافق ذلك العشرين أو الثاني والعشـرين من شهر نيسان إبريل سنة 571م. وتوفي في يوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 11هـ". ولهذا لم يرو الرواة عنه إلا ما شاهدوه وسمعوه منه، دون أي تأثيـر للأساطير التي تنشأ عادة من غموض حياة الإنسان، أو تأخر الرواة في تدوين تاريخه. لقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم العامة معروفة، وحـتى الخـاص منها دوّن لفائدة التشريع. حتى إن بعض المشركين استغربوا بساطة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونزوله إلى الأسواق للتجارة في أول

أمــره. إن كل هذه الظروف التي عرضناها تتيح لدارسي التاريخ والباحثين في عــلوم النفس المنصفين، إدراك العوامل النفسية التي أسهمت في نجاح الرسول صــلى الله عليه وسلم ونجاح رسالته. وفي فهم معنى اكتمال الرسالة التشريعية بالكــلمة، وبــالقوة لــتحرير الــناس من طغيان العبودية، لإظهار حقيقة خلافة الإنســان فــي الأرض، بعد أن تهيأ من تهيأ في هذا الزمن الذي استدار ليكون أفضــل الأزمــان بأفضــل الــناس الذين نصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وأيدوه، وتابعوا طريقه فحرروا الناس من تسلط الحكام، وتركوا لهم الحرية في اخــتيار عقيدتهم، وفرضوا الجزية بدلاً من ضريبة الدم على غير المسلمين لئلا يجــبروا غير المسلم على القتال عن عقيدة لا يؤمن بها. وهذا مالا تفعله الدول المعاصــرة حــتى الديمقراطية منها. مع أن بعضهم لسوء فهم أو سوء نية فسر موضــوع الجــزية تفسيراً مغايراً لحقيقته ومعناه. وإن خسارة العالم بانحطاط المســلمين لا تعادلهــا خسارة وخاصة بعد أن ارتفعت رايات المنافع والمصالح الماديــة، فذهــبت القيــم الروحية أدراج الرياح. وأصبحت مبررات قتل الأمم والشعوب وإقامة الدول وتحطيمها جزءاً لا يتجزأ من حسابات الجيوب، بل إنه المبرر الحقيقي لهذه الحسابات. وفي ظل هذه الحسابات لا يخسر الإنسان روحه فقــط بل جيبه أيضاً. لقد قدمنا لوحة عن حب الصحابة للرسول صلى الله عليه وســلم فــي هذا القسم. ولكي تكتمل اللوحة لابد لنا من تقديم الوجه الآخر لها، ببيان الأسباب التي جعلت المسلمين يحبون قائدهم صلى الله عليه وسلم كل هذا الحــب. والوجــه الآخــر للوحة سنجده في حياته وحياة أقرب الناس إليه بناته وزوجاته وأصحابه المقربين إليه. فهو القائد والقدوة الذي كان بسبب من حكمته ورحمــته فــي القيادة رحمة مهداة لكل الخلق من الله، كما كان الأنبياء والرسل من قبل رحمة مهداة لأممهم.

الرسول الشاهد

قــبل أن تبــلغ وســائط الاســتطلاع والتصــوير الجوي بواسطة الأقمار الصــناعية مع وسائط الاتصال ما بلغته من الدقة والسرعة في متابعة الحوادث والحــروب والــتطورات فــي كل بقاع الأرض. كانت السرعة التي تلقى بها الرســول صلى الله عليه وسلم أخبار موقعة مؤتة تفوق كل هذه الإمكانيات. فقد كــان الرسول صلى الله عليه وسلم يتابع تطورات المعركة ويخبر بها أصحابه

"عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث زيداً وجعفراً وعبد الله بن رواحة فدفع الراية إلى زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله فأصيب، ثم أخذ الراية بعده سيف من سيوف الله خالد بن الوليد فجعل يحدث الناس وعيناه تذرفان"(1).

إن كل نبوة ستؤيدها المعجزة، وسيكون من نصيب عباد الله الصالحين الكرامة كما سنرى. كان المسيح عليه السلام يخبر الناس عما في بيوتهم من الطعام، ويعالج بعض الأمراض بدواء الإيمان. وقد وقف عمر بن الخطاب على المنبر في المدينة وكان يخطب بالناس في صلاة الجمعة فنادى "يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثاً. ثم أقبل على خطبته، فقال بعض الحاضرين: لقد جن، إنه لمجنون، فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه فقال: إنك لتجعل لهم على نفسك مقالاً. بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح: يا سارية الجبل، أي شيء هذا؟ قال: والله إني ما ملكت ذلك. رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل، ليلحقوا بالجبل. فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه أن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا منادياً ينادي: يا سارية الجبل -مرتين، فلحقنا بالجبل، فلم نزل قاهرين لعدونا إلى أن هزمهم الله وقتلهم. فقال أولئك الذين طعنوا عليه: دعوا هذا الرجل فإنه مصنوع له"(2).

كانت الآيات تتتابع أمام الصحابة، وكانوا يشهدون عن قرب معجزات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي قال: "إن الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض"(3) أي الروم والفرس- وقال في حديث آخر: "إن الله تعالى قد رفع لي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ماهو كائن إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه جليان من الله جلاه لنبيه كما جلاه للنبيين من قبله"(4).

بهذه المعجزات كان يترسخ الإيمان في القلوب والمسلمون يشاهدون من الرسول صلى الله عليه وسلم ما تعجز عن إدراكه العقول غير المؤمنة. قيل لأبي بكر الصديق "هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء في هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.. فقال لهم أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك. فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه. فهذا أبعد مما تعجبون

مـــنه"(5). ثـــم ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله عن خبر الإسراء فحدثه الرسول صلى الله عليه وسلم عنه. فقال له صدقت أشهد أنك رسول الله. فسماه الصديق. بهذا الإيمان واليقين وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه. ولكن هـــذا التســـليم لـــم ينشـــأ إلا لأسباب. فإضافة إلى الخير الذي جاء به الإسلام للإنســـانية مـــن حيث العلاقة بين الإنسان وربه كطريق للمعرفة والوصول إلى الخيـــر الأسمى بالوصول إلى الجنة، والعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان التي تقوم على المساواة في الحقوق والواجبات والعدل والرحمة. فإن الرسول صلى الله عـــليه وسلم كان لديه من الوسائل والمعجزات إضافة للأفكار الخيرة، دواء شـــافياً لمـــداواة النفوس القلقة. ولهذا كان الناس يسلمون في آخر الأمر بنبوته وصـــحة رسالته مهما أحاطت بهم الشكوك لما يرونه من المعجزات. فقد جمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل معجزات من جاء قبله من الرسل والأنبياء لأنـــه جـــاء بكمـــال النبوة والرسالة، وانطوت في رسالة الإسلام كل رسالات الرســـل. ولهذا كان جامعاً لعلومهم ومقاماتهم ومعجزاتهم. فقال "أوتيت جوامع الكـــلم، واختصرت لي الأمور اختصاراً"(6). ولابد لبقاء الرسالة لمن يشكك في الخير الذي تنطوي عليه ويحبذ الربا على التجارة، والزنا على شريعة الزواج. والقوانيـــن المدنيـــة الـــتي يســـنها الناس على شرع الله. لابد لـــه من تأييد الله باستمرار المعجزة. ولهذا كان الإسلام طريقاً للترقي للوصول إلى المعجزة عن طريق التقرب إلى الله –ليسمع بسمع الله ويبصر به وينطق به ويبطش به بالحق –وإن غفـــل الغافلون عن سر طريق الإسلام وحقيقته. لهذا قال الرسول صلى الله عـــليه وسلم لأصحابه "متى ألقي أحبابي. فقال بعض الصحابة: أوليس نحن أحـــباؤك؟ قال: أنتم أصحابي، ولكن أحبابي قوم لم يروني وآمنوا بي. أنا إليهم بالأشواق"(7).

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف وعورة طريق الإسلام وصعوبته لمن سيأتي بعد وفاته، ولمن سيأتي في القرون التالية حيث سيبدأ التشكيك بأخبار النبوة وإلهاماتها. ولذلك سمى المؤمنين القادمين بالأحباب، لأنهم لم يشهدوا ما شهده الصحابة من المآثر والمعجزات. وإن كانت المعجزات باقية وظاهرة في كرامات النفوس المؤمنة إلى قيام الساعة. ولكن شهودها وإظهارها لا يشهد إلا لمن بحث عنها في غيره أو في نفسه. والباحثون عن هذا الطريق قلة نادرة. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "العلماء مصابيح الأرض، وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء" (ج28677/10) والنبوة تعني التنبؤ وقد جاء في لسان العرب في مادة "نبأ" "النبأ الخبر. والجمع أنباء. قال الفراء:

النبي هو من أنبأ عن الله، فترك همزة. قال: وإن أخذ من النبوة والنباوة وهي الإرتفاع عن الأرض. أي أنه أشرف على سائر الخلق. وقال ابن الأثير: "الرسول أخص من النبي لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً" (9) وقد قال الله "إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون" (يوسف الآية 2) أي إن آيات القرآن تفسرها لغة العرب وأساليبهم البلاغية والنحوية. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنه لم يبعث نبياً قط إلا كان في أمته من يُحدث، وإن يكن في أمتي أحد فهو عمر. قيل: يا رسول الله كيف يحدّث؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه" (10).

فالإلهام سار في أفئدة المؤمنين كما قلنا بمشيئة الله ووعده لمن تقرب إليه بالنوافل التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث عليها، من صيام وقيام بالليل وزهد، وهي عبادات تقود للترقي في الإيمان وإن أنكرها المنكرون، كما أنكروا صدق رؤيا المؤمن، فأحالوا تفسير كل رؤيا إلى منطق الجنس لجهلهم بحقيقة الإنسان كما فعلت الفرويدية وأنصارها. وإن إخبارات الرسول صلى الله عليه وسلم بالحوادث أو الأخبار التي وقعت والتي ستقع كثيرة، ولهذا سنقتصر على رواية بعض هذه الأخبار "عن سعيد بن المسيب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا. فقال أبو سفيان لهند: أترين هذا من الله؟ ثم أصبح فغدا أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلت لهند أترين هذا من الله؟ نعم هو من الله. فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به أبو سفيان ما سمع قولي هذا أحد من الناس إلا الله وهند"(11). كان أبو سفيان عند فتح مكة قد جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مع العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ليطلب العفو والأمان لنفسه وغيره من أهل مكة. ولما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: "ويحك أبا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله. قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك قد كان يقع في نفسي أن لو كان مع الله إله آخر لقد أغنى شيئاً بعد. قال: يا أبا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك، أما هذه فو الله إن في النفس منها لشيئاً بعد"(12) لقد شهد أبو سفيان شهادة الإسلام ولكنه كما قال "في النفس منها لشيئاً بعد". ولكن بعد أن اضطرته الظروف للاجتماع بالرسول صلى الله عليه وسلم بدأ يشاهد بنفسه بعض أسرار النبوة الغريبة عليه فصلح إسلامه، وإن كان حب الزعامة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين فكيف بأبي سفيان، وقد انتزعت منه

زعامته عنوة.

في حادثة مشابهة ولكن أكثر غرابة سيقوم عمير بن وهب الجمحي بالسفر إلى المدينة لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم غيلة بناء على اتفاق بينه وبين صفوان بن أمية. فقد جلس صفوان وعمير الذي كان يلقب بشيطان قريش يجتران أحقادهما على الإسلام بعد وقعة بدر. فقد كان ابن عمير أسيراً لدى المسلمين وكان والد صفوان قد لقي مصرعه في بدر. وكان صفوان وعمير أبناء عمومة "فقال صفوان وهو يذكر قتلى بدر! والله ما في العيش بعدهم خير..! وقال له عمير: صدقت، ووالله لولا دين علي لا أملك قضاءه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي عنده علة أعتل بها عليه: أقول قدمت من أجل ابني هذا الأسير. فاغتنمها صفوان وقال: علي دينك أنا أقضيه عنك.. وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا.. فقال له عمير: إذن فاكتم شأني وشأنك". وقام عمير فشحذ سيفه وسمه وانطلق إلى المدينة. وعند وصول عمير إلى المدينة صادفه عمر بن الخطاب وقد أناخ راحلته عند باب المسجد ومعه سيفه فقال عمر "هذا الكلب عدو الله عمير والله ما جاء إلا لشر. وذهب عمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أدخله علي! فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها. وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار. ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ودخل به عمر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بحمالة سيفه في عنقه. فلما رآه الرسول قال: دعه يا عمر.. أدن يا عمير. فدنا عمير وقال: انعموا صباحاً وهي تحية الجاهلية. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة. فقال عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد. قال الرسول: فما جاء بك يا عمير. قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم.. قال النبي: فما بال السيف في عنقك؟ قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أصدقني يا عمير، ما الذي جئت له. قال: ما جئت إلا لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت لولا دين عليّ، وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً. فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك. وعندئذ صاح عمير: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.. هذا أمر

لم يحضره إلا أنا وصفوان. فو الله ما أنباك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: فقهوا أخاكم في الدين وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره" (13) وصار عمير داعياً متحمساً للإسلام بينما كان صفوان ينتظر خبر اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم وإذا به يفاجأ بخبر إسلام عمير.

وعند فتح مكة كان عمير من جنود الإيمان الذين دخلوها مع الرسول صلى الله عليه وسلم فتذكر عمير قريبه صفوان وحالة الضلال التي كانوا فيها ورق قلبه له حين علم بهربه من مكة فجاء عمير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له: "يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد في قومه، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو آمن. قال: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك. فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل فيها مكة. فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان، فداك أبي وأمي.. الله الله في نفسك أن تهلكها.. هذا أمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئتك به.. قال له صفوان: ويحك، أغرب عني فلا تكلمني.. قال: أي صفوان.. فداك أبي وأمي، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس.. عزه عزك، وشرفه شرفك.. قال: إني أخاف على نفسي. قال: هو أحلم من ذاك وأكرم. فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال صفوان للنبي: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني قال الرسول صلى الله عليه وسلم: صدق. قال صفوان: فاجعلني فيه بالخيار شهرين. قال الرسول ص: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر" (14)، وأسلم صفوان بعد ذلك راضياً بعد أن تبين له الرشد من الغي. وإذا تتبعنا المحاولات التي جرت لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم أو قتله ونتائجها فإن أي عاقل سيدرك بأن الأعمار بيد الله لا تنتهي إلا بأجلها وأسبابها. وكان من قضاء الله أن يتم رسوله الرسالة، كما كان من قضائه أن يصاب الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد بجرح في رأسه، وأن تصاب رباعيته. وكان من قضائه أن يذوق لقمة من فخذ الشاة المسمومة التي أرسلتها اليهودية، وأن لا يعلم بتسميمها إلا بعد أن مضغ اللقمة الأولى منها.

من يستطيع أن يحيط بعلم الله وأقداره. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر الله لئلا يظن به أصحابه وهم يرون منه المعجزات أنه يعلم كل علوم

الغيب ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحي إلي"(15)**. وجاء في سورة الأعراف "**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون**﴾(16) وجاء في سورة هود ﴿**ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون**﴾(17) وجاء القرآن بوصف الرسول صلى الله عليه وسلم لكي لا يتوهم أو يضل ضال عن طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم الإنسانية، كما ضل الذين بالغوا في تقديس أنبيائهم حتى خلعوا عنهم صفات البشرية. فقال الله ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد**﴾(18). وقد تكرر هذا التأكيد والتنبيه للسامعين مرتين، في سورة فصلت، وآخر سورة الكهف، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعرف حقيقة نفسه وانتسابه كإنسان. فالرسل في أرفع مقاماتهم هم عبيد في منتهى العبودية لله يتصرفون بأمره ويعملون بوحيه ليس لهم من أنفسهم قوة للتصرف بها. والأولياء على هذا الطريق يسيرون ووصولهم بقدر عبوديتهم. فالعلم الذي نتحدث عنه حقيقة واقعية وليس من قبيل المصادفات كما يظن البعض. بل هو علم مستمد من مشكاة النبوة التي لم تنطفئ شعلتها منذ آدم عليه السلام حيث علمها لأولاده فعمل بها بعضهم، وتركها بعضهم. وكان الأنبياء يتتابعون، والرسالات تأتي حتى ختمت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذي حمل إلى البشرية إضافة لقيم الإسلام، سر آدم وسجود الملائكة له، وعلوم الغيب المستمدة من العلم اللدني الذي يستطيع كل إنسان أن يتذوق حقائقه بالوصول إلى مقام الإحسان، أو شهوده عند من وصل إلى هذا المقام بدون تلبيس أو خروج عن دائرة الشريعة الإسلامية. لأن كل كرامة لا يؤيدها شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم هي عمي وتلبيس. ومن رفع ميزان الشريعة فهو كالشيطان الذي أبى أن يسجد لآدم ظاناً أنه يطيع الله بعدم سجوده لغيره. وقد جاء القرآن بالأمر الصريح بوجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء به فقال الله ﴿**ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾(19).

ومقام الإحسان مثل كل مقام لا يتساوى فيه الواصلون وإن وصلوا. ولهذا جاء في القرآن ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات**﴾(20) وجاء أيضاً ﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾(**21**) ولكن أتى الأمر الإلهي بعدم التفريق بين الرسل فقال الله ﴿**آمن**

الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾(22). فالمؤمن يعرف أن كل الرسل رسل الحق ولهذا لايفرق بينهم، ولكنه حين يستمد من علومهم عن معرفة لا بد له من التفريق من حيث العلم بين من أعطي "جوامع الكلم" وبين من سمع الكلام. والكل بفضل اللّه، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" لأن الفخر للصانع المبدع. فالمقامات وإن اجتمعت فإن الأحوال تفرق. والعالم بشريعة الحواس الظاهرة وما لها وما عليها غير العالم بشريعة القلوب. ولهذا كان هناك إسلام وإيمان وإحسان. وكانت علوم الغيب من هذا الميزان. الاقتداء بالرسول في كفة والعلم اللدني في الكفة الأخرى. الكفة الأولى فيها الأعمال والثانية فيها المقامات والأحوال. والشريعة حاكمة عند رأس الميزان تحكم بين الكفتين لئلا يختل الميزان. فلا تغتر بعلم أو سحر لا تقابله في الكفة الأخرى الأعمال. فقد عبد بعض الناس الأصنام والحيوانات والنجوم وظنوا أنهم يعبدون اللّه، ونسبوا للّه أبناء وبناتاً وربما زوجة تطبخ له الطعام. ولهذا جاء تأكيد القرآن "إنما أنا بشر مثلكم" وجاء خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم لابنته وقومه بني هاشم لكي لا يظن أحد أن قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم تبيح له تحليل ما حرم اللّه فقال: "يا فاطمة – يا صفية– اشتري نفسك من النار فإني لا أغني عنك من اللّه شيئاً"(23). كل هذه الإنذارات كانت لاعتبار القيمة الوحيدة للإنسان من زاوية الأعمال التي ترافقها النوايا الطيبة والصادقة، وعدم خداع النفس أو الغير بظاهر الأمور. فمن أنفق ليقال عنه كريم فهو لما أنفق له، ومن أنفق طاعة للّه فإنفاقه للّه. إن الميزان الإلهي أدق مما يستطيع الناس أن يتخيلوا. وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو إنسان يستطيع أن يعرف سر صفوان وغيره كما رأينا. وهذا العلم كما قلنا ورثه بعض الأولياء، وهم يتناقلونه إلى قيام الساعة وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يشاهد بعض ما سيحدث في المستقبل كما رأينا في صحيح أخباره، ألا يدلنا هذا من قبيل القياس المنطقي على أن اللّه "يعلم السر وأخفى" ولهذا قلنا إن عدل اللّه لا يحتاج إلى دليل إلا من نفسك. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أخبر صفوان عن خبر المؤامرة إلا بإطلاع اللّه له على ما في نفسه بينما لم يخبره عن الشاة المسمومة إلا بعد اللقمة الأولى. وقد جاء في القرآن في سورة البقرة **﴿ يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما**

شاء﴾(24) ولكن بعض الناس تاهوا في رؤية الأسباب عن مسبب الأسباب، مع أن الأسباب هي وسائط المشيئة بين الله وخلقه. ولهذا كان الوصول بالأسباب، وليس بالأنساب، وبالأعمال لا بالأقوال. فالأمر الإلهي إنما يحدث بالأسباب. وفي سورة الفيل حيث "أرسل عليهم طيراً أبابيل" وفي إمداد الله لرسوله بالملائكة غنية لمن يريد أن يتفهم حقيقة ما نسبه الله لنفسه من الفعل بالأسباب وإننا نُذكّر بهذا الكلام لتفنيد إدعاء من يدعي أنه غير محتاج للعمل بعد الوصول، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه كما ذكرت السيدة عائشة رضي اللّه عنها، وكان يخشى أن يلاقي اللّه وعنده أي شيء من المال. فتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة بثلاثين صاع من الشعير. بينما بعض من يدعون الوصول يغتنمون الفرصة ويتلاعبون بعقول السذج من الناس لجمع الأموال وتكديس الثروة وتوزيع ثروتهم وخبرتهم في المشيخة لأولادهم بدون خوف أو رادع. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين سمع بعض الصحابة يتناقشون في أمر الدجال "غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال الأئمة المضلون"(25) وقال محذراً من طلب الدنيا بالدين رغم إتساع أبواب الرزق أمام العباد "علم الله تعالى آدم ألف حرفة من الحرف وقال له: قل لولدك وذريتك إن لم تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويلٌ له"(26) فالوصول له أسباب وأصول. بدايته في تطهير النفس بالسجود على التراب. ونهايته في الإسراء الروحي الذي يقف فيه عند قاب قوسين بدون أين. متبعاً خطا الرسول الكريم ليكون في موقع المستمع إلى هذا الوصف الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم **﴿إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾**(27). وليقارن ذلك بقول الله للرسول صلى الله عليه وسلم:**﴿ليس لك من الأمر شيء﴾**(28) وهما مسألتان لا تتناقضان لمن يفهم السر في هذا الكلام. وإن بدا الكلام الأول في روعة الجمال. والكلام الثاني من بحر الجلال، فإن الكمال هو الجامع بين البرازخ وهو الذي **﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان﴾**(29) ففي برزخ الشهود والعيان تفنى العين. وفي برزخ الجمال لا بد من سمع وعينين. وإلا فكيف يعرف الحق من غير شهود، وكيف يوصل إليه بغير شرع رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم الذي كلف بأداء الرسالة. هل يموت الرسول قبل أن يؤدي الرسالة ويقول لمن أرسل إليهم **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت**

عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾(30). لهذا حين اتفق المشركون على انتداب فرسان من كل القبائل لقتله وتضييع دمه بين القبائل خوفاً من ثأر بني هاشم. جاء الأمر الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة. فخرج من بيته وفرسان المشركين الذين وقفوا على بابه كانوا ينتظرون، وحين فوجئوا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أخذ مكانه في الفراش، ذهبوا يتتبعون آثار خطواته ووصلوا إلى غار حراء حيث اختفى مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فضللتهم خيوط العنكبوت المنسوجة على الباب. وعندما استطاع سراقة بن مالك بن جعشم أن يلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم طمعاً بالحصول على مكافأة قريش المعلنة، مائة من الإبل لمن يأتي بالرسول صلى الله عليه وسلم، وحاول الاقتراب منه غاصت فرسه بالرمل، يقول سراقة في حديث طويل: "فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعها دخان كالإعصار. قال فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم فقلت: أنا سراقة بن جعشم، أنظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ فقال ذلك أبو بكر. قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال: أكتب له يا أبا بكر.. فكتب لي كتاباً.. فجعلته في كنانتي ثم رجعت.. حتى إذا كان فتح مكة خرجت ومعي الكتاب لألقاه.. فلقيته بالجعرانة.. فدنوت من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته وقلت يا رسول الله هذا كتابك، أنا سراقة بن جعشم. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يوم وفاء وبر أدنه. فدنوت منه فأسلمت.. ثم قلت: يا رسول الله، الضالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: نعم، في كل ذات كبد حرّى أجر. ثم رجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتي"(31). لماذا عاد سراقة وهو الطامع بمكافأة قريش بعد أن وصل إلى هدفه؟ وكيف يمكن لرجل باحث عن الثروة وهو على دين قريش أن يعود عما جاء من أجله، مقابل عهد من رجل مطارد من قومه أو وعد بالمكافأة؟ إن أي تحليل أو تفسير للأسباب التي دفعت سراقة للعودة عن هدفه لا يمكن الأخذ بها أو النظر إليها إلا من خلال اعتراف سراقة في حديثه. بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ممنوع منه. وكم سيتعرض الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لمحاولات الغدر التي ستنكشف له، لتتأكد حقيقة ما قاله عن نفسه "إني لأراكم من ورائي كما أراكم"(32) أي من أمامي و"إني لأراكم من وراء ظهري"(33). وقال الله: **﴿وما ينطق عن الهوى إن**

هو إلا وحي يوحى﴾(34) لقد قرأنا بعض إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم في إطلاعه على بعض ما دار في النفوس واختفى في الأذهان، لنعلم أن ابن الإنسان إذا كان يستطيع أن يعرف بعض ما كان يدور في النفوس والأذهان، فإن اللّه لا يخفى عليه خافية، وهو الممد لرسوله صلى الله عليه وسلم. وإن الأنبياء والرسل كلهم يأخذون من مشكاة الحق الواحد كما قال النجاشي حين كان عليه أن يحكم بين المسلمين اللاجئين إلى بلاده، وبين وفد قريش المطالب بتسليمهم. فقد بكى النجاشي حين قرأ عليه جعفر بن أبي طالب بعض الآيات من سورة مريم عليها السلام حتى "إخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم" فالتفت إلى وفد قريش الذي جاء محملاً بالهدايا لكسب تأييد النجاشي. وقال: "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.. انطلقا فلا واللّه لا أسلمهم إليكما"(35). وحين ظن عمرو بن العاص رئيس وفد قريش أنه اكتشف الوسيلة للنيل من المسلمين المهاجرين بعد أن خاب مسعاه الأول، عاد إلى النجاشي فأخبره "أنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيماً" فدعي المسلمون من جديد للمثول بين يدي النجاشي وسألهم: "ماذا تقولون في عيسى" بحضور وفد قريش وجماعة من الأساقفة، فأجاب جعفر رضي الله عنه "نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: "هو عبد الله ورسوله وروح منه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول" فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فاخذ منها عوداً، ثم قال: واللّه ما عدا عيسى ما قلت هذا العود" ثم قال للمسلمين رغم احتجاج بعض أساقفته "اذهبوا فأنتم شيوم- أي آمنون- بأرضي، من سبكم غرم. ما أحب أن لي جبلا من ذهب، وإني آذيت رجلاً منكم" ثم التفت إلى حجابه وقال: "ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ اللّه مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه" (36) وخرج وفد قريش مخذولاً مرة أخرى. ومن الأمور الغريبة أن عمرو بن العاص أسلم في النهاية بنصيحة من النجاشي عندما كان يزور الحبشة للتجارة، فقال له النجاشي عند لقائه به "أطعني يا عمرو واتبعه، فإنه واللّه لعلى حق، وليظهرن على من خالفه" (37) فعاد عمرو إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة وبايع على الإسلام. وما أكثر الأمور الغريبة التي كانت تحدث أمام العيون، والتي تستحق التأمل. ومنها أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة. فلماذا اختار الحبشة ولم يختر اليمن أو بلاد الشام أو مصر رغم سعة البلدان المحيطة بمكة. مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعرف النجاشي ولم يلتق به، ولم يتفق معه

حين أمر الصحابة بالهجرة إليه. فهل لهذا الأمر من تفسير غير الإلهام الإلهي الذي لا يفهم ولا يدرك بمنطق الحسابات السياسية، ولاتحيط به العقول غير المستنيرة بالإيمان. كم سنشاهد من المعجزات لنؤمن بقدرة الله المتجلية في عباده وخلقه وهو يدعونا حرصاً علينا، ومحبة لنا، بواسطة الرسل ومعجزاتهم وشرائعهم العادلة التي لا يرفضها إلا ظالم أو جاهل، لنكون الخلفاء والأمناء في أرضه. كم خاطبنا أفلا يعقلون.. أفلا يسمعون أفلا يبصرون. "يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلكم ما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"(38).

ألا تشـــهدون الموت المحيط بكم- كم ينادي اللّه العباد ويمد يده في النهار لمسيء الليل، ويبسط يده في الليل لمسيء النهار.. وكم بشر وحذر- إذا جاءني عـــبدي ماشياً، بالإيمان والتوبة، أتيته هرولة- وكم أنذر.. فمن يعقل تكريم اللّه للإنســان- وســخر لكــم ما في السموات والأرض- من يعقل والأرض تضج بالشكوى من ظلم الإنسان. وقد أصبح الإنسان في فلسفة عصرنا غريزة جنسية تبحث عن المتع بإباحية لا تقبلها ديوك الدجاج، أو معدة نهمة إلى طيب الطعام بظلم العباد، وفلسفة الذرائع التي داست على حقوق الضعفاء، وجعلت القوة هي الحــق، وجعــلت الــرحمة مــن أعمال البلهاء. فضاعت الحقوق كما ضاعت الأنســاب، وأصــبح أولاد الحــرام كمــا في رواية برنارد شو "ميجر بربارة" يحكمــون العالم بتجارة السلاح وإشعال الفتن والحروب للحصول على المقدس فــي حضــارة الذهب الآيلة إلى الدمار **﴿إن اللّه لا يظلم الناس شيئاً ولكن الــناس أنفسهم يظلمون﴾**(39) و "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة

ما سقى كافراً منها شربة ماء"(40).

فـلا يغتر المغتر بما يلقاه من نجاح أو توفيق، فقد بكى عمر بن الخطاب حيـن رأى أثـر الحصير في جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله: "ما يـبكيك يا عمر. قال: أنت نبي الله وكسرى وقيصر على أسرة الذهب. قال: يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة"(41) فالانشغال بالدنيا والإقبال عـليها ليـس من غايات العارفين، وإن كان كل ما يشهد آيات للعالمين. ومن حكمـة العـرب أنهم سموا المال مالاً لأنه يميل بجامعه عن الطريق المستقيم. فسوي الجمع بالإنفاق في الشريعة ليعود المائل بجمعه إلى الميل بكرمه لتستوي كفـتا الميزان. فويل للذين يكنزون ويبخلون، ولا ينفقون مما يعلمون، وقد أوتوا كـنوز العـلم بـالعقل الموهوب لهم ليفكروا. وويل للفقراء المحتاجين الذين إن جـاءهم رزق الكـرام مـن الأتقياء تكبروا، فكيف بمن يرفض عطاء العلماء الأغـنياء بزاد الدنيا والآخرة، وكيف بمن شغله جسمه عن رأسه، وجعل العالي مـنه فـي خدمة السافل. وقال عن نفسه أنا الإنسان.. فهل هذا هو الإنسان إذا ركبت شهواته رأسه، وصار شعاره سأعيش كالحيوان.؟ فماذا يسعنا أن نقول له غيـر مـا قاله عن نفسه. وعند ذلك تصح نظرية دارون في التطور، ليس من القـرد إلى الإنسان، بل في تطور معاكس يأباه الحيوان، ومن الناس من هم – كالأنعـام بـل أضـل سبيلاً– كما وصفهم الله. وفي مثل هذا التطور المحزن ستنسخ شريعة الإيمان والإحسان لتسود شريعة الغابة. وعندها سيأتي الطوفان.

الرسول الطبيب

الطب من اختصاص الأطباء، ومع ذلك فقد قام المسيح عليه السلام ، كما جاء في القرآن والإنجيل بشفاء الأكمه والأبرص في بعض المناسبات. لأن كل نـبوة لا بـد أن تؤيدها المعجزة لتكون دليلاً على صدق صاحبها. ولهذا طلب الحواريون من المسيح إنزال مائدة من السماء ليطمئنوا **﴿إذ قال الحواريون يا عيسـى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قـد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾**(1) وقد أنزلت المائدة مراعاة لحقيقـة الإنســان. ولهذا آمن الحواريون عندما شاهدوا المعجزات وقاموا بنشر رسـالة المسـيح عليه السلام غير عابئين بكفر من كفر ولا بطغيان روما، أو

ضـــلال اليهــود وأفكارهم وغدرهم. كما شاهد اليهود الذين تبعوا موسى عليه السـلام مــن معجــزاته الخارقة ما جعلهم يتبعونه ويخرجون معه من مصر. وبــدون هــذه الحوادث الخارقة التي أتى بها الأنبياء والرسل لا يمكن أن نفسر هــذا الــتأثير العميق الذي أحدثته النبوات في حياة البشر طوال التاريخ. وهذا الــتأثير لا يمكن تفسيره بالأسباب الاقتصادية وصراع المصالح والطبقات كما هو في المفهوم الماركسي ولا بالصراعات القومية، أو ردات الفعل حسب رؤية أرنولد توينبي للتاريخ أو حضارات الأنهار والصحارى والبحار، أو على ضوء الخــلدونية فــي تطور الأمم من الطفولة إلى الشباب فالكهولة فالموت. كما إن النظرية الفرويدية عن الدوافع وإن كان صاحبها لم يحاول استخدامها لتفسير أي بعــد تــاريخي، إلا أن دراســاته لحيــاة بعــض الشخصيات التاريخية لتفسير تصــرفاتهم عــلى ضوء فهمه للدوافع وخاصة الجنسية، وتأثيرها في حياة من درســهم قــد أتــاح المجال لزج نظريته في صلب تقييم العملية التاريخية على أســاس أن الــتاريخ هو تاريخ أشخاص. وكان مفتاحه ومفتاح من تبعه يقتضي فهم العقد الجنسية في حياة العظماء لفهم التاريخ. وهكذا كما طوحت الماركسية ولكــن بشــكل أكثر سموأ بكل القيم الإنسانية حينما ربطت التطور بقيم المعدة وحاجاتهــا. فــإن الفــرويدية ألقت بهذه القيم إلى الحضيض حين ربطت تطور الإنســان بعورتــه. ولهــذا اعتبر نجاح بافلوف في تجاربه على الكلاب نصراً لمــنطق المعــدة، كمــا اعتــبر كل العهر الذي توصلت إليه الحضارة الغربية والحضارة بشكل عام نصراً للفرويدية، لسبب بسيط هو أن الإنسان قد تم مسخه ليكــون كلــباً، أو ليكون عاهراً. وإذا كان لهذه الأفكار أي حظ في النجاح فإنما يعــود إلى دور مــا نسميه بافرازات الحضارة وسمومها السابقة التي قتلت في الإنســان كل القيم الروحية، بالظلم والاستبداد والتجويع والحروب الظالمة التي أشــعلتها الــبرجوازيات الغــربية على مساحة الكرة الأرضية، فخرج الإنسان المشــوه الذي رأته الماركسية والفرويدية في عصرنا الراهن. وكان ما كان من صــرخات العــنف ودعايات القوة والإنسان "السوبرمان" الكوني المتفوق الذي حمل على مراكبه نماذج من الطغيان والوحشية لا حصر لهما في عصر الغابة المفجع الذي حوله النيتشويون ومن سار على نهجهم إلى هدف قومي. ولكن مع ذلــك ورغــم كل الثمار الأرضية الموعودة، فقد بقيت الرسالات السماوية وقيم الأنــبياء مــتألقة فــوق كل الأزمنة، وفوق كل الفلسفات والتيارات والمصالح والسياســات، مــثل نور سماوي لا يمكن أن تلوثه أيدي البشر. وبقي كثير من الــناس يستحمون في هذا النور، بينما كل الفلسفات والتيارات والمذاهب جاءت

وذهـــبت مثل موضات الأزياء. فما هو سر احتفاظ الديانات ببريقها؟ ما هو سر إتباع اليهود لموسى عليه السلام. وسر الإخلاص الذي دفع تلاميذ المسيح عليه الســـلام إلى أقصـــى بقـــاع الأرض لنشر رسالته والتبشير بها، حتى فتحت لهم رومـــا الـــتي حاصرته لتقتله وتصلبه مع اليهود الذين أنكروه. لقد أحيا المسيح عـــليه الســـلام إضـــافة لإحيائه للموتى الضمائر الميتة. أحيا الروح الإلهية في الإنسان. أحيا ما قتلته اليهودية في عصره من رسالة موسى عليه السلام، فكان محيياً ليس للجسد فقط ولكن للروح. ليتألق الإنسان بمجد الله المعطى له. فكان طبيـــباً وكـــان من بعض طبه المستمر هذا الإحياء للروح. ولكن حين اندثرت روح المسيحية الأصيلة، جاء الإحياء الأخير على يد محمد صلى الله عليه وسلم وكـــان هذا الإحياء جمعاً للشرائع المتفرقة ليكتمل النور، وكان لا بد لكي تصح نســـبة من جاء جامعاً للشرائع إلى الله، من إحاطته بعلوم كل الرسل وشرائعهم ومعجـــزاتهم ليكون خطابه شاملاً ومعجزاته كاملة. ولهذا أوتي الرسول صلى الله عـــليه وسلم القدرة على شفاء من دعى لهم بالشفاء من المرض وأوتي من العـــلوم الطـــبية التي تؤيدها علوم زمننا ما لم يأت به سواه لتكون معجزاته من جـــنس رسالته التي ختم الله بها الرسالات السماوية، ولتكون كرامات المسلمين مـــن الأولـيـــاء من عطاء رسولهم وحجته إلى قيام الساعة. وإذا كان حديثنا عن بعض المعجزات الطبية التي ظهرت على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه مما يؤيد ما أشرنا إليه. فإن تأييد بعض المعلومات التي وردت بالقرآن أو الحديـــث النبوي بمكتشفات الطب الحديث هو بعض مظاهر المعجزة الدائمة التي لا يستطيع أن يجادل فيها مجادل إلا إذا كان من نوع يهوذا الاسخريوطي، الـــذي لم يقنعه الحق والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها السيد المسيح عليه السلام ولا المعجزات التي شهدها بنفسه. ومثل هذا الإنسان المنكر لا يفيد معه الكلام، ولهـــذا فإنـــنا نتوجه إلى من يريد أن يؤمن بالحقيقة والحق. فالرسول صلى الله عليه وسلم قام بأعمال من نوع الطب مع أنه لم يكن طبيباً. وقد جاء عن الفضل بن عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان حدثني أبي عن أبيه عمر عن أبيه قتادة بن النعمان قال: "أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوساً فدفعها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي يوم أحد، فرميت بها بين يدي رسول الله صلى الله عـــليه وســـلم حتى اندقت من سنتها ولم أزل عن مقامي نصب وجه رسول الله ألـــقى الســـهام بوجهي، كلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وســـلم ميـــلت رأسي لأقي وجه الرسول صلى الله عليه وسلم بلا رمي أرميه، فكـــان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي على خدي وافترق الجمع، فأخذت حدقتي

بكفي فسعيت بها في كفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم دمعت عيناه فقال: اللهم إن قتادة فدى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظراً، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً"(2) وفي قصة علي بن أبي طالب يوم فتح خيبر دليل على صحة هذه الرواية. فقد استدعى الرسول صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه من بيته لأن رمد عينيه منعه من حضور غزوة خيبر وتفل فيهما فشفيتا، وأعطاه الراية فكان فتح خيبر على يديه. وقال علي "ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية"(3).

ومعجزات الرسول الظاهرة في هذا المجال وإن كان لم يصلنا منها إلا القليل، فإن معجزاته الطبية ونصائحه الباقية بين أيدينا ما اكتشف منها أو لم يكتشف تدل دلالات قاطعة على الجهة التي استمد منها علمه وشريعته فيما حلل للمسلمين أو حرم عليهم. وإذا ذكرنا تحريم الخمر لما له من أضرار أخلاقية غير خافية وصحية حيث يؤدي إلى تشمع الكبد، فإن في تحريم القرآن للحم الخنزير عبرة ودليلاً على إعجاز القرآن حيث كشفت آية التحريم عن الغامض في أضرار لحم الخنزير بالإنسان مما لم تتوصل إليه علوم ذلك العصر حتى تبين لنا ضرره في عصرنا وعلى يد الذين يأكلونه. إذ ثبت أن كل قطعة من لحم الخنزير تحتاج إلى فحص للتأكد من خلوه من الأمراض التي تتعرض لها الخنازير. ولهذا كما أوضح الدكتور محمد ناظم النسيمي "لا يمكن للطبيب أن يحكم بخلو الخنزير من هذا المرض (داء الشعريات) إلا إذا فحص جميع ألياف عضلات لحم الخنزير قطعة قطعة بواسطة المجهر، وهذا طبعاً لا يمكن تيسره"(4) وهذا المرض أي داء الشعريات هو أحد الأمراض المحتملة التي قد يحملها لحم الخنزير للإنسان إضافة إلى ما قد يحمله من الأمراض لمن يأكلون لحمه وهي كما ذكرها الدكتور نسيمي "الشريطية الوحيدة وتصلب الشرايين- التسمم النقانقي أو الوثيقي". وأما من يحبون تربيته للمتاجرة به فهم معرضون بسبب ملامسته إلى "الزحار الزقي- الداء البريمي اليرقاني النزفي- حيات البطن الخنزيرية – الحمى المتموجة المالطية"(5) "وقد أعلن البروفسور النمساوي فرانز هالز في المؤتمر الطبي العالمي الحادي عشر المعقود في فينا – إن الإكثار من تناول لحم الخنزير لا يؤدي فقط إلى الإصابة بتصلب الشرايين، بل إلى سقوط الشعر أيضاً"(6) وإن ما عرفته البشرية عن مضار لحم الخنزير وإن كنا لم نعرف كل أسباب التحريم تكفي للدلالة على معرفة مصدر هذه الشريعة التي لم يكن ناقلها إلينا طبيباً. وإن الأمر الذي يلفت النظر

أن الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ في بيئة لا تهتم بتربية الخنازير ولا تستخدمها في غذائها. ومع ذلك فقد جاء التشديد في تحريمه إلى درجة وصفه بأنه رجس. جاء في سورة الأنعام ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دوماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله**﴾(7) وحسب تفسير الماوردي فإن الضمير في قوله تعالى (فإنه رجس) عائد إلى الخنزير، لكونه أقرب مذكور، ولا يخفي علينا الآن ضرر الميتة أو الدم، فهما أيضاً رجس إذا كان الرجس يشمل الثلاثة المذكورة لمن رأى أن الضمير يشمل الجميع لما فيها من أخطار على صحة الإنسان. فنحن أمام مسألة لا تتعلق بمسائل العبادة، ولا تؤثر في عقل الإنسان مباشرة كما في الخمر مما قد ينبذه العقلاء لما فيه من الخروج عن الاتزان. ومع ذلك فقد صار التحريم جزءاً من العبادة، والمسلمون أطاعوا الأمر دون أن يسألوا عن أسباب تحريمه. وإني أرجح لهذا السبب بأن التشديد ووصفه بالرجس يعود على الخنزير، لأنه إذا كان من الممكن فهم الضرر من أكل الميتة والدم، فإن فهم الضرر من لحم الخنزير لم يكن واضحاً، ولهذا كان التشديد، وكان تحريم المتاجرة به وبكل ما حرم الله على المسلم، فالشريعة لم تكن بالرأي كما قال علي رضي الله عنه وضرب مثلاً على ذلك بمسح الخفين، إذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمسحهما من الأعلى عند الوضوء لمن لم يخلعهما. فقال: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه. وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح أعلى الخف"(8) وذلك لما يتعرض له أسفل الخف من القذارة. ومع ذلك فإن الشريعة سيؤيدها العقل دائماً عندما تتكشف له حقائقها، لأن كل أمر للشريعة كما يكشف تطور العلوم جاء لحماية الإنسان مما يضره، وللارتقاء به إلى مستوى القدسية لاكتشاف النور الإلهي المبثوث في العقل، ولهذا كان تحريم بعض أنواع الطعام من جملة العناية للوصول بالجسم السليم إلى سلامة العقل لتفجير الطاقات الإنسانية الكامنة في تركيب الجسم الإنساني من خالق هذا التركيب. فكان نصح الخالق وهو أدرى بما صنع لئلا يهبط من جنته الدنيوية بتناوله للخبائث، كما هبط آدم عليه السلام من جنته الإلهية. الصانع مثلاً ينصحنا باستعمال بنزين من نوع معين للسيارة، وإن كان كل بنزين يصلح. والصانع ينصحنا باستخدام أسلاك النحاس لنقل التيار الكهربائي وإن كانت المعادن كلها تصلح للناقلية. فهل يستطيع كل إنسان أن يعرف أسباب هذه النصائح وإن غابت عنه الحكمة منها. إن الحكمة

الإلهيـــة يؤيدهـــا عـــلم العلماء، وتؤيدها إعجازات النبوة، ولهذا عندما تتكشف الإعجـــازات لا يـــبقى للعاقل أي مبرر للجدال سواء عرف كل أسباب النصائح الـــتي جعلتها النبوة جزءاً من الشريعة أو لم يعرف. والسؤال الذي نطرحه، ما هـــي فـــائدة الشريعة من تحريم لحم الخنزير؟ إذا كان المسلم ينفذ كل العبادات المطـــلوبة مـــنه فمـــا علاقة طعامه بالعبادة؟ يجب أن نتوقف أمام هذه الأسرار والآيـــات التي لا يمكن فهمها إلا من خلال إدراك الحرص الإلهي على الإنسان لإيصاله إلى مستوى الكمال بما جعله من العبادة مع أن ليس منها.

لهـــذا كـــانت تزكية الرزق وتطهيره من جملة العبادات بإعطاء كل سائل **﴿وأما السائل فلا تنـهر﴾**(9) و"اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيـــبة" (10) لأن "العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر"(11) فالحسد والعين إذا كانتا تمحقان البركة في الرزق فإن العطاء يردهما. فالعطاء هو طب المال. ونشر العلم هو زكاة العلماء، وزكاة الإيمان هو النصيحة لكل الخلق. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا عباد الله تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد هو الهرم"(12) وكل معرفة تقود إلى اكتشاف أدويـــة هذا للجسم، وهذا للعقل، وهذا للعين. وقس أوامر الشريعة من حيث هي دواء للترقي والوصول إلى الأسرار الكامنة فيك. ولهذا لا يحق للمجتهد الذي لا يعـــرف أســـرار الشريعة أن يجتهد برأيه، لأن الشريعة علم عميق بل هي قمة العلم، ولا يخاض العلم بالرأي بل بالعلم، ولهذا حرم الإمام الغزالي على العوام الخـــوض فـــي الشريعة إلا للتعلم في كتابه "إلجام العوام عن علم الكلام" حقائق الشـــريعة لا تتكشف لكل إنسان بسهولة، فهي مثل الطب. فالطبيب الذي تذهب إليه مريضاً يريد أن يشفيك من المرض ويقترح عليك دواء ما، فإذا رفضت أن تأخذ الدواء إلا بعد معرفة تركيبه وتأثيره فعليك أن تدرس الطب والصيدلة وقد يقضـــي عليك المرض قبل أن تتوصل إلى المعرفة التي تطلبها. وفي الشريعة ونصـــائح النـــبوة الطـــبية أمور لم يتم التحقق من تأثيرها رغم تقدم العلم. ولا يســـتطيع العلم الذي يتعامل بالماديات أن يفهم سر قول الرسول صلى الله عليه وســـلم "الـــلّه الطـــبيب"(13) أو قـــول اللّه **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمـــة للمؤمـــنين﴾**(14) ولهـــذا شـــرع الرسول صلى الله عليه وسلم لكل الأحـــوال، لكـــي يأخذ كل مسلم ما يناسب أحواله، ولهذا عندما مرض أبو بكر رضـــي الله عنه وسأله بعض أصحابه "ألا ندعو لك مطبباً ينظر إليك. قال: قد نظر إلي قالوا: فماذا قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد"(15).

لقد أخذ أبو بكر من علم الرسول صلى الله عليه وسلم فرأى أن "اللّه الطبيب" فهذه هي أحواله، وهذا هو إيمانه، فسكن إلى قول الله **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب﴾**(16). ولا تناقض بين الأمرين لمن يفهم الكلام. فقد قيل لعمر بن الخطاب حين لم يدخل الشام لانتشار مرض الطاعون فيها "أفراراً من قدر الله" فقال : "نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله"(17) وهل هناك من يؤثر المرض على الصحة لو كان بيده أن يشفي نفسه. لهذا لجأ الكل إلى الطبيب على قدر علمهم وأحوالهم ومعرفتهم بالشافي.

وكانت النبوة تشرع لهذا وذلك للتوسيع على الخلق بقدر علومهم في أبواب المعرفة، فكانت أسرار أدوية النبوة وإعجازها في الكشف عن أدوية الأرواح والعقول والأجسام. كما كان في الكشف عن مراحل تطور الجنين إشارات للعلماء الذين سيكتشفون التوافق بين ما جاء به القرآن وبين ما تبين لهم في مختبراتهم. كما إن إشارات القرآن إلى مراحل خلق الإنسان خير دليل على مفهوم التطور الذي اكتشفه العلم الحديث. وبما أن بحثنا لا يهدف إلى الدخول فيما توصل إليه الطب حول الأدوية التي وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه في بعض المناسبات مثل الحبة السوداء والعسل وزيت الزيتون والحجامة والجراحة والسواك وغير ذلك من الأدوية أو النصائح التي لا مجال للشك في صحتها إذا فهمت كما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يتعارض مع استخدام الأدوية الحديثة. وبما أننا لا نريد في هذا البحث غير الإشارة إلى آيات الإعجاز الإلهي للاعتبار والتأمل للوصول إلى الحق الذي علِم وعلّم. لهذا سنكتفي بتقديم بعض الإشارات ذات الدلالة.

من هذه الإشارات حديث القرآن عن خلق الإنسان حيث سنحتاج إلى أربعة عشر قرناً لاكتشاف بعض ما جاء به القرآن في مختبرات العلم لكي نكتشف سر الإعجاز القرآني وننسبه إلى مصدره الإلهي، وليس لمن لم يكن طبيباً أو مخبرياً **﴿فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر"**(18) **"يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة. ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم. ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى. ثم نخرجكم طفلاً. ثم لتبلغوا أشدكم. ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾**(19). هنا نلاحظ مفهوم التطور في خلق

الإنسان والانتقال في عملية الخلق من التراب إلى الإنسان. ﴿**يخلقكم في بطون أمهـــاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك لا إلـــه إلا هـــو فأنى تصرفون**﴾(20) يجب أن نتوقف عند هذا التحديد (ظلمات ثلاث) ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرارٍ مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة. فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً. ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكـــم بعـــد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾(21) أصل الإنسان سلالة الطين ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً**﴾(22). ﴿**وإنه هـــو أمات وأحيا. وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى. وإن عليه النشأة الأخرى**﴾(23) "**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكـــن شـــيئاً مذكـــوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه ســـميعاً بصـــيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**﴾(24) الحرية والمسؤولية "أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى"(25) حوار بالعقل للدلالة على قدرة الصانع على إعادة ما صنع. لقـــد قـــال الدكتور نسيمي "كان يظن بعد اكتشاف النطفة عام 1590 أنها إنسان صـــغير جداً ينمو في الرحم حتى يبلغ حجمه المعروف. ثم اكتشفت البيضة سنة 1827 أمـــا أبحـــاث تـــنامي المضغة والجنين فإنها من أبحاث القرن العشرين. فالإسلام إذاً سبق في نصوصه هذه الاكتشافات العلمية بقرون عديدة"(26).

وفـــي توضيح للرسول صلى الله عليه وسلم عن مراحل خلق الإنسان جاء فـــي عدة أحاديث عن حذيفة بن أسيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل المـــلك عـــلى الـــنطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان. ويكـــتب عملـــه وأثـــره وأجلـــه ورزقـــه ثـــم تطـــوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص"(27).

وفي رواية عن ابن مسعود قال: "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه نطفة أربعين، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضـــغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد"(28).

إنــنا هــنا نواجــه إضافة إلى مسألة الخلق ومراحل تطوره، مسألة القدر المحكوم به الجنين. وهذا القدر له أسبابه، إذ تشترك عوامل نعرفها، وعوامل لا نعــرفها. منها عوامل الوراثة التي لم تكن معروفة فنبه إليها الرسول صلى الله عــليه وســلم فــي عــدة أحاديث فقال: "تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهــن وأخواتهن"(29) وقال: "تزوجوا في الحجز (أي الأصل) الصالح، فإن العــرق دســاس"(30) كمــا إن علينا أن نستنتج من تحريم الرضاع لما حرمته القرابة، علاقة الرضاع بعوامل الوراثة وتأثيرها في الطفل الرضيع. وقد كشف الدكــتور هشــام حورانــي في بحث لــه عن خطورة بنوك الإرضاع الوالدي المنتشرة في أوربا وأمريكا، حيث تحتفظ هذه البنوك بحليب أمهات للبيع لأطفال آخــرين بــدون إكتراث بمعرفة الأم صاحبة الحليب، مما قد يؤدي إلى حدوث زيجــات بين الطفل الرضيع وأخته من الرضاعة في المستقبل. وقد بين بعض المخاطــر الــتي ســتنجم فــي مثل هذه الحالات على ضوء المكتشفات الطبية الحديــثة. فقــال مــن هــذه المخاطر: "إمكان حدوث العقم- الأمراض العائلية الوراثيــة- التشــوهات الخــلقية للأبــناء- شــواذات استقلاب المواد السكرية والبروتيــنية والدســمة – وأخيراً إمكانية ترافقه بأمراض مناعية ذاتية وبنسب عالية"(31).

لقــد حــرم الله فــي سورة النساء من الرضاع ما حرمه النسب **﴿حرمت عــليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾**(32).

وقــد حــدد الرســول صلى الله عليه وسلم الرضاع الذي يحرم ما حرمه النســب فقــال: "لا رضاع إلا ما أنشر العظم وأنبت اللحم"(33) وحدد بأنه: "لا رضــاع إلا ما فتق الأمعاء"(34) وقال: "إن الله حرم من الرضاع ما حرم من الولادة"(35) وما يهمنا هو الإشارة إلى علم الله بخلقه وحرصه عليهم فيما حرم لنشــوء الأطفــال نشأة سليمة باتباع الأساليب التي تؤدي إلى هذه الغاية، رغم جهــل الناس في ذلك الوقت بضرر الزواج من الأقارب، أو بنقل المورثات من المرضــعة إلى الطفــل الرضــيع. كما أننا أمام مسألة نوع الجنين سنجد سبباً لذكــورة الجنين أو تأنيثه. فقد جاء في حديث عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عــليه وسلم أنه قال لحبر من أحبار اليهود، قال جئت أسأل عن الولد، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعــلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل

أنـــثا بإذن الله" (36) فالذكورة والأنوثة ناجمان عن الأسباب وهي سابقة لكتابة المـــلك. والأسباب هي النظام الذي وضعه الله وإن كان الله يحكم بالأسباب فإن الأســباب لا تحكـم عليه، فهو الحاكم غير المحكوم، ولكن حصول نفس النتائج مـــن نفس الأسباب من عدل الله. ولهذا فإن كتابة الملك من ميزان العدل الإلهي الحاكم بالأسباب على خلقه، إذ لو اختلطت الأسباب والنتائج، فإن الطريق السليم لن يعرف، والعلم سيضيع ولهذا ظهر الإعجاز الإلهي باكتشاف النظام في خلق الإنســان الــذي أشــار إليــه القرآن. وبكشف العلم عن الضرر من أكل لحم الخنزير، وعن وجود مصلحة للإنسان في كل ما أباحه أو حرمه الإسلام، سواء علم بذلك أو جهله. ولكن من فوائد العلم الحديث أنه كشف لنا عن حقيقة الرحمة الإلهيـــة بالإنســـان المطبق لشرائع الإسلام ليكون سليم الجسم والروح مستحقاً لـــلخلافة، ولهـــذا كـــان الإسلام دين العالم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم الخاتم وصاحب المعجزة الدائمة التي لا تنتهي آياتها إلى قيام الساعة. فهو نور الكمال الإنساني الذي تجلى في الحكمة والعلم والأخلاق لتحقيق خلافة الإنسان. ولأن الكمـــالات تقتضـــي كمالات الزمان والمكان والناس لذلك ظهر في أكمل الأزمـــنة والأمكنة وكان أصحابه هم الكمل الذين لا يسابقون ولا يسبقون. فهم نجـــوم الهدايـــة المحمديـــة. وهم الذين قال عنهم: "دعوا لي أصحابي، فو الذي نفســـي بيـــده، لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم"(37). ولهذا قال: "خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر"(38).

وقال "خيركم قرني ثم الذي يلونهم ثم الذين يلونهم"(39) وقال: "طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني"(40) فهم الذيـــن سهروا على الإسلام ونقلوه إلينا، وإن اختلفت مواقعهم في ميزان الكمال المحمـــدي، فقد كانوا الأمناء في التبليغ وإن شغلتهم الدنيا أحياناً وكانوا الأوفياء للإســـلام وإن اختلفوا. ونحن في إسلامنا الذي وصل إلينا، ثمرة كفاح، وحصاد جهـــاد مـــن رآه أو من رأى من رآه أو من رأى من رآه. فطوبى لهم. فقد كان إيمـــانهم إيمـــان طاعة ويقين. وكانوا يصدقون بالكلمة ويطيرون على أجنحتها، ويخضـــعون لـــلحق. فلانت قلوبهم للقرآن وأنست به كما فعل الدوسي الشاعر، قـــبل أن يشهدوا معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبل أن تكشف العلوم الحديـــثة عـــن آيات النبوة. فأين نحن منهم، وأين جهادنا من جهادهم رغم كل المعجـــزات التي تشهد بها مختبرات العلم ومشارح الأطباء وقاعات المؤتمرات الفـــلكية وريادة الفضاء. أين الأحباب الذين يجاهدون جهاد الأصحاب، ما أقلهم في زبد المسلمين الكثر.

الفتوحات الإسلامية
بين الخيال والحقيقة

إن العقـل والخيال لا يستطيع أن يصف مشهد الانتصارات الإسلامية غير المتوقعة التي ستنطلق سريعاً لتواجه أعظم إمبراطوريتين في ذلك الزمان وهما امبراطوريـتا الـروم والفرس. فالإمبراطوريتان كانتا تمثلان كل جبروت القوة والسـلطة والمـال والسلاح في عالم مقسم بينهما لا يخرج عن طاعة أحدهما. فالغساسـنة والمـناذرة عـلى تخوم الدولتين ولايات عربية محكومة بإسمهما. والعراق واليمن تابعان للفرس. وشمال أفريقيا مع بلاد الشام تحكمها روما. فاي أمـل لقـبائل مبعثرة في الحجاز بالانتصار على مثل هذه الإمبراطوريات مع خلافات القبائل وثاراتها وصراعاتها وفقرها، حيث كان يؤدي تعرضها لمواسم الجفـاف إلى الجوع والموت. حتى إن أبا طالب وهو سيد من سادات مكة وسيد بـني هاشم اضطر للرضى بإعطاء بعض أولاده للرسول صلى الله عليه وسلم قـبل البعـثة ولأخيه العباس لما أصابه من الفقر. فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم علياً، وأخذ العباس جعفراً لتوفير ثمن طعامهما على أبي طالب. إذا قرأنا الخـريطة السياسـية والاقتصـادية والعسكرية في تلك المرحلة وقارنا بين قوة العـرب وقوة إمبراطوريتي الفرس والروم وأردنا أن نتنبأ بسقوطهما واحتلال أراضيهما على يد أية قوة، فإننا ربما لن نجد على ظهر الأرض من يستطيع أن يتخيل إمكانية مواجهة أي دولة منهما دون التحالف مع الدولة الأخرى كما فعل الغساسـنة والمناذرة لحماية إمارتيهما. فقد كان العالم مقسماً كما هو شأنه اليوم بيـن أمـريكا وروسيا أو أوروبا. وإذا كان هناك من أمل لمواجهة أحدهما من دولـة منفردة فإن مثل هذا الأمل قد يكون في دولة الحبشة أو مصر أو اليمن، إلا أن أي عاقل لن يعد قبائل الحجاز أو سكان مكة والمدينة لمثل هذا الاحتمال. وحتى في حال وجود مثل هذا الأمل لدى أي أمير فإنه لن يتجاوز الأمل بتوسيع مملكـته في ظروف ضعف إحدى الإمبراطوريتين والاستقلال بإقليمه إلى أجل محـدود. ولـو قال قائل في ذلك الوقت إن عرب مكة والمدينة سيعتدون حتى مجرد اعتداء على إحدى الإمبراطوريتين دون أن يواجهوا الدمار، سيكون مثل من يقول الآن إن إمارة خليجية ستحتل باريس أو لندن أو موسكو أو واشنطن.

ومـــع ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط ذهول أصحبه بأن هذه المــدن ســتفتح عليكم وهم يشكون إليه فقرهم. "قال عبد الله بن حوالة: كنا عند رســول الله صـــلى الله عليه وسلم فشكونا إليه الفقر والعري وقلة الشيء، فقال رســول الله صـــلى الله عليه وسلم: أبشروا، فوالله لأنا من كثرة الشيء أخوف عليكم من قلته! والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى تفتح لكم أرض فارس وأرض الــروم وأرض حميّر، وحتى تكونوا أجناداً ثلاثة: جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن، وحتى يعطى الرجل مائة دينار فيتسخطها. قال ابن حوالة: فقلت يــا رســول الله! ومن يستطيع الشام وبها الروم ذات القرون؟ فقال رسول الله صــلى الله عليه وسلم: والله ليفتحنها الله عليكم ويستخلفنكم الله فيها، حتى تظل العصابة منهم البيض قمصهم المحلقة أقفاؤهم قياماً على الرجل الأسود منكم، ما أمـــرهم فعلوا. وإن بها اليوم رجالاً لأنتم اليوم أحقر في أعينهم من القردان في أعجــاز الإبل. قال ابن حوالة: فقلت: فاختر لي يا رسول الله إن أدركني ذلك. قال: أختار لك الشام، فإنها صفوة الله من بلاده، وإليها يجتبي صفوته من عباده، يــا أهل اليمن! عليكم بالشام، فإن صفوة الله من الأرض الشام. فمن أبَى فليلحق بيمنه وليسق بغدره، وإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله"(1).

أنظـــر إلى هـــذا الوصـــف الدقيق للحالة التي كان عليها العرب، فقد كان العرب في نظر الروم "أحقر من القردان في أعجاز الإبل" وربما هذا شأنهم مع الفرس. ولذا سأل الصحابي الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أذهله كلامه "ومن يســتطيع الشـــام وبها الروم ذات القرون". مثل هذه الوعود لاتكاد تصدق لولا النــبوة، ولولا ما كان يشهده الصحابة من الرسول صلى الله عليه وسلم من علم بشـــؤونهم الخاصـــة والعامـــة. ولـــولا إيمانهم بما كان يخبرهم به دون اعتبار لمقـــاييس العقل وحسابات القوة والضعف. لولا حقائق من هذا النوع لما صدقوا مـــثل هذه الأقوال. في موقف آخر والصحابة يحفرون الخندق حول المدينة قال ســلمان الفارسي الذي اقترح حفر الخندق دفاعاً عن المدينة العاجزة عن الدفاع ومســلميها فـــي مواجهة تحالف الشرك مع اليهود قال: "ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت علي صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني فلما رآنـــي أضرب ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته بـــرقة أخرى. قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة اخرى. قال: فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب قـــال: أوقـــد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم. قال: أما الأولى فإن الله فتح

علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق"(2).

كيف ستفتح كل هذه البلاد والإسلام يلجأ إلى التحصن داخل المدينة للدفاع عن نفسه ضد المهاجمين القادمين؟ لا يمكن لمنطق العقل المجرد أن يفهم لغة صاحب الرسالة في مثل هذا الموقف الصعب. كانت قريش قد أجمعت أمرها على غزو المسلمين بالمدينة للقضاء عليهم بتحريض من بعض زعماء اليهود الذين ساروا إلى مكة وطلبوا منهم التعاون معهم لإعلان الحرب على الرسول صلى الله عليه وسلم والقضاء عليه وقالوا لهم: "إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه" ولهذا أنزل الله فيهم **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد لهم نصيراً﴾**(3) إلى آخر الآيات المذكورة في شأنهم. كان وفد اليهود الذين ذهبوا إلى مكة لتشكيل التحالف العسكري مع قريش بقيادة سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي حقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، واتفقت كلمتهم على غزو المدينة في شوال في السنة الخامسة من الهجرة. ولما وصل خبر إتفاق اليهود مع المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم وكان بينه وبين اليهود عهوداً "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة وهو سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فألحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس، قال: فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين"(4).

كانت المؤامرة كبيرة، بل كانت أكبر مؤامرة هددت الإسلام والمسلمين في عقر دارهم، وكان الهدف خطيراً لأنهم لم يسعوا إلى تحقيق نصر محدد على المسلمين أو رد ثأر لغزو بغزو، بل كان هدفهم تدمير الإسلام وقتل صاحب الرسالة. كأنما كل تاريخ اليهود وماضيهم وعراقتهم في قتل الأنبياء وإشعال الفتن، كأنما تبلور في هذه الفترة من التاريخ لصياغة أخطر حلف ضد الإسلام. حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطر أثناء حصار التحالف المشرك للمدينة والذي دام قريباً من شهر، اضطر إلى التفاوض مع قائد غطفان الحارث بن عوف وعيينه بن حصن وكانوا مع عشائرهم من جملة التحالف المعادي، وأغراهم بالمال لينسحبوا بمن معهم من الحلف، ووصلا بعد التفاوض إلى الاتفاق على "إعطائهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه"(5). وقبل أن يوقع الرسول صلى الله عليه وسلم على الاتفاق بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ليستشيرهما بالاتفاق فقالا له: "يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب. فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قوى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت وذاك"(6).

أليس في كلامهما سعد وسعد الألم والشكوى "أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا" لقد تبرع الأنصار بأموالهم لله، تقاسموها مع إخوانهم المهاجرين، وهبوها للإسلام كما وهبوا أرواحهم بإرادتهم ولكن ليس بالقوة، أفبعد الإسلام يعطون لعدوهم بالقوة أموالهم. كان الإيمان وعزة النفس يمنعهما من الرضى، وكان الامتحان كبيراً. ولو قال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم أعطوا لأعطوا. ولكنه لحكمة شاورهم، ربما ليتيقن من صلابتهم، وكان بعض المسلمين من الأنصار قد خافوا الحرب فطلب أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسمح

لــه مع قومه بالانسحاب قائلاً: "يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك عــن مــلأ مــن رجال قومه. فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المديــنة"(7) وقــال معتب بن قشير وهو أحد المسلمين الذين شهدوا بدراً، وقد أقلقــته الوســاوس وجوع المسلمين وسوء أحوالهم: "محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن علي نفسه أن يذهب إلى الغائط"(8) وربما كان له العذر لأن الإيمان لا ينسجم دائماً مع منطق حسابات العقل بدون شفافية ومعرفة بعلوم النبوة وإلهاماتها.

كــانت الإشــارات الإلهية تتوالى قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعــد بعثــته لمن يفهم لغة الإشارات. فقد كان على عبد المطلب أن يبر بقسمه وأن يضــحي بعبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم وفاء لعهده إن ولد له عشــرة رجــال وكبروا حتى يكونوا له حمى لينحرن أحدهم عند الكعبة. وحين كــبروا وجــاء بهــم ليضرب عليهم بالقداح ووضع سهماً باسم كل واحد منهم، خرج سهم عبد الله الذي سيكون والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا أن قريشــاً منعت عبد المطلب من التضحية بعبد الله وتم فداؤه حسب نصح العرافة بالإبل التي بلغت المائة لتغير مجرى التاريخ الإنساني كله. ولكن ما حدث لمن يعــرف كــان مــن جمــلة الإشارات والمقدمات لما سيحدث قبل ولادة الهادي المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وكــان اللغز الثاني قدوم أبرهة لهدم الكعبة في عام ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ولد الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لأثنتي عشرة ليــلة خــلت من شهر ربيع الأول. وقد ذكر في التواريخ أن الفيل جاء مكة في المحــرم، وأنه صلى الله عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوماً. فكان قــدوم جيــش أبــرهة والنكبة التي أصيب بها حيث قضي على الجيش بمرض الحصــبة المفــاجئ بعد أن وصل إلى تخوم مكة ونزل في مراعيها مما جعله يصــيب إبل عبد المطلب ويحتجزها ثم تخلى عنها بعد زيارة عبد المطلب. كل هــذه الحوادث التمهيدية كانت إشارات لها دلالاتها التي لا يمكن أن تفهم بدون الــنظر إلى صاحب الرسالة المختار محمد صلى الله عليه وسلم المعتنى به من الله. فقــد أسهم مصير جيش أبرهة وما آل إليه في رفع مكانة الكعبة في أنظار العــرب، وراحــت كــلمة عبد المطلب التي سخر منها أبرهة تدوي في أرجاء الجزيــرة العــربية "إن للــبيت رباً يحميه" بعد أن شاهدوا وسمعوا بما آل إليه مصــير الجيش الذي أراد أن يهدم الكعبة. كان عبد المطلب قد جاء إلى أبرهة

الحبشي بعد أن وصل جيشه لتخوم مكة واحتجز له مائتي بعير. ولما قابله سأله عن حاجته فقال "حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلــك قـــال أبرهة لترجمانه، قل له: كنت قد أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبـــائك قــد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه. قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه قال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك"(9).

كـــانت زيارة عبد المطلب قد طمأنت أبرهة على سلامة جيشه بعد ان تأكد من حواره مع عبد المطلب إلى خلو الكعبة من أي مدافعين عنها. لهذا رد الإبل لعـــبد المطلب لئلا يواجه أي مقاومة، وهيأ جيشه لتنفيذ هدفه الذي بدا له سهلاً. ولكـــن مفاجـــأة أبـــرهة كانت لا تقل عن مفاجأة العرب فقد بدأ المرض يحصد الجيش، وأصيب أبرهة نفسه بالمرض فأمر جيشه بالعودة إلى صنعاء التي كان يسيطر عليها، ولم يمت حتى شاهد بعينيه مصير جيشه وقد حصده الموت، مما رفع مكانة الكعبة في أذهان العرب وقد تأكد لهم "أن للبيت رباً يحميه". كما رفع مكانـــة قريش لجوارهم للحرم بشكل عام ومكانة بني هاشم بشكل خاص لتوليهم خدمة الحرم. وكان الله يمهد الطريق للإسلام وللرسول بما هيأه من أسباب لرفع مكانة الكعبة، وبما هيأه من مجاورين للحرم إمتازوا بالسخاء والكرم والشجاعة، فكـانت قريش موضع نظر العرب ورمز سيادتها رغم جاهليتهم التي لم تمنعهم مـــن اخـــتيار الأخـــلاق الفاضلة، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما ولدتـــني بغيٌ قط منذ خرجت من صلب آدم، ولم تزل تنازعني الأمم كابراً عن كابـــر حـــتى خرجت من أفضل حيين من العرب: هاشم وزهرة"(10) وكان ما كـــان مـــن تطور الحوادث على الأحباش بعد ذلك حيث قضي على ملكهم في اليمن بتعاون سيف بن ذي يزن مع الفرس.

إن كـــل من يحاول أن يقرأ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والأحداث المحيطـــة به سيكتشف في كل مرحلة إشارة من الإشارات التي تدل على وقوع حدث خطير. فقد كان التاريخ يتهيأ والرسول صلى الله عليه وسلم يهيأ لحدوث هذا الأمر العظيم. لقد اختلف زعماء قريش وهم يعيدون بناء الكعبة على وضع الحجـــر الأسود في مكانه لمكانته عندهم، ولم يتوصلوا إلى قرار يرضيهم حتى اقـــترح أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أن يحكموا أول من يدخل من باب الكعبة. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الداخلين فقالوا "هـــذا الأمين رضينا، هذا محمد". كان الرسول صلى الله عليه وسلم مشهوداً له

بالأمانة بينهم وهي سبب خطبته من خديجة بنت خويلد نفسها رغم فقره وغناها. وكانت المفاجأة التي لم تخطر لهم على بال أنه اقترح حلاً يرضي الجميع حين عرضوا عليه مشكلتهم، فقال: "هلم إلي ثوباً، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده. ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً. ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه"(11) كان عمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت خمسة وثلاثين عاماً. كان الاشتراك في بناء الكعبة شرفاً بحد ذاته. أما وضع الركن في مكانه فقد كان شرفاً خاصاً تنازعوا عليه حتى جاء الرسول فأطفأ نار هذا النزاع، وحظي بالشرف الخاص الذي تسابقوا عليه، فبدت لهم حكمته التي فاقت حكمة كل من حوله، وظهرت جدارته فوق ما يعرفون عنه. فكان التاريخ يسير والمصادفات تأتي، لمن يريد أن يعتقد بالمصادفات، لإبراز الحكمة التي حظي بها هبة إلهية حتى قال "أدبني ربي فأحسن تأديبي"(12) ولهذا شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم ما زوي له من الدنيا، ورأى من أحداث التاريخ المتلاحقة ما أخبرنا عنه. لتصح له السيادة على الإنسانية بما علم وعلّم وأخبر حباً بالعباد ورحمة بهم لئلا يكونوا من أصحاب النار. لهذا كان إرساله من باب الرحمة فقال الله **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(13).

لقد أراد كسرى وهو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان أن يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، وكثيرون حاولوا ذلك وأخفقوا فأرسل كتاباً إلى عامله على اليمن باذان، وكانت اليمن كما مر معنا قد وقعت تحت سيطرة الفرس، جاء فيه: "إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة، يزعم أنه نبي، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب، وإلا فابعث إلي برأسه". فبعث باذان بكتاب كسرى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا" فلما وصل الكتاب إلى باذان توقف لينظر وقال: "إن كان نبياً فسيكون ما قال"(14) ثم جاءت الأنباء إلى باذان بقتله على يد ابنه شيرويه ليلة الثلاثاء لعشر من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة. لهذا أرسل باذان بوفد من العرب والفرس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الإسلام في السنة العاشرة للهجرة بعد أن أقنع من حوله من أصحاب الرأي ولهذا دخلت اليمن الإسلام بدون حرب.

لقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه حدود تحركات المسلمين وجولاتهم في المستقبل كما رآها، وأخبرهم بما سيفتح عليهم من

البلدان كما رأينا من نصوص الأحاديث.

ولم يكد ينتهي العقد الثاني من الهجرة النبوية حتى كان المسلمون قد فتحوا بـــلاد الشام ومعظم بلاد فارس. ففي خلافة أبي بكر الصديق عام 11-13هـ / 632-634 م وجـــه أبو بكر الجيوش لإمبراطوريتي الفرس والروم وتابع عمر بن الخطاب سياسته بعد أن تولى الخلافة من 13-23هـ /634-644م ففتحت دمشـــق أواخـــر عام 13هـ والقدس سنة 16 والاسكندرية عام 21هـ ونهاوند عـــام 21هـ وقتل يزدجرد الثالث سنة 31هـ في خراسان آخر ملوك الفرس. وكـــان رستم قد قتل في وقعة القادسية عام 15هـ وقد قال الرسول صلى الله عـــليه وســـلم لأصحابه "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصـــر بعـــده. والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله تعالى"(15) كان رســـتم قـــد قال للمغيرة بن شعبة جين جاء يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحـــرب "والشـــمس والقمـــر لا يـــرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين" فقال المغيرة "لا حول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه"(16).

لقـــد كـــان ذهول المسلمين الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وســـمعوا منه حين جاءتهم أخبار الفتوحات لا يقل عن ذهولنا ونحن نستمع إلى هـــذه الأخبار ونقارنها بحقائق العصر السياسية فتنبو عن المقارنة. هؤلاء الذين حوصـــروا في مدينتهم في السنة الخامسة كيف تمكنوا من توجيه ضربة واحدة لأكـــبر إمبراطوريـــتين في ذلك الوقت. لو حقق المسلمون بعض الانتصارات فقـــط، ربما كنا سنظن بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوي المعنويات بمـــثل هذه الوعود. لو صدقت بعض النبوءات دون بعض سيكون من حقنا أن ننظر إلى هذا الكلام على أنه رفع للمعنويات. ولكن أي نبوءة لم تتحقق؟ عندما نقـــرأ كل النبوءات ونشهد تحققها على الأرض لن يبقى لنا أي حق في الجدال في أمور لا يعلمها إلا الله. ولو كان مثل هذا العلم يمكن تعلمه بالقراءة والكتابة لتعـــلمه أغـــلب الناس. ومع ذلك فإنه علم العابدين لله الممتثلين لأمره. ولهذا لا يقـــدح فـــي صحة هذا العلم أن يعرفه أناس ليسوا من الرسل. وقد قال الله "**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾**(17).

ولـــم يخصـــص الذيـــن قد يحيطون هل هم من الرسل أو غيرهم، كما لم يخصـــص مســـتوى الإحاطة فهو الذي يعطي ما شاء لمن شاء من علمه. فعلم الغيـــب عـــلمه. ومع ذلك فالوصول إليه بالأسباب وهذا من عدل الله. فكل من عـــرف معنى العبودية وعمل بما تقتضيه سيكون له نصيب من هذا العلم على

قــدر إمتثاله للأمر والغوص فيه لربط العقل المصنوع بالصانع والاستمداد منه. وبمـا أن الرسـل كانوا أكثر عبودية من غيرهم لهذا كان حظهم أكبر في هذا المجـال مـن الأنبياء. وكان حظ الرسول صلى الله عليه وسلم. أكثر من كل الرسـل لأن عبوديته بلغت الذروة التي لايستطيع أي إنسان أن يتجاوزها، لأن الاستعدادات الإنسانية لها حدود. وقد بلغت هذه الاستعددات ذروتها في الرسول صـلى الله عليه وسلم قد يقول قائل: إن جهاد بعض الأولياء وعبادتهم فاقت كل عـبادة ممكنة، ومع ذلك فإنهم لم يتوصلوا إلى العلوم التي توصل إليها الرسل. وقد يكون هذا صحيحاً بالظاهر لأن هذا العلم لا يوصل إليه بعبادة العابدين ولا بعـلم العالمين، وإنما بنور الإيمان وصدقه. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسـلم لعمـر بن الخطاب حين أراد أن يسبق أبا بكر: "يا عمر! وترت قوسك بغيـر وتـر، مـا بيـن صدقتيكما كما بين كلمتيكما"(18). والسبق ثمرة سباق المتسـابقين، والمتسابقون كان منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. ولكن أبا بكر كان سباقاً، وقال عنه عمر "لا أسبقه إلى شيء أبداً" فقد ورد في حديث عن عمر بن الخطاب قال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مـالي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله وأتى أبـو بكـر بكـل ما عنده. فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ فقال أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً" (19) وكان من المتسابقين أناس فرغوا أنفسهم للعبادة في المسجد فأخرجهم عمر كي يعملوا قائلاً: "إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة"، وكانوا يظنون أنهم سيسبقون بهذا التفرغ. وربما غاب عنهم أن العمـل عـبادة. ولهذا حدد الرسول صلى الله عليه وسلم السباق بالشريعة فقال حين جاءه الشبان الثلاثة وقرروا أن يعبدوا الله بما لم تأمر به الشريعة كما جاء فـي الحديث: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي صـلى الله عـليه وسـلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي صـلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم: أما أنا فأصـلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنـتم الذيـن قلـتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطـر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"(20) فالاقـتداء يتطـلب مـتابعة المقتدى به، بمعرفة أعماله وأقواله للمقتدي ليتحقق الوصول وإدراك سر الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان وسر خلافته وعبوديته.

لأن سر العبودية هو من أسرار العلم. فالإنسان لا يخضع بشكل إرادي إلا لمن هــو أعــلم منه وأعظم. وطالب العلم يطيع أستاذه لما يراه من علمه وحرصه عــليه. وحيــنما يــتجاوز علم أستاذه لا يطيعه وإن احتفظ بوده. وكل إنسان لا يعرف قدر من هو أعلى منه إلا من حقيقة معرفتهّ بالعلم والعالم. لهذا فإن عالم الفضاء يعرف عظمة علماء الفضاء، ولكن النجار لا يعرف عنهم شيئاً ولهذا لو جاءه عالم فضاء سيتعامل معه كزبون عادي وإن أثر فيه الاسم. بينما لو شاهده تلميذه قد يستغرب لذهوله أن يراه يتحدث إلى نجار لما يعرف من عظمة علمه. ولهذا لا تتحقق العبودية بدون المعرفة. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إني لأخشاكم لله وأتقاكم له" وقال "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً وبكيتم كــثيراً"(21) واخــتار بما له من المعرفة العبودية المطلقة لله بالتزامه بما أمر. لهــذا لا يتجــنب المسلم الجاهل بعض المحرمات وإن صلى وصام. ولو عرف آكــل لقمـــة الحرام ضررها لما أكلها، ولو لم يعرف وأطاع الشريعة لاتنفع من طاعــته، لأن كــل جســم نبت من الحرام فالنار أولى به كما جاء في الحديث الشــريف. والــنار في الدنيا والآخرة لها إحراق، ولكن لا يرى ما تفعله غير العــالم أو المصدق. لهذا قاتل المسلمون مع الرسول صلى الله عليه وسلم دفاعاً عــن المديــنة وهم واثقون من النصر. ولكنهم لم يقاتلوا لينتصروا على هرقل وكســرى أو ليســتمتعوا بأموالهم، وإن استمتعوا، وإن وجد بينهم من قاتل لدنيا يصــيبها، فــنحن إنمــا نتكلم عن الخواص لا العوام، وكان الخواص على هذا المــنوال يقاتــلون لتكون كلمة الله هي العليا. لقد أحزنهم في صلح الحديبية أن يعــودوا إلى المديــنة بدون أداء الحج، وأن يوقع الرسول صلى الله عليه وسلم عــلى معاهدة لا تساوي بين حقوق المسلمين والمشركين. إذ كان من بنودها أن يعيد الرسول صلى الله عليه وسلم كل مسلم من أهل مكة إلى ذويه. بينما كانت قــريش غير ملزمة بإعادة المرتد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا جاء عمــر بن الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله "ألست رسول الله.. أوليســوا بالمشركين.. أولسنا بالمسلمين – والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لـــه: نعم فقال عمر "فعلام نعطى الدنية في ديننا، فقال صلى الله عليه وسلم: أنا عــبد الله ورســوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني"(22) كانت أعمال الرسول صــلى الله عــليه وسلم ورؤاه تحير أقرب الناس إليه وتكشف عن معنى العناية الإلهيــة بالإنســان الخليفة الذي كانت تظهر على يديه القدرات الخارقة ألتي لم يعــرفها البشــر في ماضيهم أو حاضرهم، ولهذا حاروا بين ظهوره بالصورة البشــرية، وبين قدراته الخارقة التي قاسوها بمقاييسهم. وهو أمر محير لا طاقة

للإنسان بمعرفته وقبوله بسهولة. وقد تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لما يشبه هذا الموقف في بداية أمره حين جاءه الوحي ثم انقطع عنه حتى حزن حــزناً دفعه إلى التفكير في التردي من شواهق الجبال. فكان كلما خطر له مثل هذا الخاطر "تبدى له جبريل. فقال: يا محمد: إنك رسول الله حقاً"(23) ثم جاءه الوحــي بعــد ذلك بسورة الضحى التي بدأت بتأكيد الله للرسول صلى الله عليه وســلم بأنه ما تركه ولا أهمله **﴿والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك ومــا قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** (24) ولهــذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعذر قومه ويجادلهم بالحسنى، لمعرفته بجهل من يجادلهم بأمر الوحي وأسراره وصعوبة التصديق به، بعد أن ذاق الرســول صــلى الله عــليه وســلم نفسه مثل هذه الحيرة كما رأينا. فالعلم بالوحي أمر عظيم لا تطيقه كل العقول، وإن كانت براهينه تتتابع أمامهم بإخبار الرســول صلى الله عليه وسلم للناس عن بعض شؤونهم أو أفكارهم. ولهذا آمن المؤمــنون بالوحي من الله، ونسب الكافرون علم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الســحر، لأن الكافرين بالغوا في اعتقادهم بما يجب على الرسول أن يفعله فيمــا لو كان صادقاً فضلوا. ولهذا سألوه أن يرقى في السماء، أو أن يفجر لهم جــنات وأنهــاراً، وأن لا يحتاج إلى العمل والكفاح. فقالوا: **﴿ما لهذا الرسول يــأكل الطعــام ويمشي في الأسواق﴾**(25) لقد ضللتهم مبالغاتهم في تصور إمكانيــات من ينسب نفسه إلى الله، فلم يفهموا حقيقة الرسول كعبد، وحقيقة الله المالك، وبدا لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضــراً إلا بإذن الله، فهو ليس بالرسول، وإنما هو بشر مثلهم وإن تميز ببعض المــزايا الخارقة. وظن بعضهم أن الله لا يمكن أن يختار رسله من بين البشر. والرسول كما عرفوه فهو منهم ويتكلم بلغتهم ويستخدم حروفهم ومنطقهم، فكيف ســيؤمنون بــه وهو يشبههم. لقد إلتبس عليهم الأمر فقال لهم الله **﴿ولو جعلناه مــلكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾**(26) ولكنهم لم يفهموا سر الامــتحان الإلهي في دنيا الكفاح والمعاناة للوصول إلى الجزاء في الآخرة التي التبس عليهم أمرهم أيضاً.

مــن يدقــق في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بنور البصيرة ليقرأ ما وراء الكلمات ستبدو له حقائق غابت عنه وهو يقرأ ببصره ويلجأ إلى القواميس لفهــم معــاني أقواله. لأن كلامه صلى الله عليه وسلم لا تحيط به القواميس ولا شــروح الشــارحين، لأنــه المعجزة الكبرى في ذرية آدم فكيف سيعرف وكل

الذريـــة دونـــه في الخلق والعلم وإن تشابهوا في الخلقة. تتبع المشركون حياته وبحـــثوا عـــن هفـــوات له قبل النبوة لإعلانها والاحتجاج بها لمنع دعوته من الانتشـــار، وكانت حياته وحياة كل مكي معروفة منذ الطفولة إلى آخر لحظات العمـــر. فمكة كانت قرية كبيرة وكان كل إنسان فيها يعرف الإنسان الآخر على عادة أهل القرى اليوم. وكانت كل عائلة تسجل على العائلات الأخرى أخطاءها للتشـــهير بها عندما تدعو الحاجة إلى التشهير. وقد فتشوا وبحثوا ورجعوا إلى أيـــام طفولـــته الأولى وكان من الذين فتشوا عمه أبو لهب الذي كان قد خطب ابنتيه إلى ولديه عتبه وربيعة، ثم تركهما بعد أن ظهر أمر نبوته صلى الله عليه وســـلم ومع ذلك لم يكتشفوا تهمة واحدة تسيء إليه، فاتهموه بالسحر عندما رأوا مـــا لم يفهموه. ومن أخلاق الجاهلية فيما يبدو قول الصدق وتجنب إتهام الخصم بمـــا ليـــس فيه مما نفتقر إليه في حياتنا المعاصرة في المعاملات بين المسلمين أنفسهم. وهذه الأخلاق هي التي دفعت أخت عمرو بن ود إلى القول في وصف قاتل أخيها علي بن أبي طالب يوم غزوة الخندق، مع إن عمرو كان يقوم بألف فارس:

لـــو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيـــته أبـــداً مـــا دمـــت فـــي الأبد

لكـــن قاتلـــه مـــن لا نظير لـــه وكـــان يـــدعى أبـــوه بيضـــة البلد

هـــذا هـــو المجتمع الذي جاءه الرسول صلى الله عليه وسلم ليرتقع به إلى الـــذروة بما فيه من الأخلاق، وبما سيضيفه الإسلام إليه. مجتمع الكلمة والفخر بالأنســـاب والـــبطولة والكرم. حتى أن هنداً زوجة أبي سفيان حين جلست بين النســـاء لتبايع على الإسلام وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من شروط هذه المبايعة "وأن لا تزنين" تساءلت مستغربة وكأن هذا الأمر من البديهيات " وهل تزني الحرة.." وما أكثر المناسبات التي تدعو للتأمل في حياة الرسول صلى الله عـــليه وسلم وفي حياة مجتمعه، الذي سينطلق خلال أقل من عقدين من الزمان لتقويض أعظم الممالك القائمة في ذلك العصر، وهما مملكتا الروم والفرس كما تنـــبأ العـــالم بالـــتاريخ وحوادثـــه. فقال لأصحابه عندما جاؤوا يشكون إليه ما يتعرضـــون لـــــه مـــن العـــذاب "ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صـــنعاء إلى حضـــرموت لا يخشى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون"(27).

ومشى الراكب بين صنعاء والمدينة وبين مكة والمدائن، ومن المدائن إلى الاسكندرية لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه. كان الرسول صلى الله عليه

وسلم قد أوصى أصحابه بأهل مصر خيراً عند فتحها فقال لهم: "إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقطبها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة"(28) وفي حديث آخر "الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله"(29) وقد نقل عمروّ بن العاص هذا الحديث إلى زعماء النصارى وأساقفتهم عندما اجتمع بهم ليخيرهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب فقال لهم: "لقد أخبرنا نبينا أن مصر ستفتح علينا، وأوصانا بأهلها خيراً فقال: ستفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً. فإن أجبتمونا إلى ما ندعوكم إليه كانت لكم ذمة إلى ذمة" فقال أحد الأساقفة: "إن الرحم الذي أوصاكم بها نبيكم لهي قرابة بعيدة، لا يصل مثلها إلا الأنبياء"(30) فقبط مصر بمنزلة أخوال لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. لأن هاجر أم إسماعيل كانت منهم.

لقد سارت حقائق التاريخ بحسب مشاهد النبوة. سارت بالأمس كما تسير اليوم، وكما ستسير في المستقبل إلى قيام الساعة. وإذا كان حديثنا عما تحقق مما تحدث عنه صاحب الرسالة قد وصل إلى كل عقل، وشهده كل إنسان في الشرق والغرب. فإن البقية الباقية من الأحاديث التي وصلت إلينا قد تفيد المكابر والمنكر لأن من قال كما وصف القرآن قول المشركين في ذلك الوقت **﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾**(31) لا يصح على زمننا مع تقدم العلم وانكشاف السحر وإطلاق المراكب الفضائية. المشركون السابقون لم يشاهدوا آيات التاريخ كما نشاهدها اليوم ولهذا فليس لنا العذر الذي كان لهم ونحن نشهد آيات الله ورسوله في شتى الميادين لإظهار حقيقة الرسول والرسالة بالإعجاز الذي لا يملكه البشر. وكان من آيات الرسول صلى الله عليه وسلم إخباره لأصحابه عن بعض ما سيتعرضون له في المستقبل، كما رأينا، وكما سنرى ذلك.

النبوة والدليل النفسي

في كل مرحلة من مراحل التاريخ تظهر فيه قيادة لها تأثيرها، لابد لهذه القيادة أن تترك آثارها وبصماتها على من حولها سلباً أو إيجاباً. وقد تمتد هذه الآثار والتأثير على الأجيال القادمة بقدر إخلاص هذه القيادة وحكمتها. والنبوة لا يمكن أن تؤثر في الناس إلا بالأسباب التي يقبلها العقل البشري. ولهذا فإن نجاح الرسول يتطلب كل ما يتطلبه نجاح أي قيادة سياسية في مجتمعها

ومحيطها. ولا يمكن أن يأتي الكمال إلا من الكاملين، كما أن الحكمة لا تأتي إلا من الحكماء.

ولهـذا، وإن كنا نربط بين نجاح الأنبياء والتأييد الإلهي، فإن هذا الربط لا يجوز أن يجعلنا غافلين عن فهم أسباب نجاح الرسل من كونهم بشراً تعاملوا مع البشـر بكل الحرص والحكمة التي تتطلبها القيادة الإنسانية في أرفع مستوياتها. لهـذا فإنـنا سننظر إلى أوضاع الرسل في مسيرة التاريخ الإنساني من كونهم بشراً كان لهم دورهم في حركة التاريخ. فإلى أي حد كان هذا الدور والتأثير؟

لو نظرنا إلى التاريخ نظرة عامة شاملة وأردنا أن نتذكر القادة التاريخيين، وربمـا لـن نذكـر إلا قلة منهم، الإسكندر المكدوني، وبعض قياصرة روما، والفراعنة. ولكن كل هؤلاء القادة التاريخيين لم يبق لنا التاريخ من ذكرهم غير بعض الآثار والمدن التي قاموا بإشادتها، وربما بعض الكلمات. وسنجد أشهرهم يوليـوس قيصـر الذي قتله المجلس الروماني غيلة بعد أن تحول إلى طاغية. سـنجد أن أقـرب الناس إليه كان مع المتآمرين على قتله حتى قال وهو يلفظ أنفاسـه "حـتى أنت يا بروتس". وهذا كما لا تخفى دلالته. فإنه يدل على ضيق الشـعب بحكامه كلما طالت أعمارهم أو فترة حكمهم. وأما الاسكندر المكدوني فقـد مات شاباً ولهذا لم يضطر رفاقه إلى تنحيته بالقوة. وإذا نظرنا إلى أحوال الصـراع بيـن قادة الفرس فكم سنجد من حوادث الغدر، الولد بأبيه، والمرأة بـزوجها. وإن تـاريخ الـرومان حافل هو الآخر بهذا النوع من الاغتيالات والانقلابـات وسـمل عيـون الحكام وإعدامهم، ولعن كل حاكم لمن سبقه من الحكام. وبعضهم لم يتورع عن قتل أمه ومنهم نيرون قيصر روما. وإذا نظرنا إلى قيـادة هـؤلاء فـلن نجـد واحداً منهم زاهداً في الدنيا، بل كلهم أكل منها وشرب، حتى الثمالة، واستمتع بكل ما أتاحه له عصره بدون أي رادع أخلاقي أو ديـني حـتى عندما كان يدعي الإيمان. وإذا أخذنا مثال شارلمان الذي كان معاصراً لهارون الرشيد، والذي استمر حكمه سبعاً وأربعين سنة تقريباً من عام 768م إلى وفاته في عام 814م. فإننا سنجد هذا الملك الملقب بشارلمان العظيم، والـذي "كـان أعـدل الحكـام الذين عرفتهم أوربا منذ عهد ثيودريك القوطي وأكـثرهم استنارة"(1)، كما يقول ول ديورانت، سنجد هذا الملك المتحمس لنشر المسيحية، بل إن "أشد ما كانت قسوته فيما بذله لنشر الدين المسيحي"(2). سنجد أن هذا الملك المسيحي قد ضرب عرض الحائط بالأخلاق والقيم المسيحية حين نسـتعرض حياته الشخصية، وإن كان لا يأكل طعامه قبل أن يباركه الأسقف.

فهـذا المـلك كما يقول عنه ول ديورانت: "بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الـزواج، وقـال إنـه لا يطيـق فراقهن، ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتمـاء فـي أحضـان العشـاق، وجئن بعدة أبناء غير شرعيين. وقد قابل شـارلمان هـذه الأعمال منهن بنفس سمحة، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسـلافه، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى، وأربع عشيقات أو حظايا... وقـد ولـدت لـه نسـاؤه نحـو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شـرعيون.وغض من في حاشيته ومن في روما من رجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحي مثله من قيود الأخلاق المسيحية"(3). هذا هو شارلمان الذي كان على رأس "دولة أعظم من الامبراطورية البيزنطية لا يعلو عليها في عالم الـرجل الأبيـض إلا دولـة الخلفاء العباسيين"(4). والذي كان قاسياً في نشر المسيحية، التي أعفى نفسه منها. فالحكام على هذا المنوال كانوا يأمرون الناس بـالأخلاق الحميدة ولكنهم غالباً كانوا يفعلون غير ما يقولون، لهذا كان تأثيرهم في التاريخ لا يعدو عصرهم. وكان المؤرخون غالباً، بل أقرب الناس إليهم، هم الذيـن يقومـون بنبش ماضيهم للكشف عن انحطاطهم وانحرافاتهم عن الطريق المسـتقيم. وإذا أردنا أن نذهب إلى تاريخنا المعاصر الأقرب إلينا لإلقاء نظرة عـلى أصـحاب القضـايا، ودعـاة الإصلاح أو الثورة، فإننا سنواجه في حياة المصلحين والثوريين زيفاً وتناقضاً بين أقوالهم وأفعالهم، لا يقل عما وجدناه في حيـاة شارلمان. فالمصلح كان مصلحاً في خطاباته وفي تطبيقاته على الشعب. والاشتراكي كان اشتراكياً في المهرجانات والإذاعات. ولكنه لم يتورع عن قتل الـناس الذيـن اشتبه بمعاداتهم للاشتراكية أو الماركسية كما رأينا في الأنظمة الشـيوعية. أمـا حيـاة القـادة فكانت مفتوحة إلى أقصى الحدود على الترف والمـلذات والحياة غير الاشتراكية، لأن المبادئ كانت بالنسبة للقادة زاد الحمقى الذيـن لا زاد لهـم. ولهـذا أسقط ستالين عشية سقوطه، وسقط غيره من كبار الحكام وصغارهم، كما سقطت ثوراتهم وثوريتهم. وصار سلاح العصر لضبط خـداع الحكـام ومكـرهم هو الديموقراطية ورقابة الشعب، لأن رايات الإيمان والمعـتقدات والشـعارات أحبطتها حياة الحكام الذين كانوا يقولون ولا يفعلون، قـبل أن يحبطها هجوم الأعداء في الخارج. ولهذا سقطت الشيوعية كما رأينا، كمـا سقطت الثورة الفرنسية من قبل بأيدي الثوار أنفسهم. إزاء هذا الواقع الذي عاصرناه أو قرأنا عنه لابد أن نتساءل عن سر بقاء الأديان وارتفاع الرسل إلى مسـتوى القدسـية رغـم انحطاط الأخلاق، وانحسار الأديان. لماذا بقي موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلوات والسلام رموزاً ساطعة في تاريخ البشرية. كما

بقي بوذا وكونفوشيوس على هذا المستوى من السمو في قلوب شعوبهم.

لمـــاذا كان تلاميذهم الأقرب إليهم أشد تعلقاً بهم، بينما كان الرفاق الأقرب لـــلقادة التاريخيين يتنصلون منهم ومن أعمالهم، ولا يتورعون عن توجيه النقد إليهم ليس بسبب أخطائهم السياسية، بل لما كانوا عليه من التناقض بين خطابهم السياســـي وحياتهم الشخصية. وربما كانت مصالح بعض نقادهم لا تقل سوءاً عـــن مصـــالح القـــادة الذين وجهوا إليهم اتهاماتهم، حتى بتنا رغم كثرة وسائل الإعـــلام لا نعرف الحق من الباطل في نقد الناقدين لتعارض الناقدين إلى درجة لا تصـــدق بسبب سيادة المصالح، والتخلي عن الصدق لحساب أرباح الدعاية، ممـــا جعل الكلمة سلعة من سلع التجارة، التي تقال لنصرة باطل لا خلاف عليه أحيانـــاً. إنـــنا أمام هذه المسائل الشائكة ولعن الآخرين للسابقين، ولعن الشعوب بحســـب ولائهـــا للجميع، لابد أن نقف لنتأمل الأسباب التي وضعت الرسل في المكـــان الأرفـــع بيـــن رجال التاريخ، فلم يتعرضوا إلى ما تعرض إليه القادة والسياســـيون حيـــن امتلكوا السلطة، وقد وصل إخلاص أصحابهم لهم إلى حد فدائهم ليس بالمال وإنما بالروح في حياتهم وبعد وفاتهم. ولكي لا نتحدث بدون ســـند فإنـــنا ســـنقدم بعـــض الحوادث للدلالة على مظاهر هذا الولاء من أقرب المقربين إلى الرسل صلوات الله عليهم. ونحن نريد أن نعتمد على سلوك أقرب المقـــربين لأن المقربين هم الذين كانوا ينقلبون على قادتهم دائماً قبل الآخرين، ليـــس بســـبب حب المقربين للتآمر، ولكن لأنهم كانوا يعرفون بسبب قربهم من قادتهم أسرار هؤلاء القادة وخيانتهم لمبادئهم. ولهذا كان من الطبيعي أن يخونهم الذيـــن مـــن حولهم في حياتهم أو بعد مماتهم. بينما ظل أتباع الرسل محافظين عـــلى ولائهـــم وإيمـــانهم، فـــتلاميذ موسى عليه الصلاة والسلام حافظوا على إخلاصـــهم لإيمـــانهم، وظل موسى بالنسبة لليهود قدوة عالية لا يختلفون عليه، وإن اختلفوا على تفسير التوراة أو على تطبيقها كما فهموها وفسروها.

ونحـــن لا نـــريد أن ندخـــل فـــي سلوك اليهود ولكننا نستطيع أن نلاحظ اجـــتماعهم عـــلى احترام موسى عليه الصلاة والسلام والأمر لا يختلف بالنسبة للمســـيحيين فـــي رؤيتهم للمسيح عليه الصلاة والسلام الذي غاب عن تلاميذه وهـــو فـــي الثالـــثة والـــثلاثين، فحمل الحواريون رسالته إلى العالم ونشروها، وتحملوا المشاق الكثيرة من أجلها.

ورغـــم أن موســـى وعيســـى عـــليهما السلام قد ظلا مثل أسطورة نظراً لـــلظروف الغامضـــة التي مرا بها في حياتهما. إذ هرب موسى عليه الصلاة

والسلام من مصر وعاش عند النبي شعيب ثم عاد إليها بعد حوالي عشر سنوات ليدعو إلى الله. كما أن حياة المسيح عليه الصلاة والسلام يكتنفها الكثير من الغموض إذ جاءت الرواية عن حياة المسيح عليه الصلاة والسلام في الأناجيل لا تتعدى أربع صفحات وهي تنقل عن زواج أمه السيدة مريم العذراء من يوسف النجار، وإبلاغ الله ليوسف في الرؤيا بحمل مريم قبل أن يتزوجا من الروح القدس، ثم ولادة المسيح عليه الصلاة والسلام وهرب يوسف به مع أمه إلى مصر خوفاً عليه من القتل في زمن حكم هيرودس لفلسطين بأمر الله. ثم تنتقل الرواية وتتحدث فجأة عن ظهور يسوع في الجليل وانتقاله إلى الأردن للدعوة إلى الله. ونحن وإن كنا لا نشكك في نبوة المسيح عليه الصلاة والسلام، إلا أننا نلاحظ شدة غموض حياته وجهل أقرب الناس إليه بها. ولهذا كانت حياة المسيح عليه الصلاة والسلام شبه أسطورية، وكان بإمكان كل شخص أن ينسج حولها الكثير من التصور والقصص بخلاف حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانت حياته واضحة كل الوضوح، وكان بإمكان كل باحث تتبع هذه الحياة من بدايتها إلى نهايتها بدون أي خلاف ذو أهمية بين الروايات المتعددة التي تحدثت عن حياته وحياة أجداده، لنتأكد من حقيقة مروره بالأصلاب الطاهرة، ومن علو مكانة بني هاشم وبني زهرة بين قبائل العرب بما كان لهم من الأخلاق والقيم، مما أدى إلى اتفاق عرب مكة إلى تسليم بني هاشم سقاية الحاج، لشرفهم ومكانتهم في قريش. وإن وضوح حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قد أتاح المجال لمن حوله وهم من أترابه الذين عاصروه وعرفوه قبل النبوة أن يختاروا بين تأييده أو معارضته تبعاً لمعرفتهم به، وأحوالهم العقلية والخلقية. وقد عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان منذ بداية دعوته إلى نهايتها وهو يدعو إلى عبادة الله الواحد، والزهد في الحياة. وما كان لديه أي غنائم أو وعود بهذه الغنائم إلا في الحياة الأخرة، مما يعني أن الدين سيؤيدونه لن تكون لهم أي غايات دنيوية. ولو كان الذين سيتبعونه لديهم أي قدر من الطعن في سلوكه، أو الشك في كلامه لن يختاروا إتباعه والإيمان بنبوته على معتقدات ألفوها، وهم على قدر من النضج والمعرفة والشأن في قومهم. فلو استعرضنا أسماء الرجال الأوائل الذين آمنوا به سنجدهم على قدر من الوعي والمكانة في قومهم والأخلاق بحيث لا يمكن أن يخطئوا في اختيارهم.

وكما قلنا فإن هؤلاء كانوا على معرفة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الولادة إلى اللحظة التي سمعوا فيها بنبوته. ويجب أن نضيف إلى أحوال الناس النفسية في كل العصور تسابق الأتراب فيما بينهم، والغيرة الإنسانية

الطبيعية بين أهل البيت الواحد، مما يحول دون القبول أو التسليم لأحد أفراد العائلة الواحدة بالزعامة أو حق القيادة، إلا لأسباب خارقة للعادة. ولهذا قيل "لا كرامة لنبي في وطنه"، لأن حياته معهم وألفتهم له تجعل كل ما يأتيه بينهم طبيعياً، ولا يبرر له المطالبة بأي حقوق تختلف عن حقوقهم. وإذا أضفنا إلى هذه العوامل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم في قوم، كانت إنفتهم تدفعهم إلى التقاتل على أي مظهر من مظاهر التفاخر كما رأينا في قصة خلافهم على رفع الحجر الأسود. وأضفنا شدة افتخارهم بالأنساب والولاء لأجدادهم. فإن كل هذه العوامل ستجعل من العسير على سليل بني هاشم إقناع أبناء العائلات الأخرى باتباعه، كما ستجعل حتى أبناء عمومته من بني هاشم معارضين له، لأن الزعامة المألوفة كانت قد وصلت إلى أبي طالب وهم الذين سيرثونها بحكم الأعراف القبلية والعادات. إن كل هذه الأمور التي تدعو إلى التأمل لا تسمح للرسول صلى الله عليه وسلم بنجاح دعوته بين أبناء عمومته وأترابه من أهل مكة بدون رؤيتهم لأمر خارق للعادة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أخلاقه أو فيما يدعو إليه. وقد اجتمع للرسول صلى الله عليه وسلم كل هذه العوامل ولهذا سنجد أول الرجال مبايعة له أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد إسلام زوجه خديجة وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة. وهؤلاء ربما يطعن الطاعنون في صحة معرفتهم بالدين لصغر سنهم، ماعدا خديجة، وكونهم من بعض أهله. ولكن أبا بكر كان يماثل الرسول صلى الله عليه وسلم في العمر تقريباً وكان من الرجال المعروفين بخبرته في التاريخ والأنساب، وكان قومه يألفونه لعلمه وتجارته وحسن معاملته. ومثل أبي بكر لا يمكن أن يبايع الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام والتبعية بدون أسباب وجيهة مقنعة لديه. وقس على ذلك الذين بايعوا على الإسلام من أهل مكة وهم من كل بطون قريش، وقد رضوا بالمعاناة والإيذاء من ذويهم والهجرة، ومن ثم الموت في سبيل الإسلام. وإذا أردنا أن نعدد أسماء الرجال الأوائل من المسلمين لكي لا نطيل فإننا سنجدهم على التوالي: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية؛ الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد؛ عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن مرة بن كعب؛ سعد بن أبي وقاص بن مالك بن عبد مناف بن زهرة؛ طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي؛ أبو عبيدة الجراح بن هلال بن أهيب بن الضبة بن الحارث بن فهر؛ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد؛ الأرقم بن أبي الأرقم بن عبد مناف بن أسد؛ عثمان بن مظعون وأخويه بن حبيب؛ عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب... ثم جاء إسلام حمزة

بـــن عـــبد المطلب وتبعه عمر بن الخطاب ليكون ختام الأربعين الذين آمنوا. فكـــان إســـلام عمـــر إيذاناً بتحدي قريش كما قال عبد الله بن مسعود عنه: "إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه"(5). هؤلاء هم الرجال الأوائل الذين شهدوا للرسول صلى الله عـــليه وسلم بالنبوة وبايعوه على الإسلام والقيادة والطاعة، وهم من أشراف مكـــة والعارفين بها. وكانت معرفتهم بمزايا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي نشـــأ بيـــنهم هي التي جعلتهم يسلمون إليه أمرهم رغم كل عوائق التربية القبلية الـــتي ذكرناها. فهل يمكن لمثل هذا التسليم أن يحدث لرجل مثلهم بدون مشاهدة هؤلاء لأمور تميز الرسول صلى الله عليه وسلم عن غيره، وترجح به على من سواه من الرجال؟..

صـــحيح إن الرســـول صلى الله عليه وسلم اضطر إلى الهجرة من مكة، ولكننا كما سنرى كان سيف الإسلام وترسه المهاجرون من قومه الذين قام على صدقهم وإخلاصهم عمود الإسلام، ولهذا كانت لهم القيادة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا السابقين الذين شبوا مع الدعوة، وشربوا من رحيقها حتى امتزج الإسلام بدمائهم وأرواحهم. إننا كلما حاولنا أن نسبر غور النفوس التي بايعت على الإسلام ستتكشف لنا قضايا لا يمكن فهمها إلا لذوي الألباب. فهؤلاء القوم حين بايعوا على الإسلام تركوا الغالي والنفيس، وقاتلوا أقرب الناس إليهم. وكأنمـــا غســـل الإسلام من نفوسهم كل نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء، فصار ولاؤهـــم لكلمة الحق، فخلقوا خلقاً جديداً حين ماتت حمية الجاهلية في نفوسهم، وحـــلت محلها حمية الإسلام. "نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بـــن عمير مقبلاً، عليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انظـــروا إلى هذا الذي نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه أطيب الطعام والشـــراب، لقـــد رأيـــت عليه حلة اشتريت بمائتي درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون"...(6). وحين استشهد مصعب رضي الله عنه في معركة أحـــد: "لـــم يجـــد لـــه شيء يكفن فيه إلا نمرة، كانوا إذا وضعوها على رأسه خـــرجت رجلاه وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعلوها مما يلي رأسه واجعلوها على رجليه من الاذخر"(7).. لـــم يعـــد الإسلام هؤلاء الرجال بأي مكتسبات دنيوية، بل كان يأمرهم بالزهد، والإخلاص، والشهادة في سبيل الإسلام. فأي عوامل نفسية أثرت كل هذا التأثير فـــي رجـــال آثروا جنة لا يعرفون عنها شيئاً ملموساً على دنيا تدعوهم لمتعها

وترفها ولهوها، وغالبية هؤلاء الرجال الأوائل الذين أسلموا كانوا من الأغنياء. كمـا أن حيـاتهم في مكة وبما ينعمون به من الحرية والأخلاق المحافظة في جاهليـتهم لا تدعوهم إلى الثورة على مجتمعهم أو التمرد عليه، كما يحدث لدى الشـعوب المضـطهدة في الدول المستبدة. فكل الظروف المحيطة بهذا المجتمع كـانت لا تدعـو إلى التغيير، بل إلى الرضا والتعغم بهذه الحياة الوثنية التي لا تحـرم إلا ما ينزل برجولة الرجل بين أقرانه. وقد أقر الإسلام نفسه بعض قيم الجاهـلية وأخلاقهـا. فكانت الشجاعة والوفاء والصدق والنجدة من بعض قيم الإسـلام، كما كانت من أعراف الجاهلية التي تهبط بالرجل أو ترفعه على قدر الـتزامه بهذه الأخلاق. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيارهم في الجاهـلية خيـارهم في الإسلام إن فقهوا"(8).. فقد كان الانقلاب الأساسي الذي جـاء به الإسلام هو عبادة الله الواحد بدلاً من عبادة الأوثان مع ترسيخ فضائل الجاهـلية بجعـلها جزءاً من العبادات. ولهذا حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبايع بعض النساء على الإسلام وكانت هند زوج أبي سفيان بينهن، وذكر من شروط الإسلام: "وأن لا تزنين".. قالت هند مستغربة: "وهل تزني الحرة يا رسـول الله"... كلما تأملنا في حقيقة الدوافع النفسية التي دفعت بالثائرين العرب إلى تـأييد الدين الجديد قبل أن يشهدوا معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، سـنجد بـأن بعض هذه الأسباب يكمن في تطور العرب العقلي، إذ كانت عبادة الأوثـان تتـناقض مـع الحقائق العقلية. كما أن بعض هذه الأسباب يكمن في حاجـات العـرب الـروحية فـي مجتمع بلغ فيه الحس الجمالي بروعة الكلمة وتأثيـرها وحكمـتها مبـلغاً دفعهم إلى إحداث مسابقات للشعر، واختيار أروع القصائد لكتابتها بماء الذهب وتعليقها في أقدس أماكن العبادة الكعبة، لتكون على هـذا المستوى من القدسية. وكان الاتفاق على قدسية الكلمة يتناقض مع بعض العـادات القبـلية التي تقضي بنصر ابن العشيرة ظالماً أو مظلوماً. فبينما كانت الـروح تتصاعد مع الكلمة بغض النظر عن قائلها، كانت الأرواح تتصدع على صـخور الانـتماء القبـلي لتحول دون بلوغ الكلمة سماءها التي وصلت إليها بالـنظر إلى أصل الناطق بها وعشيرته. وكان التسابق على الفخر بحق وبدون حـق قد أنهك الأرواح التي كانت تتسابق على استقبال الضيف بدون أن تسأله مـن أنـت، وهي سعيدة بضيفها وكرمها ورحمتها التي كانت تقدس كل صورة إنسـانية. ولهذا كانت الأرواح تتوق إلى إعطاء الأخوة الإنسانية مداها، بتفجير كل هذا التراث الذي يحول بين المرء وأخيه الإنسان في تحالف القبيلة، وتوسيع حـدوده ليشـمل الإنسانية. لهذا جاء الإسلام ليعيد إلى العقل مكانته التي كانت

تـتمرد على عبادة الأوثان، وليطلق روح الكلمة من عقالها ويخرجها من أخوة العشـيرة إلى سـماء الإنسـانية. ولهذا رضوا بالجوع والموت بعد أن شبعوا بالكـلمة وتغـذوا بها، فلم يعد الأنصار أنصاراً والمهاجرون مهاجرين بل أخوة تحـلق فـي حقيقـة انتمائها الواحد لآدم، وما يستوجبه هذا الانتماء من العدل والإنصـاف والمساواة. هذه هي المبادئ التي ألهمت النفوس وفجرت الطاقات. ولكـن كل ثورة، وكل ثوار لا يمكن أن يستمدوا من الكلمات وحدها قوة الدفع لبـناء مجتمعهم الجديد. لابد لهم أن ينظروا إلى قيادتهم المتمثلة بالرسول صلى الله عليه وسلم والمقربين منه، للتأكد بأن الكلمة التي تطير في السماء تحيا على الأرض بالمقارنـة بيـن الأقوال والأفعال. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعيـش بينهم ويجتمع بهم خمس مرات في اليوم على الأقل في صلواتهم. وكان كـل محقـق ينحـني أمام أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم كما إنحنى أمام أقوالـه. فقد كانت آثار الرسالة ظاهرة في بساطة حياته وحياة أزواجه. وحياة ابنـته فاطمـة رضي الله عنها الوحيدة التي بقيت طوال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم على قيد الحياة من بين أولاده. كانت عواطف الأبوة وعواطف الحنو عـلى الأسرة، لابد أن تقود الأب والزوج إلى تخصيصهم بشيء من المكتسبات الدنيوية ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم المترفع عن متع الدنيا أحب لابنته وأسرته ما أحب لنفسه فاختار لهم هذا الزهد، وإيثار الآخرين بما يملك، فعلمهم القـناعة والبساطة في الحياة، والنظر إلى رب الكون. في مناسبة من المناسبات جـاء علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليسألاه خادماً، وكانا قد علما أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه بعض الخدم. فقال له علي رضي الله عنه يشكو إليه مما تعانيه فاطمة: "جرت بالرحى حـتى أثـر في يدها، وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها، فلما جاءك الخادم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ماهي فيه. قال: اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضـة ربـك، واعملي عمل أهلك، وإن أخذت مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبري أربعاً وثلاثين، فتلك مائة فهي خير لك مـن خـادم. فقالت: رضيت عن الله وعن رسوله".(9). كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: " "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"(10)، فمن فهم بأن الخيـر في الدنيا أعطى لأهله منها، ومن عرف أن الخير في الآخرة حرم الدنيا عـليهم، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرأف بالمسلمين كرأفته بابنته آخـذاً بيدهم إلى الآخرة على قدر همتهم. وإن اشتكوا كما اشتكى الأنصار غداة توزيـع غـنائم حنين للمؤلفة قلوبهم. كان كل محقق يخرج من تحقيقه في حياة

الرسول صلى الله عليه وسلم وقد خذله عقله وفكره وكرمه وإيثاره وزهده عن اللحاق به فهو الشمس التي لا يسبر غورها، ولا تدرك أنوارها، والكل من حوله أفلاك تدور حوله، وتستمد منه، فأين المقارنة وأين المعاينة. لهذا كان الصحابة يتفيؤون ظله ويتكلمون بأنفاسه ليقطعوا المسافات التي تفصلهم عنه. ومع ذلك لم يصل الصحابة إلى حكمته أو رحمته أو سخائه أو شجاعته، فكان في كل مواقف الخير هو الأول. حتى في صبره على الجوع وشظف العيش والرضى بالقليل رغم الكثير الذي كان بين يديه، كان هو الأول. لهذا خضعت النفوس لأمره على قدر قربها منه ومعرفتها به. ولكن لو أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بأمر، لو نصحهم بالزهد في الدنيا، وسوغ لنفسه الاستمتاع بطيبات الدنيا التي أقبلت عليه هل سيطيعه الناس كما أطاعوه. ولو وُجد أي خلاف بين أقواله وأفعاله، بين تحذيره من الحساب في الآخرة، وتمتعه بخيرات الدنيا وملذاتها، لو سامح نفسه أو أسرته أو المقربين منه في مخالفة أبسط الأوامر الشرعية. لو تبين أنه احتفظ لنفسه ببعض الأموال من الخمس، أو من أي مصدر كان. هل ستستقيم أمور المسلمين، وهل ستظهر الشكوك في حقيقة الحساب في الآخرة أم لا..؟ ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجهل حقيقة الدنيا كطريق إلى الآخرة، ويجهل حقيقة الحساب ما الذي سيمنعه من الاستمتاع بالدنيا، بعد أن وصل المسلمون إلى حد التسابق على أخذ ماء وضوئه، أو شعره كما شاهد عروة بن مسعود الثقفي حين جاء رسولاً لأهل مكة ليفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم قبل صلح الحديبية، فعاد إليهم وقال: "يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه"... (11).. هذه هي شهادة مشرك، فمن أين وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه المكانة بين أصحابه، وهل يمكن فرض هذه المحبة بالقوة في ظروفه وفي مجتمع قبلي قوام حياته مبني على الفخر وعزة النفس؟... إننا مهما بحثنا عن أسباب هذا التأثير فإننا يمكن أن نختصره بسبب واحد، هو التطابق بين أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله. وإذا أردنا أن نبحث في أسباب سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم فسوف نجده مختصراً بقوله: "أنا أعرفكم بالله وأخشاكم له"...

من يعرف الله يخاف: "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله"(12)..

لهذا تواضعت النفوس المؤمنة لعلمها وخوفها من الله..

ربمـــا لا تكفـــي هذه الروايات لفهم حقيقة الرسول والرسالة. ولهذا سنلقي الضــوء عــلى حياة أقرب الناس إليه الصحابة الأربعة الذين كانوا الخلفاء من بعــده، وكــلهم كــانت تــربطه بالرســول صلى الله عليه وسلم رابطة القرابة والمصـــاهرة، وهــؤلاء من المهم تأمل حياتهم لأنهم وصلوا إلى أعلى مواقع المســؤولية. وكـــان موقعهم وصحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وقرابتهم تســمح لهم أن يغيروا وأن يخففوا من العبادة، وأن يستندوا إلى أحاديث وأعذار لتبرير سلوكهم كما فعل الخلفاء من بعدهم..

الخلفاء الأربعة والاقتداء

إن تتـــبع حياة الخلفاء الأربعة: (أبي بكر وعمر وعثمان وعلي) رضي الله عنهم تهمنا لعلاقتها بمسألة الإيمان أو اليقين. فهؤلاء الخلفاء كانوا أقرب الناس للرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت تربطهم معه علاقات قربى تسمح لهم بأن يعــرفوا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصرفاته الخاصة إضافة لمعرفتهم بحياته العامة.

فالخلفاء الأربعة كانوا من أول الناس إسلاماً، وكان أبو بكر قد زوج ابنته عائشـــة للرسول صلى الله عليه وسلم، كما كان عمر بن الخطاب قد زوج ابنته حفصـــة للرســـول صـــلى الله عليه وسلم، أما عثمان بن عفان فقد تزوج ابنتي الرســـول صـــلى الله عــليه وسلم تباعاً رقية وأم كلثوم. بينما نشأ علي بن أبي طـــالب في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الطفولة عندما أخذه من أبي طـــالب للتخفيف عنه، فعاش مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، وكان مـــن نصـــيبه أن يتزوج أحب بنات الرسول صلى الله عليه وسلم إليه والوحيدة التي بقيت على قيد الحياة إلى وقت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء الخــلفاء الأربعـــة ســـيتيح لهم هذا القرب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطــلعوا عـــلى تفاصيل حياته الخاصة، وهذا الاطلاع سيؤثر في سلوكهم وفي أحوالهـــم النفســـية، وسينعكس هذا التأثير على قيادتهم عندما سيصبحون خلفاء الأمـــة وقادتهـــا. فلو أنهم وجدوا أي تصرف للرسول صلى الله عليه وسلم في حياتـــه الخاصة يتناقض عما هو عليه في حياته العامة لابد أن يؤثر عليهم هذا التصرف. فلو عرف أي خليفة منهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأكل

مـــن طيبات الطعام في بيته، أو يتنعم بالأموال التي تأتي إليه، أو يدخر من هذه الأمـــوال شيئاً لنفسه أو أسرته، فإنهم لابد أن يعرفوا بهذه الأمور، ولابد لنسائه أو بـــناته أن تتكـــلم لتـــبرير التوسع على أنفسهن، وخاصة أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما قد عاصرتا خلافة أبويهما. ولهذا ركزنا في هذه الدراسة على حياة الخلفاء الأربعة لدراسة الجانب النفسي في حياتهم على ضوء سلوكهم، لأن هـــذا الســـلوك إضـــافة لكونه تعبيراً عن شخصياتهم، فإنه في جانب كبير منه ســـيعبر عـــن معرفتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان قدوتهم، وعن فهمهم للشريعة. ويجب أن نقدر بأن أي اختلاف في وجهات النظر بينهم أو في الســـلوك مستمد من حرصهم على دعم الإسلام ونصرته، وعلى ضوء شرعية الاخـــتلاف لمصلحة الإسلام. وربما إن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فـــي أخطـــر قضـــية واجهها المسلمون وهي قضية الخلافة، يكشف عن طبيعة خلافات الصحابة، كما يكشف عن الفرق بين من أخذ هذه الخلافات للدس على المســـلمين والإيقـــاع بيـــنهم، وبين من فهم مشروعية هذا الاختلاف في حدوده الصـــحيحة. فقد جاء أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب بعد أن بويع لأبي بكر الصـــديق بالخلافة، فقال: "يا علي بايعوا رجلاً أذل قريش قبيلة، والله لئن شئت لنصـــدّ عنها عليه أقطارها ولأملأنها عليه خيلاً ورجلاً". فقال له علي: "يا أبا سفيان إن المؤمنين وإن بعدت ديارهم وأبدانهم قوم نصحة بعضهم لبعض، وإن المـــنافقين وإن قربت ديارهم وأبدانهم قوم غششة بعضهم لبعض، وإنا قد بايعنا أبـــا بكـــر وكان لذلك أهلاً"[1]. فالاختلاف حق ولكن التآمر والسعي بالفتنة ليس بحق. وقد رأينا من اختلاف وجهات النظر بين المسلمين الشيء الكثير. ونذكر بـــأن خـــروج الرســـول صـــلى الله عليه وسلم إلى معركة أحد كان كما ذكر المؤرخـــون تلبية لرغبة المسلمين حتى "ندم الناس" كما ذكر ابن هشام: "وقالوا: اســـتكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رســـول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله! استكرهناك ولم يكن ذلك لـــنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يـــنبغي لنـــبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من الصحابة"(2). كما رأينا وجهتي نظر أبي بكر وعمر في قضية أسرى بدر وميل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رأي أبي بكر والأخذ به. لهذا يجب أن نفهم الاختلاف لا الخلاف كحقيقة مشروعة بين المسلمين في

[1] كنز العمال، رقم 14144 / ج5.

ظـل الأمر الإلهي بالشورى، لكي لا يأتي من يلغي هذا الحق لأي مبرر كان. وقـد كشف الله في هذه الآية كل مبررات الشورى وضروراتها، فقال: **﴿فبما رحمـة مـن الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فـاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾**(3). كأن الله يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: (أعـف عـنهم واسـتغفر لهم)، قبل أن يقولوا رأيهم وبعد أن يقولوه، ولا يكن بنفسك ضيق مما يقولون. كما جاء في سورة الشورى وصف للمؤمنين الذين يغفـرون للـناس في الرضا والغضب، ولا يضيقون برأي من حولهم، لأن من صفاتهم الاستجابة لأمر الله وإقامة الصلاة والتشاور فيما بينهم والإنفاق. وهذه صفات متكاملة لا تتحقق للمؤمن بدون الأخذ بها كلها. فهؤلاء **﴿الذين يجتنبون كـبائر الإثـم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾**(4).
وشـورى كل إنسان في حدود خلافته على من استخلف. فالإسلام أباح شورى الحـق والنصـح. وحرم شورى الغدر والمكر والفتنة والكذب التي تظهر شيئاً وتريد شيئاً آخر. ولهذا كان قادة المسلمين يتشاورون ويختلفون، وهذا الاختلاف يجـب أن لا يـأخذ بنا بعيداً كما يفعل أصحاب الأغراض أو الجاهلون بطبيعة الاختلاف وشرعيته. ويجب أن لا نغفل عن حقائق التاريخ وطبائع النفوس حتى فيمـا يتعلق بالخلافة. فقد رغب الأنصار أن يكون الخليفة منهم وهذا حقهم. كما رغب المهاجرون في ذلك. وهذا الاختلاف والحوار لا يجوز أن ينقص من قدر الأنصـار أو المهاجرين إلا بالقياس إلى النوايا لا الظنون التي يخترعها بعض المغرضين لاتهام المختلفين. إذ المهم في هذا الموضوع هو أعمال من استخلفوا لـلحكم عـليهم وليـس مـا قيل عنهم قبل أن يستخلفوا. وإن الخلافة بطبيعتها تسـتوجب الاخـتلاف، ولا تحتاج إلى الإجماع لتسويغ شرعيتها، كما لا تنزل بمكانـة المعارضـين ولا تـرفع مكانة الموالين لهذا الخليفة أو ذاك. فكما أن الشورى حق، فالاختلاف حق تفرضه الشورى، وقد ذهب بعض المسلمين لأبي بكـر حيـن علموا نيته في استخلاف عمر قبل وفاته فقالوا له: "تستخلف علينا عمـر فظـاً غليظاً، فلو قد ولينا كان أفظ وأغلظ. فما تقول لربك إذا لقيته وقد اسـتخلفت علينا عمراً؟ فقال أبو بكر: أبربي تخوفوني. أقول: اللهم استخلفت عـليهم خيـر أهلك"(5). وسوف نشاهد مثل هذا الاختلاف حين اختار عمر بن الخطـاب قـبل وفاته ستة لاختيار خليفة من بينهم، فرجحت الأصوات المؤيدة

لعــثمان بن عفان على الآخرين. وهذه مسائل تقتضي من الباحث المنصف أن يفهمها فهماً صحيحاً في إطار حرية الرأي والاجتهاد، وشرعية هذا الحق بنص القــرآن، دون إســاءة أو اتهــام لمن اختلفوا أو اجتهدوا، ودون تخيل تفسيرات ومؤامــرات لا وجود لها لخلفاء لا يحق لنا أن نحكم عليهم إلا من أعمالهم كما سنراها. وبمــا أننا لا نؤرخ في هذا البحث لسيرتهم، ولا نريد أن نستعرض أعمــالهم، وإن كــل مــا يهمنا هو فهم الدلالات النفسية لتصرفاتهم، لذلك فإننا سنبحث عما يساعدنا على الوصول إلى هذه الدلالات. وسنبدأ بأبي بكر الصديق أول الخلفاء.

خلافة أبي بكر الصديق

من (11-13هـ)

لقــد واجــه أبو بكر في بداية خلافته مشكلة ردة بعض قبائل العرب عن الإســلام واحتمال تجمعهم للهجوم على المدينة. كما كانت أمامه مشكلة إرسال جيش أسامة إلى مؤتة وحدود فلسطين لقتال الروم مع عرب تلك المناطق الذين كــانوا يكيــدون للإســلام. وكــان زيد والد أسامة قد استشهد في معركة مؤتة الأولى. وكــان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى قبل وفاته بإرسال جيش أســامة، ولكن أمام الظروف المستجدة، كان على أبي بكر أن يختار بين تأجيل إرسال جيش أسامة لمواجهة خطر الارتداد أو إرسال هذا الجيش. وكانت هناك مشكلة ثالثة وهي رغبة بعض المسلمين بتعيين قائد للجيش بدلاً من أسامة. وقد ســمع أبو بكر كل هذه الاقتراحات، وكانت حسابات العقل تتوافق مع مقترحات بعــض الصــحابة، ولكن حسابات النبوة التي عرفها أبو بكر، كان لها ميزان أكثر اتساعاً وشمولاً وحكمة. ولهذا قال أبو بكر للصحابة: "أنا أحبس جيشاً بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد اجترأت على أمر عظيم. فو الذي نفسي بيده لأن تميل علي العرب أحب إلي من أن أحبس جيشاً بعثهم رسول الله صلى الله عــليه وســلم. امــض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به، ثم اغز حيث أمــرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة، فإن الله ســيكفي مــا تــركت، ولكن إن رأيت أن تأذن لعمر بن الخطاب فأستشيره وأستعين به، فإنه ذو رأي ومناصح للإسلام فافعل".. وأوضح أبو بكر للصحابة سبب موقفه فقال: "إنكم قد علمتم أنه قد كان من عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم إليكم في المشورة فيما لم يمض من نبيكم فيه سنة ولم ينزل عليكم به كتاب"(1).

هل يمكن لأبي بكر أن يرسل جيش أسامة لو كان يظن مجرد ظن بالخطر على الإسلام والمدينة، كما ظن بعض الصحابة.. طبعاً لا يمكن. فأبو بكر كان يحرص على الإسلام أكثر من نفسه. ولكنه رأى أموراً كان يعرفها عن النبوة، وغيره لم يعرف ما عرفه أبو بكر، ولهذا تكلم عن الحسابات السياسية والتوازنات القائمة. وقد ذهب أسامة وعاد بجيشه وقد تحقق للإسلام بعض المكتسبات. منها خوف الأعداء من الإسلام بعد أن شاهدوا هذا الجيش يذهب إلى حدود الروم فكان مثل قوة استعراضية أدت إلى ردع بعض الذين يريدون بالإسلام شراً. ولكن بعض المرتدين والمنافقين كانوا ما زالوا يخططون لمهاجمة المسلمين، وكان على أبي بكر أن يختار بين قتالهم لتأدية الزكاة، وبين تركهم على اعتبار أنهم ما زالوا يعلنون تمسكهم بالإسلام. وكانت الفتنة التي أحدثها هؤلاء أخطر من كل الفتن. فهؤلاء كانوا لا يرفضون الإسلام في ظروف الإسلام العصيبة ولكنهم يرفضون أداء الزكاة مما أدى إلى خلاف بين الصحابة في الحكم عليهم، وظهور اجتهادات تقول بعدم شرعية قتالهم بناء على أحاديث فهموها من الرسول صلى الله عليه وسلم تقول: "بأن من قال لا إله إلا الله لا يجوز قتاله".. كما أن اتساع رقعة الارتداد مسألة كان لها تأثيرها في قرار المسلمين، إضافة لظهور مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللذين ادعيا النبوة. لقد لجأ أبو بكر إلى المسلمين ليستشيرهم، وكان الوضع كما جاء في حديث عن ابن عمر: "لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اشرأب النفاق بالمدينة، وارتدت العرب، وارتدت العجم وأبرقت وتواعدوا نهاوند، وقالوا: قد مات هذا الرجل الذي كانت العرب تنصر به. فجمع أبو بكر المهاجرين والأنصار، وقال: إن هذه العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم ورجعوا عن دينهم، وإن هذه العجم قد تواعدوا نهاوند ليجمعوا لقتالكم وزعموا أن هذا الرجل الذي كنتم تنصرون به قد مات.. فأشيروا عليَّ فما أنا إلا رجلٌ منكم، وإني أثقلكم حملاً لهذه البلية. فأطرقوا طويلاً. ثم تكلم عمر بن الخطاب، فقال: أرى والله يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقبل من العرب الصلاة وتدع لهم الزكاة فإنهم حديثو عهد بجاهلية لم يقدهم الإسلام. فإما أن يردهم الله إلى خير، وإما أن يعز الله الإسلام فتقوى على قتالهم، فما لبقية المهاجرين والأنصار يدان للعرب والعجم قاطبة. فالتفت إلى عثمان فقال مثل ذلك. وقال علي مثل ذلك، وتابعهم المهاجرون ثم إلى الأنصار فتابعوهم. فلما رأى ذلك صعد المنبر فحمد

الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم والحق قــل شريدٌ، والإسلام غريب طريد قد رث حبله وقلَ أهله. فجمعهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم وجعلهم الأمة الباقية الوسطى، والله لا أبرح أقوم بأمر الله، وأجــاهد في سبيل الله حتى ينجز الله لنا وعده وَيفي لنا عهده، فيقتل من قتل منا شــهيداً في الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة الله في أرضه ووارث عبادة الحق. فــإن الله تعــالى قــال لنا ليس لقوله خلف (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصــالحات ليســتخلفنهم فــي الأرض كما استخلف الذين من قبلهم).. والله لو مــنعوني عقالاً مما كانوا يعطون رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل معهم الشجر والمدر والجن والإنس لجاهدتهم حتى تلحق روحي بالله. إن الله لم يفرق بيــن الصلاة والزكاة، فجمعهما، فكبر عمر، وقال: والله قد علمت حين عزم الله لأبــي بكر على قتالهم أنه الحق"(2). وهذا موقف يتعلق بفهم أبي بكر للإسلام، ويقيــنه بمــا بشر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين به من الفتوحات. فقد عرف أبو بكر أن الإسلام سيظل بارتفاع وإن مرت فتن وزلازل، حتى تتحقق تلك الوعود، ولهذا لم تخفه أخبار الارتداد، وقد أتيح لأبي بكر أن يعلم من علوم النــبوة ما لم يحط به غيره، بقدمه في الإسلام وصحبته للرسول صلى الله عليه وســلم، وقــربه منه ويقينه فيه. وقد حقق أبو بكر في خلافته القصيرة القضاء عــلى المــرتدين، كما نجح في مجابهة الفرس والاستيلاء على الحيرة والأنبار والســيطرة عــلى المناطق التي تقيم فيها القبائل العربية جنوبي نهر الفرات. ثم بعــث خالد بن الوليد من هناك لقتال الروم، حيث نجح خالد في حصار الروم في دمشق وتم فتحها في بداية خلافة عمر. وقد كانت الانتصارات التي تحققت لأبي بكر كفيلة بتبرير الكثير من الأمور التي تصيب القادة من أهل الدنيا عندما يــنجحون، مثل التوسع في المعيشة، أو الإنفاق على الأهل والأولاد والأقارب. ولكــن الخــليفة لم يتغير في معيشته وإنفاقه. بل إنه ساوى في توزيعه للأموال الــتي كانت تأتيه بين المسلمين. وحين قيل له: "لو فضلت المهاجرين والأنصار لسابقتهم ولمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أجر أولئك على الله، إن هــذا المعاش للأسوة فيه خير من الأثرة، فعمل بهذا ولايته"(3).. حتى توفي فــي الســنة الثالــثة عشر في جمادى الآخرة، فلم يفضل نفسه أو أصحابه بهذا المــال، وعانى من الجوع أحياناً، وقد "أتاه ــ مملوك ــ ليلة بطعام فتناول منه لقمــة، فقــال له الممــلوك: مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملــني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟.. قال: مررت بقوم في الجاهلية فــرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني،

قال: أف لك. كدت أن تهلكني، فأدخل بيده في حلقه فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج. فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء. فدعا بعس ـ كأس ـ من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها. فقيل له: يرحمك الله. كل هذا من أجل هذه اللقمة. قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة"(4). هذا هو أبو بكر الخليفة الذي كان يخاف الله من لقمة فيها شبهة الحرام ويجوع، بينما كانت تخافه امبراطوريتا الروم والفرس، لأنه كان يخاف أن تمسه النار. لقد ترفع أبو بكر بنفسه عن حقه في العيش بيسر من مال المسلمين حتى أتعب نفسه وأسرته وأتعب من بعده. فقد وجدوا بيت المال خالياً حين توفي لإنفاقه على المسلمين. وكان قد أنفق على أسرته من بيت مال المسلمين خلال خلافته ثمانية آلاف درهم فأمر بردها إلى بيت المال. وقال: "قد كنت قلت لعمر: إني أخاف أن لا يسعني أن آكل من هذا المال شيئاً فغلبني. فإذا أنا مت خذوا من مالي ثمانية آلاف درهم وردوها في بيت المال، فلما أتي بها عمر قال: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعباً شديداً"(5).. وترفع عن الغضب لنفسه، وتسامح حتى وصل بتسامحه إلى حد لا تطيقه القلوب، ولا تتحمله العقول. "فقد رُمي عبد الله بن أبي بكر بسهم يوم الطائف فانتقض به بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين ليلة فمات فلم يزل ذلك السهم عند أبي بكر، فقدم عليه وفد ثقيف فأخرج إليهم، فقال: هل يعرف هذا السهم منكم أحد؟ فقال سعد بن عبيد أخو بني العجلان هذا سهم أنا بريته ورشته وعقبته وأنا رميت به، فقال أبو بكر: إن هذا السهم الذي قتل عبد الله بن أبي بكر فالحمد لله الذي أكرمه بيدك ولم يهنك بيده فإنه واسع لكما"...(6)..

لقد حمد الله على أن الرجل الذي قتل ابنه قد هداه الله إلى الإسلام. فأي حلم وأي إيمان يستطيع أن يمنع رجلاً من الغضب، أو الكلام لقاتل ابنه. وهذا الخليفة سيقول لرجل من عامة المسلمين دخل عليه دون إذن فضربه ثم اعتذر إليه وقال له: "إستقد" وكان عمر حاضراً في الموقف وقد رأى أن الرجل دخل عليهم وهم يتدارسون توزيع إبل من الصدقات على المسلمين رغم تنبيه الخليفة للناس بعدم الدخول إليه. فقال عمر: "والله لا يستقيد. لا تجعلها سنة. فقال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة؟.. قال عمر: أرضه. فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة وخمسة دنانير فأرضاه بها"(7) هذا الرجل الذي خاف الله إلى هذا الحد هل يستطيع أن يظلم أحداً، أو أن يسكت على ظلم أحد

مــن رعيته؟.. لقد أثار من يرغب بالإثارة والتهويل قضية مطالبة السيدة فاطمة الزهــراء رضي الله عنها بإرثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثل هذه المطالبة ربما تكون قد حدثت، وربما ردَّ عليها أبو بكر بما يعلم عن أرض فدك أو غيــرها. وهي من الأموال العامة التي كان يتصرف بها الرسول صلى الله عــليه وســلم بما تمليه عليه مصالح المسلمين، فلم يحتفظ بشيء من الأموال أو العقارات لنفسه. لقد عرفنا عن إيثار الرسول صلى الله عليه وسلم الشيء الكثير وعــن بكــاء عمر وهو يشاهده على حصير قد أثر في جنبه مع كثرة الأموال التي كانت تأتيه فكان لا ينفق إلا القليل على نفسه وأسرته، ولم يرضَ أن يعطي لابنــته خادماً، وقال لها: "اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهــلك"(8).. رحمة بها وحباً لها، لكي تكون غنيمتها في الآخرة لا في الدنيا. فهل يعقل أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترك إرثاً وهو الذي أعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وتوفي ودرعه مرهونة بثلاثين صاع من الشعير؟.. وهل يستطيع أبو بكر الذي خاف من لقمة الحرام، ومن ضرب مسلم، أن يظلم بــنت رســول الله صلى الله عليه وسلم؟.. ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك إرثاً يورث أليس من بين الوارثين أمهات المؤمنين ومن بينهن عائشة ابنة أبي بكر، وحفصة ابنة عمر، فهل نالا شيئاً من هذا الإرث. لهذا لا نظن إلا أنها مبالغات تكلم بها من تكلم عن نية حسنة أو سيئة، كما تكلموا في عرض رسول الله صــلى الله عــليه وســلم دون حق، وحتى في هذا الإطار إذا كانت السيدة فاطمــة، قــد سألت عن إرثها من الرسول فهذا من حقها. وإذا كان أبو بكر قد أجابها كما ورد: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نورث، ما تركناه صــدقة. إنمــا يأكل آل محمد من هذا المال يعني مال الله، ليس لهم أن يزيدوا على المأكل، وإني لا أغير صدقات النبي صلى الله عليه وسلم عن حالها التي كــانت عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولأعملن فيها بما عمل النبي صــلى الله عليه وسلم فيها فعمل... فوجدت فاطمة على أبي بكر من ذلك. فقال أبــو بكر: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصــل من قرابتي. فأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الصدقات، فإني لا آلو فيها عن الحق، وإني لم أكن لأترك فيها أمراً رأيت رسول الله يصنعه فيها، إلا صنعته"(9). وإن هذا الحديث رغم ما قد يكون أدخل عليه من الصور، فإن كان أبــو بكر قاله فقد قاله صادقاً ((لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصــل من قرابتي)). وإن هذا الموقف يكشف عن مستوى العدالة التي ارتفع إليهــا أبــو بكــر وهو يطبق شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته

بموجب أمره وسنته. كما أن سؤال فاطمة رضي الله عنها عن حق من حقوقها معذورة فيه. وقد ورد حديث آخر حول هذا الموضوع نورده لأنه أقرب لأخلاق أبي بكر وأخلاق فاطمة. فقد ورد أن فاطمة رضي الله عنها طالبت أبا بكر بإرثها من الرسول صلى الله عليه وسلم فدك وخيبر وصدقاته بالمدينة، فقال أبو بكر: ((أبوك والله خير مني وأنت خير من بناتي. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نورث ما تركناه صدقة يعني هذه الأموال القائمة، فتعلمين أن أباك أعطاكها، فو الله لئن قلت نعم لأقبلن قولك، ولأصدقنك. قالت: جاءتني أم أيمن فأخبرتني أنه أعطاني فدك. قال عمر: فسمعته يقول: هي لك، فإذا قلت قد سمعته فهي لك، فأنا أصدقك فأقبل قولك، قالت: قد أخبرتك بما عندي))(10). لو استأثر أبو بكر بشيء من المال لنفسه، أو خص أحداً من أقاربه، أو غير من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ربما كان يحق لنا أن نظن، وأن نتهم، أما وأبو بكر الذي اقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم حتى بإنفاذ جيش أسامة تنفيذاً لوصيته، وبعض المسلمين يقترحون عليه تأجيل إرساله، أو تغيير قائده، فقال لهم مستغرباً أقوالهم: ((أنا أحبس جيشاً بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد اجترأت على أمر عظيم)). هذا الرجل هل يستطيع أن يجترئ على ظلم ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!..

هذا الخليفة نفسه سيعطي لمن قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده بشيء من المال فأعطاه، فقد جاء مال من البحرين لأبي بكر فقال: ((من كانت له عدة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت وهو جابر بن عبد الله قد وعدني إذا جاء مال البحرين أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا. قال: خذ. فأخذت أول مرة فكانت خمس مائة ثم أخذ الثنتين))(11). هذا هو أبو بكر الذي اقتدى في كل أعماله برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى أن يغير خالد بن الوليد من القيادة حين اقترح عليه عمر بن الخطاب تغييره لأنه قتل مالك بن نويرة المتهم بالردة وتزوج امرأته. بينما شهد بعض المسلمين بإعلان إسلامه. فقال أبو بكر لعمر: ((ما كنت لأشيم سيفاً سله الله عليهم أبداً وإنه تأول فأخطأ))(12). وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن خالد: ((إنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين)). فكيف سيرفع أبو بكر هذا السيف.

ومن الواجب أن نذكّر بحقيقة هامة حول مسألة: "فدك وخيبر". وهي أن علياً رضي الله عنه حين تولى خلافة الملسلمين لم يأخذ شيئاً من "فدك وخيبر" لنفسه، وإنما تركها للمسلمين ملكاً عاماً، كما فعل الصديق رضي الله عنهما..

ولقـد كـان من أخلاق أبي بكر الاقتداء بكل ما فعله رسول الله صلى الله عـليه وسلم كما رأينا. فلو أنه وصل إليه علم بتهاون الرسول صلى الله عليه وسـلم بأمر من الأمور، أو توسعه في دنياه، ما الذي سيمنعه من الاقتداء به، وهـو العارف بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم العامة والخاصة.. لقد بلغ أبو بكـر في إيمانه مستوى لا يصل إليه إلا خواص الخواص حتى إنه حين مرض ((دخل على أبي بكر ناس يعودونه في مرضه فقالوا: يا خليفة رسول الله صلى الله عـليه وسلم! ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك. فقال: قد نظر إلي. قالوا: فماذا قـال لـك؟ قال: قال إني فعال لما أريد))(13). هذا هو أبو بكر في حياته وفي إيمانـه وفي توكله على الله. فهل سار الخليفة على طريق غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعرفته بحقيقة المرسل والرسول؟.. ربما كان أبو بكر الوحيـد من بين الخلفاء الذي يستحق لقب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمـا لقـبه المسلمون، لأنه أكثر الخلفاء الذين فهموا رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسـار عـلى نهجـه واقتفى آثار خطاه. فأدى به هذا الاقتداء إلى الفقر والجـوع إيثاراً لنفسه ولأهله في آخرة خالدة، على دنيا فانية. ولهذا أتعب أبو بكر من بعده، كما قال عمر رضي الله عنهما.

خلافة عمر بن الخطاب
(13-23هـ/634-644م)

لقـد تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق بوصية منه في العام (13هـ ـ 634م). وظل خليفة عشر سنوات حيث توفي عام (23هـ ـ 644م). وإذا كـان طـول مدة الحكم من النعم التي يحظى بها طلاب الدنيا، فإنهـا بالنسـبة للأتقيـاء بلاء يضطرون إليه اضطراراً لأداء أمانة كلفوا بها. ولهـذا لا يـترك الحق لهم من صديق إلا أهل الحق، وماهم في الناس إلا قلة، وعمـر منهم كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما ترك الحق صاحباً لعمر". فعمر العادل كما وصفه أعداؤه في التاريخ ضاق بعدله أصدقاؤه وأقرب الناس إليه. فقد اخشوشن في خلافته وفي مأكله حتى خاف عليه أهله.

فجـاءت حفصة ابنته تكلمه لمكانتها عنده، فقالت: "لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك. فقد وسع الله من الرزق، وأكثر من الخير، فقال: إني سأخاصمك إلى نفسك. أما تذكرين ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من شدة العيش؟... فما زال يكررها حتى أبكاها. فقال: لها:

والله إن قلت ذلك، إني والله إن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلي أدرك عيشهما الرضي"(1). أي في الآخرة لقد كان قدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لعله يلحق بهما، فما الذي سيثنيه عن شظف العيش، بل ما الذي سيقربه للدنيا وقد قطع ما بينه وبينها، وقد رآها طريقاً للآخرة، فلم يجعلها هماً، ولا غاية، وإنما هي وسيلة للقرب. وما أكثر الوسائل التي تقرب بها عمر بن الخطاب لإرضاء ربه واللحاق بصاحبيه، قبل خلافته وبعدها، حتى إن امرأة هي أم أبان بنت عتبة بن ربيعة رفضت زواجه وهو خليفة المسلمين ورضيت بطلحة بن عبيد الله. ولما سئلت عن السبب قالت عن عمر هذا رجل: "إن دخل دخل بباس، وإن خرج خرج بباس، قد داخله أمر أذهله عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينه"(2). هذا وصف فيه الكثير من الطرافة والدقة فماذا تصنع امرأة بزواجها من رجل ــ مذهول عن أمر دنياه، وكأنه ينظر إلى ربه بعيني رأسه ــ لقد أصاب عدل عمر المقربين إليه بالضرر في الدنيا حتى نفسه وأولاده وأسرته، فقد جاع عام الرمادة حتى قال أصحابه: "لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين"(3). كما "حرم على نفسه اللحم عام الرمادة حتى يأكله الناس"(4). وفي أعوام الرخاء كان طعامه لا يقبله إلا فقراء المسلمين. فقد حضر حفص بن أبي العاص طعام عمر "وكان لا يأكل. فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال: طعامك جشب غليظ وإني راجع إلى طعام لين قد صنع لي فأصيب منه، قال: أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها وآمر بدقيق فينخل في خرقة ثم آمر به فيخبز خبزاً رقاقاً، وآمر بصاع من زبيب فيقذف في سُعْن ــ قربة ــ ثم يصب عليه الماء فيصبح كأنه دم غزال؟ فقال حفص: إني لأراك عالما بطيب العيش. فقال عمر: أجل، والذي نفسي بيده لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لشاركتكم في لين عيشكم"(5).. ودخل على ابنته حفصة: "فقدمت إليه مرقاً بارداً وخبزاً وصبت في المرق زيتاً فقال: أدمان في إناء واحد لا أذوقه حتى ألقى الله"(6).

لقد أشفق عمر على أصحابه وهم يرون شدته على نفسه، فأرادوا له أن يوسع على نفسه باللباس والطعام ليستعين بقوته على قضاء حوائج المسلمين. وربما وجدوا في لباسه المرقع إضعافاً لهيبة الدولة بعد أن اتسعت رقعتها وتشابكت علاقاتها مع الدول المجاورة التي كان يأتي رسلها للخليفة. فقال أحدهم لمن حوله وقد جمعتهم الصدفة: "ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار إلى زهد هذا الرجل وإلى حليته؟... لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر وطرفي المشرق والمغرب، ووفود العرب والعجم

يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتي عشرة رقعة فلو سألتم معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والسابقين من المهاجرين والأنصار أن يغير هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظرّه ويغدى عليه جفنة من الطعام، ويراح عليه جفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار. فقال القوم بأجمعهم: ليس لهذا القول إلا علي بن أبي طالب فإنه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته، أو ابنته حفصة فإنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موجب لها لموضعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكلموا علياً فقال: لست بفاعل ذلك، ولكن عليكم بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه. قال الأحنف بن قيس: فسألوا عائشة وحفصة وكانتا مجتمعتين، فقالت عائشة: إني سائلة أمير المؤمنين ذلك. وقالت حفصة: ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك. فدخلتا على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما. فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أكلمك؟.. قال: تكلمي يا أم المؤمنين.قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده. وكذلك مضى أبو بكر على أثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل الكذابين وأدحض حجة المبطلين بعد عدله في الرعية وقسمه بالسوية وأرضى رب البرية، فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، لم يرد الدنيا ولم ترده. وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما، وحول إليك أموالهما، ودانت لك طرفا المشرق والمغرب. ونرجو من الله المزيد وفي الإسلام التأييد. ورسل العجم يأتونك، ووفود العرب يردون عليك، وعليك هذه الجبة قد رقعتها اثنتي عشرة رقعة، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك، ويغدى عليك بجفنة من الطعام ويراح بجفنة تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار. فبكى عمر عند ذلك بكاءً شديداً، ثم قال: سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شبع من خبز بُر عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة، أو جمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله؟.. فقالت: لا.... هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب إليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الأرض؟ كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض، ويأمر بالمائدة فترفع. قالت: اللهم نعم.. فقال لهما: أنتما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين ولكما على المؤمنين حق وعلي خاصة. ولكن أتيتماني وترغباني في الدنيا وإني لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة

من الصوف فربما رق جلده من خشونتها. أتعلمان ذلك؟ قالتا: اللهم نعم.. قال: فهل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة، وكان مسحاً ــ ثوب غليظ من الشعر ــ في بيتك يا عائشة يكون بالنهار بساطاً، وبالليل فراشاً فندخل عليه فنرى أثر الحصير على جنبه. ألا يا حفصة: أنــت حدثتيني أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد عليه فلم يستيقظ إلا بأذان بــلال فقال لك: يا حفصة ماذا صنعت؟.. أثنيت لي المهاد ليلتي حتى ذهب بي الــنوم إلى الصباح؟.. مالي وللدنيا وما للدنيا ومالي. شغلتموني بلين الفراش. يا حفصــة أمــا تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفوراً له ما تقدم مــن ذنــبه وما تأخر؟ أمسى جائعاً ورقد ساجداً ولم يزل راكعاً وساجداً وباكياً ومتضــرعاً فــي آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله إلى رحمته ورضوانه. لا أكل عمر طيباً ولا لبس ليناً فله أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين الأدمين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر حتى ينقضي ما انقضى من القوم... فلم يزل كذلك حتى لحق بالله"(7)..

لــم يغتر عمر بأنه من العشرة المبشرين بالجنة، فالجنة جنات، وكان يريد أن تكــون جنــته مع صاحبيه، فحاول أن يعيش كما رآهما يعيشان، فانعكست شدته على نفسه في شدته على أولاده ليجنبهم الهوان في الآخرة، فقاضاهما بما لــم يقــاض بــه بقيــة المسلمين. اشترى عبد الله ابنه إبلاً وسمنها في الحمى المخصص لإبل الصدقة، كما يفعل عامة المسلمين الذين كانوا يربون إبلهم فيها بأجر محدد. وعندما سمنت أتى بها إلى السوق ليبيعها، فرآها عمر، فسأل عنها. فقيل له إنها لابنه، فقال عمر: "بخ! بخ! ابن أمير المؤمنين! فجئت أسعى فقلت: مالك يا أمير المؤمنين؟.. قال: ما هذه الإبل؟ قلت: إبل اشتريتها وبعثت بها إلى الحــمى أبتغي ما يبتغي المسلمون. فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبــل ابــن أميــر المؤمنين. يا عبد الله بن عمر: أغدُ على رأس مالك، واجعل الفضــل فــي بيــت مال المسلمين"(8)، وضاع ربح عبد الله. وكأن عمر كان يضــحك ويسخر ويتعجب.. أفي زمن عمر يربح ابن عمر؟ وكان عبد الله أشد استغراباً. ولكنه كان ابن الفاروق فسكت عن حقه طاعة لوالده...

ويــتذكر عمــرو بــن العاص قصته مع ابن الخليفة يوم علم أن "عبد الله وعــبد الــرحمن ابنا عمر ــ قدما ــ غازيين. فقلت للذي أخبرني:أين نزلا؟.. فقــال: في موضع كذا ، لأقصى مصر، وقد كتب إلي عمر: إياك أن يقدم عليك أحد من أهل بيتي فتحبوه بأمر لا تصنعه بغيره فأفعل بك ما أنت أهله.. فأنا لا

أستطيع أن أهدي لهما ولا آتيهما في منزلهما خوفاً من أبيهما. فو الله إني لعلى ما أنا عليه، إلى أن قال قائل: هذا عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة على الباب يستأذنان، فقلت: يدخلان فدخلا وهما منكسران وقالا: أقم علينا حد الله فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا. فزبرتهما وطردتهما. فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه، فحضرني رأي وعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب عليَّ عمر في ذلك وعزلني... فنحن على ما نحن عليه إذ دخل عبد الله بن عمر، فقمت إليه فرحبت به وأردت أن أجلسه على صدر مجلسي فأبى عليَّ وقال: إن أبي نهاني أن أدخل عليك إلا أن لا أجد بداً، وإني لم أجد بداً من الدخول عليك. إن أخي لا يحلق على رؤوس الناس أبداً، فأما الضرب فاصنع ما بدا لك. قال: وكانوا يحلقون مع الحد. قال: فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد. ودخل ابن عمر بأخيه عبد الرحمن إلى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبي سروعة. فوالله ماكتبت إلى عمر بحرف مما كان حتى إذا تحينت كتابي فإذا هو يطم فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي. عجبت لك يا ابن العاصي ولجرأتك عليَّ وخلاف عهدي. أما إني قد خالفت فيك أصحاب بدر ممن هو خير منك، واخترتك لجرأتك عني وإنفاذ عهدي فأراك تلوثت بما قد تلوثت، فما أراني إلا عازلك ومنشي عزلك. تضرب عبد الرحمن بن عمر في بيتك وتحلق رأسه في بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفني. إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين. ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع. فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه. وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه وأخبره أني ضربته في صحن داري. وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فقدم بعبد الرحمن على أبيه. فدخل عليه، وعليه عباءة، ولا يستطيع المشي من مركبه.. فكلمه عبد الرحمن بن عوف، فقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة فما عليه أن تقيمه ثانية. فلم يلتفت إلى هذا عمر وزبره. فجعل عبد الرحمن يصيح: إني مريض وأنت قاتلي. فضربه الثانية الحد وحبسه، ثم مرض فمات"(9). لقد توفي عبد الرحمن بعد شهر تقريباً. ومن الطبيعي أن تسري الشائعات بأن عمر قتل ابنه. ولكن حتى لو مات عبد الرحمن لهذا السبب أليس هذا هو العدل؟... وهذا هو الاقتداء.. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها"..

فـالعدل لا يلتوي ولا ينجني أمام قرابة المقربين، أو بعد البعيدين. لقد قال عمـرو بـن العاص وهو يتذكر الحادثة: "ما رأيت أحداً بعد نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر أخوف لله من عمر. لا يبالي على من وقع الحق على ولد أو والـد"... ولعل عمراً كان يتذكر قصة ابنه مع المصري الذي اشتكى على ابـن عمرو لأنه ضربه بالسوط بسبب السباق. فأمر عمراً بالحضور وإحضار ابنه معه وقال للمضري: "خذ السوط فاضرب . فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمـر: اضرب ابن الأكرمين".. ثم قال لعمرو كلمته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"(10).

كـان عمـر مزيجاً من الرحمة والشجاعة والعدل والقيادة والحذر والحزم والحكمة، فكان في كل موضع يبرز منه جانب أو دواء لداء بقدر حاجة مجتمعه وعصـره لهـذا الدواء، فخاف من لا رادع له من إيمانه من ردعه، وأحبه من أحـب العدل والإيمان ورأى فيه باباً لحماية المسلمين من شر قادم يعصف بهم بعـد اتساع رقعة الفتوحات وإقبال الدنيا عليهم. فكان يخاف عليهم ويخاف من انصـرافهم إلى الدنيا التي أقبلت بأموالها وثرواتها تتزخرف لهم. وكانت رحمة عمـر في قلبه يكبتها لئلا يطمع فيه الطامعون. لقد بكى عمر حين رأى أطفال المـرأة الجيـاع وهي تعللهم بقدر فارغة لتوهمهم أن فيها طعاماً حتى يناموا. فذهـب إلى دار الصـدقة ومـلأ كيساً من الطعام وحمله على ظهره. فقال له خادمـه: أسـلم: "أنا أحمله. فأجابه عمر: أنا أحمله لأني أنا المسؤول عنهم في الآخـرة".. وجلس فطهى لهم الطعام فأكلوا ولعبوا ضحكوا ثم قام عمر مودعاً. وقـال لأسـلم وقد طابت نفسه: "رأيتهم يبكون فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهـم يضحكون"(11).. وشاهد يوماً رجلاً ضريراً يستجدي الناس وعرف أنه يهـودي، فسأله: "ما ألجأك إلى ما أرى؟.. قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. فـأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه. وأرسل إلى خازن بيت المـال. يقـول: انظر هذا وضرباءه فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عـند الهـرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين"(12)، وأمر بوضع الجزية عنه وعـن أمـثاله. وذات مرة : استعمل رجلاً من بني أسد على عمل. فجاء يأخذ عهده. فأتي عمر ببعض ولده فقبله. فقال الأسدي أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟... والله ما قبلت ولداً قط.. قال عمر: فأنت والله أقل رحمة هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً.. فرد عهده"(13)...

هـذا هو عمر الذي كان ينظر إلى ولاته بكل الموازين ويراقب تصرفاتهم ليـأمن عـلى الشـعب من الظلم أو القسوة، وهم يشكّون في رحمته، ولكنهم لا يشـكّون فـي عدله. لو أردنا أن نعدد قصص عمر بن الخطاب ونوادر حياته سنحتاج إلى صفحات طويلة للتأريخ لحياة حافلة بقوانين وتشريعات ذاتية تصلح لأرقى مـا ابتكرته الدول الديمقراطية لحفظ حقوق الدولة. ولكن الفرق أن عمر ابـتكر القوانيـن وطـبقها عـلى نفسه. روي أن امرأته اشترت عطراً بدينار ووضـعته فـي قواريـر وأرسلته مع البريد إلى زوج ملك الروم. فأعيدت لها القواريـر ملأى بالجواهر: "فأخذ عمر الجواهر فباعها ودفع إلى امرأته ديناراً، وجعـل مـا بقي من ذلك في بيت مال المسلمين"(14).. فقد رأى بفهمه للعدل وحقـوق الدولة بأن الهدية أرسلت للخلافة وليس للخليفة. فأعطى للدولة حقوقها ولزوجـته حقهـا. وبعث مرة ليستدين من عبد الرحمن بن عوف أربعة آلاف درهم، "فقال للرسول: قل له يأخذها من بيت المال ثم يردها. فلما جاءه الرسول فأخـبره بما قال شق عليه، فلقيه عمر فقال: أنت القائل: ليأخذها من بيت المال فـإن مـت قبل أن تجيء قلتم: أخذها أمير المؤمنين دعوها له، وأوخذ بها يوم القيامة. لا، ولكن أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك فإن مت أخذها مـن ميـراثي"(15). إنـه قانون سنه عمربعدم جواز استخدام أموال الدولة في الأغراض الخاصة.

هذه صور من عدل عمر التي اجتهد فيها لكي يرضي الله، فابتكر الدواوين وسجل كل مولود في ديار الإسلام لكي يؤدي ما عليه أو يعطيه ماله من حقوق فـي بيت المال. واجتهد في نظام العطاء، وقال: "إن أبا بكر رأى في هذا المال رأيـاً ولـي فيه رأي آخر. لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ففرض لـلمهاجرين والأنصار ومن شهد بدراً خمسة آلاف، وفرض لمن كان له إسلام كإسـلام أهل بدر ولم يشهد بدراً أربعة آلاف. وفرض لأزواج النبي صلى الله عـليه وسلم اثني عشر ألفاً إلا صفية وجويرية ففرض لهما ستة آلاف فأبتا أن تقـبلا فقـال: إنمـا فرضت لهما للهجرة. فقالتا: إنما فرضت لهن لمكانهن من رسـول الله صلى الله عليه وسلم وكان لنا مثله. فعرف ذلك عمر. ففرض لهما أثـني عشر ألفاً. وفرض للعباس أثني عشر ألفاً. وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف. وفـرض لعـبد الله ابنه ثلاثة آلاف. فقال له: يا أبت لم زدته عليَّ ألفاً. ماكـان لأبيـه من الفضل مالم يكن لأبي، وماكان له مالم يكن لي. فقال: إن أبا أسـامة كـان أحب إلى رسول الله من أبيك. وكان أسامة أحب إلى رسول الله صـلى الله عـليه وسـلم مـنك. وفرض لحسن وحسين خمسة آلاف لمكانهما

من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين"..(16).. وأثنى عليه بعض الناس يوماً وهو يوزع عليهم المال فقال لهم: "ما أحمقكم! لو كان هذا لي ما أعطيتكم منه درهماً واحداً"(17). كان يتكلم بصدق وكان يتكلم عن عزة النفس لئلا يغتروا بعطاء من أعطى. فهي أموالهم ترد إليهم. كم أراد عمر أن يزرع في النفوس من القيم التي أثمرت في أرض النبوة، وجاء أوان حصادها، بالسمو والبطولة وحب الخير لكل الناس، ونشر السلام بخضوع الأمة كلها لقانون واحد لا تمييز فيه مع احترام حرية المعتقد والدين والرأي بالحق. لقد حارب عمر كل وثنية في العقول كما حارب وثنية الدنيا وعبادة نعمها، فأمر بقطع الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها بيعة الرضوان لأنه سمع أن بعض الناس يذهبون إليها اعتقاداً بفائدتها. وكان يريد للمسلمين أن يتسابقوا على الأعمال الصالحة وليس على ظنونهم بفائدة ما لا يفيد. وقد قال: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول ارزقني. وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض"..(18).. وقال: "لا يعجبنكم من الرجل طنطنته... ولكن... من أدى الأمانة إلى من ائتمنه وسلم الناس من يده ولسانه"(19). لقد فهم الإسلام أخلاقاً وصدقاً في كل موقف، في العبادة كما في العمل. ولهذا قال لرجل متخشع: "ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق مافي قلبه، فإنما يظهر للناس نفاقاً إلى نفاق"(20).. لقد تجلت عظمة عمر ليس في إتباعه للإسلام وحرصه عليه، بل في فهمه وتطبيقه للإسلام في دولة حديثة الظهور. وما يهمنا في هذا البحث هو التربية والعوامل النفسية التي جعلت من عمر بن الخطاب أميراً للمسلمين بهذا المستوى من الإيمان والحرص على العدل في الرعية حتى قال: "لو هلك حمل من ولد الضأن ضياعاً بشاطئ الفرات خشيت أن يسألني الله عنه"(21). وكتب إلى أبي موسى الأشعري: "إياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب، فلم يكن لهاهم إلا التسمن، وإنما حتفها في السمن، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من شقيت به رعيته"(22)

لقد وهب عمر كما رأينا حياته لبناء دولة الإسلام وحين أصيب بخنجر أبي لؤلؤة وعرف أن أجله قد اقترب قال لابنه عبد الله وكان عنده عبد الرحمن بن عوف: "إذا مت فدفنتني فلا تغسل رأسك حتى تبيع من رباع آل عمر ثمانين ألفاً فتضعها في بيت مال المسلمين. فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين!... وما قدر هذه الثمانين ألفاً قد أضررت بعيالك. قال: إليك عني يا

ابن عوف. فنظر إلى عبد الله، فقال: يا بني واثنين وثلاثين ألفاً أنفقتها في اثنتي عشــر حجة حججتها في ولايتي ونوائب كانت تنوبني في الرسل تأتيني من قبل الأمصار. فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين أبشر وأحسن الظن بالله، فإنه ليس أحد منا من المهاجرين والأنصار إلا وقد قبض مثل الذي أخذت من الفيء الذي جعله الله لنا، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض. وقــد كانت لك معه سوابق. فقال: يا ابن عوف ود عمر أنه لو خرج منها كما دخل فيها. إني أود أن ألقى الله فلا تطالبوني بقليل ولا كثير.."(23).

مــا الذي جعل عمر: "كأنه ينظر إلى ربه بعينه".. كما قالت أم أبان، غير شــهودة لحقــائق النبوة، وإيمانه بما في الآخرة من جزاء. ولو شاهد عمر أي تسامح من الرسول الله صلى الله عليه وسلم مع نفسه في أمر من الأمور وهو العــارف بالرســول صلى الله عليه وسلم في حياته العامة والخاصة لاقتدى به عمر، ويرر لنفسه طيب العيش. ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم مصلحاً كمــا يفهــم البعض لما اختار حياة التقشف والزهد في دنيا أقبلت عليه، ورفعته فوق كل رجال عصره. فالعاقل لا يخدع نفسه إذا استطاع أن يخدع الناس، ولا يســتطيع أن يخــدع كل الناس وإن استطاع أن يخدع بعضهم، وكان المسلمون يســألون ويراقبون ويدققون. وكان المنافقون والمعادون للرسول صلى الله عليه وسلم بالمرصاد لإثارة الشكوك والبلبلة. لقد استغل المنافقون ضياع ناقة للرسول صلى الله عليه وسلم للتشكيك بنبوته.

مــن هــذا الميــزان نــنظر إلى حياة الصحابة المقربين، وهو واحد من الموازيــن الكــثيرة لمعــرفة النبوة، والتأكد منها. أما لو كانت ثورة للإصلاح لتحســين أوضاع الناس، أو القيام بفتوحات عسكرية فما الذي سيمنع المصلحين بعــد نجاحهم من الاستمتاع ببعض غنائم الإصلاح وثرواته القادمة عليهم. وكم مــن المسلمين زهدوا في الدنيا رغبة في الآخرة: "أرسل عمر بن الخطاب إلى ســعيد بن عامر الجمحي، فقال: إنا مستعملوك علىهؤلاء لتسير بهم إلى أرض العــدو فتجاهد بهم. فقال: يا عمر لا تفتني. فقال عمر: والله لا أدعكم جعلتموها في عنقي، ثم تخليتم عني"(24). هؤلاء وأمثالهم جاهدوا للجهاد. وحين اطمأنوا إلى نجاح الإسلام سكنوا في بيوتهم يعبدون الله، ويعلمون الناس ما تعلموه، وهم يــتحدثون عن صحبتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم باعتزاز لا يرقى إليه أي مجــد أو عــز. وكان هاجسهم اللحاق به ورؤيته والاجتماع به في آخرة لا تحــتاج إلى إصــلاح المصلحين، ولا زرع الزارعين. بعد أن زرع كل إنسان

جنته في الدنيا بأعماله إن كان من أهلها، فالإصلاح كان طاعة في دنيا يعرفون أنها تسير للخراب.

خلافة عثمان بن عفان

لقد اختير عثمان بن عفان رضي الله عنه لخلافة المسلمين من بين الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب قبل وفاته بعد أن اعتذر عن تعيين الخليفة بعده.

لقد بقي عثمان في الخلافة من عام 23 إلى 35هـ/ 644 –656م. وكان عثمان قد ولد بعد عام الفيل بست سنين، وكان من أوائل الناس إسلاماً وهجرة، حيث هاجر إلى الحبشة ومعه رقية زوجته ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد اشتهر عثمان بحياته وكرمه وكثرة إنفاقه في ظروف المسلمين الصعبة خاصة، وكثرة عبادته وحلمه وحسن سياسته مع الناس، مما جعله قريباً لقلوبهم. إلا أن هذا الحلم والحياء دفع بعضهم للجرأة عليه وهو خليفة مما أدى للفتنة التي أودت بحياته. وقد وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالحياء في أكثر من مناسبة. فقال: "إن أشد هذه الأمة حياءً بعد نبيها عثمان"(1). وقال لزوجته عائشة وقد رأته يستر قدميه عندما جاء عثمان كما لم يفعل في حضور أبي بكر وعمر فسألته عن سبب ذلك فقال: "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟ والذي نفس محمد بيده إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله"(2).. وقال عن كرمه: "السخاء شجرة في الجنة وعثمان بن عفان غصن من أغصانها"(3). وقد بكى عثمان بعد وفاة زوجه رقية لانقطاع مصاهرته للرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد رغم كثرة النساء اللواتي يرغبن في زواجه. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تبك، والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء. هذا جبريل أخبرني أن الله عز وجل أمرني أن أزوجك أختها"(4). فزوجه أم كلثوم، وقد ورد في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة عن أخلاق عثمان أنه: "كان لا يوقظ نائماً من أهل بيته إلا أن يجده يقظان فيناوله وضوءه"(5). وهذا ما يدل عليه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن أخلاق عثمان في بيته. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "لقد جاورني عثمان بن عفان في طبق أربعين صباحاً وأربعين ليلة فما سمعت له حصحصة ماء، فنعم الجار عثمان"(6). وهذه الأخلاق الخاصة مع أهله لابد أن تكون من أخلاق

الرجل في مجتمعه. وإن زواج عثمان من نائلة بنت الفرافصة على صغر سنها وإخلاصها له في حياته وبعد استشهاده يكشف عن أخلاق عثمان. فقد سمع عثمان وهو خليفة عنها بعد أن تزوج سعيد بن العاص والي الكوفة أختها، وكانت أديبة شاعرة فخطبها، وحين زفت إليه في المدينة ورآها على ما بينهما من فارق السن قال لها: "لعلك تكرهين ما ترين من شيبتي؟.. فقالت: والله يا أمير المؤمنين إني من نسوة أحب أزواجهن الكهول. فقال لها: أنا قد جزت الكهول وأنا شيخ، ولن تجدي عندنا إلا خيراً"(7)..وقد عاشت معه ما بقي من حياته القصيرة حتى استشهد، فأبت أن تتزوج أحداً بعده رغم صغر سنها وكثرة خطابها. حتى أنها عمدت إلى حجر فكسرت به ثناياها حتى لا يخطبها الرجال. وكان من خطابها معاوية بن أبي سفيان. ولا يمكن لامرأة صغيرة السن أن تخلص كل هذا الإخلاص لرجل كهل لولا تأثير هذا الرجل بحسن المعاملة والمعاشرة، وخلق فيها جبل على الوفاء، مع أنها لم تكن الزوج الوحيدة. فقد تزوج عثمان تسع نساء وتوفي عن أربع منهن هن (نائلة وفاختة ورملة وأم البنين). وقيل أنه طلق الأخيرة أثناء حصاره. وقد ورد في سيرته إضافة إلى أعمال البر الكثيرة التي صنعها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أعمال بر جديدة في حياة الخلفاء الراشدين، تكشف عن عمق إيمانه ورحمته وسماحته. قال ابن عباس: "قحط الناس في زمن أبي بكر، فقال أبو بكر: لا تمشون حتى يفرج الله عنكم، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال: لقد قدمت لعثمان ألف راحلة براً وطعاماً، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه. فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة براً وطعاماً. بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة. فقال لهم عثمان: ادخلوا، فدخلوا فإذا ألف وقر قد صب في الدار. فقال لهم: كم تربحوني على شرائي من الشام؟.. قالوا: العشرة خمسة عشر. قال: قد زادوني. قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: زادوني بكل درهم عشرة. هل عندكم زيادة؟..قالوا: لا.. قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة"(8)..

لقد قدمنا صوراً عن رحمة عثمان وأخلاقه لنتخيل كيف سيحكم مثل هذا الرجل الناس في خلافته. فعثمان الحيي يتناقض مع عثمان السلطان. وهذه أول مشكلة سيواجهها عثمان في خلافته بتجرأ الناس على مقام الخلافة مما سيشجع الغوغاء فيما بعد إلى إشعال الفتنة لأسباب إذا نظرنا إليها بعين المدقق لن نرى لها ما يبررها كلها، وما هو مبرر منها، فإنه لا يمكن أن يؤدي إلى شرعية قتل

الخـليفة. ولكن الظروف كانت في طريقها إلى التغير في أواخر عهد عمر بن الخطـاب، بسـبب اتساع رقعة الدولة، وانتشار التجارة وكثرة المال. وقد ذكر محمد بن سيرين أنه: "كثر المال في زمن عثمانٍ فبيعت جارية بوزنها، وفرس بمائـة ألف درهم، ونخلة بألف درهم"(9). ومما ذكر أن عبد الرحمن بن عوف تصـدق فـي يوم واحد بمائة وخمسين ألف دينار، وأنه: "خلف ذهباً كان يقطع بـالفؤوس.. وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس، وقسم ميراثه على سـتة عشـر سهماً فبلغ السهم ثمانين ألف درهم" وإن ميراث الزبير بن العوام خمسـون ألف ألف ومائتا ألف". "وكان طلحة يغل بالعراق مابين أربعمائة ألف إلى خمسـمائة ألـف... وأنه باع لعثمان أرضاً بسبعمائة ألف فحملها إليه. فلما جاء بها، قال: إن رجلاً تبيت هذه عنده في بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغريـر بالله... فبات ورسله تختلف في سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم"(10).

وكـان عمر في آخر أيام خلافته يقول: "اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وانتشـرت رعيتي فاقبضني غير مضيع ولا مفرط"(11). وقال حين أتاه خبر فـتح القادسية: "أعوذ بالله أن يعقبني الله بين أظهركم حتى يدركني أولادكم من هؤلاء. قالوا: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما ظنكم بمكر العربي ودهاء العجمي إذا اجـتمعا فـي رجـل".. (12).. ولكن عثمان تعرض لكل ماكان يحذر منه عمـر. وحين استشهد عمر وبويع لعثمان بالخلافة، طمعت الدولة التي حاربها الإسـلام فعملت على إشعال الثورات والفتن في بلاد المسلمين "فتمرد من قبائل الفـرس والترك والروم، من كان قد أذعن وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعـة. ونقضت دولة الروم صلحها، فأغارت على الإسكندرية براً وبحراً، وأرسلت أساطيلها إلى شواطئ فلسطين، وأطلقت في الميادين خفية من يبث فيها الوعـد والوعيد ويغري المطيع بالعصيان. وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التي اشتركت في حركات الثورة والانتفاض، فقال بعضهم أنها جـاوزت خمسـمائة سفينة ومائة ألف مقاتل، وسرعان ما تسايرت الأنباء بهذه الـزحوف بيـن الخـزر والأرمـن ومن وراءهم من الشعوب الآسيوية. فهبوا يتعلـلون بـالذرائع لنقض الصلح، أو ينقضونه بغير ذريعة وينتهزون الفرصة الـتي علموا أنها لا تسنح مرة أخرى إذا استكانوا للطاعة والمسالمة. لقد كانت محـنة كمحنة الردة أو أكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها"(13). كان عـلى عـثمان أن يواجـه كـل هذه الفتن التي اشتعلت في بداية عهده. وكان المسـلمون لا يعـرفون ركوب البحر بسبب خوف عمر على أرواح المسلمين.

فكــتب إلى معاوية لتجهيز أسطول بحري لمواجهة الغزوات البحرية بشرط أن يــتم اخــتيار القــوة البحرية تطوعاً بدون إكراه، وهذه ملاحظة تدل على بعد نظـــره، فتشــكلت أول قــوة بحــرية في تاريخ دولة الإسلام، وقامت بحماية الشـــواطئ الإسلامية وتحدي المغيرين في عقر دارهم. كما اختار القادة الأكفاء لمواجهـــة الفتن والثورات. ودفع بقواته إلى حدود الهند والصين، وإلى ما وراء بحـــر الخـــزر. كمـــا اندفعــت القوات الإسلامية إلى أبواب القسطنطينية، كما اســتطاعت القوات أن توسع رقعة الدولة في شمال أفريقية وأن تسير جنوباً إلى حـــدود الحبشة. وهذه النجاحات التي تحققت في عهد عثمان لا يمكن أن تتحقق على يدي رجل ضعيف كما كان يتم تصوير عثمان غالباً. ولكن مشاكل عثمان فـــي سنته الأخيرة نجمت عن مجموعة من العوامل والأمور، منها ما ظهر قبل خلافـــته، ومنها نشأ بعد خلافته دون أن تكون له يد فيها من فساد أو إفساد. فقد كـــان غـــنى عثمان وتقواه لا تحيجه إلى استخدام أموال المسلمين في مصالحه الشخصـــية. وكل الوثائق التاريخية تؤكد أن عثمان حين توفي كانت ثروته أقل مما كانت عليه حين استلم الخلافة، إلا ماكان من أسباب التضخم الطارئ بسبب كـــثرة المـــال الذي أدى إلى رفع سعر الأرض وإلى بيع نخلة بألف درهم، كما أشـــار ابـــن ســـيرين. ولكـــن مشكلة عثمان كانت تكمن أولاً في استخلافه بعد خليفـــتين: "أتعـــبا من بعدهما".. بعدلهما وبساطة عيشهما بسبب قرار اتخذاه لم يحيـــدا عنه وهو الزهد في حياتهما. بينما عاش عثمان لغناه الذي ورثه عن أبيه وعملـــه بالـــتجارة في بحبوحة لا تتناقض مع الإيمان، بل كان لهذه السعة في الـــرزق دورهـــا في دعم الإسلام والمسلمين في عدة مناسبات، منها شراء بئر للمســـلمين في المدينة بخمسة وثلاثين ألف درهم ليشربوا منها، واشترى أرضاً لتوسيع المسجد بعشرين ألف درهم، وتجهيزه لجيش العسرة بمائتي بعير وكثير مـــن المـــال، حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يضر عثمان ما عمل بعد اليوم"(14).. وهذا ثابت من مصادر عديدة، والرسول صلى الله عليه وســـلم لا يـــنطق عـــن الهـــوى فهو أعرف بعثمان بتعريف الله له. ولكن عند المقارنة بين حياة عثمان وحياة عمر لا بد أن يظهر طاعنون لهم مبرراتهم إذا كـــرهوا عثمان. ولكن المنصف لا يتهم عثمان إذا أسرف وتنعم من ماله. وهذه الفروق نسوق المثال لفهمها وهو مثال حين يروى للراغبين في الفتنة يشكل لهم ســـلاحاً يســـاعدهم فـــي الإثارة، مع أن المتأمل في حقيقته ومعناه لا يعدو عن الابتســـام فقد روي أنه: " دخل زياد على عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المـــال، فجـــاء ابـــن عثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به، فبكى زياد... قال

عـــثمان: ما يبكيك؟ قال أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهماً، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام، وإن ابنك هذا جاء فأخذ مـــا أخذ فلم أر أحداً قال له شيئاً. فقال عثمان: إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء الله، وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله. ولن تلقى مثل عمر، لن تـــلقى مـــثل عمـــر، لـــن تـــلقى مثل عمر".. وكان عثمان يقول في كثير من المناســـبات: "يرحم الله عمر، من ذا يطيق ما كان يطيقه"(15). لو أخذنا طبيعة المناســـبة فـــي هذه الرواية وطبيعة الرجلين فسوف يتضح لنا بأن سبب سكوت عـــثمان على فعلة ابنه لا يتعلق برغبته في استغلال بيت مال المسلمين. فما هو المبـــلغ الذي سيأخذه طفل صغير. إن هذا المال بالنسبة لثروة عثمان لا يعادل شـــيئاً ولهـــذا رأى أن المبلغ لا يعادل دمعة من بكاء طفل، ولا يعادل شيئاً من صـــدقات عـــثمان وإنفاقه، وأخلاق عثمان وورعه وتقواه لا تسمح له حتى بأن يســـامح نفسه بإدخال حفنة من الدراهم على ثروته، التي تعد بمئات الألوف إن لـــم تكن الملايين. إننا بهذا المنظار العادل يمكن أن نفهم مبررات عثمان وسبب ســـكوته عـــلى ابـــنه."فعثمان ليس كعمر". وقد ورد أن عمر كان ينفق كل يوم درهميـــن له ولعياله وإنه: "أنفق في حجته ثمانين ومائة درهم. وقال: قد أسرفنا فـــي هـــذا المال"(16). بينما كان عثمان قد أنفق ألوف الدراهم في الصدقات. ودعـــي صـــرة عمرو بن أمية الضمري إلى طعام. فقال الضمري: "هذا أطيب ما أكلت قط". وتذكر طعاماً أكله عند عمر بن الخطاب فذكر خشونته فقال عثمان: "صدقت إن عمر رضي الله عنه أتعب والله من تبع أثره، وإنه كان يطلب بثنيه ــ أي منعه ــ عن هذه الأمور ظلفاً أي غلظاً في المعيشة، ثم قال: أما والله ما آكله من المسلمين ولكن آكله من مالي، وأنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالاً، وأجدهم في التجارة، ولم أزل آكل من الطعام ما لان منه وقد بلغت سناً، فأحب الطعـــام إلـــي ألينـــه، ولا أعـــلم لأحد علي في ذلك تبعة"(17). وكلام عثمان صـــحيح، فتـــبرعاته تدل على ثروته. ولكن الطاعنين على الخلافة لأغراض مختـــلفة كانوا يستطيعون أن يقولوا: إن عثمان ليس كعمر، بعد أن انتشر الفقه والاجـــتهاد وأصـــبح لكـــل مجـــتهد رأيه في أمور دولة حديثة العهد مترامية الأطـــراف تقـــر لكل المسلمين بحرية الرأي بدون معرفة بنوايا هذا المسلم أو ذاك. ولكـــن هـــذه الكـــلمة كانت لا تقال لفهم الفروق بين الخلفاء دائماً بنوايا حســـنة، وإنما استغلت من المنافقين لإثارة الفتنة، بعضهم لمصالح شخصية لم يحققهـــا لهـــم عـــثمان، وبعضـــهم لأغراض تدمير الدولة الإسلامية بزعزعة الاســـتقرار فيها باستخدام رداء الإسلام ولغته كما يحدث في تاريخنا المعاصر.

وهـذه أمـور لا غرابة فيها، بل الغريب أن لا تحدث في دولة كان عليها أن تواجه حضارات أمم وثقافات مهزومة، في أقل من عقدين من الزمان، وإذا كان سـلاح هـذه الثقافات قد انهار بانهيار دولها، فلم يبق أمامها إلا دخول الإسلام والتستر به لمقاومته. وإذا كنا لا نعمم هذه الحالة، فإن الجيل الأول من الشعوب الـتي دخلت في دولة الإسلام لابد أن تظهر فيها بعض أشكال المقاومة، كما أن الدول المجاورة ماكانت غافلة عن التحريض على دولة الإسلام. وقد أتاح طول عهـد عـثمان وحياؤه من الناس وليس ضعفه، الثورة عليه، وإن كانت الثورة تفتقر إلى كل أسباب الشرعية. وقد ورد عن أسباب هذه الفتنة أن ثوار مصر عـندما جاؤوا إلى المدينة صعد عثمان المنبر وقال يخاطب أهل المدينة: "أذعتم السـيئة وكتمـتم الحسـنة وأغريتم بي غوغاء الناس، أيكم يأتي هؤلاء القوم فيسـألهم ما الذي نقموا؟... وما الذي يريدون ـ ثلاث مرات ـ فلم يجبه أحد. فقـام عـلي فقـال: أنا.. فقال عثمان: أنت أقربهم رحماً وأحقهم بذلك. فأتاهم فرحـبوا به.. وقالوا: ماكان يأتينا أحب إلينا منك. فقال: ما الذي نقمتم؟.. قالوا: نقمـنا أنـه محـا كتاب الله، وحمى الحمى، واستعمل أقرباءه، وأعطى لمروان مائتي ألف. وتناول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. فرد عليهم عثمان: أما القرآن فمن عند الله، إنما نهيتكم لأني خفت عليكم الاختلاف فأقرؤوا على أي حـرف شـئتم، وأما الحمى فو الله ماحميته لإبلي ولا غنمي وإنما حميته لإبل الصـدقة لتسمن وتصلح وتكون أكثر ثمناً للمساكين، وأما قولكم: تناول أصحاب محمـد النـبي صلى الله عليه وسلم، فإنما أنا بشر أغضب وأرضى، فمن ادعى قبلي حقاً أو مظلمة فهذا أنا، إن شاء قود ـ قصاص ـ وإن شاء عفو، وإن شاء أرضـي. فرضي الناس واصطلحوا"(18). وإذا قارنا هذا المبلغ الذي قيل إن عـثمان منحه لمروان بأسعار تلك الأيام فإنه يعادل ثمن فرسين. كما إن ما قيل عـن جمع القرآن، وحماية الحمى فهي أعمال لصالحه وليست عليه، وإن إثارة الشـغب بسـبب جمعـه لـلقرآن وتوسيع الحمى لرعاية إبل الصدقة تدل على مسـتوى هـؤلاء الثوار الذين استندوا إلى اجتهادات ضالة لإثارة الفتنة إما عن جهـل أو خـبث، وذلـك بمحاولـتهم منع جمع القرآن لإيصال المسلمين إلى الاخـتلاف. وإن بقيـة الاتهامات التي وردت سنعتمد في تفنيدها على الأستاذ عـباس محمـود العقاد الذي قام بدراسة متكاملة عن حياة عثمان بن عفان. فقد ذكـر أن من أسباب الفتنة: "نبشهم عن سيئات عبد الله بن أبي سرح الذي ارتد فـي عهد الدعوة ثم تاب وولاه عمر بعض ولاياته في مصر. فإنهم زعموا أن عـثمان وقـد ولاه القيادة لأنه أخوه في الرضاع، والصحيح أن عبد الله بن أبي

الســرح كان أكفى الكفاة في قيادته، وأنه انتصر حيث قاد جيشاً في البر أو في البحر، ومع الروم أو مع أهل أفريقية. وزعموا أن عثمان نفل مروان بن الحكم بخمـس الغنائم التي أرسلها ابن أبي السرح من أفريقية، وهو غير صحيح وإنما الصـحيح أن أبـي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذهـا إلى عثمان وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها إلى المديـنة، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده فوهبها له عثمان يوم بشـره بفـتح أفريقية، والناس على وجل من أخبار الغارات عليها. وكقصة ابن أبي السرح قصة الحكم بن العاص الذي رخص له عثمان في العودة إلى المدينة بعـد أن نفـاه النبي صلى الله عليه وسلم عنها، فإنما أبى النبي أن يساكنه في المديـنة، ثم وعد عثمان أن يعفو عنه... ومنها أنه ولى الوليد بن عقبة لقرابته ثم اتهم بشرب الخمر... فأما أنه هو الذي ولاه فغير صحيح لأنه كان مولّى من قـبل عمر، وأما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحد وعزله، ولا يطلب مـن الإمـام أكثر من ذلك. ولاموه لأنه لم يقتص من عبد الله بن عمر لقتله الهرمزان المتهم بالتآمر على قتل أبيه. وأياً كان وجه العدل في هذه القضية لقد كان لوامه على قتل عبد الله لو أنه أخذه بالهرمزان أكثر من عاذريه.. وذكروا أنـه أبعـد أناسـاً من الصحابة عن مساكنهم أو عن أعمالهم، ولم يذكروا أنهم أغـلظوا له فـي القول ولم يوقروه، وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لأنه لم يقف له في مجلس الخلافة، وقال له: "إنك أردت أن تقول أنك لا تهاب الخلافة، فالخلافة تقول أنها لا تهابك".. ولم يعرف عن إنسان أنه اعتذر لصـحابي من الإساءة إليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود إلى يوم وفاته، وهو غايـة ما يستطيع... وأعجب العجب في هؤلاء قصته مع محمد بن أبي حذيفة بن عتبة قريب عثمان وربيبه في داره. فإن الناس قد ولعوا بالكلام على محاباة عـثمان لأقربائه، وهذا واحد من أقرب الأقربين إليه أقام عليه الحد لأنه أصاب شـراباً، ثـم جـاءه يطـلب منه ولاية فأباها عليه وقال له: لو كنتَ أهلاً لذلك لوليـتك.. فكـان هذا زعيم الثائرين عليه في مصر ومعه نفرٌ من ذوي قرباه.. ومـنهم مـن عزله كعمرو بن العاص، فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه، ولكنه كان يدعوه جهرة إلى التوبة وهي دعوة أشبه ماتكون بالاتهام الصريح... ومنهم من كان يزجره ولاة عثمان لأنه كان يهذر في الدين بما لا يعلم، أو يهذر فيه بما يعلم أنه الباطل ويضمر من ورائه سوء النية، كعبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، فقد أخرجه الولاة من بلد إلى بلد لأنه كان يقول برجعة النبي إلى الدنيـا وحـلول روح الله في علي، وقد كان علي رضي الله عنه أشد على ابن

السوداء هذا من عثمان وولاته"(19). وقد يكون عثمان أخطأ بنفي أبي ذر إلى الـــربذة، ولكن لا أحد يقول بعصمة الخليفة، أو وجوب هذه العصمة. وقد كانت أخلاق عثمان تدفعه إلى التسامح وقبول المراجعة. وقد يكون الخطأ في عرف بعـــض المجـــتهدين صواباً عند الآخرين، ومع ذلك فقد: "كتب عثمان إلى أهل الكوفـــة في شيء عاتبوه فيه، إني لست بميزان لا أعول"(20). ولكن الثائرين الذين جمعتهم مآرب شتى ما كانوا يريدون أن ينظروا إلى عثمان كبشر يصيب ويخـــطئ، وماكـــانوا يـــريدون أن يحاكموه على ضوء ماضيه، أو على ضوء إنجازاتـــه الســـابقة واللاحقـــة، وماكانوا يريدون أن يحاكموه على ضوء تغير الظـــروف التاريخية، وتطور الحوادث وانتشار الغنى والترف إضافة إلى الفقر، وهـــذا ليـــس ذنبه.. بل كانوا قد حكموا عليه بالقتل، وبعض الحاكمين من وراء الســـتار أرادوا الحكم على دولة الإسلام كما أراد أبو لؤلؤة الحكم عليها باغتياله لعمـــر بن الخطاب، كما سيكون الشأن مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. لقـــد صبر عثمان على ظلم الظالمين مع أنه كان يستطيع مواجهة الثوار بطلب الإمـــداد من معاوية أو غيره من ولاة الأمصار. ولكن عثمان أبى أن يستخدم سيوف الموالين في رقاب المسلمين المضللين. ليس عن جبن، ولكن لخوف من الله وخوف من إراقة دماء المسلمين دفاعاً عن نفسه. وكان من شجاعته رفضه للتـــنازل عـــن الخلافـــة، رغم تأكده من نواياهم، وقد جاء عن أبي سهلة مولى عـــثمان أنـــه قال له أثناء حصاره: "قاتل ياأمير المؤمنين، قال لا والله لا أقاتل، وقـــد وعدنـــي رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فأنا صابر عليه"(21)، وقد كان عثمان يعرف أن قدره الشهادة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكـــان عـــثمان يذكر الصحابة بهذا الحديث أحياناً كلما طال به العمر، ويقول: "أتعـــلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحداً وأبو بكر وعمر وأنا فارتج أحـــد. فقـــال النبي صلى الله عليه وسلم: "أثبت أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشـــهيدان"(22). لقـــد كـــان من مصائب المسلمين في ذلك العصر قيام العامة بالاجـــتهاد في أمور الدين والدنيا، وإطلاق الأحكام دون وعي أو دراية، ودون فهم للعوامل الشخصية والظروف التاريخية المحيطة، بكل خليفة. فكانت النتيجة أن ظُـــلمت الخلافـــة وتهلهل مركزها حين ظُلم الخليفة. فكان لابد للخلافة أن تصـــبح ملكاً لضبط أمور الغوغاء ومنعها من القيل والقال وإطلاق الأحكام، أو تدميـــر الدولة الإسلامية، لأن ما يصلح لزمان لا يصلح لزمان آخر. لقد وصل أمـــر العوام إلى حد إطلاق الأحكام على من يدخل الجنة والنار حتى إن رجلاً مـــن هؤلاء قال لعلي يعلمه بحكم الله على عثمان: "إن عثمان في النار".. وفي

الحقيقــة أنه ما قال، ولكنه نصب نفسه على ميزان الحق. فقال علي وقد فاجأه هذا الكلام. "ومن أين علمت؟.. قال: لأنه أحدث أحداثاً. فقال له علي: أتراك لو كــانت لك بنت أكنت تزوجها حتى تستشير؟.. قال: لا... قال: أفرأي هو خير مــن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنتيه؟... وأخبرني عن النبي صلى الله عــليه وسلم أكان إذا أراد أمراً يستخير الله أو لا يستخيره؟... قال.. لا.. بل كــان يستخيره. قال: أفكان الله يخير له أم لا..؟ قال: بل يخير له. قال فأخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار الله له في تزويجه عثمان أم لم يختر لــه؟ ثم قال له: لقد تجردت لك لأضرب عنقك فأبى الله ذلك، أما والله لو قلت غير ذلك ضربت عنقك"..(23).

وكــان عثمان كما كان علي في أحوالهما وأخلاقهما عرضة لظروف لم يستعدا لها، ولا يتقنان الدوران معها مع أنهما لا تنقصهما الحكمة ولا السياسة. ولكن هل يستطيع عثمان أو علي أن يواجها عمرو بن العاص بأخلاقهما. وكان الزمن والعصر والناس يتهيؤون لنجاح ابن العاص. ولهذا ستخفق شجاعة علي وعدلــه وحكمــته، كما فشل حياء عثمان وكرمه وتقواه. لأن التاريخ كان يتهيأ ويهيــأ للملك بعد أن استنزفت الخلافة طاقاتها في عجزها عن مجابهة شورى الشوارع والمدن والقبائل. أي شورى فوضى الاجتهاد وفوضى التأويل وفوضى الأحكــام. وكــانت الخلافــة وهيبة الدولة كلها ممثلة في شخص واحد، وعليه مجابهة كل هذه الفوضى بوسائل إعلام وإقناع لا يملكها وجيوش لا يبيح لنفسه اســتعمالها في مجابهة الثائرين والحكم عليهم. وكان من الأخطاء التي أدت إلى مــا وصل إليه الحال، هو عدم الانتباه لإيجاد مؤسسات للشورى ثابتة في كل ولايــة من الولايات من زعماء الأمصار المشهود لهم بالفضل والخلق الحسن، إضــافة إلى مؤسسة في العاصمة لتدارك أي خلل واقتراح الحلول المناسبة لكل مشــكلة قــبل اســتفحالها بدلاً من تحميل الخليفة ما لا يطيق من المسؤولية. وســوف يتضح لكل دارس لحياة عثمان وسيرته، أنه كان ضحية لشائعات عن أخطــاء لم يرتكبها. ولهذا سيخفق علي بن أبي طالب أيضاً رغم زهده وتقشفه لأن أخــلاق الخلفاء لا تستطيع أن تفعل مايفعله الملوك. وكان على الخلفاء أن يتحمــلوا مسؤولية الشاة الضالة في كل أنحاء المملكة، وهذا ما لايقدرون عليه ولا يطيقونــه. ولهــذا ســتخفق الأخلاق التي عملوا بها في ضبط الناس، بينما ستنجح شرطة معاوية ودهاء ابن العاص لأن الزمن كان يتطلب نوعاً آخر من الحكام لا تصلح له أخلاق الخلفاء..

بقـــي أن نقـــول: إن عثمان الشهيد ذهب وبقي من مآثره مصحف عثمان الذي يتـــلوه كـــل مسلم الآن. فكان جمعه للقرآن شهادة له بل إنها أعظم شهادة، فقد أراد عـــثمان ببعد نظره أن يوحد المسلمين، وقد نجح في تأسيس هذه الوحدة، بينما كان خصـــومه يريدون أن يفرقوا وأن يمزقوا هذه الوحدة بالجهل أو سوء النوايا، وهما أمـــران يكشفان عن مفاهيم العدالة التي استند إليها هؤلاء الذين دخلوا على رجل في الســـبعين من عمره وقتلوه مع أنهم كانوا يعرفون بأنه لو أراد أن يقتلهم بالموالين له وبالشـــرعية الـــتي يســـتند إليها لقتلهم. وأسوأ من ذلك أنهم قطعوا عنه الماء، وهو يقـــول: لا أقـــاتل رحمـــة بهـــم. ولا أتنازل حرصاً على موقع الخلافة من العبث، بشجاعة لا يطيقها إلا قلب مؤمن لم تكن الدنيا همه ولا غايته. ولو كان عثمان من رجال الدنيا الحريصين عليها وعلى الملك كان سيتنازل أو يقاتل حباً بالحياة ورغبة فـــي الملك.ولكنه لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء. بل كان من الذين قتلهم خوفهم من الله أولاً، ومـــن الذيـــن قتـــلهم حياءهم من الله ثانياً، وهذه شهادات له وليست عليه، ولهذا رضي بإهراق دمه ولم يرض بإهراق دم مسلم في سبيله أو بسببه.

خلافة علي بن أبي طالب

(35ـ 40هـ/ 656ـ 661م).

لقد تولي علي رضي الله عنه الخلافة في عام (35هـــ/ 656م)، بعد مقتل عـــثمان رضي الله عنه. وإن الكلام عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ليس مـــثل أي كـــلام. فعـــلي لـــم يكن في التاريخ مثل عظماء الرجال الذين أنجبهم الإسلام ، يمكن أن تقرأ عنه لتبصره وتبصر مزاياه، بل لابد للتعرف عليه من خـــوض بحـــر الإحسان لإدراك ما ميزه به الرسول صلى الله عليه وسلم حين قـــال: "أنـــا مدينة العلم وعلي بابها"(1).. فهذا علم العارفين الذي لا ينكشف إلا لمـــن كـــان حـــبه لله، وكانت أحكامه منه وإليه، عن يقين ومعرفة. وقد عرفه الخـــلفاء فيمـــا قضاه واختلف عليه من التشريع فكان الحجة والمرجع وصاحب القـــول الفصـــل. حتى قال عمر بن الخطاب: "قضية ولا أبا حسن لها".. "ولولا عـــلي لهلك عمر".. وإذا ذكر الشجعان فقد كان علي من أشجع الشجعان، ومن أحسنهم أخلاقاً ورأفة بخصومه. وقدكان علي غالباً مفتاح معارك الرسول صلى الله عليه وسلم، ورمز البطولة وبشارة النصر في المواقف الحاسمة والمبارزات

الحاميـــة. وإذا ذكـــر إسلام الذكور فقد كان أول الذكور إسلاماً وأصغرهم سناً فقضى في كنف الإسلام كل حياته. كما استمد من تربية الرسول صلى الله عليه وسلم وعنايته به منذ الطفولة مالم ينله سواه.

وإذا ذكـــرت الأنساب فعلى أقرب الصحابة نسباً إلى رسول الله صلى الله عـــليه وســلم فهو ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الكاملة رضي الله عنهما، ولهذا خرج علي من ميدان المنافسات التي يتبارز بها الأتراب والأمثال لأنه لا منافس لـــه ولا ند من ناحيتين. فقد نال بالولادة الطبيعية أقصى ما تتيحه الأنساب من المجـــد، كمـــا نال بالاكتساب والتعلم كل ما يتيحه العلم من السمو فكان سبّاقاً. فجمع بين المجدين مجد الاكتساب ومجد الانتساب. ولهذا كان لا يغار من أحد، وإن كـــان موضعاً لغيره الغيورين، وهدفاً لسباقهم. لهذا فإن الكلام عن علي لا يغـــنيه مدح المادحين وإن أسرفوا في الثناء. وليس لنا ولغيرنا إلا تتبع أعماله، والغـــوص في أسرار الإلهام التي كان مركزها والمحيط بأخبارها، واتباع آثاره لشهود حقائق التوحيد التي وصل إليها ونبه عليها.

لقد كان علي فريداً بين الصحابة بشفافيته التي تفوقت في كل ميدان. فكان صـــورة الإيمان وعلمه وحقيقته، ولهذا مثل علي الإيمان كله في مجابهة الكفر كله طوال حياته، ورفض أوساط الحلول ودهاء السياسة وإن كان لا ينقصه علم الدهاء، وهل يجهل الدهاء من أتقن العلم لو أراد أن يستخدمه في نجاح حكم أو تنفيذ سياسة؟.؟ وربما كان لعلي مبررات كثيرة لو استخدم ترياق الدهاء والحيلة فـــي مواجهة خصومه. ولكنه كان لأسباب كثيرة لا يستطيع أن يواجه خصومه بأســـاليب السياسات الملتوية. منها ما يعود لشجاعته المستمدة من الحق، ومنها بسبب أخلاقه التي شربت صفاء الإيمان فأشرقت بالصدق وأثمرت بالتعفف عن الصـــغائر ونوايـــا الغـــدر والخبث، وبسبب إيمانه الذي جعل حياته في خدمة الإســـلام ولـــم يجعـــل الإسلام في خدمته. لقد ترفع علي في كل المواقف عن المساومة عما كان يراه حقاً لبعض الوقت في سبيل النجاح، لأن حساباته كانت تذهـــب إلى الغايـــات، وحسابات غيره تبحث في الوسائل، وكانت أدوات علي شريفة مثل غاياته ولهذا حير أصدقاءه وأعداءه.

جـــاء إليه المغيرة وبايعه بالخلافة، وقال: "إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الـــرأي اليـــوم تحرز به مافي غد، وإن الضياع اليوم تضيع به مافي غد. أقـــرر معاويـــة على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعـــة الجنود استبدلت أو تركت"... فأبى وقال: "لا أداهن في ديني ولا أعطي

الدنيـــة فـــي أمري".. قال المغيرة: فإن كنتَ أبيت عليَّ فانزع من شئت واترك معاويـــة، فـــإن فـــي معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يُستمع له ولك حجة في إثباته. إذ كان عمر قد ولاه الشام. فقال علي: لا والله لا أستعمل معاوية يومين. ثـــم خـــرج المغيـــرة ودخل عليه ابن عباس فقال له لماعلم برأي المغيرة: إنه نصـــحك.. قال علي: ولم نصحني؟... قال: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيـــا، فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمـــر بغير شورى وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهـــل العراق"(2). كانوا يتكلمون بمنطق السياسي. ولكن لسان الحق لا يجامل ولا يداهن، ولهذا أمر علي بعزل معاوية، وكان ماكان من الحرب بينهما. وكان ماكـــان مـــن الحـــروب بينه وبين آخرين. وعلي لا يميل ولا يتزعزع عن قيم الإســـلام الصارمة. ولكن الزمن كان قد تغير. والناس تغيروا. وكان علي كأنما يصـــرخ في هذا المحيط من الانحراف لوحده مع قلة من المخلصين الذين كانوا يأمـــلون بأن يعيدوا للإسلام إشعاع الزهد ونور الإيمان. فكانت معارك علي معارك قيم وأخلاق بينما كانت معارك خصومه، معارك مصالح أو جهل. ولهذا قال لمن ظن أن معركته مع معاوية معركة دهاء: "والله ما معاوية بأدهى مني، ولكـــنه يغـــدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس"(3)... وكان فجور خصومه قد تجلى في كثير من المواقف، منها رفع المصاحف يوم كانت الغلـــبة لقـــوات علي على معاوية، ومنها خداع عمرو بن العاص لأبي موسى الأشـــعري في قضية التحكيم، ومنها يوم استشهاد عمار بن ياسر. كان الرسول صـــلى الله عليه وسلم قد قال لعمار بن ياسر: "تقتلك الفئة الباغية، وآخر زادك من الدنيا ضيح من لبن"(4). وكان هذا الحديث يعرفه عامة المسلمين. فلما قتل عمـــار على يد جند معاوية قال المفسرون من فرقة معاوية لقد قتله من جاء به إلى الحـــرب، مـــع أن جـــنود علي وعمار منهم جاؤوا بمحض إرادتهم. ولكن إغماض العيون عن الحقائق وتزييفها كان سمة من سمات المرحلة التي تشابكت فيهـــا دنيـــا بعـــض الناس مع آخرتهم. فكانوا يريدون أن يجمعوا بينهما بالباطل فقبلوا التفسير وقبلوا التزييف، وراحوا يرددونه كالببغاوات في مرحلة اختلطت فيهـــا المعاني والأحلام والآمال. وكان علي يتعذب وهو يمسك بإيمانه فلا يريد أن يغـــدر أو يفجر، ولا يريد أن يستبيح الدماء في سبيل خلافة ألزم بها إلزاماً، ولا يســـتطيع أن يرد مسؤولية وضعها المسلمون في عنقه. وكان عذابه بسبب ضـــميره، وبسبب الناس الذين بايعوه لأهواء شتى. فقال: وهو يصف هذا الحال الـــذي آل إليـــه أمر المسلمين: "لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم

واحداً، إني أريدكم لله، وأنتم تريدوني لأنفسكم"(5).

ما أصدق هذه الكلمة التي شكلت مسيرة حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فقد كان يريد أن يكون جهاد الناس معه لله، ولكن الثروات الكثيرة كانت قد علمت الناس على حب الحياة والاستمتاع بها. فأين سيجد علي كرم الله وجهه هذه النفوس التي ستقاتل معه لوجه الله، كما كانت تفعل في أيام البؤس والفقر. ولهذا كان الذين معه بالقلب والروح قلة رغم كثرة المؤيدين والأنصار. لقد قاتل علي من أجل إسلام المساواة، وإسلام العدل، وعالمية الإسلام. بينما قاتل غيره من أجل سيادة العشيرة، واسترداد ما أخذه الإسلام من سيادة بعض الأسر. ولهذا بنى معاوية دولة أموية، بينما صار علي بن أبي طالب روح عالمية الإسلام وأمميته وعدله، فسقط الدهاء وبقي علي علماً مضيئاً في تاريخ الإسلام لا يسبر غوره، ولا يغني الحزن عما أصابه في رتق هذه الثغرة المؤلمة في تاريخ العرب خاصة والإسلام عامة. ولكن بعض الأقدار سابقة على الاختيار فقد وقف علي رضي الله عنه يخطب فقال: "اللهم إني سئمتهم وسئموني ومللتهم وملوني فأرحني منهم وأرحهم مني، ما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم ووضع يده على لحيته"(6).كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال لعلي ذات يوم: "من أشقى الأولين؟ قلت: عاقر الناقة، قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قال: لا علم لي يا رسول الله. قال: الذي يضربك على هذه، وأشار بيده إلى يافوخه"(7).. كان علي ينتظر هذه اللحظة التي سيضربه فيها قاتله كما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحين جاءت وغدر به ابن ملجم قال لهم: "أطعموه واسقوه وأحسنوا إساره، فإن عشت فأنا ولي دمي، أعفوا إن شئت، وإن شئت استقدت، وإن مت فقتلتموه فلا تمثلوا"..(8).. هذه أخلاق علي في خلافته، عاش للعدل حتى آخر لحظة في حياته، وأبى أن يولي عليهم خليفة من بعده، عندما قالوا له: "يا أمير المؤمنين استخلف علينا، قال: أتركركم كما تركم رسول الله صلى الله عليه وسلم"(9).. كان علي ينظر إلى الآخرة والدنيا تقبل عليه كما أقبلت على غيره بثرواتها وملذاتها، وهو يرتدي الثوب المرقع، ويقول لمن اقترح عليه سلامة الثوب وجودته: "يقتدي به المؤمن ويخشع به القلب"..(10). كلمات وجيزة تعبر عن حال من قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكر سعد: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي ثلاث خصال لأن يكون لي واحدة منها أحب إلي من الدنيا، ومافيها، سمعته يقول:أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وسمعته يقول: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ليس

بفرار. وسمعته يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه"(11). لقد كانت خصال علي التي شهد الرسول صلى الله عليه وسلم له بها هي ثوبه الذي يفخر به، ولن يضيف إليها الثوب الأنيق أو المرقع شيئاً لقد كان الزهد خلقاً يلتزمه المؤمنون اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان في علي طبيعة من سجاياه، لأن الفروسية وجمع المال نادراً ما يلتقيان. ولهذا حرم علي رضي الله عنه على نفسه الاستمتاع بالدنيا، حتى أشفق خادمه عليه، فجاء إليه يوماً وقال له: "يا أمير المؤمنين: إنك رجل لا تليق شيئاً ـ أي لا تمسكه ـ وإن لأهل بيتك في هذا المال نصيباً، وقد خبأت لك خبيئة. قال: وماهي؟ قال: انطلق فانظر ماهي؟... فأدخله بيتاً فيه باسنة مملوءة آنية ذهب وفضة مموهة بالذهب، فلما رآها علي. قال: ثكلتك أمك. لقد أردت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة. ثم جعل يزنها ويعطي كل عريف بحصته، ثم قال هذا جناي وخياره فيه، وكل جان يده إلى فيه، ولا تغريني وغري غيري"(12). وكان "يكنس بيت المال ثم يصلي فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين"(13). وكان يتذكر كيف بدأ حياته مع ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم على الزهد مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستطيع أن يعطي ابنته لتعيش حياة المترفين لو أراد، ولكنه آثر لها حياة الزهد كما آثرها لنفسه، فكان علي، يقول: "نكحت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لنا فراش إلا فروة كبش فإذا كان الليل بتنا عليها وإذا أصبحنا فقلبنا وعلفنا عليها الناضح"(14).

لقد وصل علي رضي الله عنه قرابته التي قربته من الرسول صلى الله عليه وسلم بأعماله وأفعاله حتى نهاية حياته، حتى وصل في هذا القرب إلى مستوى لا تطيقه النفوس إلا نادراً. فكانت أحكامه في ميدان العدل لا تصدر إلا عن رجل فرق بين نفسه وبين عواطفه، فكان يحكم على نفسه كما يحكم على رجل غريب، وإن كانت عواطفه تذهب مذهباً آخر، كما هو شأن العواطف الجياشة في رجل شجاع مقدام لا يخاف في الله لومة لائم. بل ربما كان يجور على نفسه في الحكم ليستقيم بالنسبة إليه ميزان العدل الممزوج بأخلاق الكرام وسماحة الشجعان، حتى اتهمه الخوارج بما اتهموه به، وكانوا من أنصاره، لكثرة ما شاهدوا من سماحته ورأفته بخصومه رغبة في حقن دماء المسلمين.

وكان جهلهم بسمو نفسه قد حكم عليهم، وأدى بهم إلى الحكم عليه بالقتل. وكيف سيفهم علياً رضي الله عنه كل مسلم، وهو يقول عن أصحاب الجمل الذين قاتلوه حين سئل عن رأيه فيهم: "أمشركون هم؟.. قال: من الشرك فروا..

قيـــل: أمـــنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فمن هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا"..(15).

جـــاء جعـــدة بن هبيرة إليه وقال مستغرباً: "يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنـــت أحب إلى أحدهما من نفسه، أو قال من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحـــك لذبحك فتقضي لهذا على هذا؟ قال: فلهزه علي. وقال: هذا شيء، لو كان لي فعلت ولكن إنما ذا شيء لله"(16). وكان من عدله أنه ذهب بنفسه إلى قاضيه ــ شـــريح ــ ليشكو ذمياً سرق له درعه ورآها معه، فأبى أن يحكم عليه وهو الخـــليفة. وقـــال لشريح: "إنها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح النصراني: ماتقول فيما يقوله أمير المؤمنين؟... قال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمـــنين عندي بكاذب. فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بيـــنة؟ فضـــحك علي وقال: أصاب شريح. مالي بينة! فقضى بالدرع للنصراني فأخذهـــا ومشـــى وأمير المؤمنين ينظر إليه... إلا أن النصراني لم يخط خطوات حـــتى عاد، يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء... أمير المؤمنين يدينني إلى قاضـــيه يقضـــي عليه!.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعـــك يـــا أمير المؤمنين، فقال: أما إذ أسلمت فهي لك، وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند في قتال الخوارج"(17)..

ولكـــن شأن علي وشأن أولاده من بعده رضي الله عنهم، وما صدر بحقهم مـــن بعـــض المسلمين كان يدعو إلى العجب، بل إلى أعجب العجب، فقد جاء رجـــل إلى عـــبد الله بن عمر "فسأله عن دم البعوض. فقال له ابن عمر: ممن أنت؟! فقال: رجل من أهل العراق. فقال ابن عمر: ها أنظروا! هذا يسألني عن دم البعوض وهم قتلوا ابن رسول الله! وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول: همـــا ريحانـــتاي من الدنيا"(18).. وكان عبد الله يقصد خوارج العراق الذين كانت أسئلتهم وأعمالهم كما وصف. وما أكثر العجائب التي ارتكبت باسم الإســـلام ضـــد علي وآل بيته رضي الله عنهم. وعلي يعفو ويوصي بالإحسان لقاتله. ويعلّم من أحب أن يقتدي به وأن يسمو بأخلاقه فيقول: "إني لأستحي من الله أن يكـــون ذنـــب أعظـــم من عفوي، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يواريهـــا ســـتري، أو خـــلة لا يسدها جودي"(19).. كان علي رضي الله عنه يســـتحي مـــن الله ويقـــول وقد ارتفع بإيمانه فوق ما يسعده أو يسوؤه كما كان الرســـول صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".. وكان من رحمته بالرعية أن بعضهم تجرأ عليه بغير حق فتحمل جرأتهم وقال: "كنت

أرى أن الوالي يظلم الرعية فإذا الرعية تظلم الوالي"(20).

هـــذا كـــان حاله مع رعيته التي أفسدتها المغالاة سواء في حب بعض من أحـــبوه أو في كره من كرهوه حتى قال: "يحبني قوم حتى يدخلهم حبي النار، ويبغضني قوم حتى يدخلهم بغضي النار"(21). وقال: "يهلك في رجلان: محب مفـــرط، ومـــبغض مفرط".. (22). وقال:" يهلك فينا أهل البيت فريقان: محب مطـــر وباهت مفتر"[2].(23) وكان علي لمعرفته بالله ينصب ميزان الشرع على هـــؤلاء وهؤلاء حتى اضطر إلى إحراق بعض الروافض الذين وصفوه بصفات الإلـــه وعبدوه، فكان مما زعموه وهو ينكل بهم أن قالوا له: إن الإله هو الذي يحـــرق بالـــنار. وربمـــا اشتد علي رضي الله عنه في عقاب هؤلاء لأنه كان المســـتهدف فـــي هـــذه العـــبادة الخارجة عن الشريعة الإسلامية، فحارب هذه المعتقدات بقوة حتى لا يبقي أي تأويل لهؤلاء وغيرهم فيما يتعلق بشخصه كعبد مـــن عباد الله. لقد ابتلي علي رضي الله عنه بأشياء كثيرة، وتعرض لكثير من المحـــن فكـــان في كل موقف يكشف عن الإيمان والصدق فيما يقول، وعن بعد نظر فيما يتصرف أو يفعل، فعندما جاءه أبو سفيان وقال له بعد أن بويع لأبي بكر بالخلافة "يا علي بايعوا رجلاً أذل قريش قبيلة، والله لئن شئت لنصد عنها عـــليه أقطارهـــا ولأملأنهـــا عليه خيلاً ورجلاً. فقال له علي: يا أبا سفيان إن المؤمـــنين وإن بعدت ديارهم وأبدانهم قوم نصحة بعضهم لبعض، وإن المنافقين وإن قـــربت ديـــارهم وأبدانهم قوم غششة بعضهم لبعض، وإنا قد بايعنا أبا بكر وكـــان لذلـــك أهـــلاً"(24).. وكـــان من مظاهر حبه للخلفاء الذين تولوا خلافة المســـلمين أن ســـمى ثلاثة من أولاده بأسمائهم وهم أبو بكر وعمر وعثمان. وزوج ابنـــته أم كلثوم لعمر بن الخطاب، واحتضن ابن أبي بكر محمداً ورشحه لولايـــة مصر فغلب فيها واستشهد. وقال عنه وهو يقيم أسباب إخفاقه: "بلا ذم لمحمد بن أبي بكر، فلقد كان إلي حبيباً وكان لي ربيباً"(25).. ودافع عن عثمان قـــبل الحصـــار بنصـــحه وإبداء رأيه فيما كان يراه خطأ، وفي دفاعه عنه يوم حصـــره الثوار، ورأى أنهم يريدون به شراً لا يستحقه، فدخل عليه علي ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر ونفر من المهاجرين والأنصار، وقال له: "لا أرى القوم إلا قاتليك فمرنا فلنقاتل"... فقال عثمان: "أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقـــر أن لـــي عليه حقاً أن يهريق في سببي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فـــي"(26)، فـــترك ابـــنيه الحسن والحسين على بابه مع نفر من أبناء الصحابة

---

[2] *كنز العمال، رقم 31641/ج11.*

المعــروفين مما جعل الثوار يتحرجون من الإقدام على قتل هؤلاء للوصول إلى الخـليفة وفيهـم الحسن والحسين، حتى قام عثمان وفتح بابه ليمنع القتال حوله وقـال لحراسه: "أنتم في حل من نصرتي".. هذه مواقف علي رضي الله عنه فـي الأزمـات التي تعرض لها المسلمون وإن كان له رأي في الخلافة أو في استحقاقه لها. فقد كان يفرق بين حقوق الخلافة ورأيه في الخليفة، فكان الجندي المطيــع بين أيدي الخلفاء والناصح الشفيق عليهم. ولهذا أراد أن يبذل دمه في نصرته لعثمان عندما تجاوز الثائرون حدود الحق إلى الباطل، رغم أنه كان لا يكـف عن نصحه له أمامه إذا سئل. لهذا كان موقفه من عثمان غريباً على من لا يفهمـون مواقـف الرجال الشجعان في الدفاع عن الحق. فكانوا يذهبون مع عواطفهـم كل مذهب، إما كراهية لا شفاء معها ولا إنصاف، أو حباً لا بصيرة معـه ولا عقل، بينما كان علي رضي الله عنه يحب لله ويكره لله، ويقاتل لله لا لنفسه، ولهذا كان يصبر على من آذاه، ومن خدعه، لأنه كان يدافع عن دين لا عـن دنيـا. عن الإيمان الذي ملأ عقله معرفة، وقلبه رحمة، وليس عن هوى لـنفس أو سلطة، أو كسب. فقد كان علي لا يستطيع أن يهرق قطرة من دم إلا في سبيل الله. من نظر إلى طعامه وإلى لباسه يعرف ذلك..

مـا فـائدة السلطة والخلافة والقتال والتعرض للأخطار والشدائد في سبيل ملك يقود صاحبه إلى التبلغ بلقيمات من طعام متواضع وارتداء لباس خشن؟ لم يطـلب عـلي رضـي الله عـنه الخلافة لدنيا، بل الخلافة طلبته والعدل طلبه، والـتاريخ طلـبه لينصف الظالم من المظلوم، بعد أن اتسعت رقعة الدولة وكثر المـال، وانتشـر الفسـاد، فكان علي مطلوباً ليقوم اعوجاجاً وليتابع مسيرة أو مرحلة من مراحل التاريخ.

كـان الإيمان، والفساد والضلال والجهل وسوء الفهم، يتصارعان، فاختار أهـل الإيمان علياً للسير بهم على هدي النبوة، واجتمع في صف آخر أصحاب الأهـواء مـن الطـامعين بالخلافـة أو الذين سيتضررون من العدل، أو الذين حركـتهم مشـاعر العصبية ضده لبلائه في الإسلام وجهاده ضد أهل الشرك. وكـان أكـثر المتضررين من خلافة علي ربما معاوية بن أبي سفيان. فإضافة لقـرار عـلي بعزلـه فقد كان علي قد قتل في معركة بدر عتبة بن ربيعة جد معاويـة والوليـد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه، إضافة إلى ما قتله من مشركي قـريش في الحروب الأخرى. ولهذا كان معاوية لا يستطيع أن ينسى كل هذه النكـبات التي تعرضت لها أسرته بسيف علي، وربما نكأ قرار علي بعزله كل

هــذه الجراح، وربما لأن معاوية كان يعرف كما يعرف غيره بأن عدل علي لا يتســع لأي ظــلم، لهذا تألبوا عليه وقاتلوه. وقد عرف علي أن غالبية قريش لا تريده لهذه الأسباب فاضطر إلى نقل عاصمته للكوفة وقال قولته مالي ولقريش: "أمــا والله إن كنت لفي ساقتها حتى تولت بحذافيرها ما ضعفت ولا جبنت وإن مسيرتي هذا لمثلها، فلأنقبّن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه، مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين"(27). ولكن علياً كان أرحم بخصومه ممــا كــانوا يتصــورون. وقد وسعهم عدله وسماحته في أحلك الظروف وأشد الأوقــات: "فصــلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء. وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائــه والمؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء. وظفر بعمرو بن العاص وهــو أخطر عليه من جيش ذي عدة، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته إتقاء لضربته... وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صــفين وهــم يقولــون له: "ولا قطــرة حتى تموت عطشاً... فلما حمل عليهم وأجلاهــم عــنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده. وزار السيدة عائشة بعــد وقعــة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كمــا أيــتمت أولادي. فلم يرد عليها شيئاً، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟.. فانتهره وهو يقول: ويحك؟ إنا أمرنا أن نكف عــن النساء وهن مشركات، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟ وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة، ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع، وسار في ركابها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحــف بهــا. قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمــائم وقــلدهن السيوف. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكــر بــه وتأففت، وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي... فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن، وقلن لها: إنما نحن نسوة"(28)...

وكــان من كلامه في خطبة له بعد وقعة الجمل، رحمة بمن قاتلوه، باحثاً عن أعذار لهم، استند إليها لكي يمنع الناس من الغلو والإسراف في الاتهام أو الشــتيمة، مــترفعاً بسماحته التي اهتدى إليها بنور النبوة وحكمة الشريعة عن الحقــد، فكان القاضي العادل على من اصطدم به وآذاه فرد الأمر كما كان يعلم إلى نــور العقــل. فقال: "إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقــول. فأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن.

وأمـــا نقصـــان حظوظهـــن فمواريثهن على النصف من مواريث الرجال، وأما نقصـــان عقولهـــن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد. فاتقوا شرار النساء. وكونوا من خيارهن على حذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المـــنكر"(29). وكـــان من أخلاقه أنه حين سمع نفراً من أصحابه يسبون أهل الشام فقال لهم: "إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حـــالهم كـــان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقـــن دماءنـــا ودمـــاءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعـــرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به"(30). ومثل هذا الكلام لا يقوله إلا عالم بأمر الله ناظر إليه في مشيئته وهدايته.

وبـــاب علي إلى العلم الإلهي باب عميق لا يدخله إلا مهتد ولا يصل إليه إلا مـــتحقق. وتكفي إجابته لمن سأله: "يا أمير المؤمنين متى كان الله"، لإدراك عمـــق معرفـــته بـــربه. فقد اختصر في إجابته فلسفة المتفلسفين، وأتى بمعرفة الموحديـــن فقال: "إنما يقال متى كان لمن لم يكن ثم كان. فأما من ـــ لم ـــ يزل بـــلا كيف يكون كان بلا كينونة، كائن لم يزل قبل القبل وبعد البعد لا يزال بلا كيف ولا غاية ولا منتهى، إليه انقطعت دونه الغايات فهو غاية كل غاية"(31).. وقـــال: "أول الديـــن معرفته، وكمال معرفته التصديق به. وكمال التصديق به توحيـــده، وكمـــال توحيـــده الإخـــلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عـــنه لشـــهادة كـــل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصـــفة"(32).. وأجمعـــت فرق التصوف على الاستمداد من علمه في التوحيد فكـــان بابها إلى بحر الحقيقة، وطريقها لدخول مدينة المعرفة النبوية. كما كان مؤســـس عـــلم النحو العربي. "وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكا إليه شيوع الـــلحن على ألسنة العرب، فقال له: اكتب ما أملي عليك، ثم أملى أصولاً منها: إن كـــلام العـــرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعـــل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعـــل... وإن الأشـــياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر.. يعني اسم الإشارة على قول بعض النحاة. ثم قال لأبي الأسود: انح هذا النحو يا أبا الأسود. فعرف العلم باسم النحو من يومها"(33)..

ولقـــد شهدت لعلي رضي الله عنه أعماله وأفعاله فكان عند ميزان الحق دائمـــاً، وكيف يتجاوز إمام أهل المعرفة هذا الميزان، وهو الذي تربى في كنف النـــبوة وشـــرب من علومها. ولكن حظوظ علي رضي الله عنه في زمنه كانت

أقل من مؤهلاته وقدراته، ولم يفاجأ علي بما تعرض له أو بما سيتعرض له. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبره باستشهاده عناية به من الله. وأخبر الزبير بن العوام بما سيصدر عنه نحوه فقال له: "أتحبه؟.. أما إنك ستخرج عليه وتقاتله وأنت له ظالم"(34)..

وكان علي رضي الله عنه مشاهداً ينتظر وقوع ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معذوراً وهو يحاول أن يرد الناس إلى إسلام الإنسانية، الإسلام الذي لا فرق فيه بين عربي وأعجمي أو أبيض أو اسود إلا بالتقوى، بينما أراد بعض زعماء قريش أن يجعلوه مطية لدولة وملك. وإذا قرأنا دعاء عمر بن الخطاب في آخر خلافته وهو بالحج سنفهم أي ظروف قد طرأت، وأي أمراض وعلل قد نشأت بعد الفتنة التي أودت بحياة عثمان. لقد قال عمر وهو يشاهد حجم التبدل الذي أحدثته الفتوحات "اللهم كبر سني، وضعف قوتي، وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط"(35). وقد تحقق ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاء بعض الصحابة يشكون إليه الفقر فقال لهم:"ستفتح عليكم الدنيا حتى تنجدوا بيوتكم كما تنجد الكعبة، فأنتم اليوم خيرٌ من يومئذٍ"(36).. وقد كثرت الأموال التي أفسدت الضمائر وظهرت الفتن. وقد كان بعض الصحابة من أهل الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة يتطلعون إلى الخلافة عن اعتقاد بحقهم وكفاءتهم. وقد رأينا طول المداولات التي ذارت بينهم حتى اتفقوا على خلافة عثمان فلما اغتيل عثمان، كان الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله يتطلعون إلى الخلافة في جو من الفوضى لم يسمح بانتقال السلطة إلى الخليفة الجديد علي بن أبي طالب بأسلوب يرضيهم.

وربما رأى معاوية أن هذه الفوضى ستقود البلاد إلى الكارثة واعتقد أنه الأكفأ لقيادة الدولة من بين الجميع، إضافة إلى الأسباب التي ذكرناها والتي جعلته لا يقبل بخلافة علي. وقد رأى علي حيرة المسلمين في هذا الأمر الذي دخلوا فيه، ولهذا كان علي يترحم على قتلى الفريقين يوم صفين. جاء"عن المسيب بن نجبة: قال: كان علي آخذاً بيدي يوم صفين فوقف على قتلى أصحاب معاوية، فقال: يرحمكم الله، ثم مال إلى قتلى أصحابه فترحم عليهم بمثل ما ترحم على أصحاب معاوية. فقلت: يا أمير المؤمنين استحللت دماءهم ثم تترحم عليهم؟.. قال: إن الله تعالى جعل قتلنا إياهم كفارة لذنوبهم"(37).. والأصح أنه قال كما ذكر: "من كان يريد وجه الله منا ومنهم نجا".. فوكلهم إلى

نياتهم، وهذا هو الأقرب إلى علم الإمامة وأخلاقه. وقد قيل لأم المؤمنين عائشة بعـد وقعة الجمل: "من كان أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. قـالت: عـلي بن أبي طالب. قلت: أي شيء كان سبب خروجك عليه؟.. قالت: لـمَ تـزوج أبـوك أمـك؟.. قلت: ذلك من قدّر الله. قالت: وكان ذلك من قدر الله".(39).. وكـان الرسـول صـلى الله عليه وسلم قد قال لنسائه: "أيتكن التي تنـبحها كلاب الحوأب ــ إياك يا حميراء ــ فلما مرت عائشة ببعض مياه بني عامـر ليلاً نبحت الكلاب عليها فسألت عنه فقيل لها: هذا ماء الحوأب، فوقفت وقـالت: ما أظنني إلا راجعة، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يـوم: كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب. قيل لها: يا أم المؤمنين! .. إنما تصلحين بين الناس"(40)..

كـان علي ينظر بعين الخبير إلى الفتن التي تتابعت عليه، وبعين المشفق عـلى قتلى المسلمين، وبعين المسؤول عن الرعية التي سلمت إليه قيادتها، وكل عين تدعوه إلى أمر لا يستطيع أن يرضاه، فكانت خلافته صراعاً مع شرور لا بـد مـنها، وجهاداً في بحر من الفوضى، فكان كأنما يضرب بسيفه في الماء، والمـاء لا يـريد أن ينحسر إلا بعد إغراق دولة الخلافة، وظهور دولة الملك. وكـان هـذا البحر هو بحر الناس الذين تواطؤا على دولة الخلافة حتى قُضي عـليها، فهـل جاء الملك وذهب العدل إلا بما كسبت أيدي الناس؟.. وهل كان علي يستطيع أن يخلص الناس من الشر القادم إذا كانوا قد آثروا سلطان الظلم، عـلى سـلطان العدل، وإذا كانوا قد اختاروا ما يجهلون على ما يعرفون على فـرض أنهـم لا يعرفون سياسة السلطان القادم، فهل كان علي مجهولاً ليعرف لهـم؟.. هذه هي المأساة التي جعلت علياً يتساءل: "متى تخضب هذه من هذه"، أي لحيـته مـن رأسه كما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ضاق بإنكار من أنكر عليه حقه في الخلافة بعد أن اختاره المسلمون، وحقه في التأييد بعـد أن ثار عليه من ثار. فضاع الحق وضاعت الشورى، وضاعت الخلافة، وفـتح بـاب الفتن على المسلمين. فسلط السيف الذي احتكموا إليه على رقابهم، عـندما حمـلوه بدلاً من الحوار، وعندما اختاروا الهوى بدلاً من العقل. هوى الأفكار، أو الجيوب، على كتاب الله ووصايا رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان كـتاب الله يأمر بالشورى، وكانت الشورى قد اختارت علياً للخلافة. كما كانت وصـايا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم تؤيد هذا الاختيار لمصلحة الإسلام والمسـلمين، فكان علي لا يقارن بغيره من المطالبين بالخلافة بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن بعض المسلمين آثروا العمل بمصالحهم على الوحي،

وبعضهم اختار مصالحه ودنياه على آخرته، فقال من قال: "الصلاة مع علي أقوم، والطعام عند معاوية أدسم".. فاختار شريعة النفاق الذي أدى إلى الإضرار بالمسلمين. فما فائدة صلاة لا يجاهد صاحبها مع الحق..؟

فهل أخطأ علي رضي الله عنه وهو يجاهد في هذا البحر الصاخب؟... وهل كان عليه أن يستعين بالدهاء والدهاة، لكي يكسب الخلافة وينجح حيث أخفق؟... إن كل مؤمن وكل محب للعدل، كان يتمنى نجاح علي، وإن اختلفت الآراء في تقييم الظروف التي أحاطت به، وتقييم سياسته رغبة في نجاحه. وقد قرأنا ما اقترحه عليه المغيرة بن شعبة، وما قاله ابن عباس، ولكن لو أن علياً قبل مثل هذه المقترحات هل سيكون هو علياً الذي نعرفه، علي الذي كان يقول للدنيا: "غري غيري".. وإن نجح؟...

هذه هي المسألة التي واجهها علي في خلافته، أن يكون هو بإيمانه أو لا يكون. ولهذا كان عليه أن يختار بين مبادئه وبين نجاحه... فاختار المبادئ التي أمر بها الله على نجاح دنيوي لا يغر المؤمنين..

وهذا هو كنز المعرفة التي قاتل علي من أجلها ودعا إليها. وهذا هو مقياس نجاحه ونجاته من دنيا مضت بالخلفاء والملوك. ومن قاس سياسته بهذا المقياس سيشهد لعلي رضي الله عنه بالفوز فيما يظن أنه أخفق فيه. ومن قاس سياسته بمقياس إخفاقه، في الانتصار على خصومه في ساحات الحرب ومكائد السياسة، فإنه سيلوم وينتقد بدون حق. وبدون معرفة للإمام الذي لم يعتقد بأنه سيكسب من الخلافة شيئاً كان سيخسره دونها، بل رآها مسؤولية لا بد له من القيام بها للنجاة بنفسه والمسلمين في دنيا الامتحان والفتنة. فدار علي مع القرآن، وقاتل مع الإيمان، فكان كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم : "علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض"(41).. لهذا لا يستطيع علي أن يكون غير ماكان لأنه وهب حياته للحق المطلق الذي كان يتعالى في شرعيته على حسابات الفوز والخسران. ومع ذلك ولكي لا ننظر إلى علي نظرتنا إلى مثل أعلى كان همه الاستشهاد لا النصر، فإننا نقول بأن علياً أعد كل العدة اللازمة لتحقيق النصر على خصومه، ولكن جبهة علي كانت في مواجهة جبهات كثيرة كل واحدة منها ساهمت في خدمة خصمه معاوية بشكل غير مباشر، الذي نأى بنفسه وولايته عن التعرض للجبهات الأخرى. إضافة إلى هذه المشكلة فقد كانت جبهة علي تنتابها الخلافات وظهرت فيها الخيانات، بينما كانت جبهة معاوية متماسكة.

وقــد حذر علي مما رآه فقال في خطبة له بعد أن أخبر بنجاح جند معاوية بالســيطرة عــلى اليمــن، فقال: "إني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجــتماعهم عــلى باطــلهم وتفــرقكم عن حقكم. وبمعصيتكم إمامكم في الحق وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم"(42)..

لقــد خــذل علي أنصاره الذين لم يكونوا على مستوى القضية التي كانوا يقاتــلون مــن أجــلها. وهذا مايمكن أن نحدسه من اضطرار علي لإرسال أبي موســى الأشعري للتفاوض مع عمرو بن العاص، الذي وافق على خلع الخليفة الشــرعي مــن الخلافــة، بينما سعى عمرو إلى الدفاع عن خلافة معاوية غير الشرعية. ومهما كانت الأسباب التي دفعت علي إلى الموافقة على أبي موسى الأشــعري كمفــاوض له، فإن ما جرى بينه وبين ابن العاص يدل على ضعف الجــبهة الــتي كــان علي يعتمد عليها مما دفعه إلى هذا التصريح المحزن في خطبته. فهل كان أنصار علي قلة؟.. لا إنهم لم يكونوا قلة. ولكن رأى غالبيتهم كمــا قال: "ليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله، وأنتم تريدوني لأنفسكم". وهنا كانت مأساة علي رضي الله عنه التي تضاف إلى مآسيه، وربما إنها أكبر المآســي الــتي ساهمت في نجاح معاوية. جاء عن المدايني أن علياً: "نظر إلى قوم ببابه، فقال لقنبر: يا قنبر من هؤلاء..؟ قال: هؤلاء شيعتك، قال: ومالي لا أرى فيهــم سيما ءالشيعة؟.. قال: وما سيماء الشيعة؟.. قال: خمص البطون من الطوى، يبس الشفاه من الظمأ، عمش العيون من البكاء"..(43).

فــآل محمد كل تقي نقي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من خداع الأسماء والأنساب، فقال عن مسلمين يحســنون القول ولا يحسنون العمل: "سيكون في أمتي اختلاف، وفرقة يحسنون القــول ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يحقر أحدكم صلاته مــع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يــرجعون حــتى يرتد السهم على فوقه، هم شر الخلق والخليقة... فقيل: يا رســول الله!.. صــفهم لــنا نعرفهم. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا... ســيماهم التحليق"..(44).. إنهم يعيشون على الكذب والضلال، وقد كان منهم الخــوارج الذين سأل أحدهم عبد الله بن عمر عن جواز الصلاة بثوب عليه أثر مــن دم البعوض حتى تظن بمن يسأل هذا السؤال بأنه لا يقوى على قتل ذبابة خوفاً من الله، ثم يبيحون لأنفسهم قتل من قال له الرسول صلى الله عليه وسلم:

"أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"..(45). وهؤلاء كانوا في صفه ثم انقلبوا عليه..

كـــان عـــلي يواجه سيلاً من الأعداء والعداوات. هذا السيل بدأ بأصحاب الجمـــل، ثم معاوية، ثم الخوارج، ثم أنصاره الذين ضاق بعضهم بعدله، وضاق بعضـــهم بسياســـته حـــتى ظنوا أنه لا يعرف السياسة، وضاق بعضهم بتوزيعه للأموال بالإنصاف، وضاق الغالبية منهم عن فهمهم للإمام حتى أصبح الكثيرون مـــنهم عبـــئاً عليه لا عوناً، لأنه كان يريد أن يرضي الله في تصرفاته، وكانوا يـــريدون أن يرضيهم. وكان قد فشا أمر العامة واجتهادات المجتهدين، فانقسمت الـــرعية، شـــيعاً، لا يجمعها أمر واحد، ولا يرضيها عقل راشد. وكان علي لا يســـتطيع أن يسوســـها كملك مخالفاً أمر الله بالشورى، ولا يستطيع أن يجمعها بالشـــورى التي فهموا منها ما يبرر لهم المخالفة والمجادلة فيما أمر به الخليفة. فكـــان حظه من الخلافة ختامها، وما بقي من عصر بين عصرين، عصر أراده الإمـــام اســـتمراراً لعصـــر النبوة، وعصر كانت كل الظواهر والظروف تعده للملك، لقيادة الرعية بعصا غير عصا الشورى التي حطمتها الأهواء. فكان علي كرم الله وجهه مسك الختام لعصر النبوة وأخلاقها. فلم تغيره الدنيا بإقبالها عليه وبهرجـــتها، ولم تحيره الفتن بشدتها، فأعطى لكل موقف حقه من الأحكام، وبث حقـــائق علم النبوة، فذاق من شرب من رحيق علمه العسل مصفى قبل نضوج الثمار، فكان قبلة العارفين، وسفينة الموحدين السائرة في بحر الكمال المحمدي. فقاد السفينة في بحر المعرفة إلى شواطئ الحق والخير من أجل كمال الإنسانية. لقـــد أبحـــر بمن معه إلى الهدف، ولا يضر المؤمن أن يموت ببعض الطريق، ولكـــن ما يضره أن يضل الطريق، وأن يفسده الطريق. لم يكن الذين انتصروا عـــليه أكـــثر دهاءً، وأكثر خبرة بالناس، ولكن علياً أراد شيئاً وهم أرادوا شيئاً. **﴿قـــل كل يعمل على شاكلته﴾**(46).. إذا رأى الفقير كنزاً ورده إلى أصحابه، فهـــو في عرف اللصوص غبي، وقد يقول فقهاؤهم إن الله أراد لك الغنى فأبيت إلا الفقـــر. وفقهاء عصر علي كثيرون مثل فقهاء أزماننا، كانوا يستخرجون من عـــدل الإسلام ظلم الرعية، ومن استقامة علي وأمثاله عدم أهليتهم للقيادة، وكأن عـــلى عـــلي رضي الله عنه أن يتخلى عن شجاعته وعن إيمانه. كان عليه أن ينحرف عن طريق الحق، وأن يسمي انحرافه سياسة، وبعد نظر، أو أن يسموها لـــه. وكأن ما لا تزكيه الأعمال، تزكيه الأسماء والمسميات. أرادوا شيئاً وأراد أن يعمل لله. فكان مثلاً وقدوة فربح الإسلام والإيمان، وربحه الإسلام والإيمان،

ومـــا ربحه الإسلام والإيمان من علي كرم الله وجهه في كل العصور كان أكبر مـمـــا ســـيربحه من نجاح سلطة مؤقتة تراوغ وتداهن. وكان علي وهو العارف بأمر النبوة وشدة الحساب قد أراد أن يربح نفسه قبل أن يربح العالم. فعاش في الدنيـــا كغريب، وهو بانتظار لقاء الحبيب، ولهذا قال للدنيا "غري غيري".. ولم يفـــرح بإقبالها ولم يحزن بإدبارها. لقد قالت فاطمة رضي الله عنها حين دخلت عـــلى أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مرض وفاته: "واكرباه".. فقـــال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا كرب على أبيك بعد اليوم".. وجاء إلى عـــلي من يحذره من القتل، فقال: "لا أبالي إن وقع عليَّ أو وقعت عليه".. هذه هي النفوس المؤمنة، دنياها امتحان وبلاء، وخلاصها من الدنيا سعادة. ذكر أن فاطمـــة رضـــي الله عنها بكت ثم ضحكت وهي تحدث رسول الله صلى الله عـــليه وســـلم فـــي مرضه فسئلت عن السبب فقالت: "أكببت عليه فأخبرني أنه ميـــت فـــبكيت، ثـــم أكبـــبت عـــليه الثانية فأخبرني أني أول أهله لحوقاً به... فضـــحكت"... (47)... وقـــد توفيت رضي الله عنها بعد ستة أشهر. المؤمن يضحك إذا عرف أن أجله قريب.

ما أصعب فهم العالم على الجاهل، وما أصعب إصلاح الحريص المسرف فـــي أمـــر دنياه والمهمل لآخرته، ومن يريد طاعة الله لا يطيع حتى نفسه التي بيـــن جنبيه فكيف سيطيع غيره في معصية أو مخالفة. قال لرجاله وهو يشاهد تـــرددهم فـــي نصرته: "إنكم والله لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات. وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي"(48)..

لم يتسع لهم عدل المساواة فضاقوا به، وخذلوه...

لهـــذا كـــان مـــن الصـــعب على الكثيرين أن يفهموا أسباب خسارته أمام خصـــومه، وهـــم يشهدون قدراته العقلية مقارنة بقدراتهم، فيتحيرون من تفوقه العقلي وعجزه السياسي، كما تحيروا من شجاعته وخسارته حتى طرقت سمعه اتهامات قريش. فقال في خطبة له وهو يتألم مما وصل إليه حال رعيته: "قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً. وجرعتموني نغب التهمام (أي الهـــم)، أنفاساً. وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش إن ابـــن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم وهل أحد منهم أشـــد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني.. لقدنهضت فيهاوما بلغت العشرين، وها أنـــا ذا قد ذرّفت على الستين. ولكن لا رأي لمن لا يطاع"(49).. ربما إن الذين اختلفوا فيه وجهلوه معذورون لأنهم لم يشاهدوا ما شهده بعينيه، ولم يفهموا سر

كلامه وإن حفظوه. فقد كان رضي الله عنه كما قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حصار خيبر "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله".. فكان رضي الله عنه من ثمار هذا الحب الذي تاه في معرفته الـتائهون، ولهذا ترك من تسابقوا على طريق الدنيا ليسبقوه لأنه ماكان يريد أن يغرس فيها غير الحق. قال لابنه الحسن: "يا بني لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا، فإنك تخلفه لأحد رجلين: إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عوناً له على معصيته، وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك"(50)..

وقال: "من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها"(51).. دخل عليه ابن عباس فرآه وهو يخصف نعله، فقال له: "ما قيمة هذا النعل. فقلت لا قيمة لها.. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً"(52).. هذه هي الإمارة يفرح بها الظالم ليظلم، ويخاف منها العادل فيخسر الدنيا لتربح رعيته. فما هي الدنيا عنده، وماهي الخلافة إذا لم تكن تحقيقاً لهدف سام، وهو الذي يعرف الله، والحساب. وقد قال: "موتات الدنيا أهون علي من موتات الآخرة"(53).. لقد كان علي رضي الله عنه أعرف بنفسه وشدته في الحق، وكان قد عرف الناس وخبرهم ورأى تنازعهم واختلافهم على الدنيا، ورأى الفتنة التي أودت بحياة الخليفة، فأراد أن ينأى بنفسه عما كانوا يتنازعون عليه، ولكنهم اجتمعوا عليه وأصروا على خلافته وهو يعتذر إليهم لأن عدله لن يرضيهم فقال لهم: "دعوني والتمسوا غيري... واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب. وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً"(54).. ولكنهم أصروا على مبايعته، وهو غير راغب بها ولا ساع إلى مكابدة أثقالها، ولكنها الأمانة وقد وضعت في عنقه فاضطر إلى حملها رحمة بالأمة، على أمل أن يقودها إلى الطريق السليم. فذاق من الخلافة شقاءها، وهو يحاول أن يعالج الأمراض التي ألمت بها حتى أعياه العلاج، فكان يسأل من حوله من الناس: "أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم.. مابالكم..؟ ما دواؤكم؟.. ماطبكم؟..."، كان عالماً بالجواب على أسئلته، فقال والحزن يملأ قلبه: "المغرور والله من غررتموه"(55)... فكان كرم الله وجهه مسك الختام في خلافة النبوة بعد أن استعصى الداء وأخفق الدواء. فأقبل الملك بعصاه ليأخذ من الخلافة أجمل وأعظم مافيها الشورى، بعد أن بسط "يعسوب المنافقين" يده على القلوب

فتسممت بالركون إليه والاعتماد عليه، كما قال علي رضي الله عنه وهو ينظر إلى ذهب وضع بين يديه فقال: "أنا يعسوب المؤمنين وهذا يعسوب المنافقين... بـــي يـــلوذ المؤمـــنون وبهذا يلوذ المنافقون"..(56).. وكل لائذ يلوذ بمولاه.. **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾**..(57).. ولا حول ولا قـــوة إلا بالله... من سيلوذ بعلي إذا مالت القلوب، إلى المال.. فكيف بها إذا آثـــرته، وشـــغفت بـــه، وتقاتلت عليه. فأي دولة لله ستقوم، وأي دولة للخلافة ستكون؟ وهل ستكون الدولة في كل العصور إلا صورة للراجح مما تكنه أخلاق الـــناس، وتســـتهويه القـــلوب والعقـــول. فما فائدة إيمان نوح لقومه في عصر الطوفـــان إذا كـــان الشريف مغلول اليدين بصدق الإيمان والظالم مطلق اليدين واللسان...؟؟...

■■

■ مراجع الإشراق بالإيمان

مراجع "المعرفة والموت"

1-الغزالي، رسائل الغزالي، ص176.

2-سورة الجمعة، الآية5.

3-د.عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ص70.

4-سورة التحريم، الآية11.

5-كنز العمال، رقم 5311/ج3.

6-كنزل العمال، رقم 8422/ج3.

7-ابن عربي، الفتوحات المكية، ج7، ص350.

8-سورة ابراهيم، الآية7.

9-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص446.

10-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص446.

مراجع "مهمة التبليغ والكفاح الدامي"

1-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص238.

2-المرجع السابق، ص238.

3-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص201.

4-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص201.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص201.

6-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص201.

7-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص77.

8-كنز العمال، رقم 18637/ج7.

9-كنز العمال، رقم 18631/ج7.

10-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص131.

11-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص131.

12-ابن هشام، السيرة اللبوية، ج3، ص131.

13-خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص293.
14-خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص295.
15-سورة الزلزلة، الآية 7-8.
16-كنز العمال، رقم 3/7375.
17-ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص47.
18-سورة العنكبوت، الآية2.
19-سورة آل عمران، الآية 142.
20-كنز العمال، رقم 11/31981.
21-ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص22-.
22-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1،ص204.
23-ابن هشام، السيرة النبوية، ج2،ص22-23
24-ابن هشام، السيرة النبوية، ج2،ص24.

مراجع "رسول الحب"

1-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3،ص96.
2-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3،ص98.
3-خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص471. وقد ورد في سيرة ابن هشام أن هذا الكلام لزيد بن الدثنة.
4-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3،ص98.
5-سورة الأنفال، الآية 63.
6-خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص327.
7-كنز العمال، رقم 313/ج1.
8-سورة الأحزاب، الآية36.
9-سورة الأحزاب، الآية37.
10-سورة الأحزاب، الآية40.
11-صحيح مسلم، رقم 177/ج3.
12-خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص329.
13-كنز العمال، رقم 30264/ج10.
14-كنز العمال، رقم14056/ج5. وجاء برقم 36793/ج13.
15-كنز العمال، رقم 1386/ج1.

16-كنز العمال، رقم 37423/ج13.
17-كنز العمال، رقم37418/ج13.
18-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص 116.
19-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص198.
20-ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص178.
21-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص201.
22-سورة المنافقين، الآية8.
23-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص185.
24-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص315.
25-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص323.
26-ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص25.
27-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص423.
28-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص44.
29-سورة آل عمران، الآية 159.
30-سورة الأنبياء، الآية 107.
31-كنز العمال، رقم 7743/ج3.
32-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص235.
33-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص185.
34-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص30.
35-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص33.
36-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص36.
37-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص36.
38-كنز العمال، رقم 32114/ج11.
39-كنز العمال، رقم 32703/ج11.
40-كنز العمال، رقم 32451/ج11.
41-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص463.

مراجع "الرسول الشاهد"

1-كنز العمال، رقم 30248/ج10.
2-كنز العمال، رقم35790/ج12.
3-كنز العمال، رقم31761/ج11.

4-كنز العمال، رقم31971/ج11.
5-ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص33.
6-كنز العمال، رقم 32068/ج11.
7-كنز العمال، رقم37913/ج14
(8) كنز العمال – رقم 28677/ ج10
(9)ابن منظور، لسان العرب، حرف آ، ص162
(10)كنز العمال، رقم 35850/ ج12
(11) كنز العمال، رقم 30182/ ج10
(12) كنز العمال، رقم 30173/ ج10
(13)ابن هشام، ج2-ص216
(14)خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص409
(15)سورة الأنعام، الآية 50
(16)سورة الأعراف، الآية 188
(17)سورة هود، الآية 123
(18)سورة فصلت، الآية 6
(19)سورة الحشر، الآية 7
(20)سورة البقرة، الآية 253
(21)سورة الإسراء، الآية 55
(22)سورة البقرة، الآية 285
(23)كنز العمال، رقم 43757/ ج16
(24)سورة البقرة، الآية 255
(25)كنز العمال، رقم 29043/ ج10
(26)كنز العمال، رقم 29091/ج10
(27)سورة التكوير، الآية 19-21
(28)سورة آل عمران، الآية 128
(29)سورة الرحمن، الآية 19-20
(30) سورة المائدة، الآية 3
(31)ابن هشام، السيرة النبوية، ج2-ص93
(32)كنز العمال، رقم 31961/ج11
(33) كنز العمال، رقم 31962/ ج11

(34) سورة النجم، الآية 3-4
(35)ابن هشام، السيرة النبوية، ج2-ص249
(36)ابن هشام، السيرة النبوية، ج2-ص250
(37)خالد محمد خالد، رجال حول الرسول - ص772
(38)كنز العمال، رقم 43590/ج15
(39)سورة يونس، الآية 44
(40) كنز العمال، رقم 6132/ ج3
(41)كنز العمال، رقم 18602/ج7

مراجع الرسول الطبيب

(1)سورة المائدة، الآية 112-113.
(2) كنز العمال، رقم 35396/ج12
(3) كنز العمال، رقم 35468/ج12
(4)د.محمود النسيمي -الطب النبوي والعلم الحديث، ج2- ص277
(5)د. محمود النسيمي - الطب النبوي والعلم الحديث، ج 2-ص277
(6)المرجع السابق
(7)سورة الأنعام، الآية 145
(8)ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 5-ص242.م.
(9)سورة الضحى، الآية 10
(10)كنز العمال، رقم 15939-ج1
(11)كنز العمال، رقم 17660/ج6
(12)كنز العمال، رقم 28077/ج10
(13)كنز العمال، رقم 28073/ج10
(14)سورة الإسراء، الآية 82
(15)كنز العمال، رقم 8639/ج3
(16)سورة الحديد، الآية 22
(17)رياض الصالحين - الحديث رقم 1791
(18)سورة الطارق الآية 5-10.
(19)سورة الحج، الآية 5
(20)سورة الزمر، الآية 6

(21)سورة المؤمنون، الآية 12-16
(22)سورة نوح، الآية 13-14
(23)سورة النجم، الآية 44-47.
(24)سورة الإنسان، الآية 1-3
(25)سورة القيامة، الآية 36-40
(26)محمود نسيمي، الطب النبوي، ج3-ص326
(27)صحيح مسلم، رقم 2644/ج16
(28)صحيح مسلم، رقم 2643/ج16
(29)كنز العمال، رقم 44557/ ج16
(30) كنز العمال، رقم 44559/ج16
(31)عن محاضرة للدكتور هشام حوراني ألقيت في القاهرة، في مؤتمر عن أمراض الأطفال.
(32)سورة النساء -الآية 23
(33)كنز العمال رقم 15663/ج6
(34)كنز العمال، رقم 15656/ج6
(35)كنز العمال، رقم 15661/ج6
(36)كنز العمال، رقم 45563/ج16
(37)كنز العمال رقم 32469/ج11
(38)كنز العمال، رقم 32455/ج11
(39)كنز العمال، رقم 32457/ج11
(40)كنز العمال، رقم 32500/ج11.

مراجع الفتوحات الاسلامية

1-كنز العمال، رقم 38218/ج14
2-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص132
3-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص129
4-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص134
5-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص134
6-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص135
7-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص124
8-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص124
9-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3-ص38

10-كنز العمال، رقم 32019-ج11
11-كنز العمال، رقم 31895-ج11
12-كنز العمال رقم 31895/ج11
13- سورة الأنبياء، الآية 107
14-ابن هشام، السيرة النبوية، ج1-ص54
15-كنز العمال، رقم 31802-ج11
16-د. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج1-ص218
17-سورة البقرة، الآية 255
18-كنز العمال، رقم 32633/ج11
19-كنز العمال، رقم 35611/ج12
20-النووي، رياض الصالحين، رقم 143
21-كنز العمال، رقم 21551/ج7
22-ابن هشام، السيرة النبوية، ج3-ص203
23-صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص69
24-سورة الضحى الآيات 16-5
25-سورة الفرقان، الآية 7
26-سورة الأنعام، الآية9
27-خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص294
28-كنز العمال، رقم 34022/ج12
29-كنز العمال، رقم 34023/ج12
30-خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص770
31-سورة المدثر، الآية 24

مراجع "النبوة والدليل النفسي".

(1)ـ ول ديورانت ، قصة الحضارة، ص234/ج14.
(2)ـ المرجع السابق، ص245/ج14.
(3)ـ ول ديورانت ، قصة الحضارة، ج14، ص247.
(4)ـ ول ديورانت ، قصة الحضارة، ج14، ص246.
(5)ـ ابن هشام، السيرة النبوية، ج1/ص253.
(6)ـ كنز العمال، رقم 37494/ج13.

(7)ــ كنز العمال، رقم 37495/ج13.
(8)ــ كنز العمال، رقم 37421/ج13.
(9)ــ كنز العمال، رقم 41985/ج15.
(10)ــ كنز العمال، رقم 44941/ج 16.
(11)ــ ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص 201.
(12)ــ كنز العمال، رقم 29829/ج10.

ـ مراجع "الخلفاء الأربعة والاقتداء".

(1)ــ كنز العمال، رقم 14144/ج5.
(2)ــ ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص17.
(3)ــ سورة آل عمران، الآية 159.
(4)ــ سورة الشورى، الآية 37-38.
(5)ــ كنز العمال رقم 14178/ج5.

مراجع "خلافة أبي بكر الصديق"...

(1)ــ كنز العمال، رقم 30269/ج10.
(2)ــ كنز العمال، رقم 14164/ج5.
(3)ــ كنز العمال، رقم 14056/ج5.
(4)ــ كنز العمال، رقم 35695/ج12.
(5)ــ كنز العمال، رقم 14062/ج5.
(6)ــ كنز العمال، رقم30235 /ج10.
(7)ــ كنز العمال، رقم 14058/ج5.
(8)ــ كنز العمال، رقم 41985/ج15.
(9)ــ كنز العمال، رقم 14069/ج5.
(10)ــ كنز العمال، رقم 14097/ج5.
(11)ــ كنز العمال، رقم 14103/ج5.
(12)ــ كنز العمال، رقم 14091/ج5.
(13)ــ كنز العمال، رقم 35714/ج12.

مراجع "خلافة عمر بن الخطاب".

(1)ـ كنز العمال، رقم 35749/ج12.
(2)ـ كنز العمال، رقم 36592/ج13.
(3)ـ كنز العمال، رقم 35895/ج12.
(4)ـ كنز العمال، رقم 35894/ج12.
(5)ـ كنز العمال، رقم 35924/ج12.
(6)ـ كنز العمال، رقم 35932/ج12.
(7)ـ كنز العمال، رقم 35959/ج12.
(8)ـ كنز العمال، رقم 36006/ج12.
(9)ـ كنز العمال، رقم 36013/ج12.
(10)ـ كنز العمال، رقم 36010/ج12.
(11)ـ كنز العمال، رقم 35978/ج12.
(12)ـ عباس العقاد ـ العبقريات الإسلامية، ص 386.
(13)ـ كنز العمال، رقم 14326/ج5.
(14)ـ كنز العمال، رقم 36015/ج12.
(15)ـ كنز العمال، رقم 36000/ج12.
(16)ـ كنز العمال، رقم 14056/ج5.
(17)ـ عباس العقاد ـ العبقريات الإسلامية، ص 424.
(18)ـ المرجع السابق، ص 424.
(19)ـ المرجع السابق، ص 424.
(20)ـ المرجع السابق، ص424.
(21)ـ كنز العمال، رقم 14294/ج5.
(22)ـ كنز العمال، رقم /14209/ ج5.
(23)ـ كنز العمال، رقم 36077/ج12.
(24)ـ كنز العمال، رقم 14203/ج5.

مراجع "خلافة عثمان بن عفان"..

(1)ـ كنز العمال، رقم 32794/ج11.
(2)ـ كنز العمال، رقم 32838/ج11.
(3)ـ كنز العمال، رقم 32852/ج11.

(4)ـ كنز العمال، رقم 32814/ج11.
(5)ـ د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج1، ص252.
(6)ـ كنز العمال، رقم 32837/ج11.
(7)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص595.
(8)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص572.
(9)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص602.
(10)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص600.
(11)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص558.
(12)ـ كنز العمال، رقم 14212/ج5.
(13)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص 626.
(14)ـ كنز العمال، رقم 36188/ج13 ..
(15)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص570.
(16)ـ كنز العمال، رقم35783 /ج12.
(17)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص 570.
(18)ـ كنز العمال، رقم 36293/ج13.
(19)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص648.
(20)ـ كنز العمال، رقم 14277/ج5.
(21)ـ كنز العمال، رقم 36276/ج13.
(22)ـ كنز العمال، رقم 36179/ج13.
(23)ـ كنز العمال، رقم 36247/ج13.

مراجع: "خلافة علي بن أبي طالب"..

(1)ـ كنز العمال، رقم 32978/ج11.
(2)ـ عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص 715.
(3)ـ عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص 723.
(4)ـ كنز العمال، رقم 33551/ج11.
(5)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص724.
(6)ـ كنز العمال، رقم36570 /ج13.
(7)ـ كنز العمال، رقم 36563/ج13.
(8)ـ كنز العمال، رقم 36588/ج13.
(9)ـ كنز العمال، رقم 36562/ج13.
(10)ـ كنز العمال، رقم 36542/ج13.

(11)ـ كنز العمال، رقم 36495/ج13.
(12)ـ كنز العمال، رقم 36544/ج13.
(13)ـ كنز العمال، رقم 36546/ج13.
(14)ـ كنز العمال، رقم 36536/ج13.
(15)ـ كنز العمال، رقم 31673/ج11.
(16)ـ كنز العمال، رقم14350 /ج5.
(17)ـ عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص676.
(18)ـ كنز العمال، رقم 37719/ج13.
(19)ـ كنز العمال، رقم 36364/ج13.
(20)ـ كنز العمال، رقم 36541/ج13.
(21)ـ كنز العمال، رقم 31642/ج11.
(22)ـ كنز العمال، رقم 31644/ج11.
(23)ـ كنز العمال، رقم 31641/ج11.
(24)ـ كنز العمال، رقم 14144/ج5.
(25)ـ نهج البلاغة، ج1، ص 117.
(26)ـ عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص690.
(27)ـ علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج1، ص 81.
(28)ـ عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص665.
(29)ـ علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج1، ص129.
(30)ـ عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص673.
(31)ـ كنز العمال، رقم 1736/ج1.
(32)ـ علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج1، ص14.
(33)ـ عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص754.
(34)ـ كنز العمال، رقم 31202/ج11.
(35)ـ كنز العمال، رقم 13523/ج5.
(36)ـ كنز العمال، رقم 31777/ج11.
(37)ـ كنز العمال، رقم 31715/ج11.
(38)ـ كنز العمال، رقم 31707/ج11.
(39)ـ كنز العمال، رقم 31670/ج11.
(40)ـ كنز العمال، رقم 31668/ج11.
(41) ـ كنز العمال، رقم 32912/ج11.
(42) ـ علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج1، ص65.

(43) ــ كنز العمال، رقم 31640ج11.
(44) ــ كنز العمال، رقم 31599/ج12.
(45) ــ كنز العمال، رقم 32937/ج11.
(46) ــ سورة الإسراء، الآية 84.
(47) ــ كنز العمال، رقم 37730/ج13
(48) ــ علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج1، ص117
(49) ــ نهج البلاغة ــ ج1، ص70
(50) ــ نهج البلاغة ــ ج1، ص870
(51) ــ نهج البلاغة ــ ج4، ص92
(52) ــ نهج البلاغة ــ ج1، ص80
(53) ــ نهج البلاغة ــ ج1، ص103
(54) ــ نهج البلاغة ــ ج1، ص181
(55) ــ نهج البلاغة ــ ج1، ص75
(56) ــ كنز العمال، رقم 36382/ج13.
(57) ــ سورة الفرقان ــ الآية43.

■■■

الفصل الثالث:

خلافة الإنسان في الأرض

حدود الخلافة الإنسانية

لقد عرضنا في هذه الدراسة صوراً من الإعجاز الإلهي الذي ظهر في القرآن أو أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أو الصحابة والتابعين ورأينا أن بعض مظاهر الإعجاز المستمد من الحقيقة المحمدية باق في التابعين إلى قيام الساعة. وإننا سنحاول في هذا الفصل تحليل مظاهر الإعجاز الساري في الصالحين من ذرية آدم على ضوء أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وتصرفاته في بعض المواقف لنفهم بعض أسرار الإعجاز ومظاهره ومناسباته، وذلك لكي نفهم سر ولاية الأولياء وحدود تصرفهم بدون أي أوهام أو مغالاة. وبما أن الرسول صلى الله عليه وسلم في الموقع الأرفع من هذا العلم، لأن الإعجاز كما قلنا يتعلق بعلم لا يعلمه إلا قلة، وإن كان متاحاً لكل الناس. فإننا لهذا سنتوقف عند أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم لمقارنة أعماله بما نراه من كرامات للأولياء في كل زمان، وبحدود هذه الكرامات. لقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بداية الدعوة الإسلامية وقد تعرض للإيذاء والحصار والجوع مع أصحابه. واضطر لهجر الوطن والحرب واستشهاد من استشهد من آل بيته وأصحابه. وتعرضت المدينة كما رأينا للحصار حتى شك بعض المسلمين في نجاح الإسلام ونجاته. ومع ذلك فقد نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في المحصلة بفتح مكة وتثبيت الإسلام فيها وإكمال الرسالة كما أرادها الله بقوله **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**(1). ثم تحقق بعد ذلك انتشار الإسلام ونجاحه، كما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم ففتحت مملكتا الروم والفرس ومصر، ووصل المسلمون إلى الصين. ومازالت آيات القرآن تتوالى لتكشف لنا عن معجزات لا حصر لها ولا يعلم أسرارها إلا الله الذي أرسل الكتاب بالهداية والإعجاز للتعريف بالرسالة والرسول الذي لا يملك العلوم التي أشار إليها القرآن إلا بتعريف خالق الأكوان. وذلك للدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن إلى أي مدى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يؤثر في الحوادث، وأن يتصرف فيها؟. إننا نطرح هذا السؤال لتفسير ادعاءات من يدعي

لنفسه أو لغيره القدرة على التصرف في الحوادث استناداً إلى بعض النجاحات أو استناداً لأوهام تخالج عقول المدعين. لقد رأينا الرسول وقد جاع والمسلمون مع بني هاشم عندما حوصروا في أحد شعاب مكة فأكلوا من ورق الشجر وأعشاب الأرض حين نفذ طعامهم. ورأينا عمر الخطاب وقد بكى وهو يشاهد أثر الحصير في جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له "كسرى في الخز والقز والحرير والديباج وقيصر مثل ذلك وأنت حبيب الله وخيرته كما أرى. قال: لا تبك يا عمر. فلو أشاء أن تسير الجبال ذهباً لسارت. ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح ذباب ما أعطى كافر منها شيئاً"(2). ورأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن ضاقوا من أكل التمر الذي كان يرسله إليهم لأنه لا يملك سواه: "والله لو وجدت اللحم والخبز لأطعمتكموه ولكن لعلكم أن تدركوا أو أدرك منكم زمانا تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى عليكم ويراح بالجفان. أنتم خير منكم يومئذ، أنتم اليوم إخوان، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض"(3). ورأيناه عندما ضاقت أحوال المسلمين في حصار الخندق كيف أطعم أهل الخندق من شاة واحدة، وسقاهم في مناسبات عديدة من قليل من الماء، وكيف دعا فنزل المطر ورأيناه في غزوة حنين إذ أعجبت المسلمين كثرتهم فهزموا في أول الأمر. فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم عن ظهر دابته إلى الأرض، وقبض على حفنة من تراب ورمى بها في وجوه المشركين، وهو يقول شاهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا وقد أصيب في عينيه فانقلب نصرهم إلى هزيمة منكرة بعد ساعات، كما أسر منهم ستة آلاف. بينما تعرض المسلمون لمواقف خطيرة يوم غزوة أحد حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أصيب بجروح، وسقط في حفرة حفرها المشركون. كما حوصر المسلمون في غزوة الخندق مما دفع الرسول صلى الله عليه وسلم للتفاوض مع إحدى القبائل المتحالفة مع المشركين على الانسحاب مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة، لو لا معارضة زعماء الأنصار الذين عبروا عن استعدادهم لقتال المشركين حتى النهاية. ولهذا لم يكمل الرسول صلى الله عليه وسلم عقد الاتفاق. إننا أمام مواقف محيرة. فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استطاع في غزوة الخندق أن يطعم عدداً كبيراً من الناس من شاة واحدة، وأن يسقي جيشاً افتقر إلى الماء من ركوة بيده التي كان ينبع منها الماء فلماذا اعتذر عن إطعام الجائعين باللحم بدلاً من التمر؟. والروايات تجمع بأن المسلمين عاشوا في فاقة وفقر شديدين. حتى أن حمزة وهو المعروف بمكانته عند الرسول صلى الله عليه وسلم لشجاعته وقرابته، حين استشهد في غزوة أحد كما روى خباب فقال: "لقد رأيت حمزة، وما وجدنا له ثوباً نكفنه غير بردة إذا غطينا بها رجليه خرج رأسه، وإذا غطينا رأسه

خرجـــنا رجـــلاه. فغطينا رأسه ووضعنا على رجليه من الإنخر"(4). كما إن كثيراً مـــن المسلمين الذين استشهدوا لم يجدوا له كفناً كافياً يغطيه. منهم مصعب بن عمير فأمـــر الرسول صلى الله عليه وسلم "غطوا رأسه واجعلوا على رجله الانخر"(5). وفـــي موقـــف مـــن المواقـــف سيقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمن حوله من الصـــحابة "كيـــف إذا شبعتم من ألوان الطعام؟. قالوا: أو يكون ذلك؟. قال. نعم" ثم سألهم وهم مندهشون "فكيف إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى؟.... و.. كيف أنتم إذا سترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟" وهم يسألون "أو يكون ذلك" والرسول صلى الله عـــليه وسلم "يؤكد لهم أنه سيكون... كأنكم قد أدركتموه"(6). وجاء في خبر عن ابـــن عمـــر. قال "ما شبعنا حتى فتحنا خيبر"(7). وفي خبر عن عائشة رضي الله عـــنها أنهم شبعوا من التمر وليس من أنواع الطعام. فقد جاء عن عائشة أنها قالت "لمـــا فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر"(8). ومع ذلك فقد ظل المسلمون يعانون مـــن الفقـــر بعد فتح مكة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب من المسلمين التـــبرع لقضاء حاجات المسلمين أو للجهاد. ومما يدل على معاناة المسلمين أنهم في غـــزوة تـــبوك "كـــان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً، وربما أكلوا أوراق الأشـــجار حتى تورمت شفاههم. واضطروا إلى ذبح البعير مع قلتها ليشربوا ما في كرشـــه مـــن الماء. ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة"(9). لسوء أحواله المادية رغـــم التـــبرعات التي تبرعها عثمان بن عفان، والتي بلغت مائتي بعير إضافة إلى المـــال، مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عنه "ما ضر عثمان ما عمل بعـــد هذا اليوم"(10). كما جاء أبو بكر بماله كله وجاء عمر بنصف ماله وكان يريد أن يســـبق أبـــا بكر بهذه المناسبة لتأمين جيش العسرة بالموارد المادية، الذي توجه لحـــرب الـــروم بقيـــادة الرســـول صلى الله عليه وسلم ، في رجب، السنة التاسعة لـــلهجرة. وإذا نظـــرنا بالمقابل إلى السخاء والكرم الذي تميز به الرسول صلى الله عـــليه وسلم فإن الجاهل بأمر النبوة سيصاب بالدهشة. فقد شاع عن الرسول صلى الله عـــليه وســـلم بين الناس "إن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر" وقد ازدحم عـــليه الـــناس بعد غزوة حنين في العام الثامن للهجرة يقولون "اقسم علينا فيئنا من الإبـــل والغـــنم، حـــتى ألجؤوه إلى شجرة، فاختطفت عنه رداؤه. فقال: ردّوا علي ردائـــي أيها الناس، فوالله أنه لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيـــتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامه، فجعـــلها بيـــن أصبعيه، ثم رفعها، ثم قال: أيها الناس والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبـــرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم"(11). لم يدخر الرسول صلى الله عليه وســـلم كما رأينا إلا العمل الصالح والرحمة بالناس. كان ينفق ما يأتيه، ويطلب من

أصحابه العون إذا احتاج إلى عونهم. وكانت أعماله كلها تقود المتأمل عن بعد إلى الحيرة. وتقود المتفهم عن قرب إلى الإيمان والعلم. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بشراً، ولكن ما كان يحدث على يديه من معجزات لا ينتمي إلى أعمال البشر. فأين السر في الأمر؟ هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف بتفويض دائم من الله أم إن التفويض كان محدداً بحدود لا يتاح للرسول صلى الله عليه وسلم تجاوزها. إن كل الوقائع والمعجزات تدل بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتصرف على ضوء إلهامات الوحي وبأمره. وكان الوحي يأتيه بأشكال مختلفة ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم منها: 1-الرؤيا الصادقة وكانت في بداية الوحي وقد استمرت بعد نزول الوحي كما اتضح من الأحاديث المتواترة عن رؤاه صلى الله عليه وسلم.

2-الوحي بواسطة الملك عن شهود. وكان أول ما بدأ به الوحي عندما ظهر له جبريل في غار حراء وقال "اقرأ". وقد تعددت أشكال ظهور جبريل عليه السلام. فقد ظهر له بصورته عندما رأى له ستمائة جناح. وظهر له على شكل الصحابي دحية الكلبي. ورآه بعض الصحابة أحياناً دون أن يعرفوه إلا بإخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم كما مر في حديث الإسلام والإيمان والإحسان وغيره من المناسبات.

3-الوحي من غير واسطة أو مشاهدة. فكان يسمع خطاباً ولا يرى المخاطب له. وهذا النوع من الوحي كان حظ سيدنا موسى عليه السلام. وكان لهذا الخطاب مستويات فأحياناً يأتيه بسهولة ويسر. وأحياناً كان يأتيه كما ورد مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكباً لها. وورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستلقي على الأرض أحياناً من تأثير الوحي كما ذكرت عائشة رضي الله عنها عندما جاء الرسول لزيارتهم بعد حديث الإفك وعائشة عند أهلها. فقالت: "فو الله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه.. ثم سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس، وإنه لينحدر منه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك"(12). وفي هذا المستوى من الوحي كما يفهم من الحديث يكون الرسول صلى الله عليه وسلم في حالة غياب عما حوله لقوة التجلي الإلهي عليه. وهذا ما يفسره حديث الرسول صلى

الله عليه وسلم حين كان مع جبريل ليلة الإسراء فقال "لما أسري بي كنت أنا في شــجرة وجــبريل في شجرة: فغشينا من أمر الله ما غشينا، فخر جبريل مغشياً عــليه وثبت على أمري، فعرفت فضل إيمان جبريل على إيماني"(13). وقوله "إذا تجــلى الله لشيء من خلقه خشع له". وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هــذا الكــلام بســبب وقوع كسوف في الشمس بعد وفاة ابنه إبراهيم، وانتشار الشــائعات بأن الشمس كسفت لموته. فخطب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال "إن الشــمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد، ولكنهما خلقان من خلق الله تعالى، ويحدث الله في خلقه ما شاء. ثم إن الله تبارك وتعالى إذا تجلى لشيء من خلقه خشــع له، فأيهما انكسفتا فصلوا حتى تنجلي أو يحدث الله أمراً"(14). والتجلي غير الرؤية لأن رؤية الله غير ممكنة، وإنما هي تجليات يراها الناس وعلى قدر علمهم بما يشاهدون يكون تأثرهم. وقد ذكر بعض المفسرين- تكليم الله له كفاحاً مــن غير حجاب، وهي مسألة خلاف بين السلف- وإذا كان المقصود من دون حجــاب المشــاهدة الماديــة لا المعنوية فهذا لا يوصل إليه، فالله نور وحجابه النور. ومن النور عقل الإنسان فآثار العقل تشهد، إلا أن العقل لا يشهد، والعقل الإنســاني فيــض من النور الإلهي. ولهذا قلنا بخطأ من يظن إمكانية رؤية الله حــتى في الآخرة، فهي تجليات. وتجلى الله عن التصور والإحاطة والمشاهدة. فنحن نراه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الآخرة "كالقمر ليلة البدر، أو الشــمس ليس دونها سحاب"(15). لأن "حجابه النور-و- لو كشفه لأحرقت ســبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"(16): وقد قال الرسول صلى الله عــليه وسلم لأبي ذرحين سأله "هل رأيت ربك. قال: نور أنى أراه"(17). وإن أفضــل بيــان جاء على لسان عائشة رضي الله عنها في توضيح هذه المسألة. فقــالت للســائل: "ثــلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت ماهن. قالت: من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال وكنت متكئاً فجلست. فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني. ألــم يقل الله عز وجل ولقد رآه بالأفق المبين. ولقد رآه نزلة أخرى. فقالت: أنا أول هــذه الأمــة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته.. منهبطاً من السماء، ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض. وقالت لي: أو لم تسمع أن الله يقول لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. أو لم تســمع أن الله يقول: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أومن وراء حجاب أو يرســل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم. قالت: ومن زعم أن رسول

الله صـــلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية. والله يقول: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته. قـــالت ومـــن زعـــم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية. والله يقـــول: قـــل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله.. قالت: ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية، تقول للذي أنعـــم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مـــبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه."(18). وقد رأينا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم للإنسان الواصل إلى درجة الإحسان حيث قال "أن تعبد الله كـــأنك تراه"(19). وهذه المشاهدة في الدنيا، مشاهدة معرفية بنور العقل. وهي ممكنة من حيث المعنى، بل إنها هي الحقيقة الوحيدة الممكنة في الدنيا والآخرة. والعـــارف الـــذي يعـــرف حـــدود المعـــرفة وسقفها لا يشقى بطلب المزيد أو المستحيل. ولهذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أخذ من علمه رأى الله كمـــا يمكن أن يشاهد فرآه نوراً، وليس كما يظن بعض الناس. ورأى أنه الدهر فقـــال" لاتسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر"(20). فالمشاهدة تتعلق بالمشاهد وليس بالمشـــهود الله "الأول والآخر والظاهر والباطن". فهو لا يُشهد وإن شُهد إلا في التجـــليات الوجوديـــة الـــتي يخشع لها القلب، ويهيم بها العقل، فيقول كما قال الصديق "العجز عن درك الإدراك إدراك"(21). وكما قال الشيخ محيي الدين بن عـــربي "لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت. فبعلمه أوجدك، وبعجزك عـــبدته"(23) وكـــل هذه الأحاديث تدل على طبيعة المشاهدة الممكنة لله، وتنفي تقيـــد الله في الزمان أو المكان أو الصورة، وإن كان لله في كل حقيقة نسبة من الظهـــور بأســـمائه الحسنى. هذه هي مستويات الوحي كما عرفناها من الأخبار المـــتواترة. وعند هذه المستويات والتجليات يظهر الفرق بين الرسول صلى الله عـــليه وسلم والخلفاء من أمته. وبين الإسراء بالجسم والروح كما حدث للرسول صـــلى الله عـــليه وسلم، أو بالروح كما يحدث للخلفاء من ذرية آدم. ويمكن أن نضـــيف مســـتوى مـــن الوحـــي كان يعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم من أصحابه ويعمل به دون علم الأصحاب أو بعلمهم. ومن هذا الباب كانت مشاورة الرســـول لأصـــحابه فيمـــا لم ينزل فيه الوحي. وكمثال نقدم قصة الأذان. فقد وردت عـــدة أحـــاديث عن طريقة اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للأذان، تدل على إقراره لما رآه عبد الله بن زيد في نومه ليكون وسيلة لدعوة المسلمين إلى الصـــلاة. وهـــذا الحديث الذي ننقله ثابت بمعناه من عدة روايات. فقد كان الرســـول صلى الله عليه وسلم يفكر بطريقة لدعوة المسلمين إلى الصلاة. وكان

قـد شـاور أصحابه فاقترح بعضهم الناقوس، أو البوق. وقبل أن يتوصلوا إلى رأي "رأى عبد الله بن زيد النداء، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مربي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده. فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟. قال: وما تصنع بـه؟. قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك. قال: قـلت: وما هو؟. قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسـول الله. حـي على الصلاة، حي على الصلاة. حي على الفلاح. حي على الفـلاح. الله أكـبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عـليه وسلم، قال إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك. فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته. فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه، وهو يقول يا نـبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى"(23). وقيل إن بلالاً "زاد فـي نداء صلاة الفجر، الصلاة خير من النوم فأقرها النبي"(24). من هذا الباب يجـب أن نفهم سر مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ومعرفته بمن صـار الحق على قلبه ولسانه في أحوال خاصة مما جعله يأخذ برأيهم في هذه الأحـوال. ومـن هـذه الأحوال التي أخذ بها جلوس ناقته عند بيت أبي أيوب الأنصـاري، عـندما حـاول كل مسلم من الأنصار أن يحظى بضيافة الرسول صـلى الله عليه وسلم. وهو يقول لهم "خلوا سبيلها فإنها مأمورة" فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت. "فلما بركت، ورسول الله صـلى الله عـليه وسلم عليها لم ينزل، وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله صـلى الله عـليه وسـلم واضع لها زمامها لا يثنيها به. ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها. فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسأله عن المربد لمـن هو. فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي. وسأرضيهما منه، فاتخذه مسجداً"(25) وفي حادثة ثانية عندما توجـه الرسـول صـلى الله عليه وسلم إلى مكة يريد العمرة في العام السادس لـلهجرة بـركت ناقته القصواء بثنية المرار عند الحديبية ولم تقم. فصار الناس يقولون "خلأت القصواء. خلأت القصواء" فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم "ما خـلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة" ثم قال

وقـد فهم عن الله الإشارة "لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الـرحم إلا أعطيـتهم إياهـا"(26). وبعد هذا العهد، أمر المسلمين بالإقامة في المكـان الـذي وصـلوا إليه وسعى للتفاوض مع قريش حتى توصل معهم إلى الاتفـاق المعـروف بصلح الحديبية. وكان مّن إشارات الرسول صلى الله عليه وسـلم فـي هذا الموقف أنه قال لأصحابه حين أرسلت قريش سهيل بن عمرو للتفاوض "قد سهل لكم أمركم"(27). وكان من الإشارات الإلهية لأبرهة الحبشي في عام الفيل امتناع فيله عن التوجه نحو مكة، ولكنه لم يفهم المغزى. فحوادث الكـون كلها إشارات إلهية لمن يعي هذه الإشارات. ومن الإشارات الإلهية التي نـزل بهـا الوحي عتاب الله للرسول صلى الله عليه وسلم على قبول الفدية من أسـرى بدر قبل نزول الوحي في هذا الموضوع. فقد شاور الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في موضوع الأسرى فسمع منهم وجهتي نظر. رأي قال به أبو بكر الصديق وهو فداء الأسرى رحمة بهم. ورأي قال به عمر بن الخطاب وهـو قتـلهم. فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر. فلما كان الغد حسب رواية ابن الجوزي عن عمر قال "غدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وهما يبكيان. فقلت يا رسول الله: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله صلى الله عـليه وسـلم "للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء فقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة- شجرة قريبة-"(28). وأنزل الله تعالى **﴿ما كان لنـبي أن يكـون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يـريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾**(29) وجاء في تفسير ابن هشام "لولا أنه سبق من أني لا أعذب إلا بعد النهي ولم يك نهاهم لعذبتكم فيما صنعتم. ثم أحلها له ولهم رحمة مـنه بقولـه "فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم"(30). ربمـا جـاء الـتحذير لأن الرسول صلى الله عليه وسلم تصرف قبل أن ينزل الوحي بالتشريع المناسب في قضية الأسرى. وعن غزوة حنين قال الله للرسول صـلى الله عـليه وسلم **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾**(31). وكان الرسـول صـلى الله عليه وسلم قد أخذ حفنة حصباء ورماها باتجاه المشركين وهـو يقـول "شـاهت الوجوه" وقد نسب الله الرمي إلى ذاته وإن كان الرامي الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت يد الرسول صلى الله عليه وسلم هي يد الله مـن حيث القدرة والتأييد. بينما قال الله للرسول يوم أحد بعد أن كسرت رباعية

النـــبي صـــلى الله عـــليه وسلم، وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعو إلى ربهم؟ فأنزل الله عز وجل في ذلك "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهـــم فـــإنهم ظالمون"(32). إننا أمام مواقف مختلفة، وكل هذه المواقف تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لـــه أي خيار في التصرف. فكان عـــبداً لله، لا يتصرف إلا بوحيه، وإنه عندما تصرف في مناسبات برأيه بدون انـــتظار أمر الوحي كان يأتيه العتاب أو التذكير. وهذا الوضع الذي نلمسه في بعـــض الحوادث مثل قصة زينب وابن أم مكتوم، وفي حديث تأبير النخل حيث قـــال "إن كـــان أمـــر دنياكم فشأنكم، وإن كان أمر دينكم فإلي"(33) إن كل هذه الوقـــائع تدل دلالة واضحة على طبيعة النبي صلى الله عليه وسلم كإنسان وإن كـــان فـــي موقع السيادة لبني الإنسان بسبب عبوديته ومعرفته بربه. وقد رأينا تعـــليق السيدة عائشة رضي الله عنها على موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فـــي قصـــة زينب وقولها النابع من معرفتها بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم والوحـــي، وطبيعة عبودية الرسول صلى الله عليه وسلم وامتثاله للأمر الإلهي، رغـــم أن النفس قد يكون لها نظر إلى حظوظها "ولو كان محمد صلى الله عليه وســـلم كاتماً شيئاً مما أنزل إليه لكتم هذه الآية". وقد أظهر الله ما أظهر لحكمة. لكي نتوكل عليه ونوكل الأمر إليه بعد تنفيذ ما أمرنا به بدون مخالفة أو اجتهاد فيمـــا لا نعلم. وقد جعل الأنبياء قدوة لنا في التعلم، في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام. وفي تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد برأيه قبل معـــرفة حكـــم الله. فكـــان الرسول صلى الله عليه وسلم ملزماً بالتصرف بأمر الوحـــي بدون أي تطلع أو تأثر بأحواله النفسية أو أمانيه الشخصية. ولهذا حينما قال "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم" متأثراً بمحاولة قتله من المشركين وهو يدعوهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة جاءه الوحي بالبيان الواضح "ليس لك من الأمر شيء" تعليماً له ولنا، برد الأمور كلها لله. وقد كان الرسول صلى الله عـــليه وسلم يقول "إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى فلا بـــورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم"(34). مما يدل على أنه كان يتعلم بشكل دائـــم. وهـــو يتعـــلم لأن الكمال لله، وليس لابن الإنسان الطامح للكمال إلا حظ العـــبودية الكاملة لله. وهذا لا يقدح في عصمة الأنبياء، لأن العصمة تتعلق بعدم مخالفـــة الشـــريعة. أمـــا حظوظ النفس وأمانيها فهي من صفات البشر اللازمة لكمال وظهور إنسانيتهم. وقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند استشهاد عمـــه حمزة، وبكى حين توفي ابنه إبراهيم. وحين قيل له في نهيه عن البكاء.

قـــال "إنما أنا بشر، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب. والله يا إبراهيم: إنا بك لمحزونون"(35). وقال "إن أبكي فإنما هي رحمة"(36) "وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"(37) وقال وهو يناجي ربه يطلب منه النصر يوم غـــزوة بدر: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم، إن شئت لم تعبد بعـــد اليوم أبداً"(38). والصديق إلى جواره يقول له "يا نبي الله: بعض مناشدتك ربـــك. فـــإن الله منجز لك ما وعدك"(39). وهذا الكلام من الأحوال لأن الله لا يحـــتاج لـــتأييدنا نحن بالذات لكي يعبد، وإن كان لابد من عابد ليعبد والرسول صلى الله عليه وسلم يعرف هذه الحقائق. ولكنها الأحوال والحرص على نصرة المســـلمين. والرســـول صـــلى الله عليه وسلم يتضرع إلى الله تضرع الخائف الضعيف أمام قوى الشرك الكثيرة العدد والعدة، حتى سقط رداؤه عن كتفيه. مع أن الرســـول صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر المسلمين وهو يتجول في ساحة المعـــركة قـــبل وقوعها بمصارع القوم. وقال لهم وهو "يشير بيده: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله. وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله"(40). لكنه كان يريد أن يطمـــئن، أن يشهد بعينيه ما وعده الله من النصر. لأن ابن الإنسان الكامل لا يســـتطيع إلا أن يرضى ويغضب ويفرح ويحزن، وإن كان يعلم بأن الأمر لله. وإن جميع الخلق مفتقرون إليه وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "اللهم إنما أنـــا بشر أغضب كما يغضب البشر، وأرضى كما يرضى البشر فمن لعنته من أحـــد مـــن أمـــتي فاجعـــلها له زكاة ورحمة"(41). كان المسلمون بعد الهجرة يحرسون الرسول صلى الله عليه وسلم ليلاً في بيته بالمدينة، مع أنه خرج أمام أعين المشركين الذين اجتمعوا على باب داره ليقتلوه قبل الهجرة، ولم يشاهدوه. فـــلماذا كانت هذه الحراسة التي استمرت عليه حتى جاء الأمر الإلهي بعصمته من الناس حسب رواية عائشة رضي الله عنها. قالت "كان رسول الله صلى الله عـــليه وسلم يحرس ليلاً، حتى نزل "والله يعصمك من الناس" فأخرج رسول الله صـــلى الله عـــليه وسلم رأسه من القبة، فقال: يا أيها الناس. انصرفوا عني فقد عصـــمني الله عز وجل"(42). ذلك لأن الأمر الإلهي لم يكن قد أتى بالعصمة، ولهـــذا كـــان الرســـول صلى الله عليه وسلم يحيط نفسه بالحراس تحسباً لغدر الغادرين. هذا هو الإنسان في ضعفه وإن بلغ ما بلغ من الطاعة. فهو يستمد من العـــناية الإلهية العون والإمداد، وليس له من الأمر شيء. ويعرف ذلك معرفة يقينية. وإن قال ما قال، فهو إنما يقول من موقعه واستخلافه إن أعطي الخلافة بأمـــر من ربه لا من نفسه. فإن تضرع وبكى إلى الله لقضاء حاجة من حوائجه لنفســـه أو لغيـــره، فذلك لكي نتأكد بأن العبودية للحق شاملة للخلق وإن نطقوا

بـــالحق وباسمه فهم رسل وخلفاء ونواب. والنائب ليس له حظ في الربوبية إلا بمـــا تفوضه إليه، و"إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب" لمن نزع منه الملك. فأين الواصـــلون الذين يدعون الوصول قبل أن يذوقوا طعم العبودية الكاملة لله. كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الصادق في كل ما قاله قد خرج إلى الطائف يدعوهـــم عشـــرة أيام إلى الإسلام فلم يستجيبوا له. فطلب منهم أن يكتموا خبر زيارتـــه لهـــم حـــتى لا يطمع به كفار مكة. إلا أنهم أرسلوا سفهاءهم وعبيدهم وراءه "وجعـــلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأســـه، ولـــم يـــزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعـــة، على ثلاثة أميال من الطائف. وهناك تضرع إلى الله "اللهم: إليك أشكو ضـــعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمـــري؟. إن لـــم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تـــنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قـــوة إلا بـــك"(42) مضـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً إلى مكة حزيناً متألماً، كما روى لعائشة رضي الله عنها عندما سألته "هل أتى عليك يوم كـــان أشد عليك من يوم أحد" فروى لها ما حدث معه بالطائف. فقال "لم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب- وهو المسمى بقرن المنازل- فرفعت رأسي فإذا بسحابة قـــد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لـــك، ومـــا ردوا عـــليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم: فـــناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين- أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة، أبو قبيس والذي يقابلـــه وهـــو قعيقعان- قال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلا بهم مَن يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً"(44).

ثـــم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة ماشياً ومعه زيد وقد قطع ســـتين ميـــلاً بيـــن الطائف ومكة بعد عشر سنوات من النبوة. إذ كانت زيارته لـــلطائف في شوال، أواخر أيار أو أوائل حزيران سنة 619م. وكان قد تجاوز الخمســـين مـــن العمر. وحين اقترب من مكة سأله زيد بن حارثة "كيف تدخل عـــليهم وقـــد أخرجوك يعني قريشاً، فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخـــرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه"(45). وحين وصل الرسول صلى

الله عليه وسلم إلى حراء "بعث رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بـــني عامر لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: إلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فـــإني قد أجرت محمداً. ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن أدخل، فدخـــل رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المســـجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش: إني قـــد أجـــرت محمداً فلا يهجه أحد منكم. وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته"(46). في نفس العام، السنة العاشرة للنبوة عندما بدأ موسم الحج راح الرسول يدعو القبائل إلى الله والإيمان بمـــا جـــاء به. فزار قبائل كلب وحنيفة وكندة فلم يقبلوا منه الإسلام. وفي هذه الظـــروف الشـــائكة والمعانـــاة جـــاء إلى بني عامر بن صعصعة ودعاهم إلى الإســـلام. فقـــال رجل منهم يدعى فراس بن عبد الله: "والله، لو أنني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب. ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثـــم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. قال: فقال له: أفتهدف نحورنا العرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. لا حاجة لنا بأمرك"(47).

لـــو كان الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم، يورثه لمن يشاء، ربما كان سيرضى ماداموا سينصرونه ويدخلون في دينه. ولكنه كان يعرف أن الأمر لله وليـــس له. ولهذا أجابهم بصدق. وربما كانوا يظنون أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يتصرف وأن يورثهم سلطته من بعده. ولهذا أبوا عليه حين لم يعدهم بشيء.

ولـــو كـــان الرســـول صـــلى الله عـــليه وسلم يتصرف بمنطق الحسابات السياسية. فقد كان ضعفه ووضعه سيملي عليه أن يغتنم هذه الفرصة، وأن يقبل التحالف مع أول قبيلة عرضت عليه الدعم والتأييد مقابل أن يكون لها الأمر من بعده. وكان بإمكانه كما يفعل السياسيون في كل الأزمان أن يتنكر لهذا التحالف، إذا كـــانت الظـــروف مواتيـــة، وأن يورث أمره لمن يريد. فقد كانت الظروف مواتية للخروج بنفسه من تألب زعماء مكة عليه. ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كـــان رسولاً ولم يك زعيماً سياسياً. وكان يقول الصدق ويأمر به. ولم

يـورث شـيئاً مـن سلطته لأحد، ولا من ما له لأقرب الناس وأحبهم إليه ابنته فاطمـة الزهراء رضي الله عنها. فقال "النبي لا يورث"(48). لأن النبي صلى الله عـليه وسـلم لم يدخر شيئاً من المال أو الثروة لتوريثه. ولو كان لديه ثروة لأصـابت منها زوجاته كما أصابت منها ابنته. وقد عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعطي الناس كل ما يأتيه ولم يدخر أبداً.

لـم يقـل الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ما يعلم. ولم يعلم إلا بإعلام الله وتعـليمه الذي كان يأتيه عبر الوحي دون إرادة منه صلى الله عليه وسلم، وإنما تـبعاً لحكمة الله وتقديره. لقد استمر حديث الإفك يثرثر به الضالون والمنافقون في المدينة أكثر من شهر والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعرف ما هو الحق مـن الباطل في هذا الحديث، حتى جاءه الوحي ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها. وفي موقف آخر أرسلت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ليسألوهم عن حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم فقدموا المدينة وسألوا أحبارها فأجابوهم "سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهـو نـبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجـل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح مـا هي؟. فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي"(49). ولما عاد الرسولان ومعهما أسـئلة الأحبار. أرسل زعماء قريش رسلاً بالأسئلة إلى الرسول صلى الله عليه وسـلم. فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سمع أسئلتهم "أخبركم بما سـألتم عنه غداً، ولم يستثن-لم يقل إن شاء الله- فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم-فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلـك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أوجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليـوم خمـس عشـرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. وحـتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكـلم بـه أهل مكة. ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيهـا معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح"(50). وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جـاءه "لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً، فقال له جبريل: وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً"(51).

لـو كان أمر الإجابة بيد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحريص على

إجابــتهم وإقــناعهم لمــا تركهم إلى اليوم التالي ينتظرون. وحين جاء الموعد المحــدد لــم يكن لديه الجواب فماذا يفعل؟. أليس من الطبيعي أن يسيء الظن بنفســه، وأن يصيبه القلق وأن يظن بأن ما تراءى له قد انقطع عنه. أين الحقيقة في ظل العجز الإنساني وتحدي الشرك وسخريته. لقد خاف موسى عليه السلام حيــن ألقى السحرة حبالهم في امتحان فرعون له. مع أنه ذهب بأمر الله. وقبل الــتحدي مــع السحرة بأمره. ولكنه القلق الإنساني لمن لا يملك من أمره شيئاً. ولهذا خاف موسى حين رأى ما رأى من فعل السحرة **﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾**(52).

لــم يطمــئن إلا حيــن ألقى بعصاه وسقط السحر عن أعين الناس واتضح الحق من السحر. هذا هو شأن الأنبياء فهم لا يملكون إلا طاعة رب الكون. ولو أن موسى عليه السلام كان يملك علم السحر ما خاف. فالعالم يجادل العالم. لهذا من الطبيعي أن يقلق الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسئلة التي ألقيت عليه لا يعرف لها جواباً. ولأنه قال غداً بدون أن يدري بأن هذا الغد سيطول خمسة عشــر يومــاً. وكان المشركون إذا لقوا أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يســتهزئون بهــم بعد أن علموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه "ليــتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه" كما مر معنا في الحديث الشريف. وربما سمعوا من بعــض الصــحابة بأن مملكتي الروم والفرس ستفتحان لهم فأخذ المشركون هذا الكــلام بالسخرية. وكان بعضهم إذا رأى الصحابة تغامزوا عليهم وقالوا لهم "قد جــاءكم ملوك الأرض، الذين يرثون كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون"(53). لقــد واجــه الرسول صلى الله عليه وسلم الساخرين والمنافقين من الذين أظهــروا الإســلام وأبطــنوا الكفــر في المدينة كما في مكة. وكان المنافقون ينــتظرون أي فرصة للتشكيك بالإسلام والرسول والوحي. ولكن خيبتهم كانت في ازدياد، وكيدهم للإسلام يأكل قلوبهم، لأن الإسلام كان في تصاعد، ومكرهم وخبــثهم تعــبر عــنه أعمالهم وأقوالهم فيعود عليهم بالهوان والازدراء. وكان الرســول صــلى الله عليه وسلم يصبر عليهم، ويعاملهم بالحسنى لعلهم يعودون إلى رشــدهم، فيؤمنون بما كانوا يشاهدون من المعجزات. كان زيد بن اللصيت أحــد أحــبار اليهود الذين أظهروا الإسلام ليغدروا بالمسلمين. وحدث أن ضلت ناقــة الرسول صلى الله عليه وسلم وراح الصحابة يبحثون عنها بدون جدوى.

فأراد هذا المنافق أن يجعل من هذه القصة سبباً للتشكيك بالإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم فقال"أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته"(54). وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بإعلام الله له بقول هذا المنافق، وعلم مكان ناقته. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم متجنباً ذكر اسم المنافق "إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله.

وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا، فجاؤوا بها"(55). هذه هي حقيقة الوحي كما عرفها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أعلم إلا ما علمني الله" وقد رأينا أن حقيقة هذا العلم لا يتعلق بإرادة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا برغبته، فالوحي كان يأتيه على فترات بأمر الله "وما نتنزل إلا بأمر ربك". والأخبار كانت تأتيه تبعاً للظروف. وآيات الإعجاز وأسراره لا تظهر إلا بالمناسبات. والحكم الشامل **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾**(56). فأين الذين يزعمون الوصول والحلول والاتحاد، وهم في واد والمعرفة في واد. من استطاع من البشر أن يغني عن نفسه في الدنيا شيئاً بدون تأييد الله. ورسول الله صلى الله عليه وسلم "سيد ولد آدم ولا فخر" لأن الفخر للصانع وليس للمصنوع "وخاتم النبيين" و"رحمة للعالمين" كما وصفه الله. إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يغن عن نفسه شيئاً وتعرض لما تعرض له، فمن يستطيع أن يدعي لنفسه الوصول أكثر من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال "ما أعلم إلا ما علمني الله". ومن يستطيع أن يعلم أكثر من الصحابة الخلفاء الأربعة الذين بشروا بالجنة وعجزوا عن حماية أنفسهم من الغدر فاغتيل عمر في صلاة الصبح غدراً. مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عنه "قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب"(57). وقال "لو كان بعدي نبي لكان عمر"(58). وقتل عثمان وهو يقرأ القرآن. وقتل علي وهو ماض إلى صلاة الصبح. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه "أنا مدينة العلم وعلي بابها"(59). وهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، لو كانوا يعلمون بما سيتعرضون له من الغدر لتجنبوه، بل كان من واجبهم تجنبه. وهؤلاء كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بشرهم بالشهادة كما مر معنا. ولكن متى وكيف فإنه لم يخبرهم. وإننا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تأثر من الشاة المسمومة التي أهدتها له زينب بنت الحارث اليهودية. وعندما تذوق اللقمة الأولى لفظها وقال "إن هذا العظم ليخبرني أنه

مســـموم"(60). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في مرض وفاته "ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم"(61).

إنهـــا مشـــيئة الله. كأنما لكي يكون لليهود مساهمة في إيذاء كل نبي أو قتله. ولكي نعلم إن إرادة الله فوق كل إرادة، فهو الذي لا يحاط بعلمه، وهو الذي إن شاء يحيطـــون "بشيء من علمه". فقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم بتسميم الشاة بعد أن مضـــغ اللقمة الأولى ولم يعلم قبلها. لو تأملنا كل هذه الحوادث التي تعرض لها الرســـول صـــلى الله عليه وسلم، وتقييم القرآن لها. سنعرف بأن الإنسان المدعي لا يمكـــن أن ينسب لنفسه بعض ما نسبه الله للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يعاتبه. ولـــو كـــان الرســـول صلى الله عليه وسلم يبحث عن الزعامة السياسية، كان من مصـــلحته أن يشاع بأن كسوف الشمس إنما حدث لموت ابنه إبراهيم، ما دامت مثل هـــذه الإشـــاعات ستقوي زعامته السياسية، ولكنه نفى هذه الشائعات. وفي مناسبة ثانيـــة غضب من محلم بن جثامة لأنه قتل رجلاً في غزوة لشيء كان بينهما فأدى الرســـول صلى الله عليه وسلم الدية لأهل القتيل. وقال حين وقف أمامه محلم "اللهم لا تغفـــر لمحـــلم بن جثامة ثلاثاً"(62). ثم توفي محلم بعد سبعة أيام. وعندما دفنوه لفظته الأرض "فلما غلب قومه عمدوا إلى صدين فسطحوه بينهما، ثم رضموا عليه الحجـــارة حـــتى واروه. فبـــلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه، فقال والله إن الأرض لتطابق على من هو شرمنه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم بما أراكـــم مـــنه"(63). لقد أبى الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينسب لدعائه مثل هذا الـــتأثير. فقـــال بكـــل تواضع "إن الأرض لتطابق على من هو شر منه". هذا هو الرســـول صـــلى الله عـــليه وسلم في كل مواقفه، لم ينطق إلا بالصدق، ولم ينسب لنفســـه مـــا لـــم ينسبه إليه الله، ولم يخف من أمر الوحي مالا يرضاه. فنال ما نال بكمال عبوديته لله. وبمثل هذه العبودية نال الخلفاء من أبناء آدم ما نالوه من حظوظ الخلافة الإنسانية.

الرسل وعالم الغيب

كـــل ما غاب عن إدراك الإنسان ومعرفته هو من عالم الغيب حتى يعرف ويصـــبح معروفاً فلا يعود غيباً. وقد أشار القرآن إلى خمسة أمور اعتبرت من عالم الغيب ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله**

عـــليم خـــبير﴾(1). وهذه علوم لا يحاط بها وإن أحيط ببعض العلامات الدالة عـــليها. ومـــع ذلـــك فقد أشار القرآن كما ذكرنا في سورة البقرة إلى إمكانيات معـــرفية ليـــس لهـــا حدود فقال الله **﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شـــاء". وجاء في سورة يونس "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون(2).**

ومـــثل هذا الظن لا يمكن أن يحدث إلا عند ظهور قدرات خارقة للإنسان تقـــوده إلى الاعتقاد بقدرته في السيطرة على مصيره أو مصير الأرض. وهذه الحالـــة ظهـــرت في فلسفات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عـــندما سيطرت النزعة العقلية التي مجدت العقل بأكثر مما يستحقه ونسبت إليه أكثر مما يستطيعه. وكان من ثمار هذه النزعة الإلحاد الذي شق طريقه ليصبح المعـــتقد الرســـمي لبعض النظم السياسية. ولكن عصر تمجيد العقل تحطم بفعل بعض العقول التي دعت إلى دور أكثر تواضعاً للإنسان، وبفعل المسائل المعقدة الـــتي بـــدأت تظهر أمام العقل والتي أملت عليه أن يتواضع رغم التقدم المذهل الـــذي حققه العقل في عصرنا الحاضر. ومع ذلك فإن كل العلوم ستظل عاجزة عـــن التنـــبؤ بالقضـــايا المستقبلية التي تحدث عنها الرسل. وستظل هذه العلوم محكومـــة بحدود المشيئة الإلهية. وقد زودنا الرسول صلى الله عليه وسلم بعدد كـــبير منها سنذكر بعضها كدليل على إعجاز النبوة أمام كل تطور توصلت إليه العلوم أو ستتوصل إليه، وكإشارة إلى طبيعة العصر الذي نحن فيه، وما يحمل فـــي طياتـــه من العلامات والمفاجآت التي قد تكون بمثابة إنذار يجب علينا أن نســـتعد له. وإن العاقل لا يهمه من أين يأتيه الحق أو العلم لأن كل ما يهمه هو صـــحة هـــذا العـــلم. ونحن ننطلق في بحثنا من بديهية وهي أن الصادق الذي أخبرنا بعدة أخبار ثبتت صحتها لابد أن تكون بقية أخباره صحيحة. وبما إن كل مســـلم يؤمن بصحة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى قد رفع لـــي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفـــي هذه جليان من الله جلاه لنبيه كما جلاه للنبيين من قبله"(3). فإننا سنطلب مـــن المنكر أو الطاعن في صحة الحديث، أن يتتبع نبوءات الرسول صلى الله عـــليه وسلم، للتحقق من صحة مالا يمكن التحقق منه إلا بالبرهان، الذي شهدت بـــه الحوادث. مع العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتحدث بكل ما رآه كما صرح بذلك. كما أن وصول الصحابة والتابعين إلى بعض أسرار هذا العلم

تـدل على صحته، وسيظل هذا العلم في صدور العارفين إلى قيام الساعة، كما أشـارت الأحاديث النبوية إلى هذه الحقيقة وأكدتها. وأكدها أيضاً الواقع بظهور الأوليـاء والكرامات في كل العصور. وإذا كنا نجد الحذر للمنكر فإننا نقول له بـأن هذا العلم كامن فيه وإن كان ينكره ولا يعرف عنه شيئاً. وما عليه إلا أن يسـلك طـريق الشريعة لمعرفة حقيقة هذا العلم وهذا سيُعطى له من عدل الله عـندما يقتدي الإنسان بالرسل ويسلك سلوك الطائعين، لأن ميزان العدل الإلهي المنصوب لا يهضم مثقال ذرة من الخير.

لهذا نقول بأن التنبؤ والوصول إلى هذه العلوم وإن كان مرتبطاً بإرادة الله ومشـيئته، فـإن ثقتـنا بعدل الله يتيح لنا أن نقول ونحن مطمئنون، إن أعمال الإنسـان هـي المفتاح لفتح هذا الباب المغلق من العلوم في وجه أغلب الناس. فالمفـتاح في يد الإنسان، وما عليه إلا أن يعرف الطريق ويسير عليه ليفتح له. وقد جاء في القرآن **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾**(4).

فمـن أراد أن يـنهل من علم الله، عليه أن يعلم ما هي التقوى، وأن يعمل بها، وعندها سيعلمه الله كما وعد. فكنوز المعرفة الغيبية كامنة في الإنسان من جهـة الاستعداد للتلقي، وهي بيد الله من جهة الإلقاء. والإلقاء سار في الوجود، ولكـن المتلقي الإنسان لا يدرك الأمر الإلهي إلا عندما تتوفر فيه مزايا خاصة للاطـلاع عـلى هـذا الأمر. وقد تبين لنا الآن على ضوء الملاحظة أن بعض الحيوانات تهرب من المناطق التي ستتعرض للزلازل قبل وقوعها، وإن الكلاب لهـا حواس للشم تفوق القدرات الإنسانية في هذا المجال مع أن الكلاب لا تأنف مـن أكـل اللحوم المنتنة رغم نفاذ حاسة الشم لديها، والإنسان يأنف من ذلك. وعجـائب قـدرات المخـلوقات لا يحـاط بها، مع إن الإنسان هو أكمل هذه المخـلوقات لأنـه بمجموع القوى التي يملكها بلغ الكمال الذي لم يصل إليه أي مخـلوق آخر، ولكن قدراتنا الإنسانية مطوية بداخلنا مثل صفحات كتاب إذا لم نفـتحه لنقرأ ما فيه لن نعرف ما بداخل هذا الكتاب. والكون هو كتاب مسطور للقارئ، وكتاب مجهول لغير القارئ. والعقل هو النور الذي يمكن أن نقرأ به ما نـراه. وقـد رأينا بعض كنوز المعرفة الإلهية، وقد فتحت لشاب من الأنصار. ففي رواية "عن أنس قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله شـاب مـن الأنصـار فقال لـه النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارث؟. قال أصبحت مؤمناً بالله حقاً، قال: انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله. عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأني

أنظـــر إلى عـــرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها. قال: أبصرت فالزم، عبد نور الله الإيمان في قلـــبه، فقال: يا رسول الله: ادع لي بالشهادة. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارس ركب، وأول فارس استشهد"(5). لقـــد شــــهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما رأينا لحارثة مؤيداً بصحة إسرائه الـــروحي بقوله "عبد نور الله الإيمان في قلبه" فكانت رؤيته لأهل الجنة. وأهل النار بهذا النور.

ورغم أن هذا الحديث قد ضعفه الرواة، فإن لنا في حديث رسول الله صلى الله عـــليه وســـلم عن أويس القرني دليل آخر. فقد أخبر عنه دون أن يلقاه وقال لأصـــحابه اسألوه الدعاء. وقد وردت عدة أحاديث بنفس المعنى عن أويس. قال الرســـول صلى الله عليه وسلم عنه: "يأتي عليكم أويس بن عامر مع إمداد أهل اليمـــن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم. له والدة هـــو بهـــا بر. لو أقسم على الله لأبره. فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل"(6) وجـــاء في حديث عن عمر بن الخطاب قال: "أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وســـلم أنه سيكون في التابعين رجل من قرن يقال له أويس بن عامر، يخرج به وضـــح فيدعـــو الله أن يذهـــبه فيقول: اللهم: دع لي في جسدي منه ما أذكر به نعمـــتك عـــلي، فيـــدع له فـــي جسده ما يذكر به نعمته عليه، فمن أدرك منكم فاستطاع أن يستغفر له فليستغفر له"(7).

وقـــد أتيح لعمر أن يلقاه بعد طول انتظار وبحث عنه في كل مواسم الحج، فقد ورد "عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: مكث عمـــر يسأل عن أويس القرني عشر سنين فذكر أنه قال: يا أهل اليمن. من كان مـــن مراد فليقم، فقام من كان من مراد وقعد آخرون. فقال: أفيكم أويس؟. فقال رجـــل: يـــا أمير المؤمنين لا نعرف أويساً ولكن ابن أخ لي يقال له أويس هو أضعف وأمهن من أن يسأل مثلك عن مثله. قال له: أبحرمنا هو؟ قال: نعم، هو بالأراك بعرفة يرعى إبل القوم؟ فركب عمر وعلي رضي الله عنهما حمارين ثم انطـــلقا حـــتى أتيا الأراك. فإذا هو قائم يصلي يضرب ببصره نحو مسجده وقد دخـــل بعضه في بعض فلما رأياه قال أحدهما لصاحبه: إن يك أحد الذي نطلبه فهـــذا هو، فلما سمع حسهما خفف وانصرف. فسلما عليه فرد عليهما: وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته. فقالا له: ما اسمك رحمك الله؟. قال: أنا راعي هذه الإبـــل، قالا: أخبرنا باسمك. قال: أنا أجير القوم، قالا: ما اسمك؟. قال أنا عبد

الله. فقال له علي: قد علمنا أن من في السموات والأرض عبد الله فأنشدك برب هذه الكعبة ما اسمك الذي سمتك به أمك؟. قال: وما تريدان من ذلك؟. أنا أويس بن عامر، فقال له: اكشف عن شقك الأيسر. فكشف لهما، فإذا لمعة بيضاء قدر الدرهم من غير سوء، فابتدرا يقبلان الموضع، ثم قالا له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نقرئك السلام وأن نسألك أن تدعو لنا. فقال إن دعائي في شرق الأرض وغربها لجميع المؤمنين والمؤمنات.؟ فقالا: أدع لنا. فدعا لهما وللمؤمنين والمؤمنات. فقال لـه عمر: أعطيك شيئاً من رزقي أو من عطائي تستعين به. فقال: ثوباي جديدان ونعلاي مخصوفتان، ومعي أربعة دراهم ولي فضلة عند القوم، فمتى أفني هذه! إنه من أمل جمعة أمل شهراً، ومن أمل شهراً أمل سنة، ثم رد على القوم إبلهم ثم فارقهم فلم ير بعد ذلك"(8). وفي شأن أويس وأمثاله من المؤمنين قال الرسول صلى الله عليه وسلم "رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك. فلما كان يوم تستر انكشف الناس فقالوا: يا براء أقسم على ربك، فقال: أقسم عليك أي رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك صلى الله عليه وسلم فاستشهد"(9). وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث بأن الأرض لن تخلو من أولياء الله، وعندما يموت هؤلاء الأولياء بالريح الطيبة التي سيرسلها الله لقبض أرواح المؤمنين تقوم الساعة.

جاء في الحديث الشريف "لن تخلوا الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن، فبهم تسقون، وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر"(10). وجاء في حديث آخر عن أنس. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "البدلاء أربعون رجلا: اثنان وعشرون بالشام، وثمانية عشر بالعراق، كلما مات واحد أبدل الله مكانه، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم فعند ذلك تقوم الساعة"(11). وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بعض علاماتهم فقال "إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن دخلوها برحمة الله، وسلامة الصدور، وسخاوة الأنفس، والرحمة لجميع المسلمين"(12) وهؤلاء الأولياء أو الابدال قد يكونون من الرجال والنساء، وعلمهم لا يقتصر على الأمور الظاهرة في عالمنا إذ لهم اطلاع على عالم الغيب بما شاء الله لهم. وإن قصة الراهب بحيرى المشهورة تدل على حقيقة انتشارهم في الأرض قبل الإسلام وبعده إلى قيام الساعة. فقد عرف الراهب بحيرى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يعرف نفسه، وقبل ظهور نبوته وهو ابن تسع سنين عندما كان في رحلة تجارية إلى الشام مع عمه أبي طالب. فقد جاء في سيرة ابن هشام أن الراهب

بحيرى عندما مرت به قافلة المكيين التجارية دعاهم إلى طعام صنعه لهم. وطلب منهم أن لا يتخلف أحد منهم. وحين رأى بحيرى الرسول صلى الله عليه وسلم "جعل يسأله عن أشياء من حاله، من نومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند البحيرى من صفته ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده... فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟. قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟. قال مات وأمه حبلى به، قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به إلى بلاده."(13). وإن خاتم النبوة الذي رآه الراهب بحيرى، هو علامة لا يعرفها إلا أولياء الله. ولهذا عرفها بحيرى بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وعمه لا يعرفون عن المستقبل المنتظر شيئاً. كما إن ورقة بن نوفل، وكان قد اعتنق النصرانية، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تنبأ للرسول صلى الله عليه وسلم بإخراجه من مكة بعد أن ذهبت إليه لتسأله عن تفسير ما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاءه الوحي لأول مرة. وقال بن نوفل للرسول صلى الله عليه وسلم حين لقيه وهو يطوف بالكعبة "يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبنه، ولتؤذينه، ولتخرجنه، ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يا فوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله"(14). كما أن موقف النجاشي من المسلمين حين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة. وقوله لوفد قريش الذين طلبوا منه أن يردهم، بعد أن سمع آيات من القرآن تليت عليه "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون"(15). إن هذا القول. والهجرة الثابتة تاريخياً، والتي لا يمكن إنكارها، كما قد ينكر البعض خبر الراهب بحيرى وورقة ابن نوفل، تدلان على الاعتقاد المسيحي السائد في ذلك العهد عن ظهور رسول في جزيرة العرب. ولو كان النجاشي وبطاركته لا يعتقدون بظهور نبي بعد المسيح عليه السلام، لما وافقوا على حماية المسلمين. وقد ورد في إنجيل القديس يوحنا إشارة واضحة إلى نبي سيأتي بعد غياب المسيح عليه

السلام سماه "المحامي الإلهي" أو "روح الحق". فقد قال المسيح عليه السلام وهو يخبر تلاميذه بعودته إلى من أرسله "أما الآن فإني منطلق إلى من أرسلني.. إن فــي انطلاقي لخيراً لكم، فإن لم أنطلق لا يأتكم المحامي، وأما إذا انطلقت فإني أرسله إليكم. ومتى جاء فإنه يفحم العالم بشأن الخطيئة والبر والدينونة.. وعندي أشياء كثيرة أقولها لكم، غير أنكم لا تطيقون الآن حملها. ولكن، متى جاء، هو، روح الحق، فإنه يرشدكم إلى الحقيقة كلها لأنه لن يتكلم من عند نفسه، بل يتكلم بمــا يكــون قــد ســمع، ويخــبركم بما يأتي. إنه سيمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم"(16). إن هذه الإشارة رغم التفسيرات الكثيرة الممكنة لها، إلا أننا إذا أخذناهــا بمعناها الحرفي، تدل دلالة لا لبس فيها إلى الرجل القادم الذي سيكون "روح الحــق" والــذي سيقوم بإرشاد العالم والمسيحيين منهم إلى "الحقيقة كلها" والذي سيكون من صفاته تمجيد المسيح عليه السلام "إنه سيمجدني". وإذا نظرنا إلى حقــائق التاريخ فإنه لم يظهر أي رسول أو إنسان أتيح له أن يدعو إلى دين جديد، وأن يقول عنه إنه الدين الكامل، وإنه خاتم الأديان، وان يجعل في صلب عقيدتــه تمجيد المسيح عليه السلام وجميع الرسل والأنبياء غير الرسول محمد صــلى الله عــليه وسلم. بل إن كل من جاء وادعى النبوة بعد ذلك كان مصيره الــتكذيب والإنكــار فــي كل أنحاء العالم. فلم يظهر أي دين جديد بعد الرسالة الإســلامية التي كانت ختام الرسالات السماوية وكما لها والجامع لها. وهذا لم يحــدث نتيجة لمصادفات، إذ إن الراغبين بالزعامة وإدعاء النبوة، لم يخل منهم الــتاريخ. فكيف سقطت كل ادعاءات المدعين، وتم التمكين للرسالات السماوية المعــروفة بالانتشار، خلافاً لكل منطق حاول سبرغور التاريخ وتفسير ظهور الرســل بمــنطق تــبريري منفصل عن رؤية الإرادة الإلهية المهيمنة على كل إرادة. ولــو إنــنا أردنا أن نقرأ الإسلام بعقل منفتح لوجدناه الجامع لكل شرائع الرســل، إضــافة إلى كونه الدستور الصالح لبناء المجتمع الإنساني بناء سليماً، تصــان فيــه حرية الفرد وحرية المجتمع بحيث لا تضر إحداهما بالأخرى كما يحدث في المجتمعات الغربية. وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم موقعه في مسيرة تاريخ النبوة بكل تواضع لا يعدو الحقيقة فقال "مثلي في النبيين كمثل رجــل بــنى داراً فأحســنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعــل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة. فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة"(17). ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تفاضــلوا بيــن أنبياء الله"(18). وقال "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيــا والآخرة ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم

واحـــد"(19). وقـــال "خيـــر هـــذه الأمـــة أولهـــا وآخرها، أولهم فيهم رسول الله، وآخـــرهم فيهـــم عيسى بن مريم، وبين ذلك نهج أعوج ليسوا منك ولست منهم"(20). نحن نعرف إن الكمال لا يصدر إلا عن الكاملين. وكمال الرسالات وختامها يقتضي كمال الحامل للرسالة. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنـــا قـــائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشـــفع ولا فخر"(21). لأن الفخر للصانع، ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وســـلم عن التفضيل بين الأنبياء. وقال: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"(22). فنسب كمالـــه وعـــلمه ومكانته لله. إنه كما جاء في الإنجيل عن الرسول القادم "روح الحـــق" وهو"يرشدكم إلى الحقيقة كلها لأنه لن يتكلم من عند نفسه، بل يتكلم بما يكـــون قد سمع، ويخبركم بما يأتي. إنه سيمجدني". لقد أخبرنا الرسول بالحقيقة، حقيقة الإنسان ومصيره ومستقبله. وقال عنه الله **﴿وما ينطق عن الهوى. إن هـــو إلا وحـــي يـــوحى.﴾**(23). وجعل القرآن من صلب عقيدة المؤمن عدم الـــتفريق بيـــن رســـل الله. فقـــال الله عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين **﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفـــرانك ربـــنا وإليك المصير﴾**(24) وقد أنبأنا الرسول صلى الله عليه وسلم بـــبعض مـــا ســـيحدث إلى قيام الساعة. وقد رأينا صدق نبوءاته ودقتها، ونحن بانتظار الباقي منها. كما رأينا تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم للمسيح بنص القرآن والأحاديث، مع تصحيح الإسلام لحقيقة المسيح الإنسانية التي تتنافى مع الاعـــتقاد السائد بقدرة الناس على إيذاء من قيل عنه إنه "ابن الله". فلو كان "ابناً لله" هل سيسمح الله لليهود أو غيرهم بإيذائه. ولهذا جاء التصحيح القرآني بالقول لأهـــل الكـــتاب **﴿يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحـــق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه- أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكـــفى بالله وكيلاً﴾**(25). وإذا رجعنا إلى الأناجيل المعترف بها رسمياً سنقرأ عـــبارة "أبانـــا" أو "أبـــاكم" عن الله بمعنى أبوة الله لجميع البشر، ورحمته بهم كـــرحمة الأب بأبنائه. وهذا هو المقصود من استخدام المسيح عليه السلام لهذه العـــبارة كما هو واضح، مما ينفي بنوة التخصيص التي فهمها بعض المسيحيين بحرفيـــتها لا بمعناها. وإننا نقدم هذه العبارات من الأناجيل المعترف بها رسمياً

للدلالة على استخدام المسيح عليه السلام لكلمة أب بالمعنى المجازي. لقد جاء في إنجيل متى "طوبى لفاعلي السلام، فإنهم يدعون أبناء الله"(26). وجاء "هكذا فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات"(27). وعن الصلاة قال "صلوا هكذا، أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك"(28). وجاء في إنجيل القديس لوقا "فكونوا رحماء كما أن أباكم رحيم"(29) و"لا تطلبوا، أنتم أيضاً، ما تأكلون وما تشربون، ولا تقلقوا. فإن جميع هذه الأشياء تطلبها أمم العالم، وأبوكم يعلم أنكم في حاجة إليها. فاطلبوا بالحري ملكوته"(30).

وجاء في إنجيل القديس يوحنا تعبير واضح عن معنى الأبوة الذي قصده السيد المسيح عليه السلام وهو يقارن بين أبناء الله وأبناء الشيطان. فقال "لو كان الله أباكم، لكنتم تحبونني، لأني من الله خرجت، وأتيت، فأنا لم آت من نفسي، بل هو أرسلني. لم لا تفهمون كلامي؟.. لأنكم لا تستطيعون أن تسمعوا أقوالي. إن أباكم أنتم، هو إبليس، ورغبات أبيكم تبتغون أن تحققوا"(31). وجاء في إنجيل مرقس "إذا قمتم للصلاة فاغفروا، إن كان لكم على أحد شيء لكي يغفر لكم أيضاً، أبوكم الذي في السماوات، زلاتكم"(32) فأبوة الله حسب منطق الأناجيل شملت كل الجنس البشري بالولادة والوراثة، ولكن الأبوة الإلهية الخاصة هي من نصيب المؤمنين بطاعتهم لأوامره، بينما أبوة الأشرار لإبليس. وهذا الكلام على فرض أن المسيح هو القائل به لا تخفى رمزيته. فالمسيح عليه السلام ابن الله بالأعمال والأقوال لا بالنسب، كما أن الأشرار أبناء إبليس. فالأنبياء "أبناء لعلات ولكن دينهم واحد" وحوادث التاريخ ظاهرة لهم. وقد بشر المسيح عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وسلم بنص من القرآن **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾**(33). وللعلم فإن معرفة الرسل لا تقتصر على العلم بخبر الرسول القادم، بل إنهم يعرفونه بالاسم والمشاهدة، ولكنهم لا يصرحون بكل ما يعرفون إلا بأمر الله، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً"(34).

وقد مرّ معنا الحديث الذي وصف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مشاهدة الرسل للدنيا "فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفي هذه. جليان من الله جلاه لنبيه كما جلاه للنبيين من قبله". ومن

هـذا العـلم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف من أراد به سوءاً كما مر معنا. وعرف المسيح عليه السلام من سيخونه من تلاميذه كما جاء في روايات الأناجيل: ("ولما كان المساء اتكأ مع التلاميذ الأثني عشر. وفيما هم يأكلون قال: "الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني"... إن ابن البشر ماض بحسب ما هو مكتوب عنه، ولكن، ويل لذلك الرجل الذي يسلم ابن البشر، فلقد كان خيراً لذلك الرجل أن لا يولد" فأجاب يهوذا الذي كان مزمعاً أن يسلمه، وقال: "لعلي أنا، رابي؟" فقال له: "أنت قلت")(35).

وإذا قرأنا بعض ما ورد في إنجيل برنابا عن تبشير المسيح عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وسلم فإننا سنفاجأ بوضوح العبارة وتصحيح بعض الأخبار التي وردت في التوراة، مع إن هذا الإنجيل غير معترف به من الكنيسة. وقد حكم عليه بالاستبعاد مع مئة إنجيل تقريباً حين قامت الكنيسة باختيار الأناجيل الأربعة المعروفة، وحكمت على الباقي منها بالتزوير. وقد قال موريس بوكاي مفسراً لما حدث "لقد قادت وفرة الروايات عن المسيح الكنيسة في مرحلة انتظامها إلى إجراء استبعاد لكثير من المؤلفات. وربما كان ما حذف مائة إنجيل! لقد احتفظ فقط بأربعة من الأناجيل لتدخل في قائمة رسمية من كتابات العهد الجديد والتي تشكل ما يسمى بالكتب المعترف بها كنسياً"(36). وكان مما استبعد كما يذكر الكاتب "الأناجيل المزورة. ولقد بقي من هذه النصوص مؤلفات يحتفظ بها جيداً لأنها "كانت تتمتع بالتقدير العام"، على ما تقول لنا الترجمة المسكونية، ومن هذه رسالة برنابا"(37).

ورغم الإشكالات التي يثيرها إنجيل برنابا الذي لم يعرف إلا في عام 1784 عندما اكتشفه الدكتور منكهوس أحد أعضاء كلية الملكة في أكسفورد فقام بترجمته من الإسبانية إلى الإنكليزية. فإن مترجم الإنجيل المذكور إلى اللغة العربية الأستاذ خليل سعادة قال في مقدمة الترجمة "ويذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة 492 يعدد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى "إنجيل برنابا" فإذا صح ذلك كان هذا الإنجيل موجوداً قبل ظهور نبي المسلمين بزمن طويل"(38) ولكن بعض المستشرقين اتهموا المسلمين بكتابة هذا الإنجيل وقالوا إنه منقول إلى الإيطالية من العربية وقد فند الأستاذ سعادة هذه الأقوال فقال "إن الدكتور هويت... يقول في سنة 1784 "أن الأصل العربي لا يزال موجوداً في الشرق" ولكنك إذا عملت البصيرة وجدت أن كلام الدكتور هويت مبني على كتابات

المستشرق سايل.. وقوله هذا مبني على السماع لأنه لم يعثر على نسخة عربية للإنجيل المذكور قط. ثم إنه لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتاب المسلمين سواء في الأعصر القديمة أو الحديثة حتى ولا في مؤلفات من انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاح لهم في مثل تلك المناقشات وليس ذلك فقط بل لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعارب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية من قديمة وحديثة"(39). ومع ذلك فالأستاذ سعادة لا يخفي ميله للاعتقاد بالأصل العربي لهذا الإنجيل. والسبب إنما يعود بالحقيقة إلى تبشير هذا الإنجيل بشكل غير مألوف بظهور الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بشكل صريح. وقد كان من واجب المسيح عليه السلام أن يبشر بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كما بشر موسى بالمسيح عليهما السلام. وكما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول عيسى عليه السلام قبيل قيام الساعة "عند المنارة البيضاء شرقي دمشق" وذلك، قبل أن تفتح مدينة دمشق للمسلمين، وتبنى فيها المساجد. بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفه وهو نازل وصف مشاهد فقال "ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون"(40). إن كل عاقل يلجأ إلى عقله الذي لا يشاهد به أكثر مما تكشف له عيناه، سينكر صحة هذا الحديث، لأن مقياسه هو ذاته المحدودة التي لا تعرف حقيقة علوم الرسل صلوات الله عليهم، أو علوم أولياء الله من أتباعهم، ولهذا فهو سينكر ما ورد عن بشارات المسيح عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وسلم، وكأن المسيح عليه السلام سيخفي ما يعلم، أو يخبر بما لا يعلم، وهو الصادق المطيع لله، والعارف بالأمر، والناصح للناس. ولهذا فإن طبيعة الرسالة وحقيقتها تقتضي معرفة متميزة عن البشر العاديين لتصح نسبة الرسول إلى الله، كما إن الولاية تقتضي خرق المألوف لتصح الدعوى لمالكها. ولهذا فإن العارف والمصدق برسالة المسيح عليه السلام لا يستغرب نبوءات المسيح وبشارته بقدوم المصطفى صلى الله عليه وسلم، بل سيكون من غير الطبيعي أن لا يبشر به، وهو العارف بأن رسالته ليست ختام الرسالات السماوية، بدليل يؤيده الواقع الذي نعيشه من ظهور الإسلام وانتشاره، في أوضاع تاريخية لا تسمح للعرب

بـــالطموح إلى "قتال الروم ذات القرون"، لولا إرادة الله في نصرة المسلمين. بل إن انتشـــار المســـيحية بعد غياب صاحب الرسالة تدعو العاقل للتأمل في السر الـــذي ألـــف الله به القلوب على محبة المسيح عليه السلام خلافاً لكل ثائر، وما أكـــثرهم فـــي الممالك الرومانية ولهذا فإن معرفة المسيح عليه السلام بالرسول القادم مسألة لا تثير استغراب العارف بأمر النبوة. وإذا كانت العبرة بالدليل، فقد قدمنا الدليل من إنجيل يوحنا المعترف به، كما نقدم الدليل من إنجيل برنابا غير المعـــترف بصحته لتأمل ما ورد فيه لكل من يبحث عن الحقيقة الخالصة بدون أن يجـــرفه الهـــوى لـــلوقوف في صف أعداء الحقيقة، وإننا يجب أن نضع في الاعتـــبار بـــأن كـــاتب هذا الإنجيل إذا كان مسلماً، وكان يريد من خلاله دعوة المســـيحيين إلى الإســـلام، فإن عليه أن ينشره بين الناس، وأن يدعي مثلاً أنه وجـــده فـــي مكـــان ما. ولكن هذا لم يحدث. والذين اكتشفوه هم مسيحيون، ولم يتوفر منه سوى نسختين "وأول من عثر على النسخة الإيطالية.. هو كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا.. سنة 1709... ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة 1738 .. إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هناك، بيد أنه وجد في أوائل القـــرن الثامن عشر نسخة أخرى أسبانية... وكان قد أقرضها الدكتور هلم من هدلـــي.. المستشـــرق الشـــهير سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكهوس أحد أعضـــاء كلية الملكة في أكسفورد فنقلها إلى الإنكليزية.. سنة 1784"(41) وقد مر معنا قول الأستاذ سعادة بأنه لم يرد أي ذكر لإنجيل برنابا في"فهارس الكتب العـــربية أو الأجنبية". فلو كان كاتبه مسلماً هل سيكتفي بكتابة نسخة واحدة له، وســـينتظر حـــتى يـــترجم ويعلم به الناس بعد مئات السنوات، مع أن أمر البابا الصـــادر بـــتحريمه كان في سنة 492م. أي قبل ولادة الرسول صلى الله عليه وســـلم بقـــرن تقريباً. كما أن ظهور أربعة أناجيل عن التلاميذ الأحد عشر تدل عـــلى اخـــتفاء سبع روايات من تلاميذ المسيح عليه السلام، لأسباب منها ضيق أفـــق البشر، وجهلهم. ومع ذلك فإن العلماء الأتقياء الذين يبحثون عن الحقيقة لا يخيفهـــم إلا الجهل، ولهذا فإن من خلقهم البحث عن الحقيقة إذا لم يصلوا إليها. وهؤلاء هم الذين كشفوا عن إنجيل برنابا وقدموه للعالم رغم ما فيه من عبارات تـــتعارض مـــع عقيدتهم. لقد جاء في الإنجيل على لسان المسيح أنه قال "الحق أقـــول لكـــم إن كل نبي متى جاء فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله. ولذلـــك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه. ولكن رسول الله متى جـــاء يعطيـــه الله ما هو بمثابة خاتم يده. فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذيـــن يقبـــلون تعليمه. وسيأتي بقوة على الظالمين. ويبيد عبادة الأصنام بحيث

يخزي الشيطان. لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً: "أنظر فاني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً هكذا سيفعل نسلك".

أجـــاب يعقـــوب: "يا معلم قل لنا بمن صنع هذا العهد؟. فإن اليهود يقولون "باســحق". والاســماعيليون يقولون "باسماعيل" وأجاب المسيح قائلاً "صدقوني لأنـــي أقول لكم الحق أن العهد صنع بإسماعيل لا باسحق" حينئذ قال التلاميذ "يا معــلم هكذا كتب في كتاب موسى أن العهد صنع باسحق". أجاب يسوع متأوهاً: "هذا هو المكتوب. ولكن موسى لم يكتبه ولا يسوع. بل أحبارنا الذين لا يخافون الله. الحق أقول لكم إنكم إذا أعملتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا لأن الملاك قال: "يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله. حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله. أجاب إبــراهيم "هــا هــو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله". فكلم الله حينئذ إبــراهيم قــائلاً: "خــذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة. فكيف يكون اسحق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين"(42).

وكــل من ذاق طعم الأبوة يعرف قيمة ابنه البكر. ولهذا كان الامتحان في الولــد الأغــلى عــلى قلب إبراهيم عليه السلام. سيعود المسيح لتذكير تلاميذه بالرســول القادم قبل فراقه لهم قائلاً "لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا. لأني لست أنـــا الـــذي خلقكم بل الله الذي خلقكم يحميكم. أما من خصوصي فإني قد أتيت لأهيء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم. ولكن احذروا أن تغشوا لأنـــه ســيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي. حينئذ قال أندراوس: "يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه". أجاب يسوع "إنه لا يأتي في زمنكم بـــل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً. في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعــرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم. وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم. وإني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهــر صـــدقي" (43). إن بــرنابا لن يكون هو الشاهد الوحيد المبشر بقدوم الرســول صـــلى الله عــليه وسلم الذي سيحطم الأصنام. إذ لنا في قصة إسلام ســلمان الفارســي دليل على معرفة أولياء الله بما سيحدث عن كشف محقق لا يعــتوره أي شــك. وهــذه القصة في رحلة سلمان للبحث عن الحقيقة هي التي دفعــته إلى أرفــع درجــات الإيمان، بعد أن عرضته للعبودية، حتى قال عنه الرســول صلى الله عليه وسلم ."سلمان منا أهل البيت"(44)وإننا في قصة إسلام

ســلمان سنكتشف هذا التلاقي بين ماقاله المسيح، وبين ماسيقوله الراهب لسلمان عن توقيت ظهور الرسول. فقد قال المسيح" إنه لايأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً" وسوف يقول راهب عموريــة لسلمان ما يشبه هذا الكلام عندما سأله النصح للالتحاق برجل صالح. فقـال له :" أي بــني والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الــناس آمــرك به أن تأتيه. ولكنه قد أظل زمان نبي..." ونصحه بالالتحاق به.
جـاء في سيرة ابن هشام عن "عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن محمود بــن لبيد عن عبد الله بن عبس، قال: حدثني سلمان الفارسي من فيه قال: كنت رجــلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها: جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحــبس الجاريــة، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يــتركها تخبو ساعة. قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يومــاً، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب إليها فاطلعها- وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري. قــال: فخــرجت أريــد ضــيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصــارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم، أنظر ما يصنعون، فــلما رأيتهم، أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. فرجعت إلى أبي، وقد بعــث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني أين كنت؟ أو لم أكــن عهــدت إليك ما عهدت؟. قال: قلت له يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيســة لهــم، فأعجبــني ما رأيت من دينهم، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشــمس. قــال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت له: كلا والله، إنه لخير من ديننا. قال: فخافني ووضع في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

ســلمان يهــرب إلى الشــام: قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصــارى، فأخبروني بهم فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهــم، فــآذنوني بهــم: قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم، أخبروني بهم:

فـــألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة.

ســـلمان مع أسقف النصارى السيء: قال: فجئته، فقلت له: إني قد رغبت فـــي هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معـــك، قـــال: ادخل فدخلت معه. وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيهـــا، فـــإذا جاء إليه شيء منها اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع قـــلالاً مـــن ذهـــب وورق قال: فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ثم مات فاجـــتمعت إليـــه النصـــارى ليدفنوه فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصـــدقة، ويرغـــبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال: فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قال: قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قـــالوا: فدلـــنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورق. قـــال: فـــلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً. فصلبوه ورجموه بالحجارة وجاؤوا برجل آخر، فجعلوه مكانه.

سلمان مع أسقف النصارى الصالح: قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصـــلي الخمـــس، أرى أنـــه كان أفضل منه، وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخـــرة، ولا أدأب ليـــلاً ولا نهاراً منه. قال فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله مثله قال: فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني قد كنت معك، وأحببـــتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى مـــن توصـــي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كـــنت عـــليه فقـــد هـــلك الناس، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو على ما كنت عليه فالحق به".

ســـلمان يلحق بأسقف الموصل: سافر سلمان إلى صاحب الموصل، ومكث عـــنده إلى حين وفاته. فأوصاه باللحاق برجل صالح في نصيبين. ولكن الرجل الصـــالح مـــا لبث أن توفي بعد التحاقه به. فأوصاه بالالتحاق برجل صالح في عمورية. فذهب إليه وأقام عنده إلى حين وفاته.

فســـأله النصـــح للالتحاق برجل صالح. فقال له، "أي بني، والله ما أعلمه أصـــبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام. يخرج بأرض العرب. مهاجـــره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى. يأكل الهدية، ولا يـــأكل الصـــدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد

فـــافعل. ثم مات وغيب. ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث. ثم مر بي نفر مـــن كـــلب تجار. فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمـــتي هذه، قالوا: نعم. فأعطيتموها. وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القـــرى ظـــلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي. ولم يحق في نفسي.

ســـلمان يذهـــب إلى المدينة: فبينا أنا عنده. إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه. فاحتملني إلى المدينة فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي فأقمت بها، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام بمكـــة مـــا أقام، لا أسمع لـــه بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة.

سلمان يسمع بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة: فوالله إني لفي رأس عـــذق لسيدي أعمل له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عـــم له، حـــتى وقـــف عـــليه، فقال: يا فلان قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن، محمود بـــن لبيد، عن عبد الله بن عباس، قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العرواء. قال ابـــن هشام: العرواء الرعدة من البرد والانتقاض، فإن كان مع ذلك عرق فهي الرخصـــاء، وكلاهما ممدود- حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت على النخـــلة، فجعـــلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك، قال: قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال.

سلمان يستوثق من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم: قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته. فلما أمسيت أخذته. ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وســـلم وهـــو بقـــباء فدخلت عليه، فقلت له: إنه بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة. فرأيتكم أحق به مـــن غيـــركم. قال: فقربته إليه. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: كـــلوا، وأمسك يده. فلم يأكل. قال: فقلت في نفسي هذه واحدة قال: ثم انصرفت عـــنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئته بـــه، فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وأمر أصحابه، فأكلوا معه. قال: فقلت في

نفســـي: هاتان اثنتان، قال: ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغـــرقد، قـــد تـــبع جنازة رجل من أصحابه علي شملتان لي، وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لـــي، فـــألقى رداءه على ظهره. فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله، وأبكـــي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحول، فتحولت فجلست بين يديـــه، فقصصـــت عـــليه حديثي، كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد.

ســـلمان يفـــتك نفســـه من الرق بأمر رسول الله ومساعدته صلى الله عليه وســـلم: قال سلمان. ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كاتب يا سلمان. فكاتـــبت صـــاحبي عـــلى ثلاثمائة نخلة أحييها له بالتفقير- بالزرع-، وأربعين أوقيـــة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أعينوا أخاكم. فأعانوني بالـــنخل. الـــرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة وديـــة، والـــرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة وديـــة، فقـــال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فآتني، أكن أضعها بيدي. قال ففقّرت، وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئـــته فأخبرته، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها، فجعلنا نقرب إليه الودي، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، حتى فرغنا، فو الذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة.

قال: فأديت النخل. وبقي علي المال، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب، من بعض المعادن، فقال ما فعل الفارسي المكاتب؟ قال: فدعيت له، فقال: خذ هذه، فأدها مما عليك يا سلمان. قال: قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟. فقال خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك. فأخذتها، فوزعت لهم منها. والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية. فأوفيتهم حقهم منها، وعتق سلمان، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حراً، ثم لم يفتني معه مشهد"(45)، وإن قصة ابن الهيبان اليهودي الذي جاء إلى المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها تدل على اطلاع بعض أولياء الله على وقت ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد ذكر أن ابن الهيبان كان رجلاً صالحاً هاجر من الشام إلى المدينة. وشاهدوا من كراماته هطول المطر بدعائه. وعندما حضرته الوفاة، قال لمن حوله "يا معشر يهود، ما

ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟. قالوا: إنك أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث. فأتبعه، وقد أظلكم زمانه. فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذرارى والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه" وللعلم، فإن الإسلام لم يأمر بمثل هذه الأعمال، ولكننا ننقل ما وصلنا من الأخبار.

"فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفـتية وهم ثعلبة وأسيد ابني سعية وأسد بن عبيد وهم من بني قريظة، وكانوا شباباً أحداثاً، يا بني قريظة، والله إنه النبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان. قـالوا: ليـس بـه، قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود".(46)

إننا بعرضنا لكل هذه الأخبار التي قد لا يخلو بعضها من المبالغة، إلا أنها لا تخـلو أيضـاً مـن الصـدق، فإننا نستدل على معرفة بعض العابدين لزمن الرسـول صـلى الله عـليه وسلم، والتبشير به قبل ظهوره. وهؤلاء ليسوا من الأنـبياء، بل من عباد الله الأطهار الذين حلقت أرواحهم في ملكوت الله، فكانوا يسـمعون بسمع الله، ويبصرون بإبصار الله، وينطقون بلسان الله. كما جاء في الحديث الشريف "إن الله تعالى يقول: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالعداوة. ابن آدم لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضت عليك. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالـنوافل حـتى أحبه فأكون أنا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسـانه الـذي يـنطق به، وقلبه الذي يعقل به. فإذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته، وإذا استنصرني نصرته. وأحب ما تعبد لي عبدي به النصح لي"(47). وإن فـي قصـة موسـى مع الخضر عليهما السلام. غنية للبرهان على حقيقة الولاية الإنسانية، لمن لا تقنعه الأحاديث النبوية الكثيرة الواردة في هذا المجال. فقد مضى موسى مع الخضر فرأى منه أموراً لا يقرها منطق العقل، ولا قانون الشريعة **﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾** ثم **﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكيـة بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً"** ثم **"فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية اسـتطعما أهـلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامـه قـال لـو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك**

سـأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾(48) هذا تعليم خاص لموسى عـليه السـلام بأمـر الله لحكمة أرادها. وموسى عليه السلام صاحب الشريعة الإلهية كان عليه أن يحكم وفقاً لشريعته، ولهذا كان يعترض على أعمال الرجل الصالح الذي وجد له العذر قبل أن يرافقه **﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيـف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾**(49). ولهذا قال الرسول صلى الله عـليه وسلم "رحمة الله علينا وعلى موسى. لو صبر لرأى من صاحبه العجب" (50). ومن هذا الباب كان علم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه "لو كنت على شاطئ نهر وقد مددت يدي لأغـترف فحدثتكم بكل ما أعلم ما وصلت يدي إلى فمي حتى أقتل"(51). وكان عمـر بن الخطاب يسأل حذيفة عن المنافقين لعلمه بما في قلوبهم مما علمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد قال "إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر. فقيل له: وما حملك على ذلك. فقال: إنه من عرف الشر، وقع في الخير" (52). وكـان مـن أخلاقه وتقواه أنه حين أرسله عمر بن الخطاب والياً على المدائـن "فخـرج عـلى حمار مؤكف وعلى الحمار زاده.. فقرأ عهده عليهم، فقـالوا: سـلنا ما شئت؟. قال: أسألكم طعاماً آكله، وعلف حماري هذا ما دمت فيكـم، فأقام فيهم ما شاء الله. ثم كتب إليه عمر: أن أقدم. فلما بلغ عمر قدومه كمـن له على الطريق في مكان لا يراه. فلما رآه عمر على الحال الذي خرج مـن عـنده عليه أتاه فالتزمه وقال: أنت أخي وأنا أخوك"(53). وقد رأينا قصة عمر حين نادى قائد جيشه في العراق "يا سارية الجبل" فسمعه واكتشف محاولة الجيـش المعادي للالتفاف على قواته، فسارع إلى مواجهته وانتصر عليه. ومع ذلـك فإن هؤلاء الصحابة لم يركنوا في سلوكهم إلى مكانتهم وجهادهم، وحتى تبشـير الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة. فكان عمر يقول "لو هلك حمل مـن ولـد الضأن ضياعاً على شاطئ الفرات خشيت أن يسألني الله عنه"(54). وليس كما يفعل اليوم بعض من يدعي الصلاح مبرراً تصرفاته وإهماله للشريعة بادعاء معرفة تبرر له كل ما يريد. وهي بالواقع حقيقته، وليست حقيقة الشريعة المطهـرة من كل غموض. فعلم الولاية هو من كمال العلم بالشريعة والالتزام بها، بل إنها مرحلة مشاهدة ثمار الشريعة وقطافها بالسجود الدائم لله اقتداء بسيد المرسـلين الذي قال عندما سألته السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد رأته وهو يطيـل سجوده ويصلي حتى تتورم قدماه "أما غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما

تأخــر" فقال بتواضع من يعرف فضل عطاء المعطي "أفلا أكون عبداً شكوراً".
هــذه هي حقيقة الولاية التي تستمد من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم كما لهــا وقطاف ثمارها بعد العبادة الصادقة، من كنوز علم الحق بما شاء وأعطى. فحــواس الإنســـان أدوات للمعرفة أو شهود بيّن يدي العقل. وهذه الأدوات كما تــتغذى بالعــلوم، لتــثمر في العقل، فكذلك تصقل بالعبادة وتصبح قابلة للتلقي بـــالوحي الخاص، أو بالحدس والإشراق الروحاني. والحدس هو طريق العلماء للاكتشــاف، والإشـــراق هو طريق الأولياء، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وســلم "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله"(55). وهذا العلم لا يوجد أي باب للوصول إليه إلا بالإيمان و"لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحــب لنفســه من الخير"(56). و"لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان" (57). والإيمان يجب أن يسبقه الإسلام، ومع كل مرحلة في طريق العبادة يبدأ الــترقي ويتصـــاعد للوصـــول إلى الــثمرة المقصودة من خلق الإنسان وهي المعــرفة، معرفة نفسه وربه للقيام بواجب الخلافة الإنسانية في الأرض. وكل دين غير الإسلام هو تمهيد للإسلام، وتمهيد للوصول إلى حقيقة الخلافة. ولهذا أبـــاح الإســـلام حـــرية العبادة للأديان. لأن الواصلين عند الوصول إلى حقيقة المعـــرفة لن تختلف معارفهم الجوهرية المتعلقة بالإيمان والرسل، وإن اختلفت الأذواق والأحوال. فحقائق العلم الجوهرية واحدة، لأن حقيقة الله واحدة، وحقيقة الإنســـان واحدة. ولهذا لا يوجد أي اختلاف في الحقائق الإلهية بين الواصلين، كمـــا لا يختــلف العــلماء في حقائق تركيب ذرة الماء، وإن كان اكتشافهم في مخابر متنوعة ولغات مختلفة لأن حقيقة الماء واحدة.

ولهذا فإن كل اختلاف يدل على مستوى من العلم أقل أو أكثر، إلا أن لكل معـــرفة حداً لا يمكن تجاوزه في كل موضوع. وحدود المعرفة الإلهية وسقفها هـــي معرفة الرسل، فمن وصل إليها فمن مشكاتهم يأخذ وبأنوار علومهم ينظر. والكـــل مـــن نور الله يستمد. وقد اكتملت هذه المعرفة بالرسول صلى الله عليه وســـلم صاحب الشريعة الكاملة، وسيد ولد آدم باستحقاقه لهذه الشريعة الكاملة، والخلافة الكاملة. ولو نظرنا إلى الأديان في كمالها لما وجدنا أي شريعة جمعت بيـــن القوانيـــن الكامـــلة لبناء المجتمع الإنساني الصالح، وبين معرفة الله، مثل الشـــريعة الإسلامية. فكانت بحق دين الدنيا، ودين الآخرة. لقد طرقت الشريعة الإسلامية كل أبواب الدنيا، ولم تهمل لا النبات ولا الحيوان. وفصلت كل شيء حـــتى الطـــريقة الصـــحيحة لنوم الإنسان على جنبه الأيمن، ورسمت الطريق الموصـــل إلى معـــرفة الله معرفة يقينية، فأعطت لكل عبد شريعته التي تناسبه

وميـزانه الذي ينفعه وينفع المجتمع. فكانت بحق الرسالة الكاملة. حتى لو أنك أردت أن تشـرب كأسـاً مـن المـاء لرأيت تشريعاً للشرب، وتشريعاً للأكل، وتشـريعاً للـنوم، وتشـريعاً لحق الطبيعة، وحقوق الحيوان، مما لم تلحظه أي شـريعة أو دستور في عالمنا القديم أو المعاصر. ومن يتأمل هذه الشريعة بعقل بعيـد عن الهوى والمغالاة سيعرف سر كمالها، بتربيتها المتدرجة للإنسان من نظافـة الجسـم والـثوب والقلب إلى نظافة الروح، وتأهيلها للطيران في عالم المعـرفة وصولاً إلى الله. فالإسلام باب الترقي الكامل للكاملين، وباب الرحمة الواسـع للمقصرين. وصدق الله العظيم الذي قال في وصفه للرسول صلى الله عـليه وسـلم، ووصـف رسالته **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(58). فشـريعته هـي الـرحمة المهـداة للخلق من الله، للوصول إلى الخلافة الكاملة للإنسـان بالمعـرفة والعمل، والرحمة بالخلق، والارتقاء بالعقل، شعلة الإنسان المقدسـة التي تميز بها عن المخلوقات، واستحق بسببها الخلافة. وليس بغرائزه الـتي تـتفوق فيهـا كثير من الحيوانات على الإنسان، ولو كانت الخلافة بقوة الغرائز لما استحق الإنسان الخلافة بل الحيوان. ولهذا كان السباق الذي فرضه الله هو سباق بالعقل والإيمان الذي سطع بأنوار الرسالات السماوية، وأشرق في كمالها المحمدي كاملاً في أكمل الأزمان، وأكمل الأصحاب.

الطريق إلى الخلافة

إن خلافـة الإنسـان في الأرض ثابتة بكلام الله **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنـي جـاعل في الأرض خليفة﴾**(1). وقال **﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر عليه كفره﴾**(2) فشملت الخلافة النوع الإنساني كله لكي لا يُظـن أنهـا تخـص آدم عليه السلام فقط. ولا يعقل أن يعطي الله الخلافة إلا لمسـتحق. والاستحقاق لا يكون إلا عن أمرين طاعة ومعرفة. وقد سبق الأمر بالطاعة، لأن الطاعة لابد أن تقود إلى المعرفة. والطاعة تقتضي امتثال الأوامر الإلهيـة الـتي وردت عـلى ألسنة الرسل منذ أبينا آدم إلى خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام. ومن جملة الأوامر الإلهية في شريعتنا الإسلامية العلم. فكانت أول سـورة أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم **﴿اقرأ باسم ربك الذي خـلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسـان مـالم يعلم﴾**(3) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "ساعة من عالم

متكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً"(4). وقال.. "ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من الفقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه"(5).

ولا نريد الآن أن نخوض في مكانة العلم في الإسلام. وقد رأينا أن جميع الرسل كانوا في الصف الأول من علوم زمانهم، وإن كان مصدر علمهم الوحي. بينما كان مصدر علم الآخرين الاكتساب بالتعلم. وقد جاء في القرآن **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾**(6) فهذا عهد من الله بتعليم المتقين. والمتقون، هم الذين يطيعون الله في كل ما أمرهم به. فالطاعة تقود إلى العلم وإلى صدور الخير من المطيع، وإلى معرفة الخالق بدليل المخلوقات "أفلا يعقلون.. أفلا يسمعون.. أفلا يبصرون". وقد يحدث الترقي إلى مستوى "أن تعبد الله كأنك تراه" كما جاء في الحديث الشريف، في مقام الإحسان. وهذا المقام كما رأيناه لم يخصص لواحد من المسلمين، وإنما وردت الأحاديث عن طريقة الوصول إليه، للبيان والتوضيح وتشجيع الناس على التسابق للوصول إليه. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن علوم الرسل متاحة بالاكتساب والاتباع لمن يريد أن يترقى إلى مستوى معرفة الله وعبادته عبادة المشاهد له بالدليل. وقد أراد الله منا أن نتعلم لنعرفه ونعبده كما يستحق العبادة، ولم يخف على عباده شيئاً من أسرار هذه العبادة. فقد اكتملت شريعة العبادة والمعرفة يقول الله **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**(7). ولهذا لابد من الشريعة والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم للوصول إلى الكمال الخاص بكل مقتد، وإن كان الكاملون لا يمكن أن يغيبوا عن الأرض قبل الإسلام أو بعده، لأن الله لا يمكن أن يترك الأرض خالية من الخلفاء إلى قيام الساعة. وقد ورد في الحديث "لا تقوم الساعة على أحد يقول: لا إله إلا الله"(8). و"لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض فيبقى عجاج لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً"(9). و"لا تقوم الساعة إلا على حثالة الناس"(10). و"لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض أحد لله فيه حاجة، وحتى توجد المرأة نهاراً جهاراً تنكح وسط الطريق لا ينكر ذلك أحد ولا يغيره، فيكون أمثلهم يومئذ الذي يقول: ...لو نحيتها عن الطريق قليلاً. فذاك فيهم مثل أبي بكر وعمر فيكم"(11). ولكن، وبما أن الأرض لا يمكن أن تخلو من مؤمن يوحد الله. لهذا ورحمة من الله بالمؤمنين فإنه لا يشهدهم ويلات الساعة.

ولهذا فإن الله سيرسل ريحاً طيبة قبل الساعة تأخذ أرواح المؤمنين

كما ورد في الحديث "يبعث ريحاً غبراء قبل يوم القيامة فتقبض روح كل مؤمن"(12). فلو غاب الموحدون من الأرض لقامت القيامة. فالخلافة الإنسانية في ذرية آدم لا تنقطع، والخلفاء لا يغيبون، وإن كان الجمع بين الخلافة والسلطة لم يحدث إلا نادراً، ولا نعرف عنه شيئاً إلا في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه كانت فترة تأسيس للدولة الإسلامية. ولا نريد أن نتهم بالمغالاة في التأكيد على حقيقة استمرار الخلافة في ذرية آدم إلى ما قبل قيام الساعة. فهذا الموضوع تدل عليه حقائق العقل، وإشارات الشريعة، والغاية الإلهية من خلق الإنسان. فالدليل العقلي والنقلي يقودنا إلى القول بأن الوجود الإنساني إذا كان قد خلق للعبادة بنص القرآن، فإن هذا الخلق إذا لم يعد أهلاً لهذه الغاية فإن من الطبيعي قيام القيامة. ولهذا لابد لاستمرار الوجود الإنساني من موحدين ظاهرين أو باطنين. وهؤلاء عباد في منتهى العبودية لله لا يتصرفون إلا بأمره وشرعه. وقد رأينا الحدود التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف من خلالها. مما يدل بأن التفويض الإلهي المطلق للعبد لا وجود له. ولو حدث مثل هذا التفويض لأي إنسان لن يرضى بالصبر على الإيذاء والمعاناة. وحتى العبادة لا يصبح لها أي مبرر لإنسان لا تفيده العبادة في شيء. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل عن سبب عبادته حتى تورمت قدماه مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. "أفلا أكون عبداً شكوراً". كان كلامه لمعرفته بمكانة العبادة في حياة العابدين في الدنيا والآخرة. أي للزيادة في المعرفة الإلهية. فالمعلوم هو الدليل على المجهول، والمعجزات تدل على صاحب الإعجاز. ولهذا لما كان الله لا يعرف إلا بالخلق، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب الزيادة من المشاهدات. فهذه هي هدايا الله للمؤمن بعد أن يطمئن إلى الغفران والرضا من الله في الدنيا والآخرة. شهود الآيات الإلهية. شهود الجمال، شهود الإبداع الإلهي، لأن المبدع لا يدرك ولا يعرف. وإن كان العبد يتوق لرؤية الصانع، إلا أن هذه المشاهدة كما قلنا لا يمكن الوصول إليها. ولهذا فإن المشاهد لعظمة ربه بتهذيب نفسه في الدنيا يظل في عبادة مع الأنفاس، وإن ظهر منه أنه يسعى لتأمين نفسه أو أسرته. وقد مر معنا أن هذا السعي هو من العبادة. ولكن الوصول لا يعني الفناء ولا يعني الحلول ولا يعني الاتحاد، ولا يعني التفويض، لأن العبودية والافتقار هي من صفات الإنسان التي لا تفارقه. وقد جاء في الحديث الشريف "إن الله تعالى يقول: إن العز إزراي، والكبرياء ردائي، من نازعني فيهما عذبته"(13) فالمعرفة هي كمال، ومن جملتها معرفة الإنسان بنفسه وربه وإدراك الحدود التي لا يستطيع أن

يتجاوزها مهما ادعى. فالدين كله حكمة ورحمة بالإنسان. فالحياة تكشف لنا في كل لحظة عن عجز الإنسان وضعفه، والحكمة تقود الحكيم إلى الاعتراف والصدق لما يملك ولما لا يملك. بينما يدعي الأحمق ملكية مالا يملك، فيظهر كاذباً أمام الناس، فيخسر ثقة الناس به. بينما يعترف الطامحون للكمال من الحكماء بنقصهم وعجزهم، ولهذا فإنهم يتواضعون ويقضون حياتهم في تعلم ما يجهلون. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "أنا عبد أجلس جلسة العبد، وآكل أكل العبد"(14). لأن الإنسان ليس له إلا العبودية. وقال "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"(15). لأن أهل المعرفة يشاهدون المنعم مع النعم ولهذا لا يدّعون. فهم أموات في الدنيا، بالعبودية والفناء في المالك لأنهم شهود حق لله يعرفون مالهم وما عليهم. ولهذا يشهدون حقائق الأعمال قبل الموت، بينما غيرهم لا يشهد حقيقة الحساب إلا بعد الموت، حين يكشف النقاب عن العيون يوم الحساب **﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾**(16). ولكن العارف مشاهد وبصره حديد في الدنيا، والمؤمن متيقن والمسلم يعبد الله على حسن الظن بالله والخوف. وقد اختلفت الأعمال باختلاف المشاهدات والمشاهدين. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً.. ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله"(17). ولكن هل يعني الزهد في الدنيا تعذيب الجسد وحرمانه من حقوقه، بقتل الرغبات المشروعة للنفس. إذا أردنا أن نتحدث عن شهوات النفس، فلا شك أن كل نفس تتمنى الأماني وتطلب الدنيا وما فيها من المتع. فالنفس في جوهرها لا تنطق إلا بحاجات الجسم، ولا يهمها معرفة مصدر هذه الحاجات، إن كانت حلالاً أو حراماً، فالمهم أن تقضي حاجاتها. ولكن الله وضع العقل في مواجهة النفس. فالعقل هو بالنتيجة الذي يحكم على النفس فيؤدي إليها ما يشاء. والنفس في تأثيرها وجبروتها لا تكف عن الطلب والإلحاح والمكر للتأثير على العقل وإقناعه بتلبية ما حرمها منه. لننظر إلى النفس في هذا الحوار الخبيث مع العقل. حتى يبدو الإنسان وكأنه يتألف من شخصيتين. فالنفس تقول له أعطني حقي من متع الدنيا. والعقل يقاوم إن قاوم بالحق، ويخضع إن خضع إلى مستوى البهيمة. بل إلى ما هو أسوأ من البهيمة، لأن العقل إذا خضع للنفس وتعاون معها، فإن الإنسان يبتكر من الشرور ما لا تفعله الحيوانات. وأسوأ ما تفعله الحيوانات أنها تقتل عند الجوع ولكنها لا تدخر للغد. إذ ليس لديها بنوك لتخفي فيها ما حصدته من لحوم الضحايا. وليس لديها برادات لتخفي ما بحوزتها من الطعام. وليس لديها من فنون إثارة الغرائز

وطيشها ما لدى الإنسان مما يعده البعض من ثمار الحضارة ونعمها. فأين الحيوانات في فطرتها من الإنسان، الذي رضي أن يجعل عقله في خدمة نفسه، فراح يتفنن في طرق افتراس الناس وأكلهم والغدر بهم لزيادة رصيده في البنوك غير عابئ بدم الضحايا، وهو مع ذلك يدعي الصلاح والإحسان إليهم. هل في الوجود من يمكر مثل هذا المكر غير الإنسان. وهل هناك من يتفنن في فسق الفاسقين وجنونهم غير الإنسان. لهذا كان بعض الناس- كالأنعام بل أضل سبيلاً- لأن الأنعام لا تقترف ما يقترفه الضالون من ذرية آدم. وليس من المعقول أن يكون لمن شغله هوى غرائزه عن معرفة نفسه أي اكتراث أو التفات لقوى العقل. ومثل هذا الإنسان الذي لا يتعلم غير أساليب المكر للإيقاع بالضحايا لا يصلح لشيء، بل إنه يصبح عبئاً ثقيلاً على المجتمع. لهذا كان لابد للعقل أن يأخذ دوره في إخضاع النفس، لمن يريد أن يعقل، ويتميز عن الحيوان، وليس العكس. لأن العقل أكثر سمواً في الإنسان لما يحتوي عليه من العلوم، ومن العدل. فالعقل يحكم على الظالم بظلمه وإن أطاع هوى نفسه. والعقل إذا نظرنا إليه بتأن وتأمل، سنجد فيه كل أحكام الخير والشر التي صار بها الإنسان إنساناً وحتى العلوم كلها. وهذا هو علم آدم الذي أعطي له من الله عن جدارة واستحقاق **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾**(18). لكي يكون خليفة في الأرض. وقد رأينا واقعياً أن الإنسان سيتأثر ببيئته، مع أنه في الأصل يولد على الفطرة. "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عن لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(19).

ولهذا فإن البيئة تساعد الإنسان على الارتفاع أو تنزل به على قدر اكتشاف أحكام عقله الكامنة فيه بالأصل. والأصل هو حق كل الناس في الخلافة ووراثتهم للأرض بتوريث الله قبل أن تقام الحدود بينهم، وذلك بالارتفاع إلى مستوى العقل، واستشراف ما فيه للعمل بنوره المكنون. ولكن كما رأينا جاء الهوى ومال العقل بمن مال عندما صار المال يجتني ويحتاط به الناس. فمال بالعقل عن الصواب، وسمى من سمى المال مالاً من الميلان عن الطريق المستقيم. ولهذا كان لابد للعودة إلى الفطرة السليمة، من جبر الميلان بالإنفاق، وعدم الانشغال بجمع المال والركض وراء الشهوات لأنهما أكبر قاطع لطريق العلم والمعرفة.

لهذا كان الأنبياء قدوة البشرية في السخاء، بالعودة إلى فطرتهم الأصيلة وبالاتكال على الله، وتعويد النفس على الصبر والرضا، حتى أصبحت نفوسهم

طوعــاً لإرادتهم. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشيطان. قالوا وأنت يا رسول الله. قال نعم ولكن الله أعانني عــليه فأســلم"(20). ولهــذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يدخر. وكان يعطــي عطــاء من لا يخشى الفقر. وقد تعرض مع أهل بيته للجوع ليس لأن الطعــام كــان ينقصـــه أو المال، بل لأنه كان ينفق كل ما يأتيه. وحين أعطى لبعض أزواجه المؤونة لمدة عام كما ذكر. فذلك إشفاقاً منه عليهن، لأن أحواله ليست كأحوالهن.

وكـــان الرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع لو أراد أن يشبع مما يشتهي مع أسرته. فقد كان ما غنمه المسلمون بعد معركة حنين "الإبل أربعة وعشرون ألفـــاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة"(21). وكانت كل هذه الثروة بتصرف الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان حقه فيها الخمس. ولكـــنه وزع هـــذه الثروة على الناس وأعطى المؤلفة قلوبهم بالمئات حتى تأثر بعض الأنصار فجمعهم في موقف ينبئ عن حقيقة الإسلام، وحقيقة المال. فكان مـــن بعـــض مـــا قاله لهم "أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيـــا فـــألفت بهـــا قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصـــار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟. فـــو الـــذي نفـــس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبـــناء الأنصـــار. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم. وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً"(22). المؤمن لا يرضى بغير رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحظاً وقدوة ومثالاً. لأنه الحق ما هو للدنيا ولا الدنيا له. لقد وقعت غزوة حنين فـــي شـــوال فـــي الســـنة الثامنة للهجرة. ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بغزوة تبوك في رجب في السنة التاسعة للهجرة، عندما علم أن عرب غســـان مـــع الروم، يتهيؤون للهجوم على المسلمين. وفي هذه الظروف لم يكن لـــدى الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينفقه لتجهيز الجيش بالمعدات. فطلب من الأغـــنياء التـــبرع لتهيـــئة الجيش. وقد سمي هذا الجيش، بجيش العسرة بسبب الظـــروف، حيـــث كان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بعيراً واحداً. وكان بعضهم يـــأكل ورق الشجر لعدم توفر الطعام. وبين إنفاق الرسول صلى الله عليه وسلم لغـــنائم حنين وغزوة تبوك أقل من سنة: هذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم فـــي اتكاله على الله في كل أموره وليس على تجميع الأموال وادخارها. ولهذا كـــان يقـــول في دعائه "اللهم اجعل رزق آل محمد في الدنيا قوتاً"(23) وقالت

عائشـــة رضـــي الله عـــنها "مكث آل محمد صلى الله عليه وسلم أربعة أيام ما طعموا شيئاً.. فأتانا عثمان. فقال: يا أماه: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: يا بني: ما طعم آل محمد منذ أربعة أيام شيئاً...

فبكى عثمان ثم قال: مقتاً للدنيا يا أم المؤمنين. ما كنت بحقيقة أن ينزل بك هـذا ثـم لا تذكريه لي ولعبد الرحمن بن عوف ولثابت بن قيس ونظرائنا من مكاثيـر المسـلمين. ثم خرج فبعث إلينا بأحمال من الدقيق وأحمال من الحنطة وأحمـال مـن التمر وبمسلوخ "شاة" وبثلاثمائة درهم في صرة.. وخبز وشواء كـثير فقال: كلوا أنتم هذا وضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يجيء. ثـم أقسم علي أن لا يكون مثل هذا إلا أعلمته إياه"(24). كان المسلمون يحبون الرسـول أكثر من أنفسهم، ولا يتورعون عن فدائه بأرواحهم. فكيف سيضنون بالمال عليه. وهذا مثال لما كان يأتيه من المال، لو شعروا أنه في ضيق. وكان مـثل هـذا المال يكفي أسرته لسنوات. ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينفق كل ما يأتيه. لهذا لم يشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام ثلاثة أيام متتالية حتى وفاته. وهذه بعض شهادات من الذين عاصروه.

قـالت عائشـة رضي الله عنها "ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم"(25) وقالت "إنا كنا لنمكث أربعيـن صباحاً لا نوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ناراً مصباحاً ولا غيـره. قـلت: بأي شيء كنتم تعيشون؟. قالت: بالأسودين التمر والماء إذا وجدنا"(26) وبعثت امرأة أنصارية بفراش للرسول صلى الله عليه وسلم محشو بالصـوف بعـد أن رأت فراشه المؤلف من عباءة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة"(27) وبكى عمر بن الخطاب حين دخل على الرسول صلى الله عليه وسلم "فرآه على حصـير قـد أثـر بجنبه... فقال ما يبكيك يا عمر؟. قال أنت نبي الله وكسرى وقيصـر عـلى أسرة الذهب. قال: يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخـرة"(28). وحيـن عـرض الله عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً قال "لا يارب أشبع يوماً فأحمدك، وأجوع يوماً فأسألك"(29) وروى أبو هريرة أنه دخل عـلى النـبي فرآه يصلي جالساً فسأله ما أصابك فقال الرسول صلى الله عليه وسـلم "الجوع يا أبا هريرة. فبكيت. فقال لا تبك، فإن شدة الحساب يوم القيامة، لا تصـيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا"(30). وقال عبد الرحمن بن عوف "هـلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير

فـلا أرانا أخرنا لما هو خير لنا"(31). وقال بلال الذي كان يشرف على نفقات الرسـول صلى الله عليه وسلم "ما كان له شيء كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعـثه الله عزوجل حتى توفي" ومما رواه أنه كان على الرسول صلى الله عليه وسـلم ديـن، فأتته أربع جمال بحمولتهن، فأخذهم بلال وباعهم وسدد الديون. وبقـي أوقيـتان. فأخـبر الرسول صلى الله عليه وسلم بهما. فقال له "انظر أن تريحـني مـنها، فإني لست داخلاً على أحد من أهلي حتى تريحني منه" فجاء راكـبان في اليوم الثاني فأطعمهما وكساهما ودخل على الرسول صلى الله عليه وسلم وقال "قد أراحك الله منه يا رسول الله. فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه المـوت وعـنده ذلك"(32). وذات مرة جاء رجل فسأل الرسول صلى الله عليه وسـلم أن يعطيـه فقـال له: "ما عندي شيء، ولكن استقرض حتى يأتينا شيء فـنعطيك، فقال عمر: يا رسول الله هذا أعطيته فما كلفك ما لا تقدر عليه. فكره النـبي صـلى الله عليه وسلم قول عمر حتى عرف في وجهه. فقال رجل من الأنصـار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف البشر في وجهه بقول الأنصاري. ثم قال: بهذا أمـرت"(33). هـذه هي أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا"(34).؟ وكان الطالبون كثيرين. كانوا يطلبون منه حتى ثُيابه للبركة أو الحاجة فكان يعطيها. "حيكت لرسول الله صـلى الله عليه وسلم حلة أنمار صوف سوداء فلبسها.. فقال أعرابي بأبي أنت وأمي يا رسول الله هبها لي. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسأل شيئاً أبـداً فيقول: لا. فقال نعم. فأعطاه الجبة ودعا بمعوزين له فلبسهما وأمر بمثلها فحيكت له، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكة"(35). هذا هـو زاده من الدنيا، زاد المسافر بعد قليل. المستحي من لقاء ربه في كل لحظة وعنده شيء من زادها أو رزقها. هذه هي أخلاق النبوة ووصاياها. مما وصلنا مـن وصـايا موسى عليه السلام في التوراة "أنا الرب إلهك... لا يكن لك آلهة أخـرى تجاهي... لا تلفظ اسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ الذي يلفظ اسـمه باطلاً. اذكر يوم السبت لتقدسه... أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك في الأرض الـتي يعطيـك الرب إلهك إياها. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد عـلى قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا خادمه ولا خادمـته ولا ثـوره ولا حمـاره ولا شيئاً مما لقريبك"(36). لو فهمنا كلمة قريبك بمعنى أخيك في الإنسانية سنرى شريعة الله الواحدة وإن تعددت الكلمات وتـنوعت لأن المعنى سيجمعها. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "ألا من ظلم

معـــاهداً أو انتقصــــه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجـــه يـــوم القيامة"(37). وجاء في التوراة "والنزيل فلا تظلمه ولا تضايقه، فإنكم كنتم نزلاء في أرض مصر. ولا تسيء إلى أرملة أويتيم، فإن أسأت إليهما إســـاءة وصـــرخ إلي صراخاً، فإني أصغي إليّ صراخه، فيحتد غضبي وأقتلكم بالســـيف. فتصير نساؤكم أرامل وبنوكم يتامى"(38). وجاء في إنجيل لوقا "ما مـــن خـــادم يستطيع أن يخدم سيدين. فإما يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلزم الواحـــد ويـــرذل الآخر. لا يمكنكم أن تعبدوا الله والمال"(39). إن نور الحق لا يخفى أينما كان. ومن يطلب الحق يجده في عقله سارياً كما تسري روح الحياة فـــي بذرة القمح اليابسة. ولكنها لا تنمو حتى يفنى جسدها في التربة الصالحة، وتســـقى بماء الحياة، لتنبت سنابل القمح المباركة. لابد من موت النفس بظهور سلطان العقل، حتى يشع نور الجسد المستهلك في عبودية معرفة الحق. وموت الـــنفس لا يضاهيه إشراق نور العقل. ولكن بين هذا وذاك ظلمات لا يقطعها إلا العاشـــقون المـــتيمون بحب الخير للناس حتى يحين موعدهم مع حبهم، ويكشف لهـــم عـــن حب لم يعرفوه، وشوق لم يتذوقوه. فينطلق لسانهم بالصلاة التي لا يعـــرفها إلا المقربون. فيكسرون عصا التدبير والاختيار، ويربطون أيديهم في قيـــد العـــبودية، ليشـــهدوا ربهـــم في الأكوان. والنفس في ملكها الجديد تطرد الشـــيطان، وتقـــول للدنيا تباً للأوثان. لأنها بعد الأهوال ستذوق طعم الإحسان، وتدخل إلى جنة عرضها السموات والأرض متلألئة بالأنوار. وأما من حرم من طعـــم الإحســـان فإنه يسأل عن جنات العنب والتين الناضجة بالثمار. والمحسن يقـــول كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين آذاه قومه "اللهم اغفر لقومي فـــإنهم لا يعـــلمون"(40). اللهم اسقهم من رحيقك المكنون المعطر بنور وجهك الكريم. وقد جاء في إنجيل لوقا أن المسيح قال عندما صلبوه، وإن كان من هو روح لا تحيـــط به الجدران، ولا تمسه المسامير والصلبان، وإن ظهر لهم أنهم قتـــلوه. فقـــد ظهر جبريل على شكل دحية الكلبي فما عرفوه. ولكن العبرة في الـــنوايا. فقـــد أراد الله من القتلة أن ينظروا إلى ما فعلوه. والمسيح ينادي ربه تقرباً "أبتاه اغفر لهم، فإنهم لا يدرون ما يعملون"(41).. قال أبتاه لسريان روح المحـــبة والحـــنان على أبناء الإنسان. وقد جاء في الإنجيل "لا تدعوا أحداً على الأرض أبـــاً، فـــإن أبـــاكم واحد، وهو الذي في السماوات"(42). فأبوة الرحمة شـــملت الجميـــع، لا أبوة النسب لمن يفهم معنى الكلام. وهل يستطيع أن يقول غيـــر ما قال من تلألأت روحه بالأنوار. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنا أولى الـــناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء

أولاد عـــلات أمهـــاتهم شـــتى ودينهم واحد"(43). ولكن أين الذين لا يصلبون الـــناموس، ولا يعبدون إلهين وقد قال الله: **﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفــــه﴾**(44). وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه قبل قرون. الناطق من مديـــنة النـــبوة بالعـــرفان "لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب، فإنهم لم يتمسكوا بشـــيء من النصرانية إلا بشرب الخمر"(45). فأين الطهارة الآن؟. وهل يمكن الوصـــول بشهوات النفس إلى سر كنز العقل المكنون. لقد جاء في الحديث "لا رهـــبانية في الإسلام". فليس المطلوب من الإنسان قتل الجسد الذي يحمل عقله، وإنما المطلوب إقامة التوازن بين حاجات العقل وحاجات الجسد للكشف عن سر الإنســـان المكنون. فالعقل وإن كان من معدن آخر لا ينطق إذا قطع اللسان، أو مـــات الإنسان. فلا بد للإنسان في الدنيا من إنصاف الجسم لتحريك اللسان بما فـــي العقـــل من آيات الإحسان. إن الطريق إلى الخلافة الإنسانية لا يتحقق كما رأيـــنا إلا باتـــباع طـــريق الرسل وسلوكهم للوصول إلى حقيقة معرفة الإنسان بنفســـه وربه. وقد رأينا كما سيرى كل من يدقق في جوهر الأديان بأنها تنطق بحقيقـــة واحدة. رغم أن ما وصلنا من كلام موسى أو المسيح عليهما السلام قد تعرضـــا لكثير من النسيان أو الإهمال أو سوء الفهم وسوء النقل، كما تعرضت أحـــاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لنفس المشكلة. هذا إذا أحسنا الظن بكل الناقلين والرواة، مع أن الكاذبين والمنافقين وأصحاب المصالح لم يخل منهم دين ولا عقيـــدة، ومنهم من ساهم في القبض على المسيح عليه السلام لقتله، مع أنه أحـــد الحواريين وهو يهوذا الاسخريوطي. فأي غرابة في تزوير كلام الأنبياء عن تعمد؟. وأي غرابة في سوء الفهم والنسيان وهما من طبيعة الإنسان؟. ولكن ورغـــم كـــل الغـــبار الـــذي يحيّط بنور الشمس، فإن نورها لا يحتجب إلا عن العميـــان. وإن احتجب فإن دفأها لابد أن يصلهم.. ولهذا قلنا إن نور الرسالات الســـماوية لا يخـــفى وإن خفـــي على العميان. وقد عرضنا لقليل مما ورد في الـــتوراة والأناجيل للتأكيد على حقيقة ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأنـــبياء: "الأنـــبياء أولاد عـــلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد". ألا تدل الوصايا العشـــر المأمور بها في كل الأديان وحتى في البوذية والهندوسية على دين الله الواحـــد وإن تعـــددت صور عبادة العابدين كما فهمها النجاشي حين تلي عليه القـــرآن فقال "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة"(46). كل هـــذه الأمـــور لا تغيب عن عقل العارف بأمر الله، ولا تدفعه كما يفعل بعض المستشـــرقين إلى الزعم بأن هذا الرسول أو ذاك قد نقل عن غيره بدليل تشابه كـــلام الرسل وشرائعهم. وكان الأحرى بهم أن يفهموا حين يجدون هذا التشابه،

حقيقــة أمر الله الواحد لأن الرسل كلهم رحمة مهداة للبشرية بأمر واحد وهدي واحــد، وإن اختــلفت طــرق العبادة. فالمسلم له عبادته، وكل دين له عبادات، ولكنــنا حيــنما نــنظر إلى ما وراء العبادات ونفهم الهدف منها لن يخفى علينا الجوهــر الحقيقــي لكل عبادة. ولا أقصد بالعبادات الطقوس فقط فــ"رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر"(47).

فالأعمــال تتعلق بالنوايا، وأعظم النوايا تتعلق بالإنسان، لأنه غاية الله من الخــلق، وهــو على صورة الرحمن. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في إشــارة واضحة إلى مكانة الإنسان المؤمن عند الله، في مقارنة بينه وبين الكعبة "ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، يعني الكعبة، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً"(48). فحرم الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سوء الظن بالمؤمن بدون دليل. فالكعبة إنما وضعت في الأرض من أجل الإنسان، وكل ما في المجموعة الشمسية، وكل ما تنتجه الأرض سخر لأجل الإنسان. ومن حكمة الله أن يسخر الأدنى مــنزلة للأعــلى، وليس العكس. ونظام التسخير مشهود لكل ذي عينين. وفــي إشــارة ثانية إلى مكانة الإنسان وحقوقه. قال "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومــن كــنت خصمه خصمته يوم القيامة"(49) وقال "من قتل نفساً معاهدة بغير حــلها حرم الله عليه الجنة أن يشم ريحها"(50). وقال "من أمن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً"(51)

فالغايــة مــن الشــريعة هــي الارتقاء بالإنسان، بتحقيق الحرية والعدل والصــعود بقوى العقل لتكون سيدة على النفوس، لتفجير ينابيع الروح، ورؤية الحــق وعــبادته فــي كــل مظاهر الوجود وصوره، حتى لا نعتدي على نملة بــالإيذاء بــدون ذنــب. لأن الســمو الإنساني إنما يظهر بالرحمة بكل مخلوق وإنصــافه. لهــذا قــاتل الرسول صلى الله عليه وسلم المشركين في مكة لأنهم منعوه من الدعوة إلى الله، إلى العدل الإنساني والمعرفة، إلى الرحمة، وتحرير الإنسان من عبودية الناس، والتوجه إلى عبودية الله. بل إنهم أجبروا كل مؤمن عــلى الهجــرة، عــندما رفضوا لغة الحوار، واستخدموا لغة التعذيب والتهديد والقــتل وكذلك فعلت الإمبراطوريات التي قاتلها المسلمون. ولهذا أباح الإسلام حرية العبادة في كل مكان وصل إليه.

جاء في إنجيل متى "لا تظنوا أني جئت لألقي على الأرض السلام، لا، ما جئت لألقي على الأرض السلام بل السيف، أجل جئت لأفرق الإنسان عن أبيه،

والابنة عن أمها، والكنة عن حماتها، فأعداء الإنسان أهل بيته الخاص. فمن أحب أباه أو أمه أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني. من وجد نفسه أضاعها. ومن أضاع نفسه من أجلي وجدها"(52). الصليب الذي أمر به المسيح هو صلب النفس" لمن أحب المثل العليا التي يدعو إليها، وليس الصليب الذي يعلقه الصالح والطالح "من أضاع نفسه من أجلي وجدها" أي من تخلى عن شهوات النفس، وعمل بالمثل العليا والأخلاق والقيم والوصايا العشر التي تتمثل برحمة الخلق. ولهذا سيقول الله للأشرار. لمن يكنزون الذهب والفضة "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية، التي أعدت لإبليس وملائكته، فقد جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، وكنت غريباً فلم تؤوني، وعرياناً فلم تكسوني، وكنت مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. فيجيبونه هم أيضاً ويقولون، يا سيد، متى رأيناك جائعاً أو عطشان، غريباً أو عرياناً، مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك؟. حينئذ يجيبهم، قائلاً، الحق أقول لكم، إن كل ما لم تصنعوه إلى أحد هؤلاء الصغار، فإلي أيضاً لم تصنعوه. ويذهب هؤلاء إلى عذاب أبدي، والصديقون إلى حياة خالدة"(53). فما هي فائدة الصليب لمن لا يعمل بالأمر الإلهي وكان من الملاعين. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني؟. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين!

قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده! أما علمت أنك لوعدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني.؟ قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين! قال: أما علمت لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني؟. قال: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي"(54).

هذه هي الغاية الإلهية من الأديان. "أسلم المسلمين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده"(55). والمؤمن "لا يؤمن عبد حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير"(56). فهل هناك أي غموض في شرائع الله، وفي الغاية من هذه الشرائع.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم "اللهم اهد قومي" وهم كافرون، فأحب لهم ما أحب لنفسه. كما قال المسيح عليه السلام "أبتاه اغفر لهم" وهم قاتلون. مما يدل على الجوهر الواحد للشرائع السماوية وهي معرفة الله بإطلاق قوى العقل والروح وتحريرها من تأثير النفس لحدوث الإشراق الإنساني. ولو أننا

دققــنا فيما وصل إلينا من الشرائع السماوية سنتحقق من شريعة الله الواحدة من حيث الغايات.

ولكــن البليـــلة الــتي ســيلاحظها أي قارئ للتوراة أو الأناجيل إنما تعود لأخطاء بشرية في النقل، مما ساهم في طمس بعض معالم الشريعة الإلهية. لهذا قلنا إن الإسلام أصبح الطرق لصحة الناقلين، وختام النبوة بالأمر الشامل بعد أن تــرقت ســلالة الطين، وصار الإنسان قابلاً لعلم رسالة النبوة الشامل. لهذا كان الإســلام جامعاً لكل الشرائع السماوية. وقد حُفظ القرآن من التحريف والزيادة والنقصان بمشيئة الله وعهده، ليعرف طريق الحق الواحد. ويعرف أيضاً أسلوب الوصــول إليــه. ومــن أحب الحق سعى إليه ليعرفه بطرق المعرفة اليقينية لا الظنية. وقد أشرنا إلى جوهر الطريق وغايته وأسلوب السير فيه للوصول بشكل عــام، والعــام لا يلغي طرق الخواص من عباد الله. وإن كنا على يقين بأن كل الطــرق الفرعية ستوصل العارف في النهاية إلى طريق الله الواحد الجامع وهو طريق الإسلام، وإن كبا فرسان الحق أو تاهوا لبعض الوقت. لقد جاء في سيرة ابــن هشــام أن "مخيريق، كان حبراً عالماً وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته، وما يجد في علمه. وغــلب عليه إلف دينه. فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم سبت. قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله صــلى الله عــليه وسلم بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليــوم، فــأموالي لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الــناس قاتل حتى قتل. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني– يقول: مخيــريق خيــر يهــود. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها"(57). هذا هو الحبر الذي عرف الحق بعد طول تأمل فأصغى له، وأعطاه المال والروح. لقد سئل المسيح عــليه السلام "لما يفعلون في السبت ما لا يحل؟". فأجاب أحبار السبت "السبت جعــل لأجــل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت"(58). وحين سئل المسيح عليه الســلام "ما أعظم الوصايا في الناموس؟. فقال له: أحبب الرب إلهك بكل قلبك، وكــل نفســك، وكل ذهنك، هذه هي الوصية الكبرى والأولى. والثانية تشبهها. أحــبب قريــبك كنفسك. بهذه الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء"(59). لأن الإنســان كما أوضح جامع الشرائع المصطفى صلى الله عليه وسلم ليكون اللبنة الأخيــرة فــي قصــر المعرفة الإلهية "لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على

صورته. وفي لفظ على صورة الرحمن"(60).

لهذا جاءت الشرائع لخدمة الإنسان. فمن فهم عن الله أدى الحقوق، وأعطى مما يملك للمحتاج. وهذا هو سر الخلافة، الخليفة والربيع صنوان، والإيمان والسخاء لا يفترقان. لتظهر حقيقة الإحسان، كما شهدها حارثة بعد أن قام وصام، فرأى أهل الجنة، وأهل النار. ولهذا قاتل الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الشرك ليعبد الله الواحد. لأنه لا يوجد إلا الله وتركهم إلى نياتهم. وإن كان يعلم أن الشرك الخفي يدغدغ النفوس ويقاوم الإيمان. فقد كان عليه أن يمهد الطريق، ولهذا قال له الله وهو يلح على عمه أبي طالب **﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾**(61) لأن الهداية كنز من كنوز الحق لا يوصل إليه بأي شرك. ومن الشرك جعل النفس شريكاً للعقل. لأن مقام الإنسان لا يظهر إلا بالعقل. ولهذا فإن الإيمان لا يوصل إليه إلا بأداء الحقوق لأصحابها. ومن جملة الحقوق سيادة العقل على العاقلين، وإتباع الغافلين للعقلاء. ومظاهر العقلاء لا تظهر إلا في سلوك طريق المسافرين عن الدنيا، فلا تغتر بصيام من صام وقيام من قام، وهو يحشد لغده الكنوز من حقوق الناس. والمشكلة وإن كانت ليست كلها في الثراء، فإن مشكلة المشاكل هي من أين وإلى أين. فالضمائر تشع للظالم وغير الظالم، والعبرة في إتباعها. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن أفتاك المفتون" (62). فلا يخدعك تبرير النفس إذا صاح القلب هذا حرام، فالشديد من يملك نفسه عند الغضب، فلا يسمح لها بالاعتداء والعدوان. والشديد الشديد، المحب لنفسه بردعها عن الظلم الذي تدعوه إليه. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل: كيف أنصره ظالماً؟. قال: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره"(63). العقل والنفس أخوان فأعط لكل ذي حق حقه. وارحم جهل النفس وضعفها بردعها عما تحبه وتهواه من أمور الدنيا، لأنك إذا انقدت إلى جهلها ستخوض بك في ظلم الخلق، وستقودك إلى هلاك العقل، وعندئذ ستهلك بهلاك إنسانيتك. ما أوضح طريق المعرفة وما أصعبه. والنفس تنادي بكل قوى الجسد أريد ملك الدنيا. والعقل يتغذى من معاني الوجود بالكلمة الطيبة.

فأين هذا الغذاء من ذاك. وهل في الوجود من تغذيه الكلمة غير الإنسان لهذا انقسم طريق الخلافة العامة في الدنيا إلى طريقين. خلافة في الآخرة. وخلافة في الدنيا. خلافة الله، وخلافة الشيطان. خلافة العقل، وخلافة النفس.

وكـل خلافة ستقود صاحبها إلى طريق. فخلافة الآخرة تقود الإنسان إلى العمل للآخـرة بإرشـاد العقل المؤمن، وهو طريق السمو الإنساني والخلافة الإلهية. وخلافــة الدنيــا تقــود الإنسان إلى العمل لامتلاك الدنيا والانشغال بها، واتباع الأســاليب والوســائل الــتي تحقق له النجاح فيها، والاستمتاع بنعمها، فتصبح الماديــات ومــتع الحــواس الزائلة كل همه، فيتحطم العقل بتوظيفه في خدمة الحــواس. وعــند ذلــك سيعجز العقل عن الطيران والروح عن التحليق، ونار الغضــب ســتحيط بالإنسان كلما ضعفت هذه الحواس عن الاستمتاع وأصيبت بالمــرض، وانحســرت القــدرة عن الملذات الحسية. فما الذي سيبقى غير نار غضــبه التي ستأكله قبل أن تأكله نار الحساب، بالندم الذي لا يفيد، وبالأمنيات التي لا تعود، وبالأيام التي أكلت الشباب؟. فهل سيبقى غير الانحدار إلى التراب والــبكاء على دنيا لا تدوم، وملك حطمته نار الشهوات؟. ولهذا بما أن الخلافة هي قدر الإنسان لا بد له أن يسعى إلى مكانته في هذه الخلافة بأعماله. وأعماله هــي مركــبه الذي يسير به، إما إلى أسفل للالتصاق بتراب الأرض والامتزاج بالماديــات الــتي تتعرض للزيادة والنقصان والعلل والعاهات. وإما إلى السمو والعــلو إلى جــنة الروح التي لا تحدها الحدود، ولا يعذبها الندم، ولا تصيبها أمــراض الطــبيعة بالعاهــات، بعد أن أدركت بالعقل، فتخلصت من التركيب وصــارت نــوراً خالصاً يسبح في عالم الأحلام ليشهد ما لا عين رأت ولا أذن ســمعت ولا خطر على قلب البشر. إن طمأنينة العامل بأمر الله في الدنيا وحتى أحلامه تدل على حصاده في الآخرة بسمو روحه وسعادته ورضاه. بينما تكشف حيــاة العامل بأمر هواه عن شقائه وانحداره وعذابه في الحياة قبل الآخرة. لهذا كانت الخلافة حق الإنسان المعطى له بالعقل الذي هو تاج الملك الموضوع على رأســه ظاهــراً وباطناً. وكان كل عمل مخالف لمنطق العقل المستمد من النور الإلهــي سيقود الإنسان إلى خلع نفسه من الخلافة. فإذا خلع التاج، فإنه يكون قد خلع نفسه من الخلافة المعطاة له أزلاً من الله. ومن لا يعمل بعقله، بل بغرائزه هــل هــو أكــثر من حيوان وإن نطق وتكلم. فكيف به إذا استخدم هذا التاج – العقــل– في ابتكار شرور لا تعرفها الحيوانات. فهل هو كالأنعام، أم إنه أضل ســبيلاً؟ وصــدق الله العظيــم الذي وهب الإنسان تاجه ليطوف به في مملكته طــواف المــلوك، لا طواف الصعاليك، فأظهره بصورته، وألبسه ثوب عظمته وأمــره بالرحمة في رعيته. وقال عن نفسه في عالم أزله وأبده "سبقت رحمتي غضــبي"(64). وقال "كتب ربكم على نفسه الرحمة"(65). فمن أخذ ثوب العز مــن هــذا الــباب، وصار قلبه قاب قوسين أو أدنى بخدمة العباد، لا بد له من

السجود على التراب، ولا بد له من البكاء من لوعة الفراق، حتى يعود إلى ذات الخليفة بالأمر، ويخلع عنه النيابة بالفعل. فيرتدي لباس العبودية من سيده، ويقول أنا الأمي، لأنني عند الأمر والنهي. أنا الخادم عند السيد المطاع. أنا ابن أبي المشتاق. وهل تصلح الخلافة دون رعاية الآباء للأبناء، والملوك للأجراء. لولا احتياج العبد، وإعطاء الرب، ما ظهرت المملكة، ولا ظهرت السيادة والعبودية. فأين المشتاقون إلى السيادة بالعطاء من ملك الرب. وكيف ستكون خلافة بدون حب الآباء للأبناء وذون العطاء. لهذا كانت النبوة مدينة الخيرات. وهذا هو ميراثهم الذي تركوه لكل الخلق، فما آثروا أنفسهم بشيء، فكيف سيؤثرون غيرهم بثروة أو ملك. ما تركوه صدقة للصادقين، وهبة للمستحقين وغير المستحقين. لأن همهم كان تأليف قلوب الفقراء. أما الأغنياء بالكمال فقد حرمهم الرسول صلى الله عليه وسلم من المال، فافهم مغزى قوله للأنصار "ذهب الناس بالشاة والبعير". فالمحب لا يطلب إلا حب من أحب، ولهذا بكى الأنصار عندما عرفوا أنهم سيعودون برسول الله، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم عاملهم كنفسه بتخليه عن المال لمن يحبه، لأن قلب الخليفة لا يتسع إلا لله. وقد جاء في الحديث عن الله "ما وسعتني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن"(66). وفي حديث "أن لله تعالى آنية من أهل الأرض. وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها"(67). فانظر إلى قلبك من يتجلى فيه لتعرف أي رب تعبد. فإن رأيت الله فأنت خليفته، وإن رأيت نفسك أو هواك، أو اختلط أمرك فأنت خليفة لما رأيت ومن رأيت. فلا تغتر بخلافة الأزل، وسجود الملائكة للإنسان.

فقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الحجر، وقال "الجنة قيعان" فازرعوها بالأعمال..وقال "لا أعلم ما يصنع بي ولا بكم غداً" ما دام القلب يتقلب فالإنسان بين أصابع الرحمن. فاحذر من السجود على التراب الطهور بدون إطفاء نيران النفس، وخوض بحر الأزل بمراكب النور. احذر من إسقاط الأعمال لأن المتنازل عن تدبير أمر مملكته ستعزله رعيته، وإن كانت الخلافة قد أعطيت للإنسان في عالم الأزل، فهي للإنسان الكامل، بالأعمال، وليست لكل إنسان. فالإنسان مملكة الرحمن، والعقل تاج مملكة الإنسان، والشريعة دستور وطريق للوصول إلى الرحمن، لنيل الخلافة بالبرهان. وهذا هو السباق الذي لا بد منه في الدنيا. فمن طهر نفسه من نار الشهوات في الدنيا نجا وعاد إلى حقيقته في عالم النور. ومن عجز عن تطهير نفسه في بحر الحياة، فإنه على قدر إسرافه في طاعة حواسه ستحيط نار التطهير به لتغسله من خبث الشهوات.

حـتى يدخـل مملكـته الموعودة، ويعود إلى أصله. وبما أن دوران الأيام في الآخـرة ليس كدورانها في الدنيا لحقيقة تتعلق بطبيعة كل فلك بالمشيئة الإلهية. حيـث جـاء ﴿**وإن يومـاً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾(68) فإن أيام العذاب أو تطهير الإنسان في الآخرة ستطول تبعاً لطول مخالفاته، ولهذا ستكون أيـام العـذاب من أيام الرب، إضافة إلى طول وقت الحساب عند انتظار الحكم الإلهي. حيث سيكون مقدار هذا اليوم الذي ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه في يـوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾(69). وقد فسر الشيخ محي الدين بن عـربي "المعـارج" بأنهـا "مـراتب الترقي من مقام الطبائع إلى مقام المعادن بالاعتدال. ثم إلى مقام النبات. ثم الحيوان. ثم إلى الإنسان في مدارج الانتقالات المترتـبة بعضـها فوق بعض. ثم في منازل السلوك"(70). وربط في تفسيره سـبب دخـول أهـل الشهوات إلى النار للمناسبة بين الطبيعة المادية للشهوات والـنار. ففـي عـالم إشراق الروح في الآخرة سيشقى أصحاب الشهوات لأن المكـان لا يتناسب مع شهواتهم حيث سيبعث كل إنسان على صورته الدنيوية. ولهذا "فإن لظى نار الطبيعة السفلية ما استدعت إلا المدبر عن الحق، المعرض عـن جناب القدس وعالم النور، المقبل بوجهه إلى معدن الظلمة، المؤثر بمحبته الجواهـر الفاسـقة السفلية المظلمة، فانجذب بطبعه إلى مواد النيران الطبيعية، واستدعته وجذبته إلى نفسها للجنسية، فاحترق بنارها الروحانية المستولية على الأفـئدة. فكيـف يمكـن الانجـاء منها وقد طلبها بداعي الطبع، ودعاها بلسان الاستعداد"(71). وقد ذهب الفخر الرازي في تفسيره إلى أن طول وقت الحساب "إنمـا يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا. والدليل عليه الآية والخبر. أمـا الآية فقوله تعالى ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا**﴾ واتفقوا على أن ذلك "المقيل والمستقر" هو الجنة. وأما الخبر فما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال. قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما طول هذا اليوم؟. فقال "والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا"(72).

وإذا عدنـا إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "المرء مع من أحب، وله ما اكتسب"(73).

وإذا عرفـنا أن الحـب المقصـود، هو حب اتباع واقتداء ليصح للمحب الوصـول إلى مقـام المحبوب سندرك لماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمـر بن الخطاب "لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله"(74).

لأن عجــز المقــتدين عن اللحاق بأعمال الرسل صلوات الله عليهم، قد يصلحه حسن النوايا التي هي منبع كل الأعمال وغايتها. ولهذا جاء الأمر بالعلم لمعرفة الشريعة، وشهود الآيات الإلهية في الوجود. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "اطلــبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم"(75). والقسم الــثاني مــن الحديــث متفق عليه بإجماع الناقلين. فالعلم مفروض على المسلم للوصــول إلى الخلافــة. والجــاهل لا يعــذر لجهله، لأن جهله قاطع لطريق الوصــول، فكمــا أن غير دارس الطب لا يصبح طبيباً، كذلك الجاهل بحقائق المعــرفة الإلهية لا يصبح عارفاً. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "قلب ليــس فيــه شيء من الحكمة كبيت خرب، فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهــالاً، فــإن الله لا يعذر على الجهل"(76). لأن تحقق الإنسان من خلافته في الأرض هــو غايــة الغايات من الخلق، ومن كل خلق. لأن الإنسان الكامل هو الــثمرة المقصــودة، والغايــة الإلهيــة المطــلوبة للوصول إلى كمال العبودية الإنسانية، وظهور حقيقة الربوبية. وما بين الإسلام والعبودية دروب لا يوصل إليهــا بالقتال أو الحروب. إنها علوم و "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العــلماء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله"(77). وهو علم القلوب والمكاشــفات والسكون بين يدي الله. لهذا لا بد للوصول إلى العلم المكنون في القلب من طي صفحات الجهل لرؤية عرش الرب. ولهذا أمر الرسول صلى الله عــليه وسلم أهل الكمال فقال "أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخــامس فتهــلك"(78). ولأنه القدوة، ولكي لا يظن إنسان أنه وصل إلى كمال العــلم، قــال الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربــني إلى الله تعــالى فــلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم"(79). لأن الإنســان الكامل يعيش على الإمداد الإلهي بعد قطع شواطئ التدبير والاختيار. فهــو أمــي من هذا الميزان. وهو عبد في هذا المقام. وهو خليفة لأنه لا ينطق عــن الهوى. فهو الأمي العبد الخليفة بحسب موقعه في كل ميزان. بل هو من عطــاء الأســماء الحسنى في شأن من تجلي الرحمن بعد أن صار قلبه بيتاً لله الذي لم تسعه السماء والأرض ووسعه قلب الإنسان العبد. فالخليفة كنز الزمان وصاحب السر المكنون، والظهور الرحماني في صورة الإنسان..

العقل والإيمان

إنـــنا كـــلما تأملنا في الحقيقة الإنسانية سيتبين لنا أن الإنسان صار إنساناً وخـــليفة بـــالعقل الموهوب له من الله. والعقل هو الجوهر النفيس الذي تميز به الإنسان عن باقي المخلوقات. لأن جميع الكائنات الحية إذا نظرنا إليها من حيث تشـــابهها مـــع الإنسان فإنها لا تختلف في تركيبها وحواسها وقدراتها وتوالدها وعنايـــتها بأبـــنائها عـــن الإنسان. بل إن بعض الكائنات الحية لها قدرات في حواســـها تفـــوق قـــدرات الإنسان. إلا أنها جميعاً لا تملك أي قدرات عقلية أو معـــرفة لـــتطوير حياتها، كما إنها لا تسير إلى هدف أو غاية في حياتها. فهي تـــأكل وتتوالد وتتعلم بشكل غريزي ولا تضيف أي جديد يذكر إلى معارفها مما يـــدل بأنها لا تختلف في حقيقتها عن النبات إلا في قدرتها على الحركة للبحث عما يلبي غرائزها، ضمن برنامج محدد يتوارثه الأبناء عن الآباء.

ولا مجـــال لـــلمقارنة بين عقل الإنسان وما تملكه أرقى الحيوانات من العقل. ولهذا كان الإنسان هو الأرفع بين المخلوقات، وكان على الصورة الإلهية من حيث الجوهـــر، لا من حيث الصورة المادية. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تقـــبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته وفي لفظ على صورة الرحمن"(1). وجـــاء في القرآن **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾**(2). وإن جمال صورة الإنســـان واعـــتدال قـــواه ليس له مثيل. ولكن جمال الصور الإنسانية لا يرفعها أو يحفظهـــا إلا العقل. ولهذا كان العقل هو الآمر الناهي في مملكة الإنسان، وبه حمل الأمانـــة الـــتي عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان **﴿إنـــا عرضـــنا الأمانـــة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشـــفقن مـــنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾**(3). وذلك بتضييعه للأمانـــة لمن أضاعها. والأمانة هي طاعة الله ومعرفته بالعقل، بما أعطي الإنسان مـــن حـــرية الاختيار ليسلك طريق الخير أو الشر، طريق المعرفة، أو الجهل. وقد مـــر معنا تفسير ابن عباس لكلمة "يعبدون" في آية **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** فقال ليعرفون. لأن عظمة الصانع المبدع لا تظهر إلا للعالم المتفهم لدقة صـــنع المخـــلوقات، كمـــا إن الجمال لا يظهر إلا لمتذوق الجمال. ولما كان الله لا يعـــرف إلا بالمخلوقات كدليل على عظمة صنعه وكماله، لهذا فإن الناس يتفاوتون فـــي معرفتهم وعبادتهم لله بكمال معرفتهم لخلقه. لهذا كانت أول كلمة بدأ بها الوحي

"اقـــرأ" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم " ويل لمن لا يعلم، وويل لمن علم ثم لا يعمـــل"(4). والعـــلم هـــو الجوهر المكنون الذي أعطي أزلاً للإنسان ليحمل الأمانة بقـــول الله ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾(5). ولا يعقل أن يعطي الله الأمانة لمخلوق لا يقـــدر على حملها. إن الإنسان لا يفعل هذا. فالمهندس لا يكلف إلا مهندساً لينوب عـــنه في غيابه. فكيف سيوكل الله الأمانة لمخلوق لا يقدر على حملها؟. ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾(6). فالإمكانية موجودة في الإنسان، ولكن الأمانة الموهوبـــة للإنســـان يـــتفاوت الناس في حملها تبعاً لأحوالهم وظروفهم. لهذا كان الـــثواب والعقـــاب، وكـــانت الموازيـــن الكثيرة ليوم الحساب تبعاً لظروف الناس وأعمـــالهم ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**﴾(7) فالعطاء الإلهي المعرفي المعـــطى للإنسان لكي يعرف الله، ويعرف الحق، معطى لهذه الغاية، لشهود الكمال والجمـــال بالعقل الحاكم في مملكة الإنسان. ولهذا تفاوت الناس في استخراج كنزهم المكـــنون فـــي العقـــول، وتفاوتت مكانتهم في الدنيا والآخرة لهذا السبب. لذلك قال الرســـول صـــلى الله عـــليه وسلم "أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخـــامس فتهـــلك"(8). وقال "دين المرء عقله، ومن لا عقل له لا دين له"(9). وقال "مـــا اكتســـب المـــرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى"(10). والعقل كطاقة في الإنسان من مزاياها أنه لا يشبع من العلوم ولا تحده الحدود، لهذا كـــان العقـــل هو الرسول بين الإنسان والخالق. فهو القادر على الطواف في مملكة الوجـــود، وســـماع مـــا لا تســـمعه الأذن، ورؤية ما لا تراه العيون لشهود عظمة الـــرحمن. لهـــذا يتعرض العقل للعذاب كلما زاغ الإنسان عن الطريق المستقيم في الدنيا بلوم اللائمين وغضبهم، وفي الآخرة بالقصاص العادل لما عمله الإنسان. وإن الإنســـان فـــي الدنيـــا لا يشعر بهول العذاب أو ضيق السجن لو فقد عقله. والعقل المخـــدر لا يشـــعر بـــألم ســـكاكين الأطـــباء التي تعمل في الجسد. وعند التخدير الموضـــعي لا تشـــعر المـــنطقة المخـــدرة الـــتي انقطع اتصالها بالدماغ بمباضع الجراحين. وقد جاء في الحديث "عندما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل. ثم قال له : أدبـــر فأدبـــر. ثـــم قال له: أقعد فقعد. ثم قال له: أنطق فنطق. ثم قال له: أصمت فصـــمت. فقـــال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، ولا أكرم، بك أعرف، وبك أحمد، وبك أطاع، وبك آخذ، وبك أعطي، وإياك أعاتب، ولك الثواب، وعليك العقاب، وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر"(11).

فـــالعقل هو تاج الإنسان الذي يرتقي به في درجات المعرفة ليعرف نفسه وربـــه. فـــإذا ارتقى إلى هذه المعرفة بمجاهدة النفس، والتنزه عن هموم البهائم

التي لا تشغلها إلا غرائزها، فإن العقل عند ذلك سيكون قد وصل إلى أعلى درجات الحكمة وهذه حدوده التي لا يستطيع أن يتجاوزها في معرفة حقائق الوجود وحقيقة الله. فالعقل في هذه المرحلة سيكون قد شهد بالأدلة العقلية على وجود المبدع وراء كل إبداع، وبهذه المعرفة لا شك بأنه سيتوق لمعرفة المبدع. ولكن مثل هذا الطلب لا يمكن الوصول إليه إلا بطول الأمل، واليقين والانشغال بالمبدع عن الإبداع. وفي هذه المرحلة من التأمل والحب لا يملك الإنسان القدرة على فتح باب معرفة المبدع إلا بإرادة الله. ولكن الله وعدنا بهذه المعرفة فقال: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا﴾**(12). وقال **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾**(13). وهذا وعد من الله. فالمشغول بالله بعد أن حيرته حقائق الوجود وصوره، والطامح إلى رب الكون بعد أن هز جمال التكوين فؤاده، سيذوب في عشقه، ويصرخ في ليله ونهاره طالباً رؤية معبوده. وعند ذلك يتجلى الله له في أنوار الوجود السابحة من وراء كل موجود فيعرف الله حق المعرفة بالعلم اللدني الطائر من أشواق القلوب وحرقتها إلى نور مظهر الوجود **﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾**(14). من هم الذين سيهديهم الله إلى نوره؟ جاء الجواب في الآية التي تليها "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار"(15). أي إنهم في كل أحوالهم يذكرون الله ويتفكرون وإن كانوا يقومون بأعمالهم. لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون"(16). وقد قيل عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة لأنه كان يمكث أياماً في غار حراء ليعبد ربه "محمد عشق ربه" وقد وصف القرآن المؤمنين فقال **﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾**(17). وبهذا الحب والعشق نال ما نال. وعلى هذا الطريق يسير الأولياء وبه يصلون. وقد جاء في الحديث "يقول الله عز وجل: إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بي جعلت بغيته ولذته في ذكري، فإذا جعلت بغيته ولذته في ذكري عشقني وعشقته، فإذا عشقني وعشقته رفعت الحجاب فيما بيني وبينه، وصيرت ذلك

غالباً عليه، لا يسهو إذا سها الناس. أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً، ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم"(18).

فالإنسان هو بالحقيقة الوحيد الذي أعطي الإمكانية لمعرفة الله، وكان الحامل لجميع الأسماء الإلهية لكي يعرف الله كما يمكن أن يعرف، وأعطي إمكانية الطاعة والعصيان لكي يعبد الله عبادة الأحرار، ويتميز بين بني الإنسان بما قدم لآخرته من الأعمال. لهذا لا يضل أهل المعرفة الذين يعلمون أن الله ينظر إليهم من وراء كل حجاب بنوره الذي يشرق في السماوات والأرض.

ولهذا يعيش العارفون في حياء من الله أشد من حياء الإنسان من ضيفه، لأنهم يعرفون أنه معهم في كل مكان لا يفارقهم. وهم يستمدون من حقيقة حق اليقين سلوكهم. لأنهم عندما تجردوا عن المعرفة بحواسهم بارتقائهم من رؤية المفعول به إلى الفاعل، من رؤية عين اليقين إلى الحق الذي وراء كل سمع وكل بصر، وتجردوا بعقولهم عن المشاهدات بالحواس إلى مستوى إدراك العقل النافذ في حجب الأنوار برؤية العقل للفكرة بعد تجريدها من المظاهر المادية بالبرهان الكامن في العقول، بعد الاستغراق في بحر الأنوار والتسليم بالعبودية لواهب العقول، سيأتي الإمداد من الله، وعندها يصبح العارف صورة من صور الرحمن، مقيدة بأمر المحبوب. والصورة الإنسانية، في سعادة العبودية تصبح فوق الخير والشر، ناظرة إلى العطاء إن كان خيراً أو شراً، وهي تنادي "اللهم إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي". نداء المصطفى صلى الله عليه وسلم في ظلام الليل وهو يكابد الجحود والكفر. فالعبادة طريق للوصول إلى الله في الدنيا والآخرة، وليست كما يظن الكثيرون لا تظهر نتائجها إلا في الآخرة. ولكن ثمار العبادة في الدنيا لا يشاهدها إلا الخواص، وهي في الآخرة لكل الناس للمؤمن والكافر حيث لا يبقى أي مجال للنكران. ولو أيقن كل الناس بهذه الثمار فإنهم سيقطفون منها في الدنيا على قدر أعمالهم، فمنهم من يشاهد جزاء الإحسان بالإحسان، ومنهم من يشاهد رب الأكوان. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه"(19) وقال موسى عليه السلام يسأل ربه "يا رب أقريب أنت فأنا جيك؟ أم بعيد فأناديك، فإني أحس حس صوتك ولا أراك فأين أنت؟. فقال الله: أنا خلفك وأمامك وعن يمينك وعن شمالك، يا موسى أنا جليس عبدي حين يذكرني، وأنا معه إذا دعاني"(20). الإنسان يسير بين موقعين من جهة

الاتصال والتلقي فهو يتلقى من عقله ويستمد منه كل أفعاله وهذا العقل ينهل من علم الأسماء المحدود بالطاقات الإنسانية الموهوبة من الله أزلاً. ولكن الإنسان مؤهل أيضاً للتلقي من الله. وهذا التلقي لا يحدث إلا بعد الالتزام بالشريعة وتطهير الجسد من الذنوب، والنفس من الآثام، والنظر إلى الله طلباً للإمداد بالعبودية المطلقة له بتحليل ما أحل وتحريم ما حرم، والقيام بالنوافل التي عمل بها الرسول صلى الله عليه وسلم وقد مر الحديث "كلما تقرب عبدي إلي بالنوافل تقربت إليه". والنوافل هي السنن وقيام الليل والصدقات والرحمة بجميع المخلوقات. عندها تشرق الأنوار في الحواس، ويزهو العقل بنور ربه على الدوام، وإن غفل أوسها في بعض الأحيان. فالإنسان في حقيقة الأمر كنز معرفة الله، ومرآة الوجود، والشاهد في مملكة العطاء والجود. وهو الذي يهزه الإبداع والطرب، فينادي من الذهول يا رب الوجود في لحظات الشوق. فيقول له الله، لبيك عبدي وسعديك. والمخلوقات مجبورة ليس لها اختيار، ولهذا فهي بمنزلة الشمس والقمر كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم، قيل يا رسول الله: ولا الملائكة؟. قال: ولا الملائكة، لأن الملائكة هم مجبورون بمنزلة الشمس والقمر"(21). وجاء في الحديث "إن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويركبون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقته بيدي كمن قلت له: كن فكان"(22).

فسبحان من سخر السموات والأرض للإنسان، وسخر الجسم للعقل ليدرك من هو نور السموات والأرض، بنور الإنسان، وسبحان مدبر الوجود بالتسخير والرحمة ليظهر فضل السماء والأرض. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به"(23). ولهذا أمرنا بالسجود عليها لتشهد لنا بالوفاء، فهي الأم التي تمنحنا الغذاء والجسم. والشمس والقمر دائران لإنضاج الثمار فهما بمنزلة الآباء بجريهم لتدبير معيشة الأبناء. فسبحان من اختفى في حجب الأسباب، فلم يعرف إلا بأنوار العقول. والناس كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله قبل كل شيء، فما كان قبل الله، فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كل شيء. وهو الآخر فليس بعده شيء. وهو الظاهر فوق كل شيء. وهو بكل شيء عليم"(24). فسبحان من لا يعرف إلا بأنوار العقول، وإن كان في كل صورة له ظهور. فهو في الماء صورة الحياة، وفي السماء جمال يدعو إلى الذهول. فهي أسماء وعروش والله بكل شيء محيط، وهي ألواح للكتابة،

والقلم يكتب ما كان وما سيكون بإمداد حبر النون الذي يجري بين شواطئ الأزل والأبد بأمر كن ليكون. والإنسان ماض شاء أو أبى من حال إلى حال، من أرض الامتحان إلى أنوار الجمال، أو نار الجلال. ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحـــاً فملاقيه**﴾(25). وعلى الإنسان أن يختار فيما أعطي من حرية للاختيار. فالحــرية نعمـــة للإنسان ومسؤولية ليصح عليه الامتحان، وهو بلاء لمن لم يهتد بعقله إلى الإسلام والإيمان.

الأقدار وحرية الاختيار

أردنا أن نضيف إلى بحثنا بعض الملاحظات حول هذه المسألة الشائكة من المســائل التي اختلف حولها الفقهاء وهي مسألة القدر. لقد انقسم الفقهاء في هذه المســألة إلى ثــلاث فرق. فريق قالوا بالقدر السابق المطلق على الإنسان مما يــلغي حرية الإنسان. وفريق قالوا بحرية الإنسان المطلقة. وفريق ثالث أعطى للأقــدار دورها، وللإنسان دوره. وكل فريق استند إلى براهين وأدلة من القرآن والحديــث، ترجح ما ذهب إليه وما فهمه من الشريعة، مما أدى إلى وضع كل مسلم في مجابهة مشكلة لا يطمئن إلى تفسيرها أو الإجابة عنها إجابة صحيحة. وإن هـــذه المشـــكلة وإن كانت تستحق بحثاً مستقلاً لتوضيح آراء الفقهاء بشكل مفصـــل، إلا أننا آثرنا تجنباً للإطالة أن نعلق بشكل مختصر على هذه المشكلة لخطورتهـــا فـــي حياة المسلمين. وقد رأينا أن جميع الفرقاء قد أصابوا إلى هذا الحد أو ذاك، إلا أننا بحاجة لتأمل أكثر عمقاً لفهم مسألة القدر بخيره وشره. وقد ورد فـــي صـــحيح الحديث "إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نـــوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل"(1). وجاء في حديــث آخـــر "لما خلق الله آدم ضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر، ثم ضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي"(2).

وهـــذه الأحـــاديث لا تتعارض مع حقيقة الحرية المعطاة للإنسان من الله. فالـــنور الإلهـــي ألقي على الجميع ليهتدوا، ومن لم يصبه ذلك النور بسبب عدم قابليـــته كان من أصحاب الشمال. وهذا شبيه بما ورد في الآية ﴿**من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً**﴾(3). فسر البذرة المكنون حكـــم في عالم الظهور، وسر البذرة مرتبط بالأسباب وطهارة الأصلاب. ولهذا

قـــال الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه "ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله فـــي خيرهما، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي. فأنا خيركم نسباً وخيركم أباً"(4). وقال "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(5). وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به"(6). لهذا حينما أخذ الحسين وهـــو طفل صغير تمرة من تمر الصدقة أخرجها الرسول صلى الله عليه وسلم من فمه مع أنه كان بإمكانه أن يؤدي بدلاً منها. إلا أنه لعلمه بتأثير لقمة لا تحل لآل بيـــته أبى أن يسمح لابن ابنته الذي يقول عنه وعن الحسن "هما ريحانتاي مـــن الدنيـــا"(7). أبى أن يسمح لـــه بمضغ هذه اللقمة حباً بالحسين وشفقة عليه لمعرفـــته بضـــرر هـــذه التمرة. فالأقدار لها أسباب. وعالم الأصلاب يؤثر في الإنسان كما نشاهد آثاره في عالم النبات والحيوان. ولهذا فإن كل وارث سيرث من أبويه إضافة لتركتهما ما نبت منه الجسم، وتأثر به العقل. لهذا كما أن الآباء إذا كانوا فقراء يورثون فقرهم لأبنائهم، كذلك فإن الأفكار والمعتقدات تنتقل إلى الوليـــد بحكم المجالسة والمعايشة، كما يساهم الغذاء إن كل حلالاً أو حراماً في بـــنية الابـــن. ولهذا حرم الإسلام من الرضاع ما حرمه النسب، لأن حليب الأم المرضع سيساهم في بناء جسم الطفل الرضيع. لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "تزوجوا في الحجز (أي الأصل) الصالح، فإن العرق دساس"(8).

وقال "تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن"(9). وقال "إيـــاكم وخضـــراء الدمـــن! قيل يا نبي الله! وما خضراء الدمن؟. قال: المرأة الحســـناء فـــي المنبت السوء"(10). ولكن هل يستطيع الإنسان أن يتزوج مثلاً امرأة ليس له في زواجها نصيب؟. هنا يجب أن نتأمل طبيعة علم الله. فعلم الله هـــو عـــلم ســـابق لما سيفعله الإنسان. وهذا لا يتعارض مع ما كتب القلم بما ســـيكون ومـــا هـــو كـــائن على الإنسان لأنه علم مستمد من علم الله المسبق بالإنســـان. **﴿ألا يعـــلم مـــن خلق وهو اللطيف الخبير﴾**(11). فهذا من علم الخبير وليس من علم التقدير. وعلم الخبير هو علم بحقيقة الوجود بما هو عليه، وبما فيه، أما علم التقدير فهو علم سابق على الخلق، علم الفكر بما ستكون عليه الأشـــياء قبل أن تكون وهو من القدرة ومن علم التقدير **﴿وزينا السماء الدنيا بمصـــابيح وحفظـــاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾**(12). ومنه **﴿هو الذي جعل الشـــمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل﴾**(13). ومنه **﴿وخلق كل شيء**

فقـــدره تقديـــراً﴾(14). ومن هذا العلم ما جاء عن الغذاء المقدر في الأرض للمخلوقات **﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾**(15). وهذا علم لله. أما علم الخبرة فقد تحدث فيه المشاركة. ومن هذا العلم علمت الملائكة بمـــا سيقترفه الإنسان على الأرض فقالت **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فـــي الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾**(16). ومن أسماء الله الحسنى الخبير والقادر فعلم الخبرة علم، نعرف بواسطته أن الغيوم تبشر بالمطر، والشتاء سيتبعه الربيع من تسلســـل الفصـــول وهو علم خبرة عن اختبار وتجربة ومعرفة بطبيعة وحقيقة الشـــيء بعـــد أن يكـــون، وإن كان من طبيعة القدرة وحقيقتها المعرفة بحقيقة المصـــنوع وماهيـــته والغاية منه قبل أن يصنع. فالحقائق بالنسبة للقادر متجلية كلها في وقت واحد، وللعاقل غير القادر تتجلى بالتجربة والبرهان بعد الوجود. والقـــدرة تحـــدث بأســـبابها، وإن كانت قدرة الله لا تتوقف على المسببات التي نعـــرفها. ولكـــن الأزمان جارية لحدوث الأقدار بمسبباتها القادرة على إحداثها ســـواء بكـــلمة "كن" أو ما تقتضيه لحصول المطلوب. وقد جاء في الحديث "إذا أراد الله إنفـــاذ قضـــائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم"(17). فالإنسان العاقل العـــارف بخطورة أمر لا يخطئ بارتكاب ما يناقض علمه ومعرفته. ولكن إذا أراد الله وقـــوع المقـــدور، أوقـــع النسيان أو الإهمال لوقوع القضاء بالأسباب. فالنظام شامل للكون، والأقدار تحدث عند وقوع أسبابها.

لهـــذا حـــذر الإســـلام من التواكل. وأمر بالعمل والجهاد وقال الله محذراً الإنســـان مـــن تبرير ما يقترفه من الشر **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون﴾**(18). والآيات التي تحذر الإنسان من تبرير ما يقترفه من الشـــر بإرادتـــه، بـــرد أخطائه إلى القضاء أو القدر السابق على حياة الإنسان كثيرة، مع أن الحكم لم يصدر على الإنسان فيما هو حرفيه إلا من أعماله. وقد رأيـــنا كيـــف أعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن بعض ما سيقع إلى قيام الساعة. وقد جاء في القرآن في معرض رد الله على اليهود الذين كانوا ينسبون إلى الرســـول صلى الله عليه وسلم ما يصيبهم من البلاء **﴿وإن تصبهم حسنة يقولـــوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عن آلله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾**( ). ثم أجاب الله عـــلى كلامهم في الآية التالية مبيناً سبب البلاء الذي كان يصيبهم بذنوبهم فقال **﴿مـــا أصـــابك مـــن حســـنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**

وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾(19). فالله ليس عنده إلا الخير للإنسان. ولكن الميزان الحاكم على الأعمال في الدنيا والآخرة اقتضى الثواب والعقاب بحسب الأعمال. فأقدار الإنسان هي بيده إلا ما شاء الله. وإذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب. ولهذا أعفي الفقير من الزكاة، والمريض من الصوم. ومن يقول بأن جميع الأعمال مقدرة أزلاً من الله وحاكمة على الإنسان، فعليه أن يلغي الثواب والعقاب والجنة والنار، لأن المؤمن سيكون قد خلق مؤمناً بمشيئة الله، والكافر خلق كافراً بقضاء الله.

وقد جاء في الحديث الشريف "يقول الله تعالى: يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي، وبعصمتي وتوفيقي وعوني وعافيتي أديت إلي فرائضي، فأنا أولى بإحسانك منك، وأنت أولى بذنبك مني، فالخير مني إليك بدأ، والشر مني إليك بما جنيت جرى، ورضيت منك لنفسي ما رضيت لنفسك مني"(20). لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل بيته "ألا إن أوليائي منكم ليسوا بني فلان، ولكن أوليائي منكم المتقون، من كانوا وحيث كانوا"(21). وقال لابن عمر بن الخطاب "يا ابن عمر لا يغرنك ما سبق لأبويك من قبل، فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم. يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ. خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا"(22). ولهذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم الإنسان من الطمع في حلم الله. فقال "النادم ينتظر الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، وكل عامل سيقدم على ما أسلف عند موته، فإن ملاك الأعمال بخواتيمها، والليل والنهار مطيتان فاركبوهما بلاغاً إلى الآخرة، وإياكم والتسويف بالتوبة والغرة بحلم الله. واعلموا أن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"(23). وقد قال الله في آيات كثيرة **﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر﴾**(24). وقال **﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾**(25). وقال **﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾**(26). والآيات التي تدل على كراهية الله للكافرين وإنذارهم بأنواع العذاب كثيرة. وهذا يضعنا أمام مسائل لا جدال فيها. فإما إن الله لا يقدر على هداية الكافرين، وهذا مناف لقدرة الله. وهو الذي قال **﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾**(27). أو إن الله ترك الناس لاختيارهم

ليصــح الحكم عليهم بما قدموا مع علمه المسبق بأعمالهم. فقال الله **﴿ألم نجعل له عينين. ولساناً وشفتين. وهديناه النجدين﴾**(28). عينين لينظر بهما إلى خـلق الله، ويـنطق بالحق، وأعطيناه معرفة طريق الخير والشر. وقال: **﴿إنّا هديـناه السـبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾**(29) . ليختار بين الإيمان والكفر وقـال عن قوم ثمود وقد أحب الله لهم الهداية كما أحبها لكل خلقه **﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾**(30). وقال عن بني إسرائيل ودعوة موسـى عليه السلام إلى الإيمان **﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقـد تعـلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين"**(31). **والأسباب لغضب الله عليهم "فلما زاغوا﴾**.

فالإنسـان الـذي يملك العقل هو الحاكم على نفسه، بمشيئته المستمدة من مشيئة الله بحرية الطاعة والعصيان، والشكر والكفر، وهي التي ستقرر اختياره وأعمالــه. فالاختيار معطى للإنسان أزلاً من الله لكي يصح الحكم العادل عليه بالـثواب أو العقاب. وقد أوضح الله أنه خلق الشياطين لتضليل الناس، وأرسل الرسـل لـلهداية. وقـال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الشيطان يجري من الإنسـان مجرى الدم"(32). فهو في جسم الإنسان وفي غرائزه التي تدعوه إلى الفسـق والفجـور. وفي هذا الصراع الدائر بين العقل والغرائز سيقرر الإنسان مصـيره ومآلــه. فإذا حكم الأستاذ على طالب بأنه سيرسب في الامتحان قبل وقوع الامتحان بسبب تقصيره وإهماله لدروسه، فهذا حكم خبرة عن اختبار، لا حكم قضاء وقدر. والقدر جاء في هذه الحالة من التقدير الذي صدر عنه القضاء بما يوافق أعمال المحكوم. ولكن قراءة نصوص القرآن أو الأحاديث تحتاج إلى تـأمل أعمق بكثير مما يفعله بعض الفقهاء. فالناظر إلى الأمر الإلهي من حيث شموله للكون بما شاء فإنه لا يرى غير الله. ولذلك عند هذا النظر لا نرى غير الله كمسـبب للأسـباب وهذه مسألة دقيقة لا يفطن إليها كل إنسان. فالأصل هو الله. ولكــن الله بمشـيئته أعـطى الحرية للإنسان فصار الإنسان حراً. فحرية الإنسـان أيضـاً من مشيئة الله. ولو أراد لم يعط الحرية للكافر فآمن. عند هذا الـنظر نكـون قد خالفنا منطق العقل ونص القرآن. فالله لا يحب لعباده الكفر، ولكـنهم كفـروا بالحرية التي أعطيت لهم. فهي حرية وليست رغبة في الكفر. وقـد ضرب الله مثلاً لمن يكفر وينسب كفره لله. فقال عن الذين عبدوا الملائكة وقـالوا عـنهم إنهم بنات الله: **﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلـك مـن علم إن هم إلا يخرصون﴾**( ) ثم ختم الله القول بعد أن ضرب

الأمـــثال بأحكـــام الضالين وضلالهم ﴿**فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبيـــن**﴾(33). إن مثل الضالين يشبه من ارتكب جريمة، فلما أودع السجن وســـأله القاضي لماذا ارتكبت الجريمة أجابه. أنتم المسؤولون لأنكم أعطيتموني الحـــرية، ولو أنكم وضعتوني في السجن قبل أن ارتكب الجريمة لما ارتكبتها. وهذا منطق صحيح ومغلوط في نفس الوقت. فهو ينسب إلى من أعطاه الحرية الذنـــب وليـــس إلى نفسه وضلاله. فهو منطق تبرير كما لو قال آخر. لو كنت بـــدون معـــدة لمـــا احـــتجت إلى الســـرقة. ولهذا فإن من خلق لي المعدة فهو المســـؤول. وقـــس ذرائع الضالين على هذا المقياس. نعم إن الحرية من أسباب الضـــلال وليســـت مبرراً للضلال. وإذا كانت البذرة محكومة بعوامل كثيرة لا تحصى، فإن الإنسان العاقل يستطيع أن يتخلص من بعض عوامل الوراثة التي انتقـــلت إليه من الأبوين. فغير المسلم يستطيع أن يصبح مسلماً. ويستطيع دون أن يصـــبح مسلماً، أن يعمل بالرحمة بالخلق ليكون من المرحومين، فالراحمون يـــرحمهم الله. ويســـتطيع من ورث مالاً حراماً أن ينفقه في سبيل الله حتى ينال رضـــا الله. كما يستطيع المولود من أبوين فقيرين أن يكافح ليكون من الأغنياء. فـــالوارث لا يـــرث مـــن أبويه المال فقط بل العلم، والخبرة والتقاليد والعادات والدين والحلال والحرام. وكل هذه التركة ستحكم على الوارث بما يحكم فيها.

وهذه بعض ثمار الوراثة، وحتى جسمه قد يكون شب من لقمة الحرام دون إرادته فأورده أبواه موارد الهلاك. وكلما كان الإرث ثقيلاً سيكون على الوارث أن يكـــافح أكـــثر ليتخـــلص ممـــا نقله إليه أبواه من الأمراض. ومن كان أبواه صـــالحين فـــإن إرثه سيساعده إن شاء على الصلاح، رغم أنه قد يضل حينما يخـــالف عهدهما فتحكم عليه ذنوبه في الدنيا والآخرة كما حكمت على ابن نوح عليه السلام بالغرق عندما رفض دعوة أبيه للصعود معه إلى السفينة لينجو من الطوفان. ولكي لا يفهم من كلامنا أننا نقول بحرية الإنسان المطلقة، وهذا ما لا يقول به عاقل، لأن الإنسان لا يولد ولا يموت باختياره، كما إنه لا يختار أبويه بمشـــيئته. والأشـــياء التي لا تحكم لـــه فيها كثيرة. فإننا لا نتحدث عما لا حكم للإنســـان فـــي أمره، ولكننا قصدنا حرية الاختيار للإنسان فيما يملك أن يختار فيـــه. فهـــذه مســـؤوليته التي سيحاسب عليها بعدل الله، لا برضاه، لأن الله لا يرضـــى لعـــباده الكفـــر كمـــا مر معنا، ولا يرضى لعباده العذاب، وهو أرحم الـــراحمين، ولكـــنه ســـيحكم عليهم بعدل لـــه، ولهذا وضع الموازين القسط ليوم القيامـــة، فهي موازين. فليس السارق إن كان وزيراً كالفقير. وليس غير المسلم

الذي اهتدى كالمسلم الذي نشأ في بيت صالح ثم ضل. وليس الحكم على الجاهل كـالحكم على العالم. وكل إنسان ستكون جنته من علمه، وناره من علمه، فنحن مسـؤولون فيما نستطيع التصرف فيه، بما نلناه من الحرية المحدودة في عالمنا الواسـع. ونحـن غير مسؤولين فيما لا حكم لنا عليه أو فيه. ولهذا قال العلماء الحكمـاء "إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "مـن رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(34). وقال الله **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**(35). فالمسؤولية تتناسب مع القدرة والاستطاعة ومعرفة الحلال والحرام.

والله لا يعذر الإنسان على الجهل لأن من واجبه أن يعرف الحلال والحرام مـا دام قـد أوتـي العقل، ولا يترك معرفة ما أباحه الله لعباده وما حرمه إلا مسـتهتر بالحلال والحرام، لا يهمه من أين أصاب النجاح في الدنيا. ولهذا قال الرسـول صـلى الله عليه وسلم "قلب ليس فيه شيء من الحكمة كبيت خرب، فتعـلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالاً، فإن الله لا يعذر على الجهل"(36). وجاء في الحديث عن أبي ذر "قال الله تعالى: يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا... يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسـه.(37). العـاقل لا يفعل إلا الخير بعقله المعطى له من الله. والمؤمن يفعـل الخير ويشكر الله على نعمة العقل لأنه على يقين بأنه لولا فضل معطي العقـول، ومرسل الرسول لما اهتدى، ولهذا فهو لا ينسب لنفسه شيئاً من أعمال الخير، بل ينسبها إلى الله أدباً معه، وإن أخطأ فهو ينسب الخطأ إلى نفسه ويسأل الله العفـو والمغفـرة. أمـا الضـال فإنه يتذرع بالحجج الواهية لتبرير فساده وضـلاله، وربما يجادل بكتاب الله والأحاديث لتبرير هذا الضلال. وقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من شياطين الإنس في آخر الزمان التي تمشي في الطـرق فقـال " لا تقوم الساعة حتى يمشي إبليس في الطرق والأسواق يتشبه بالعـلماء يقول: حدثني فلان بن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكـذا"(38). وقـال "انظروا من تجالسون وعمن تأخذون دينكم فإن الشياطين يتصورون في آخر الزمان في صور الرجال فيقولون حدثنا وأخبرنا"(39).

وقـد جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال "كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فذكرنا الدجال فاستيقظ محمراً وجهه. فقال:

غيـــر الدجـــال أخـــوف عندي عليكم من الدجال، أئمة مضلون"(40). فإذا كان الدجـــال سيفعل ما لا تفعله الشياطين، فكم سيفعل الأئمة المضلون بالناس، فهل ســـيبقى من دور للشياطين إذا هجرت الأخلاق والقيم، وصارت المعدة شعاراً، والعورة كنزاً للبيع، والمال إلهاً يعبد.

إنـــنا للـــتأمل والمقارنـــة بين ما يجري في زماننا، وبين أخلاق المسلمين نسوق هاتين القصتين.

لقـــد كـــان أبو العاص بن الربيع قد تزوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام وعندما ظهر الإسلام آمنت زينب رضي الله عنها وبقي أبو العاص على كفره ففرق الإسلام بينهما وهاجرت زينب رضي الله عنها إلى المديـــنة. وذات مرة ذهب أبو العاص بتجارة إلى الشام بأمواله وأموال لقريش. وأثـــناء عودته صادفته سرية للمسلمين فهاجمته واستولت على أمواله، بينما فر أبو العاص حتى وصل إلى بيت زينب رضي الله عنها في المدينة، فدخل عليها مســـتجيراً بها لإعادة أمواله فأجارته. وصرخت وكان الوقت عند صلاة الصبح "إنـــي قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم مـــن الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيها الناس! هل سمعتم ما سمعت؟. قالوا: نعـــم. قـــال: والـــذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما ســـمعت. إنه يجير على المسلمين أدناهم. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته، فقال: أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحـــلين له.. ثـــم.. إن رســـول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى السرية الذين أصـــابوا مال أبي العاص فقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، أصبتم له مـــالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الـــذي أفـــاء عـــليكم، فأنتم أحق به. فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه عليه.. ثم احتمله إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله،... ثم قال: يا معشـــر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟. قالوا: لا. فجزاك الله خيـــراً، فقـــد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وإن محمداً عبده ورسوله.

والله مـــا منعني من الإسلام عنده إلا تخوفي أن تظنوا أني أردت أن آكل أموالكـــم، فـــلما أداهـــا الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم... فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب على النكاح الأول لم يحدث شيئاً بعد ست سنين..."(41) وقد ذكر أنه قيل

لأبـــي العـــاص "هـــل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين؟. فقـــال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي"(42). هذه أخلاق رجل قبل أن يعـــلن إســـلامه أبى أن يخون الناس فيما ائتمنوه عليه. وأبى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفرض على المسلمين أن يردوا عليه أمواله إلا بطيب نفس منهم، لأن ما أحله الله أو حرمه لا يبيحه أي إنسان ولو كان الرسول، وقد كان القرآن قد أحل للمسلمين أموال مشركي مكة بالغزو لا بالخيانة والغدر.

القصـــة الـــثانية: إن الأســـود الراعي كان إجيراً لرجل من اليهود، وكان يرعى له الغنم، وقد أتى للرسول صلى الله عليه وسلم أثناء حصاره لحصن من حصون خيبر ومعه غنم اليهودي فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله أعرض علي الإسلام. فعرضه عليه، فأسلم. فلما أسلم قال: يا رسول الله إني كـــنت أجيـــراً لصـــاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟. قال: اضـــرب في وجوهها، فإنها سترجع إلى ربها... فأخذ حفنة من الحصى، فرمى بهـــا في وجوهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك، فو الله لا أصحبك أبداً، فخرجت مجـــتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن. ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مـــع المسلمين، فأصابه حجر فقتله"(43). وهذه القصة تدلنا على سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحاصر أصحاب الحصن، فقد أبى أن يصادر هذه الأغـــنام. وأمـــر الراعي برد الأمانة الموكلة إليه لأصحابها. فكيف بمن يخون الـــناس الذيـــن ائتمـــنوه، ويسعى إلى أكل أموالهم بالباطل، وقد لا يتورع عن اســـتخدام الدين لخداع الناس، بارتداء ثياب التقوى، والظهور بمظاهر الشيوخ. وقـــد جـــاء في الحديث "علم الله تعالى آدم ألف حرفة من الحرف وقال له: قل لولـــدك وذريتك. إن لم تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً. ويل لمن طلب الدنيا بالدين. ويل له"(44).

مـــاذا نقـــول إذا كـــثرت الفتن، وكثرت الكتب.. والتفسيرات، فهل يخرج المسلمون مما هم فيه إلا بالعودة لما أمر الله.. أفلا يعقلون.. أفلا يسمعون.. أفلا ينظرون...

﴿كذلـــك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾(البقرة-الآية 242) **﴿كذلك نفصـــل الآيـــات لقوم يعقلون﴾**(الروم-الآية 28) **﴿إن شر الدواب عند الله الصـــم البكم الذين لا يعقلون﴾**(الأنفال- الآية 22) **﴿أتأمرون الناس بالبر وتنســـون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾**(البقرة -44) **﴿ويجعل الـــرجس عـــلى الذين لا يعقلون﴾**(يونس-الآية 100) **﴿أفأنت تسمع الصم**

ولــو كــانوا لا يعقلون﴾(يونس-الآية 42) وصدق الله العظيم. الذي خلق ما شــاء، وكرم أبناء آدم بما شاء، وقضى بمشيئته حرية الإنسان وقال "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان".

لقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً لأصحابه موضحاً "أرأيت لــو كــان لك عبدان أحدهما يخونك ويكذبك والآخر يصدقك ولا يخونك، أيهما أحب إليك؟. فكذلك أنتم عند ربكم"(45).

طاعة الله والعمل بشريعته واجبة بما أعطانا من الملك. **﴿وجعل لكم السمع والأبصــار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**(46). ولكن الضالين **﴿فما أغنى عنهم ســمعهم ولا أبصــارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾**(47). وإذا صارت الغرائز والأهــواء هــي الــتي تقود الإنسان فما يفيد السمع والبصر المطيعان بالاستماع والنظر إلى الحلال والحرام **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فــي الصدور﴾**(48). وقلب الشيء حقيقته. وحقيقة الإنسان عقله. فهو السلطان، والجسم رعايا تابعة له، وقائمة بأمره. فإذا فسد السلطان، وضعف وصارت رعاياه هــي الحكــام، فهل سيكون مصير المملكة المشغولة بالبحث عن المتع في الطعام والشراب، واللهو مع النساء، غير الخراب؟. لينظر الإنسان إلى ترتيب قواه، ففي هــذا الــترتيب آيــة من الآيات. وليتبع هذا الترتيب في الحكم ليكون من الخلافة بمكــان. فــالعقل هــو التاج وهو في الرأس موضع الميزان. ثم يتلوه في المكانة والمكان السمع لأنه موضع استقبال العلوم. ثم يتلوه البصر لشهود آيات الإبداع في الأكوان. وبعد البصر حاسة الشم لتمييز الطيبات من الخبائث وتزويد الجسم بنبض الحياة، ثم يتلوه الفم وهو الناطق بأحكام العقل وترجمان الحواس، والخبير بطيبات الشــراب والطعــام. ثم تتلوه حاسة اللمس المجسدة في اليدين، وإن كانت آثارها بالجســم في كل مكان. ثم تتلو ذلك قوى الهبوط في الإنسان، فالمعدة مكان الغذاء وبيت الداء. ومن انشغل بها وجعلها السلطان في مملكته صار من صنف الدواب. وبعدها تأتي العورة في الطغيان بسحرها القوي كالشيطان. ومن شغلته عن مملكته صار تاجه بين رجليه، وخسر الدنيا بارتكاب أفعال لا تفعلها الدواب. **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾**(49)

لهــذا "كن عالماً" لتكون الحاكم الصالح في رعيتك لتصح لك الخلافة بالعقل. "أو متعــلماً" لتعد نفسك للخلافة بالترقي من مقام السمع والنظر إلى مقام العقل، أو

"محـــباً" للعقلاء فتستفيد من مجالستهم بالنصح لك والاستمداد من مقام العقل، "ولا تكـــن الخـــامس فتهلك" بتخليك عن تاجك والانشغال بهواك، بالوقوف إلى جانب الصـــعاليك من قواك، فتخسر إنسانيتك وخلافتك وتصبح "كالأنعام" إن كان همك معدتك، و "بل أضل سبيلاً" إن أصغيت إلى طلبات العورة ورغباتها التي ستوردك مـــوارد الانحطاط والهلاك. لهذا أمرنا الله بالعدل في الرعية بإعطاء كل ذي حق حقـــه بتقدير الخليفة "العقل" للعقلاء، أو إتباع العقلاء للحكماء، إذا كانت عقولنا لم تصل إلى مستوى الخلفاء. والخلفاء هم الرسل؛ وفي غيابهم، شريعتهم، ومن سار عـــلى نهجهـــم. فهذه خلافة الله للإنسان. وأما خلافة الشيطان فإنها تسير بطريق عكسي، حيث تبدأ من الغرائز، ويصبح التاج للأبدان. ويصبح العقل الكريم خادماً فـــي إمـــارة الصبيان، فالخلافة حق بالاختيار والأعمال، بتتويج العقل في مملكة الإنسان. وهي كفاح في لجة الأقدار، بتزكية النفوس، وتطهير الأبدان، والنظر إلى المعطـــي بثوب الجلال والإكرام، حتى يأتي العطاء، ويظهر الأنس، فتسجد النفس عـــن رضى واختيار، بعد طرد شيطان الغواية في ظلال نور الأنوار وتقول كما قـــال الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا أتى علي يوم لا ازداد فيه علماً يقربني إلى الله تعـــالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم" (50). والعقول لا تشبع مثل الأبدان من شهود آيات الأنس والجمال ولهذا تطلب المزيد، وهي تسبح في أنوار السماوات والأرض. فتنسى النساء والطعام، وتعيش في ذكر الملك الرحمن، حتى تصير في مواقع القرب، فتشهد بالسمع والبصر ما لا أذن سمعت، ولا عين رأت، ولا خطـــر على قلب. فينطق اللسان بالذكر والشكر عن شهود وتحقيق، فإذا كان العـــبد عبداً، والرب رباً فمن أين الخلافة للعبد بدون رضى الرب. و "من عرف نفســـه عـــرف ربه". من عرف نفسه بالعبودية صار قلبه إناء للخلافة. والخلافة أنـــوار لشـــهود الجمال في السماء والأرض، وقلب الخليفة ينظر إلى الإبداع في الأكوان. ويقول. إنها الدنيا وهذا الجمال. وأنت تطارد المستحيل. تظمأ إن شربت، وتشرب إن ظمأت، وتظل في يديك خيال. والعقل لا تحده الحدود فكيف سيعرف عقل الإنسان عقل الوجود، وهو فرع منه وتابع له؟. سئل الرسول صلى الله عليه وســـلم "فيـــم العمل؟. قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له"(51). فانظر إلى نفسك وأعمالك لتعرف من أي فريق أنت. وإذا كنا لا نعرف سر الأقدار، ولا نعرف ما كتبه القلم علينا، فهل يصح أن ندعي بأننا نضل بسبب أحكام سابقة خطها القضاء مـــع أننا لا نشاهد مانعاً يمنعنا من إتباع طريق الصلاح والخير؟.. أن يعرف الله حقيقـــة الإنسان فهذا حق، ولكن أن ندعي بأننا نعرف علم الله فينا وما خطه القدر الســـابق علينـــا فهذا هو الباطل الذي يجادل به كل ضال في فهمه لحقيقة القضاء

والقــدر لتــبرير أخطائــه. ولو شاء الله ما حدث الضلال، وهذا لا يعني أنه شاء **﴿تــبارك الــذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحيــاة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾**(52) فالحياة ابتلاء وامــتحان للإنسان. ولكن حباً بالإنسان ورحمة به أرسل الله الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم لأن **﴿الله يدعو إلى دار السلام﴾**(53).

ويدعو عباده إلى الجنة ولهذا نصح المؤمنين بأن لا يتزوجوا المشركين أو المشــركات أخذاً بالأسباب، وما يؤدي إليه التعايش مع المشركين لأن الله يدعو الناس إلى الجنة **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشــركة ولــو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خيــر مــن مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾**(54). كل طالب يســعى إلى مطــلوبه لتحصيله، فمن سعى إلى الله سيجده أقرب إليه مما يظن **﴿وإذا ســألك عــبادي عــني فــإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾**(55). أي بيان أفصح من هذا الــبيان. ولكن ماذا يفيد دعاء الصم إذا عميت القلوب، وفسدت النوايا، فما فائدة الوحــي والرسول لهؤلاء الناس. **﴿قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعــاء إذا مــا يــنذرون﴾**(56). لهذا كانت خلافة الإنسان في الأرض عن اختيار وإيمان وعبودية بطاعة الله فيما أمر، وتنصيب العقل في مركز السلطان مــن الجسم. أما خلافة الشيطان فإنها تأتي نتيجة للأهواء، وعجز الإنسان عن الوصــول إلى طــور الــرجولة بالــتحكم في غرائزه والسيطرة عليها بالعقل. والإنسان يظل في هذه الحالة مثل الطفل الذي توجهه أهواؤه بدون تقدير للخير أو الشــر لهــذا فهــو محــتاج إلى الرعاية الدائمة. وهذا الوضع قد يسود في مجتمعات بأكملها كما يسود في الأفراد. لهذا كان من إشارات الرسول صلى الله عــليه وســلم إلى علامــات الســاعة أن تكون الإمارة للصبيان "وكانت إمارة الصــبيان... ويكثر أولاد الزنا"(52) فإمارة الصبيان لا تعني صغر السن بقدر مــا تعــني صغراً في العقل، ورب كبير بالسن، صغير بالعقل بإتباعه لأهوائه وغرائــزه. وإذا صــار الحاكم مشغولاً بغرائزه، وهو بمثابة الرأس من الجسد للدولة، فإن النتيجة ستكون الفساد وانتشار الفحشاء، وكثرة أولاد الزنا. وهذا ما يحــدث الآن فــي أغــلب المجتمعات، كما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ببصــيرته الــتي لا تخطئ. ومن البديهي القول بأن من لا يكبر بعقله، لا يكبر

بغرائـــزه. وإذا صار السباق والعلو في ممارسة الغرائز، فإن بعض الحيوانات ســتكون أعــلى من الإنسان بما أوتيت من الشراهة والقوة الجنسية. لهذا كانت المســؤولية مقرونة بالعقل، وحرية الاختيار فيما لم تخطه الأقدار. لأن الإنسان يسير ضمن دائرتين، دائرة الأقدار ودائرة الاختيار، وفي حدود هذه الدائرة التي يستطيع أن يتصرف فيها سيكون السؤال. لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تــزول قدمــا ابــن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمــره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، ومــاذا عمــل فيمــا علم"(53). ولا حاجة إلى التأكيد بأن العدل الإلهي يقتضي إصــدار الحكم على كل إنسان على ضوء هذه الأعمال، فمن رجح بعقله وكان ميــزانه على جسمه فاز في الآخرة، ومن جاء بجسمه إلى الله متفاخراً بما أكل مــن الطعــام، وعشــق من النساء بالحرام، فإن جسمه سيكون حطباً لجهنم مع الشيطان، لأن الشيطان يجري في الأجسام.

العقل والطبيعة في الوجود

إن الطــبيعة كحــبر لــلفكر، وعجينة بين يدي العقل تقوم بدور الأسباب بــارتداء الــثياب التي يبدعها العقل. والطبيعة كأداة للعقل تقوم بمهمتين لحدوث الإنــتاج. مهمة تكون فيها بدور الفاعل، ومهمة تكون فيها بدور المنفعل. ومن هــذا التناوب بين دور الفعل والانفعال يحدث التوالد والإنتاج. وهذا قانون سائد فــي الطــبيعة لا يــتحقق أي إبداع دونه. ولا تظهر أي صورة، أو تفنى، إلا بــتأثيره. ولكن الطبيعة وحدها بدون عقل يقودها، ويؤثر فيها، ويحكم عليها، لا تســتطيع أن تسير بنظام حتى لو قبلنا بقدرة الطبيعة على الإنتاج بسبب عمليات الــتفاعل غيــر المنــتظم. فــإن إنــتاج الطبيعة في تلك الحالة سيكون خاضعاً للمصادفات التي لا تتكرر إلا نادراً. وإن طبيعة عمياء لا يحكمها نظام ولا عقل لا تســتطيع أن تعطــي النظام الذي نراه في تفاعل عناصر الوجود، في النبات والحيوان والإنسان. كما لا تستطيع أن تكون واهبة للعقول المتجلية بعظمتها في الإنسان. فمن أين سيأتي العقل للإنسان من طبيعة لا تملك العقل. لولا النظام ما وجــدت الســلالات الــتي تنتج دائماً أنواعها بنفس النظام، ولما تكررت حركة الشــمس والقمر والنجوم بنفس النظام. والأنظمة التي تعمل بها الصور الظاهرة فــي الوجــود لا يمكــن إحصــاءها، لأن النظام سائد في الكون من الذرة إلى

المجـــرة. وهـــذا النظام هو الذي جعل عيني الإنسان في وجهه مثلاً ولم يجعلها مــرة فـــي قدميه وأخرى في رأسه. وهو الذي جعل كل نوع من أنواع النبات يثمر بنفس الثمار دائماً بدون تغيير مع إن العناصر المغذية للنبات واحدة دائماً. فمـــا الذي جعل الحلو حلواً والمر مراً، والأحمر أحمراً. لا يمكن أن نعدد أنواع المخـــلوقات بـــدون أن تذهلنا حقيقة الطبيعة التي تتجلى بأشكال مختلفة في كل نـــوع مـــن أنواع بذور النبات، أو سلالات الحيوان، وأخيراً الإنسان. فالأرض والســـماء مشـــرقتان بمليارات البرامج والأنظمة الراسخة التي لا تتغير لحقب طويـــلة. والحياة تكشف في كل لحظة عن مخلوقات لا حصر لها من البعوضة الطائـــرة إلى أكوان لا نعلم ما فيها من ألوان الحياة وأشكالها عبر برنامج منظم لا يـــتغير لحقب طويلة. فمن أين ستأتي الطبيعة لنفسها بنظام إذا كانت عمياء، وإذا كانت تتوالد نتيجة لمصادفات ومؤثرات التفاعل الذي عبرنا عنه بالفعل أو الانفعال. هل يمكن أن تطير بعوضة أو تجري سيارة بمحض الصدفة، وكل ما فـــي الوجـــود يـــتكون مـــن عناصر مادية متحركة بنظام. فإذا كانت عقولنا لا تعـــترف بقـــدرة ســـيارة عـــلى السير بدون إرادة تحركها فكيف سنقبل بحركة الصـــدفة للبعوضـــة أو العصـــفور أو للمادة التي تسير وفق نظام معين في كل ســـلالة مـــن الســـلالات لتظهر بنفس مواصفات السلالة التي تحولت فيها هذا الـــتحول المذهـــل؟. إن أي متأمل لطبيعة أي بذرة مهما صغر حجمها لا بد أن يشعر بأنها عبارة عن مصنع لإنتاج المواصفات التي تحملها السلالة. هذا النظام لا مجـــال لـــلمجادلة في حقيقته وإن نسبه من نسبه إلى الله أو الطبيعة. فالنظام السائد في الطبيعة يدل على إرادة التنظيم الخفية والشاملة للوجود، والسارية في كل موجود حتى لا يشذ في ظهوره بالصدفة عن حقيقته وهويته وتكوينه.

هذه حقيقة أولى غير خافية على أي إنسان عاقل.

الحقيقـــة الـــثانية إن كل مخلوق له برنامجه الخاص أو عقله الخاص الذي يعقـــل به وجوده ويسعى للمحافظة عليه. ولو أننا كشفنا عن جذور شجرة مثلاً سنشـــاهد بأنها تمد جذورها باتجاه الماء، وإذا كان الماء في جهة أكثر من جهة فإننا سنشاهد هذه الجذور أكثر وأقوى ما تكون في جهة الرطوبة. ليجرب أحدنا أن يقتل بعوضة أو أي حشرة مهما صغرت وليراقب كيف ستهرب من الخطر لـــلمحافظة على حياتها كما يفعل الإنسان عندما يواجه خطراً، مما يؤكد لنا بأن لكـــل صـــورة مـــن صور الطبيعة الحية، ما نعرفه وما لا نعرفه نظام أو عقل للمحافظة على بقائها بالصورة التي ظهرت فيها. وهذه الحقيقة من طبيعة نظام

الكائنات الحية، وهي في الإنسان تتجلى بالعقل الذي أبدع وما زال يبدع لحماية الإنســان وإطالة أمد حياته. فمن أين جاء العقل للإنسان إذا كانت الطبيعة خالية من العقل وليس فيها آثاره. وهل يمكن لواهب أن يعطي مما لا يملك، أو يخلق بدون علم بما يخلق؟. إذا كانت الطبيعة تملك العقل الموهوب لكل إنسان فإنه لا شــك بأنها تملك من العقل أضعاف ما يملكه الإنسان وإن خفي هذا العقل على الناس. فالناس لا يعرفون حقيقة الوجود وإن عرفوا بعض مظاهره. ولكن النهر يــدل على النبع، وتغريد العصفور يدل على الواهب الذي أعطى مما لديه حتى غــرد العصفور، وغنت الطيور في الغابة بمئات الألحان، ونطق البشر بأنواع الكلام. فمن هو الواهب الذي لا يدرك إلا بالعقول؟. إن كانت الطبيعة فهذا أيضاً يضــعنا أمام اعتراف بعقلانية الطبيعة، وليس هناك مشكلة إذا قال غير المؤمن بــأن الطــبيعة مالكة للعقل. فالطبيعة بالنسبة إليه هي الله. والله لم يقل إنه ليس الطــبيعة أو إنــه الطبيعة المطلقة التي ترادف الوجود عند المؤمن. فهذه مسألة تحــتاج إلى تفكيــر أكثر عمقاً. ولكن عند هذا الحد نكون قد توصلنا إلى حقيقة العقل السارية في الوجود كما يقول المؤمن وغير المؤمن.

وبمـــا أن العقل شيء والطبيعة شيء آخر غير العقل، فإننا لا نستطيع أن نقــول بأن الطبيعة هي نفسها العقل ولذلك لا بد من التمييز بين الطبيعة والعقل، كمـــا نميز بين المادة والطاقة، وإن كانت الطاقة في حقيقتها ليست إلا تجلٍ من تجــليات المــادة. ولكن الطاقة بما إنها من جنس الطبيعة لا يمكن أن تتصرف بذاتها دون عقل سار فيها.

أي إن العقل في اتصاله بالمادة وكمونه فيها، أو مفارقته لها هو شيء آخر غيــر الطبيعة، وإن سرى فيها سريان الأرواح في الأجساد. ولكن إذا كان لكل كتــلة مادية نظامها أو عقلها المنفصل عن الكتلة الأخرى فكيف سيسود النظام في كون فيه ملايين المجرات والنجوم الطائرة بسرعات هائلة؟. ألا يحتاج مثل هذا الكون إلى عقل يوازيه ليتمكن من إحكام النظام عليه؟. لو أننا تركنا شارعاً مــن مدنــنا يسير فيه السائقون كيفياً مع أن لهم عقولهم، دون إشارات، وبدون شــرطة للسير لقمع المخالفين، ما الذي سيحدث؟. هذا يدعونا إلى القول بأنه لا بد لكل نظام من عقل مواز لحجم النظام. فالشرطي لا يستطيع أن يضبط النظام فــي شــارع طويــل، ولهذا فإننا نضع عند كل تقاطع شرطياً أو إشارة لتنظيم المرور، ووراء هذا النظام منظّم للمدينة كلها حتى لا يختل النظام في أي شارع مــن شوارع المدينة. وبما أن السائقين الذي يسيرون في شوارع المدن من دول

شتى ولغات مختلفة، لهذا ابتدع الإنسان نظاماً عالمياً للسير ليكون شاملاً للكرة الأرضية كلها. والعقل المتجلي من وراء هذا النظام يظهر بصفارة الشرطي، كما يظهر بألوان الإشارات الخضراء والحمراء والصفراء، وآلات التصوير والمخالفات للمخالفين، ودوريات المرور.. وهذا كله يعبر عن حقيقة النظام المفروض، ويكشف عن العقل المبدع للنظام. ولو فُقد المنظِّم لسادت الفوضى. وحيث لا يوجد فوضى فالمنظم موجود. ولو اختلف النظام بين مدينة وأخرى ستحدث الفوضى أيضاً. فالنظام الموحد لا بد منه للأرض، هذا على مستوى السير. وأين الأرض من الكون؟. فهل يمكن لهذا الكون الذي لا يمكن أن نتصور حجمه حتى بالخيال أن يكون غير خاضع لنظام واحد لينظم سيره وعمله؟. هل يمكن أن يكون لكل مجرة نظامها المنفصل عن النظام الشامل للكون؟. ثم أين هذا العقل الذي لا يشهد إلا بالأثر، ولا يعرف بالنظر. هل يمكن أن يكون جزءاً من تكوين الطبيعة وحقيقتها، وهو مثلها، أم إنه يفترض أن يكون متعالياً عليها ومتحكماً فيها لتصح له السيادة والتأثير؟. لا نريد أن نجادل في مكان هذا العقل، لأن المهم هو أن نعترف بأنه لا بد للكون من عقل يوازيه. عقل قادر على التحكم فيه. عقل مسيطر على الطبيعة، لم تخلقه الطبيعة لأن الطبيعة لا تخلق ما ليس فيها، ولا تخلق عن وعي ما يحكمها. ولو كانت الطبيعة تعي ذاتها بذاتها أو تخلق لخلقت كل طبيعة إلهها، وعند ذلك سيذهب كل إله بما خلق. أو إن كل طبيعة ستقضي على إلهها الخاص كلما أرادت ذلك ما دامت الطبيعة متنوعة، على عكس العقل الذي يمتاز بالتجانس. ألا تدلنا هذه الحقائق بأن إله الطبيعة والأكوان كلها هو إله واحد، أو إن المسير لها والحاكم عليها هو عقل واحد. وهذا العقل لا يمكن أن يكون من خارج الطبيعة، لأن كل ما هو خارج الطبيعة عدم. والعدم ليس له أي وجود، أو قدرة على خلق نفسه، فكيف سيخلق غيره، أو سيؤثر في غيره. فما هي حقيقة العقل؟ هل هو من ماهية خاصة لا يمكن وصفها إلا بآثاره؟. لو حاولنا أن نحدد ماهية العقل الإنساني، وهو عقل مستمد من العقل الإلهي لن نستطيع، فكيف بعقل الوجود المطلق للطبيعة المطلقة.

فالعقل هو النور الذي نبدع به ونبصر فيه الوجود وهذا العقل لا يظهر إلا مع نمو أجسامنا، وإن كان في حالة كمون في عالم البذرة التي نشأنا منها. ولو تأملنا عقلنا ورغبنا في أن يكون عقلنا الكبير بعد سنوات النضج هو نفس عقلنا ونحن في رحم الأم، فهل سيطيق هذا العقل الجلوس في رحم الأم تسعة أشهر دون أن يموت من الحزن.

لهذا كان عقلنا في نموه يتناسب مع أوضاعنا وأحوالنا ونمو أجسامنا. ولو أن الطفـل الصـغير حمل هموم الكبار، ربما ستقتله الأحزان قبل أن يبلغ سن النضـج. لهذا فإننا نلاحظ أن عقولنا في تغير وتطور يتناسب مع نمو أجسامنا لحكمـة غيـر خافية على أي متأمل، ولعلاقة سببية بين النمو الجسماني والنمو العقـلي، أو بين طول الأعمار ونضج العقول، لأن وزن الأجسام لا يفعل فعله كمـا يفعـل مـرور الليل والنهار في إنضاج العقول. فنحن أمام حقائق سببية مترابطة تدل على علاقة بين نمو الجسم والعقل، ثم انحدار الإنسان لكي لا يعلم بعـد علم شيئاً، مع انهيار الجسم وتعرضه للعلل والأمراض ثم الموت. فالعقل كمـا نشـاهد يتأثر بالجسم أو الطبيعة زيادة ونقصاناً وهذه حقيقة. مما يعني أنه بزوال الطبيعة الجسمانية للإنسان أو نقصها يزول العقل أو يتأثر. ولو قسنا هذه الحقيقة على العقل المطلق للطبيعة فإنها ستقودنا إلى القول بأن زيادة الطبيعة أو نقصانها سيؤثر أيضاً في العقل المطلق للطبيعة. ولكن كما رأينا فإن الطبيعة لا تزيد ولا تنقص ولا يفنى منها شيء وإن كانت عناصر الطبيعة في تغير مستمر من حيث الظهور بالصور، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأن العقل المطلق الساري في الأكوان لا يزيد ولا ينقص من الأزل إلى الأبد تبعاً لخلود الطبيعة التي هي فـي جوهـرها الحيـز الحامل للعقل الذي هو في كل مكان، وليس له مكان. والمكـان لا يمكـن تصوره أو وجوده إلا في الطبيعة. وعقل الإنسان ربما هو الدليل على إحاطة العقل للجسم واستحالة تحديد مكانه، وإن كان الرأس هو الذي يحمـل أكثر ما في الجسم من أدوات التنبيه التي نعقل بها بعض الأمور. ولكن العقل كما نعرف غير الأعصاب والدماغ والسمع والبصر وغيرها من الحواس. إنـه بانفصاله عن الجسم وظهوره به يبدو مثل المصباح الكهربائي الذي يتغذى بالـنور مـن مركـز الطاقـة، ولكن النور لا يظهر دون المصباح والتمديدات الكهـربائية المعـروفة. فالجسـم الإنساني هو أداة لإظهار نور العقل. كما إن الطـبيعة أداة لا بـد مـنها لظهـور العقـل الكـلي ليس في ماهيته المشهودة والمجهولـة، بـل بإبداعـه أيضاً. فإبداع العقل لا يظهر دون مادة يظهر فيها، وأشـكال ظهـور إبـداع العقـل في الطبيعة يظهر بالنسبة للإنسان بما يوازي المعقـول والمحسـوس المتبلور في الحواس. فالطبيعة تشهد بالسمع، والبصر، والشم، والتذوق، واللمس. والعقل يحيل كل ما يشهده بالحواس إلى علوم وأفكار أو شـهادات يـنطق بهـا اللسان في محكمة الوجود، كأن الحواس هي مصباح العقـل الـتي تضيء ساحة الطبيعة. والعقل بتجرده وسموه يحيل الطبيعة إلى رمـوز ومعـان ومفاهيم وحكمة، فيبدع فيها وبها ويضيف إليها ما ليس فيها،

مســتخدماً قانون الأسباب، وقابلية العناصر للفعل والانفعال، عن طريق الذكر والأنــثى، إذا اعتــبرنا علاقات الطبيعة خاضعة لهذا المفهوم الجدلي في عملية الخلق والإبداع لحدوث الإنتاج، على اعتبار أن كل فاعل هو ذكر، وكل منفعل هــو أنــثى، ولا بــد من اللقاء بين الذكر والأنثى لحصول كل ولادة جديدة في الوجود.

وقــد تحــدث القرآن عن هذه الحقيقة "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكــرون"(1) فهذه أسباب فاعلة في الطبيعة بحكمة الله وقدرته، وإن كان الخلق الإلهــي لا يتوقف على هذه الأسباب. ولهذا خلق الله آدم وحواء وعيسى عليهم الســلام بأســباب غير الأسباب التي نعرفها لكي لا نظن أن الخلق مرهون بما اعــتدنا شــهوده. ولكنــنا نــتحدث عن النظام الساري في الوجود كما نراه في الــزوجية. وقــد أشار الشيخ محيي الدين بن عربي إلى طبيعة هذا النظام فقال: "إنــه لمــا كان المقصود من هذا العالم الإنسان، وهو الإمام، لذلك أضفنا الآباء والأمهــات إليــه فقلنا: آباؤنا العلويات وأمهاتنا السفليات. فكل مؤثر أب، وكل مؤثر فيه أم.. والمتولد بينهما، من ذلك الأثر، يسمى ابناً ومولداً. وكذلك المعاني فــي إنتاج العلوم، إنما هما بمقدمتين تنكح إحداهما الأخرى بالمفرد الواحد الذي يــتكرر فيهمــا، وهو الرابط وهذا هو النكاح (المعنوي). والنتيجة التي تصدر بيــنهما هــي المطــلوبة فــالأرواح كــلها آبــاء، والطبيعة أم لما كانت محل الاســتحالات. وبتوجه هذه الأرواح على هذه الأركان، التي هي العناصر القابلة للــتغير والاســتحالة، تظهــر فيهــا المولدات وهي المعادن والنبات والحيوان والجان، والإنسان أكملها".(2).

وأضـــاف الشــيخ في توضيح المسألة فقال: "إن العقل الأول الذي هو أول مــبدع خــلق، هو القلم الأعلى، ولم يكن ثم محدث سواه، وكان مؤثراً فيه بما أحــدث الله فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه، كانبعاث حواء من آدم في عالم الأجــرام، ليكون ذلك اللوح موضعاً ومحلاً لما يكتب ذلك القلم الأعلى الإلهي، وتخطيــط الحروف للدلالة على ما جعلها الحق -تعالى- أدلة عليه. فكان اللوح المحفوظ أول موجود انبعاثي. وقد ورد في الشرع: "إن أول ما خلق الله القلم ثم الــلوح. وقــال للقلم: أكتب! قال القلم: و ما أكتب؟. قال الله له: أكتب وأنا أملي عليك. فخط القلم في اللوح ما يملي عليه الحق، وهو علمه في خلقه الذي يخلق، إلى يوم القيامة".

"فكان بين القلم واللوح نكاح معنوي معقول، وأثر حسي مشهود.. ومن هنا

كان العمل بالحروف عندنا –وكان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الدافق الحاصل في رحم الأنثى. وما ظهر من تلك الكتابة، من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرمية، (هو) بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم"(3).

وقد ضرب الشيخ محي الدين أمثلة لهذا التناسل والتوالد السائد في الأركان والعناصر فقال: "وقد جعل الله هذا الزمان، الذي هو الليل والنهار، يوماً، والزمان هو اليوم.. والليل والنهار موجودان في الزمان، جعلهما أباً وأماً لما يحدث الله فيهما، كما قال: "يغشى الليل النهار" –كمثل قوله في آدم: "فلما تغشاها حملت".

فإذا غشي الليل النهار، كان الليل أباً وكان النهار أماً، وصار كل ما يحدث الله في النهار بمنزلة الأولاد التي تلد المرأة. وإذا غشي النهار الليل، كان النهار أباً وكان الليل أماً، وكان ما يحدث الله من الشؤون في الليل بمنزلة الأولاد التي تلد الأم"(4).

"وكذلك قال تعالى: "يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل"... فهذا الليل والنهار أبوان بوجه، وأمان بوجه، وما يحدث الله فيهما في عالم الأركان من المولدات، عند تصريفهما، يسمونه أولاد الليل والنهار"(5).

وعن الأسباب وأثرها قال الشيخ "قال تعالى: "أن أشكر لي ولوالديك".. فقد تبين لك أيها الولي!

آباؤك وأمهاتك من هم؟. إلى أقرب أب لك وهو الذي ظهر عينك به، وأمك كذلك القريبة إليك، إلى الأب الأول، وهو الجد الأعلى، إلى ما بينهما من الآباء والأمهات.. فإنه –تعالى– قال: "أن أشكر لي –فقدم نفسه، ليعرفك أنه السبب الأول والأولى، ثم عطف وقال: "ولوالديك"– وهي الأسباب التي أوجدك الله عندها (لابها).

لتنسبها إليه سبحانه. ويكون لها عليك فضل التقدم بالوجود خاصة، لا فضل التأثير، لأنه في الحقيقة لا أثر لها، وإن كانت أسباباً لوجود الآثار (عنها، أو عندها). فبهذا القدر صح لها الفضل، وطلب منك الشكر لها، وأنزلها الحق، لك وعندك، منزلته في التقدم عليك، لا في الأثر، ليكون الثناء بالتقدم والتأثير لله –تعالى– وبالتقدم والتوقف للوالدين، ولكن على ما شرطناه. (فلا تشرك بعبادة ربك أحداً)".(6) وضرب الشيخ محيي الدين مثالاً لما يجري في الحياة فقال: "إن النجار المهندس، إذا كان عالماً ولا يحسن العمل، فيلقي ما عنده على سمع من يحسن عمل النجارة... فالمهندس أب، والصانع، الذي هو النجار، أم"(7).

ثم إن عمل النجار في الخشب هو بمنزلة الأب لإخراج الصورة المطلوبة. فكل مولود لا يظهر إلا عن مقدمتين. ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة لأمته حـبب الله إليه النساء، فأحبهن طاعة لله. ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم "كـان مـنقطعاً إلى ربه، لا ينظر معه إلى الأكوان، لشغله بالله عنه، فإن النبي مشـغول بالتلقي من الله ومراعاة الأدب، فلا يتفرغ إلى شيء من دونه. "فحبب إليه النساء" فأحبهن، عناية من الله بهن. فكان صلى الله عليه وسلم يحبهن بكون الله حبـبهن إليـه... وكان من سنته النكاح لا التبتل. وجعل النكاح عبادة للسر الإلهـي الذي أودع فيه، وليس (هذا السر) إلا في النساء. وذلك ظهور الأعيان للثلاثة الأحكام، التي تقدم ذكرها: في الإنتاج عن المقدمتين، والرابط الذي جعله علة الإنتاج"(8).

سـنجد صدى لهذه الأفكار في الفلسفات الحديثة، وخاصة لدى هيجل الذي صـاغ من مفهوم التناقض في الوجود منهجه الديالكتيكي، ليتوصل إلى القانون الشـامل لـلوجود حسـب رأيه، وخلاصته "إن نمو أو تطور الفكر يجري من الوضـع إلى السـلب، إلى الـتأليف بيـنهما، أي على أساس هذا الثلاثي. من موضوع، إلى نقيضه، ثم إلى المؤلف من كليهما أي مركب الموضوع.. وعلى هذا فالديالكتيك يمكن أن يكون نمواً وتقدماً باطنياً محايثاً، وعلى هذا فالديالكتيك ليس نشاطاً ذاتياً لفكرة خارجية، بل هو عينه روح المحتوى الذي ينتج عضوياً فروعه وثماره. إنه الفكرة التي تنمو بفضل نشاط عقلها الخالص، والفكر الذاتي لا يفعـل أكـثر مـن أن يشـاهد هذا التطور دون أن يساهم بشيء من جانبه، والتعينات في تطور الصور هي من ناحية تصورات، ومن ناحية أخرى ما دام التصـور هو في جوهر الفكرة فإن هذه التعينات لها أيضاً شكل الوجود العيني في الحقيقة الواقعية"(9). وكمثال على تأثير قانون الديالكتيك في الوجود استنتج هيغل بأن "في كل شيء مزيج من اللا وجود والوجود. فالزهرة لو كانت زهرة فحسـب لظلت إلى الأبد ولكنها تنكر ذاتها وتدحض نفسها، وذلك بأن تذبل كي تصبح ثمرة، وهكذا كل موجود يحوي في داخله اللا وجود الذي بفضله يتطور وينمو، فلو لم يوجد نفي وسلب في الوجود لما حدث تطور ونمو. وهذا يخضع للمبدأ الأساسي عند هيجل وهو أن "الوجود يحتوي في داخله على الوجود واللا وجـود في وقت واحد معاً، أي أن التناقض طبع الوجود، وكل مقولات الوجود تنمو من الصيرورة.. وعلى هذا فإن الشيء لا يكون حياً إلا بمقدار ما يتضمنه مـن تـناقض"(10). لقد رأى هيغل إن التطور الحاصل نتيجة هذا الصراع هو تطـور لـلعقل في الروح. أي إنه تطور للأعلى الذي يتجلى في الإنسان الذي

يمضي في تاريخه لتحقيق أو تجسيد إرادة الروح المطلقة في الكون. وما يهمنا فـــي فلسفة هيجل هو القانون الذي رآه لكل تطور. الصورة التي تحمل بداخلها نقيضها، الفناء، ومن ثم ولادة الصورة الجديدة. فالإنتاج لا يحدث إلا من تلاقي صورتين من صور الطبيعة أو عنصرين وتفاعلهما لظهور صورة جديدة. وإذا كـــان هيغـــل قد وصف هذا اللقاء بالصراع والتناقض أو وجود اللا وجود في ماهيـــة كـــل صـــورة، كـــنقيض لوجودها الآني. فإن هيجل يكون قد التقى مع إشـــارات ابـــن عـــربي في هذا الموضوع، وإن كان ابن عربي قد سمى عملية الخـــلق بالـــتزاوج أو "النكاح الساري في كل الذراري" وعزاه إلى الحب، بينما ســـماه هيجـــل الديالكـــتيك وعـــزاه إلى الصراع والتناقض. وفي اعتقادي أن الاخـــتلاف نجم عن رؤية ابن عربي لبداية الأسباب ومقدمات عملية التطور في المخـــلوقات، بيـــنما بدأ هيجل من المرحلة الثانية، أي مرحلة المخاض والولادة للانتقال إلى الطور الجديد، بينما أهمل المرحلة الأولى التي هي مرحلة التفاعل بيـــن الفـــاعل والمنفعل لحدوث الانتقال إلى المرحلة الثانية. وكأن هيجل صاغ قانونـــه بـــدءاً مـــن المقدمة الصغرى في المنطق، بينما صاغه ابن عربي من المقدمـــة الكـــبرى. وكلاهمـــا توصل إلى نفس النتيجة بالاتفاق على أن كل ما يجـــري فـــي الوجـــود ما هو إلا تجسيد لإرادة الروح المطلقة في الطبيعة لأن "الفكرة المنطقية والطبيعة هما شرطان لتحقق الروح.

ويجـــب أن نفهم الروح عند هيجل بأنها العقل في قمة فاعليته –الفكرة تبلغ أوج نموهـــا في الروح، وفي الروح تتعين الفكرة إلى أقصى درجة وتصل حقاً إلى واقعهـــا وواقعيـــتها العقلية. فالفكرة المنطقية والطبيعة هما شرطان لتحقق الـــروح"(11) ومن المفيد أن نعرف، بأن هيجل كما يقول الدكتور عبد الرحمن بـــدوي: "قـــد تأثـــر بالفيلسوف الصوفي ذا النزعة الكشفية فرانتس بادر وشرح بعـــض مؤلفاتـــه، واهـــتم تبعاً لهذا التأثير بدارسة كبار الصوفية الألمان وعلى رأســـهم إكهـــارت"(12). كما أثر عليه من قبل صديقه الشاعر الألماني هيلدرن "الـــذي كان شديد الحماسة لتمجيد الطبيعة والنظر إليها على أنها قبل كل شيء، كل حي. وقد عبر هيجل عن هذه الروح الجديدة في قصيدة له تعد خير ما كتب مـــن قصائد على قلة ما نظم، وقد أهداها إلى هيلدرن سنة 1796 وعنوانها من حولي وفي داخل نفسي سلام–"(13). ولهذا "مجد الواحدية أو وحدة الوجود في مواضـــع عديـــدة مـــن كتبه، وبخاصة في رسالته عن براهين وجود الله، فمجد الواحد، ومجد النظرة الشرقية لأنها مجدث الواحد وردت إليه كل شيء"(14).

وهذا يدل أيضاً على إطلاع هيجل على الفكر الصوفي الشرقي والاستفادة منه لتكوين رؤيته المعاصرة للطبيعة كمظهر أو ثوب لفكرة العقل "الطبيعة عند هيجـل هي الصورة على شكل غيرية بمعنى أنها الفكرة عندما تخرج عن ذاتها وتـتخارج من أجل أن تصل إلى إنتاج الحياة الواعية ومن ثم إلى أن تدخل في نفســها وتستبطن في فكرة الإنسان. ولهذا فإن صيرورة الطبيعة في صعود نحو الروح"(15). لأن "الفكرة هي المطلق، والفكرة" تشابه "الصورة" عند أفلاطون، وهــي الــتي بالمشاركة فيها تتكون فيها جميع المحسوسات. بيد أن ثمة تفرقة كــبيرة بيــن "الفكــرة" عند هيجل وبين "الصورة" عند أفلاطون، لأن الصورة الأفلاطونية عالية. ومذهب أفلاطون ثنائي يقول بالثنائية بين العقل والمادة، بين العــالم المعقول والمحسوس.. أما هيجل -عنده أن المطلق هو الذات الكلية التي تنــتظم كــل شــيء. وكل الأشياء ليست إلا تطوراً ونمواً ديالكتيكياً عن الفكرة الأصلية. وهذه الذات الكلية هي عينها "الفكرة" أو "التصور" عند هيجل"(16).

هــذه النظرية الهيجلية سيقلب ماركس معطياتها فيما بعد لاستنتاج نظرية الصــراع الطبقي وسقوط الرأسمالية، بعد إستبعاد تأثير العقل، وإحلال الطبيعة مكــان الله. مع اختلاف النتائج التي توصل إليها كلاهما من نفس القانون فهيجل رأى الله والإيمــان. ومــاركس رأى الطبيعة والإلحاد، وما رآه كل منهما ليس جديــداً فــي تــاريخ الفلسفة. فهذه أحكام يمليها العقل لا المشاهدات لأن جميع الفلاســفة شاهدوا نفس الحقائق ولكنهم اختلفوا في معرفة ما شاهدوا. فمنهم من رأى الطبيعة حبراً للكلمة "العقل" وعجيناً لسبك إبداعه، ومنهم من شاهد الطبيعة هــي الــناطقة بــالكلام بالصــدفة، أو بنظام من إبداعها. ولم ينظر إلى تكوينه الإنساني ليعرف ربه. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "من عرف نفسه عــرف ربه". فالإنسان صورة العرفان الإلهي في الإمكان الطيني. وفي تكوين الإنســان، وصــور الطــبيعة عبر لأولي الألباب. ومن الطريف أن نذكر بأن "الكنيسة الإنجيلية- قالت عن هيجل- في قرار خاص أصدرته سنة 1832، إنه خطر على الدين"(17). وبذلك ختمت حياة أعظم فيلسوف ألماني بالاتهام، ومنع إلقــاء أي تــأبين عــلى ضــريحه. بينما شقت الماركسية طريقها إلى النجاح باســتثمارها آلام الــناس وجوعهم بعد أن فُقدت الرحمة وانتشر الضلال. ومن الملفت للنظر أن يقوم ديفيد شتراوس أحد تلاميذ هيغل بوصف الوجود بالشجرة الواحــدة "المطلق يعكس ذاته منذ الأزل في أرواح متناهية مختلفة، فهو أشبه ما يكــون بشــجرة هائلة تحتوي باستمرار على براعم وأزهار، وثمار، رغم إنها ليست سوى موجود واحد"(18). وهذا الوصف رغم اختلافات في التفاصيل هو

عـــنوان كـــتاب للشـــيخ محي الدين بن عربي باسم "شجرة الكون" قال فيه "إني نظـــرت إلى الكـــون وتكويـــنه، وإلى المكـــنون وتدويـــنه، فرأيت الكون كله شـــجرة، وأصـــل نورها من حبة "كن" قد لقحت كاف الكونية، بلقاح حبة -نحن خلقناكم-"(19).

ورأى الشـــيخ أن الغاية من إبداع الشجرة هو ظهور الثمرة التي هي روح سـيدنا محمـــد صلى الله عليه وسلم لمعرفة الله، والأرواح السائرة على نهجه، والمستمدة من أنواره. وهي بمعنى أشمل روح الحقيقة الإنسانية المتجلية بكمال المعرفة المحمدية، السارية في العقول، والمتميزة بالصور منذ خلق أبينا آدم من امـــتزاج الكـــلمة بالطبيعة، وظهور الموجد بالوجود بظهور كمال ثمرة التوحيد التي جاءت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم بما أظهر من آيات العرفان بشـــكل لم يُسبق إليه، ليكون مسك الختام في كمالات العقول والأبدان. وكما قال الشـــيخ رضي الله عنه "لم تكن الشجرة مرادة لذاتها، وإنما كانت مرادة لثمرتها، فهي محمية محروسة لاجتناء ثمرتها، واستجلاء زهرتها"(20). فالرسول صلى الله عـــليه وسلم "مراد الإرادة، مقصود المشيئة. فالكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، وأنت مختار الكون"(21).

وقـــد اســـتنتج الشيخ محي الدين هذا الكلام من أحاديث كثيرة منها حديث "كـــنت كنزاً مخفياً" وحديث "لما خلق الله العقل" وحديث الترمذي عن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم "أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنـــا مبشـــرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخـــر"(22). وهذه حقائق مفهومة لأهل المعرفة من قول الله للرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". والرحمة الكاملة لا يمكـــن الوصـــول إليها إلا بالمعرفة الكاملة وهي شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي جعلها الله ختام الرسالات وكمالها فقال الله عنها **﴿اليوم أكملت لكـــم ديـــنكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**(23). ومن الطـــبيعي أن يعطي الله الرسالة الكاملة للكامل، ليكون الحامل للرسالة أهلاً لما يحمـــل. وهـــذا واضح لكل مدقق في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله.

ومـــع ذلك ورغم التوضيحات والشروح التي امتلأ بها تاريخ الإنسانية عن العقـــل، فإنـــنا أمام حقيقة العقل المذهلة والملتبسة لا يمكن إلا أن تملكنا الحيرة. فإذا كنا قد استطعنا أن نفهم علاقات الطبيعة بالعقل المطلق فإنه لا بد أن تملكنا

الحيـرة كـلما حاولنا فهم الترابط بين العقل الإنساني والجسم. فإذا كان الجسم الإنسـاني سيفنى فأين سيذهب العقل الإنساني، وهل سيبقى أم إنه سينفصل مع انفصـال الروح ليعود إلى رحاب العقل المطلق، أم إن هذا العقل بتحول الجسم إلى صـورة جديدة سيتبعثر إلى عقول، أو أنظمة جديدة تدور في أفلاك الوجود بتحلـله إلى عناصـره الأصـلية. أم إن الجسم سيتحول إلى صورة جديدة من الطاقة والشفافية والترابط لا نعرفها إلا من خلال منطق الإيمان في عالم ما بعد الموت؟.

فما هي الحقيقة المقابلة لهذه الأسئلة التي يسألها كل إنسان؟.

إن الأجوبة الشافية لعالم ما بعد الموت لا يمكن أن نصل إليها بشكل يقيني إلا بالإيمـان بما جاء به الرسل. وهذا الغموض لو نظرنا إليه في حقيقته لا بد مـنه للامـتحان لأن الإنسـان لو عرف كل الحقائق عن الوجود وعالم ما بعد الموت، وشهد ما جاء به الدين عياناً، سيكون كل إنسان قد عرف النتيجة سلفاً، ممـا يـلغي الفائدة من حرية الاختيار والامتحان. ولكننا إزاء هذه الأسئلة التي طرحناها نستطيع أن نملك بعض الدلالات بالعقل.

فقـد تحقـق لنا أن الطبيعة غير مفارقة للعقل، والعقل غير مفارق لها منذ الأزل، وبمـا أن الطـبيعة لا تـزيد ولا تنقص ولا تفنى، فإن العقل المقابل لها والسـاري فيهـا لا يـزيد ولا ينقص من حيث الإمكانيات والقدرات كما إنه لا يفنى. وإذا كنا قد قسمنا الكون إلى ماهيتين متكاملتين، عقل وطبيعة، فإن هاتين الحقيقـتين همـا اللـتان تشكلان الوجود، وترفدانه بالخلق الدائم ومنه الإنسان، بـإحداث العقـل للأسـباب كفاعل في الطبيعة المنفعلة، وبحسب قابلية الطبيعة لإظهار الإبداع.

وهـذه القابـلية التي قصدناها هي النظام المقدر لظهور صور الوجود في الطـبيعة، على أساس أن كل صورة فيها عقلانية العقل، لتعقل وتبدع، وتركيب الطـبيعة، لـتظهر. والقابـلية، هي مثلاً الصوت الجميل لا يمكن أن يظهر في المـرئيات، وإنمـا في المسموعات، كما أن الصورة المبدعة لا تتجسد إلا في الطبيعة أو اللوحة لتشهد بالعين.

وهـذا مـن بديهيـات النظام في الوجود. ولو أردنا أن نحول الصوت أو الـرائحة إلى لوحـة تشاهد بالعين لما استطعنا، لأن الطبيعة لا تعطي مثل هذه القابـلية. والطبيعة في جوهرها مجموعة من الممكنات، والله، أو العقل المطلق حسـب تعبير الفلاسفة، يبدع في هذه القابليات/الممكنة حقائق الوجود، ومن هذا

الباب قال الإمام الغزالي "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وإذا كان قد لامه النقاد فلأننا لا نعرف كل الحقائق عن الطبيعة حتى في مجموعتنا لنعتقد بأن الإمكان قد ظهر كله في مجموعتنا، فما بالك في المجموعات الكونية البعيدة عنا. ومع ذلك فإن الغزالي رضي الله عنه، لا يمكن أن يكون قد قال ما قال وهو غير مدرك لتنوع الإبداع الإلهي في الأكوان. ولكنه قال هذا الكلام من باب قابليات الطبيعة كما أوضحنا. وما نتوصل إليه كلما تأملنا حقائق الوجود هو التأكد من حقيقة العقل المبدع الذي لا نراه إلا بالإبداع هذا من جهة، والطبيعة القابلة للخلق كما أوضحنا من جهة ثانية. فالوجود هو المجال الذي تلتقي فيه المادة أو الطبيعة بالعقل لإظهار الصور والأنواع، والإبداع الذي ترتدي فيه الطبيعة ثوب الطين وصورة الإنسان، أو الحيوان، أو النبات، لتتحول إلى أسماء، مستمدة من طاقة نبع الذات الإلهية الفياض ما كان وما سيكون، وصفات الأسماء. فباجتماع الطبيعة مع العقل يظهر الوجود، بإرادة واهب الصور نفحة الحياة وإرادة الظهور. ولهذا قبل ظهور الصور، وتوحد الطبيعة مع العقل "كان الله ولم يكن معه شيء غيره، وكان عرشه على الماء. وكتب في الذكر كل شيء هو كائن، وخلق السماوات والأرض"(24). كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم. وذلك قبل "الفتق" وقبل الصور والأشكال عندما كانت السماوات والأرض متصلة ومتحدة في كتلة واحدة، وصورة واحدة. ثم أحدث الفتق، كما يأخذ أحدنا الطين ويصنع منه اللبن لبناء بيت. **﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾**(25). ما أوضح هذه الإشارة لحكمة الله من "فتق" السماء عن الأرض بعد أن كانتا كتلة واحدة. مما يشير أيضاً إلى تجانس الأكوان. وذلك لكي يبث صور الحياة في الطبيعة الميتة ليعرف العقل بإبداعه والمخلوقات، بصورها، وتظهر الطبيعة بما فيها من القابليات بالصور والألوان. وقد أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل "أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض.

فقال: كان في عماء، تحته هواء وفوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء"(26). وجاء في رواية أنه قال "كان في عماً" بالقصر، ومعناه ليس معه شيء"(27). والروايتان متشابهتان من حيث المعنى. فالعماء كما فسرها المفسرون "السحاب" والسحاب هو المرحلة التي تسبق سقوط المطر. وبما أن العرش هو الكرسي الذي يجلس عليه الملك.

والمـــلك لا يظهـــر إلا بمالك ومملوك أو ملك ورعية تابعة للملك. لهذا كان "خـــلق العرش على الماء" وليس على السحاب أو التراب، لأن المخلوقات بحسب قابـــلية الطبيعة وإرادة الله، لا تظهر إلا بالماء الذي هو أصل حياة الأحياء. ولهذا كان عرش الله على الماء حيث ستظهر الرعية وتولد. فالماء هو عاصمة المملكة، لأنـــه عاصمة الطبيعة بلغتنا المعاصرة، ومنه سيصدر الحكم إلى عناصر الطبيعة بسقيها بالماء في كل أنحاء المملكة، ليظهر التكوين بالصلصال، ويعرف الله. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الفتق، وقبل ظهور الحياة في مملكة الطبيعة المـــروية بالمـــاء "كان في عماء" أو "عما" أي كان مجهولاً، لأنه لم يخلق الخلق، ولهذا خلقهم عندما أراد الظهور. وقد جاء في الحديث "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني"(28).

ولهـــذا خـــلق الله المملكة التي نراها لتدل على المالك. فأمدها من صفات أســـمائه الحســـنى بالجمـــال والجلال، حتى تظهر حقيقة الوجود ببهاء الأسماء وأنوار العقول، بالتقاء الكلام مع الأجسام، لظهور الجلال، والجمال، والرحمة، والجـــود، والفيـــض الممدود بالتزاوج بين الذكور والإناث، لولادة كل جديد من الحـــب، لهـــذا يحـــب الآبـــاء الأولاد لأنهم من ثمار الحب خرجوا. والله أرحم بالجميع من الآباء والأمهات، لأن الجميع من اسمه الكريم ظهروا. ولكن الأذن ليســـت كـــالعين، والجـــلد ليـــس كاليدين، والقلب ليس كالقدمين. لهذا أحب الله الإنســـان لأنه في الوجود، القلب الذي وسع الرب بالمعرفة، ولم تسعه السموات والأرض، ولكـــن الجـــاحد الذي أوصد قلبه عن المعرفة، وضاق قلبه عن حب الخـــالق الذي خلقه، مع إدراكه بأنه مخلوق. يمهله الله بالتوبة حتى يفيق بعقله، أو بالرسل على حقائق الوجود برؤيته للمبدع من خلف كل إبداع. فالعاقل يؤمن بالدليل والبرهان بأن العقل الذي صنع الإنسان وصور الأكوان، قادر على صنع نفس هذا الإنسان من جديد. وهذا دليلنا العقلي إلى حقيقة الامتحان والحساب بعد المـــوت. وإن كـــان لا موت إلا من حيث فهمنا للحياة، وإدراكنا لها في مظاهر الأحيـــاء وصفاتهم. وإن مظاهر الإعجاز الإلهي في أبسط المخلوقات تدلنا على عـــناية الله بالإنسان، وتسخير الطبيعة له. وقد أشرنا إلى وصف الرسول صلى الله عـــليه وسلم للأرض بأنها أم. لأنها الواهبة لأبناء آدم، الجسم والغذاء. وإننا بـــالعقل نشاهد حقيقة تسخير كل نبات الأرض ودوابها للإنسان، باستخدامه لها لـــلغذاء أو اللباس، أو لشهود الجمال وتذوقه وتأمله في صور الأكوان، لإدراك مبدع الصور، ومبدع الإنسان. وإذا نظرنا إلى بعض المسائل البسيطة ستكشف لـــنا عن سر عناية الله بالإنسان. فإننا نشاهد قبل أن تصنع السيارات التي تنقل

المـــواد الغذائية والحاجات الإنسانية بين أصقاع الأرض، نشاهد في كل منطقة نوعاً من المزروعات التي لا تنجح إلا في هذه المنطقة. وإذا نظرنا إلى الأرض وما ينمو فيها من النباتات والأشجار بحسب المناطق المناخية فإننا سنشاهد أمراً عجيـباً، بل إن تنوع خضار الفصول وفاكهتها هما أمران يدعوان إلى العجب، فحيـث توجـد الصحراء والحرارة تصلح الأرض لزراعة النخيل، وهو غذاء كـامل للإنســان ويصلح للحفظ بدون تلف طوال العام. بينما حيث يسود الجو المعتدل تصلح زراعة الزيتون والتين والعنب والقمح وهما أغذية مناسبة لجسم الإنسان ويمكن حفظها، بينما لا يصلح البطيخ إلا لفصل الصيف وهو مفيد لهذا الفصــل ولا يفيد في غيره من الفصول. وفي فصل الشتاء حيث يحتاج الإنسان لفيــتامين س الموجود في الحمضيات والملفوف تثمر هذه الثمار في هذا الفصل من العام. وكأنها تقول للإنسان، أنا الغذاء المناسب لك في هذا الفصل من العام. وقــس عــلى ذلــك هذا الخلق البديع الذي رتبه الخالق بنظام ومعرفة لمصلحة الإنســان ليكــون لـــه غذاء ودواء في كل فصل من الفصول. مما يدعونا إلى الاستنتاج بأن ما يصلح لفصل من الفصول كغذاء، لا يصلح لكل الفصول، وإن حفظ بالثلاجات. لأن الخالق المبدع الذي سبقت عنايته بالإنسان، لم يخلق فاكهة وثمــار الصــيف التي لا تصلح إلا بالحفظ، للشتاء. بينما جعل القمح والشعير والأرز والــذرة والعدس وأنواع البقول يابسة لكي تكون غذاء للإنسان، وحتى لحيواناتــه لكــل الفصول، لأنه بحاجة إلى هذا الغذاء على الدوام. ولكن أحكام العباد التي بها يحكمون، ليست من أحكام الكمال، بل من أحكام الرفاهية التي لا تــنفع العباد. ألا يدل توزيع الثمار في الأرض على حكمة مالك الملك للإنسان. بــل ألا يدل هذا النظام على أن الإنسان الذي لم يتركه الله للصدف سيسأل عما فعــل بهــذه الــنعم. ولمــن يقــول إن ثمة عبث، لينظر ويتأمل هل من عبث **﴿أفحســبتم أنمـــا خلقـــناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون﴾**(29). و **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**(30). من رحم الأرض الأم سنعود كما خلقنا منها بإرادة الله ومشيئته.

وقــد قـــال الرســـول صلى الله عليه وسلم في إشارة إلى استمرار وجود الإنســـان بعد الموت "ليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنــب ومنه يركب الخلق يوم القيامة"(31). وقال "ما بين النفختين أربعون، ثم يـــنزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة"(32).

وقـد أشـرنا فـي غير هذا الفصل إلى طبيعة النفخ لقيام القيامة ومن ثم لسـريان الهـواء فـي الأجسـاد والقيام للحساب. وأشرنا إلى أن "الصور" من الصور. وهو الذي به تعود الصور الإنسانية إلى صورها كما كانت.

فأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كلهاً إشارات صادقة عن معرفة لما سـيحدث بعـد الموت. ومن سار على طريق الرسل وصل، ليشهد الحقائق من غير الطريق الذي ندركه بالعقول. لأن العقول قابلة بما فيها للإدراك، وقابلة بما لهـا مـن الإمكانيـة للتلقي من العلم الإلهي. فإن المتلقي سيعرف الحقائق التي تحـدث عـنها الرسل وأهل المعرفة عن هذا الطريق. ولكن لا يصح أن يكون لهؤلاء أي شرع يخالف الشريعة الإسلامية. وكل مخالفة هي تلبيس وضلال من إمـداد إبـليس، لأن باب الرسالة مغلق إلى قيام الساعة، وما بقي غير الاجتهاد فيمـا لا يخـالف النصوص. فالإسلام ختام، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الطـبيب للنفوس المؤمنة والأجسام، ولو كان في العلم الإلهي زيادة عما أعطاه الله للرسول صلى الله عليه وسلم ما قال الله ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾(33).

فالرسـول صلى الله عليه وسلم هو سيد العلماء والعارفين، وإمام المتقين، وكـل عـلم إلهي إنما يأتي بإتباعه وسلوك طريقه، وليس في الأمر زيادة. فقد رأى مـن آيات ربه الكبرى عندما وصل إلى قاب قوسين أو أدنى، وهذه غاية الوصول ومنتهاه.

وليس بعد هذا غير الشكر لمن رأى ما رآه، لأنه من الإمداد الإلهي عناية من الله بالعبد، ليشهد عن قرب حقيقة العبودية وثماره المتجلية بالطاعة والحب، والمعرفة المزينة بإمداد العقل المشرق بأنوار الوجود بعد طي المسافات بالعقل والقلب بين الإنسان الطالب والمطلوب. سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عما إذا كان الله يقبل توبة عبده بعد الضلال.

فقال لأصحابه "للرب أفرح بتوبة أحدكم من رجل كان في فلاة من الأرض مـع راحلـته، عليها زاده وماؤه، فتوسد راحلته، فنام فغلبته عيناه، ثم قام وقد ذهبت الراحلة. فصعد مشرفاً، فنظر فلم ير شيئاً، ثم هبط فلم ير شيئاً.

فقال: لأعودن إلى المكان الذي كنت فيه حتى أموت، فنام فغلبته عيناه، ثم استنبه فإذا الراحلة قائمة على رأسه، فالرب بتوبة أحدكم أشد فرحاً من صاحب الراحـلة بهـا حين وجدها"(34). لأن الله لا يحب لعباده الكفر وإن أحبوه، وهم يدعوهم إلى الجنة، وإن ساروا بأعمالهم إلى النار. لأن الإنسان مخلوق من حب

الله لـــلعرفان. وقـــد أعـــد الله الأرض للإنسان، كما يعد الآباء البيوت لأبنائهم لـــلزواج والإنجاب، ليعرفوا فضل الآباء وحبهم، وعطفهم، ورحمتهم بهم، وإن جحد من جحد من الأبناء. فالآباء يظلون رحماء. ينتظرون يقظة ضمير الأبناء ليغفـــروا عـــند أول اعـــتذار. وأيـــن رحمـــة الآباء من رحمة الله، فهو أرحم الراحمين، وهم رحماء من فيض اسمه الرحيم. وأين من وسعت رحمته السماء والأرض، ممـــن وســـعت رحمـــته الأبناء، وقد لا تسعهم. فالعاقل يستحي حق الحياء من المعطي، والجاهل يطمع بالغفران. والجاحد لا تطهره إلا النيران من الخـــبث الذي فيه. وبما أن المآل إلى الجنة لكل من قال لا إله إلا الله ولو مرة، لهذا لا بد من النيران لتطهير أهل الجنان من الخبائث. أما المؤمن الذي احترق في الدنيا بطاعة الله. فسوف تقول له النار وهو يمر على الصراط "جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي"(35).

ذلك لأن النور هو خلاصة النار، لهذا لا تضر النار بالمؤمنين. ولا بد من الـــنار، فـــي الدنيـــا بالمجاهدات، ومخالفة النفوس، وإتباع الخلفاء العقلاء، وهم الرســـل أو رسل الرسل، أو في الآخرة، لتطهير العقول مما شابها من الشبهات حـــتى تصل إلى عالم النور وتعرف الله. فالعرفان قدر الإنسان، ومن لم يعرف ربه بالإحسان في الدنيا، سيعرفه في الآخرة بالنيران "فبعلمه أو جدك، وبعجزك عـــبدته: فهـــو هـــو لهو لا لك، وأنت أنت: لأنت وله! فأنت مرتبط به، ما هو مرتبط بك"(36).

العـــاقل لا يدعي، لأنه يعرف أنه قطرة من بحر الوجود، والوجود محيط بـــه.. وليس في الوجود غير الله **﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكـــل شيء عليم﴾**(37). أنت فكرة في ذات الله كنت، لهذا نقشت في الطبيعة، وكســـيت بـــثوب المجد لتكون دليلاً عليه. فأنت منه وإليه –وإلى الله المصير– فـــإلى أين الفرار. إذا كان الوجود لا يصبح عدماً، والعدم لا يصبح وجوداً، وإذا كـــانت أعيـــان الوجود ستخرج كما بدأت للحساب بقدرة مسبب الأسباب؟. فهل تظـــن أن حقيقـــتك ستفنى بالموت؟. إن كان لك حقيقة في الوجود، فالوجود لا يفنى، فأنت عين تنتظر الأمر بعد الموت للظهور. وإن كنت فكرة لإبداع العقل فـــي الطبيعة، فأين الفرار إذا كان المبدع قد أوجدك من اللا وجود. وهل يعجز أي صانع عن إعادة صنع المصنوع؟. فأين الفرار **﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾**(38) و**﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾**(39).

مـــا ألطــف إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحاب العقول عندما قال "ليس من الإنسان شيء يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخــلق يــوم القيامة". فأين الفرار لمن جعله الله بذرة خالدة في الوجود، ودليلاً عــلى الممــلكة والمــلك. **﴿فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخــرج مــن بيــن الصــلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر﴾**(40).

مــن الإشارات الإلهية القرآنية لعصرنا، إجابة الله لمن كان يشكك بإمكانية خلق الإنسان من جديد كما هو الحال في كل زمان قول الله **﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾**(41).

فــلماذا اختار الله البنان كإشارة إلى قدرته على إعادة خلق الإنسان. بما إن هــذه الآيــات للأجيــال كلها منذ بداية الوحي إلى قيام الساعة. فلا بد أن تكون مفيــدة لكل الأجيال. ولا بد للمبدع من الإشارة إلى سر يعجز غيره عن صنعه ليصــح الإعجــاز، ولذلك أشار الله إلى البنان، بصيغة المفرد وليس الجمع ولم يحــدد أي بــنان. وقــد فهم المفسرون أن السبب في إشارة الله إلى صنع البنان كدليــل على الإعجاز، إنما يعود إلى صغر حجم عظام الأصابع ودقة تكوينها. لهــذا فهموا أن تفسير الآية كما جاء في تفسير الجلالين "وهو الأصابع أي نعيد عظامهــا كمــا كانت مع صغرها فكيف بالكبيرة"(42). هذا المعنى كان يناسب العصــر الذي عاشوا فيه حيث يمكن الاستدلال من صنع الصغير على الكبير. ولهذا ذهبوا إلى معنى الجمع، مع أن كلمة "بنان" جاءت بالمفرد. ولكن المفاجأة المذهلة ستكون في عصرنا حينما سيتبين لكل إنسان، أن بصمات الإبهام في يد كــل إنســان لا تتشــابه أبداً، بل إنها الدليل عليه. لهذا نشأ علم جديد للجريمة بالاعتماد على البصمات. وسنفهم بفضل التطور العلمي سر الإعجاز الإلهي في خلق البنان. فمن يستطيع أن يعلم هذا السر أو يكتشفه غير صانع يعرف أسرار صنعته. ولا نريد أن نعدد الإشارات الإلهية في القرآن إلى الإعجاز مما اكتشف في عصرنا. فالعاقل تكفيه الإشارة، وقد دعا الله إلى تأمل الكون بالعقل والسمع والبصر، ليفهم العاقل حتى يبلغ سن الرشد ويعقل، ويبصر المبصر. وقد أغرى العــباد بالــثواب حباً بهم وحرصاً على هدايتهم، ليشهد شهادة الحق في الصانع المبدع، فأرسل الرسل، وزودهم بالمعجزات التي يعجز عن الإتيان بها الإنسان بقــواه الطــبيعية، حتى لا يبقى أي مبرر للضلال. فهل بعد البرهان بالدليل من سبب للغفران، لمن ينكر الجنة والنار. لهذا إذا كانت الرحمة لا تفيد العصاة، فلا

بـد من البرهان بالعقاب لإصلاح بذرة الطين حتى يدرك من لم يدرك ذلك أنه "لا إلــه إلا الله" فهـو حقيقة الوجود التي خرج منها الإنسان، بالتكوين بمشيئة العقل، وصنعه من عناصر الطبيعة ليكون للإنسان الظهور بما يحير العقول.

فالعقل الإنساني الباهر بتأملاته للكون وانفعالاته وأسئلته وإبداعه، إذا كان باهـراً ومحيـراً إلى هذا الحد، فكيف سيكون مبدع الأكوان، ومظهر وجود كل موجود؟. فالإنسان استفاد من كونه إشارة للدلالة على عظمة مالك الملك، ولهذا أنعم عليه بالوجود. وليس للإنسان إلا الشكر والعرفان.

فالإنســان الذي تميز بالعقل آية الله الكبرى في كل ملك. ولهذا سماه الشيخ محيـي الديـن بن عربي "تاج الملك". ولهذا كان الوجود مسخراً للإنسان بأمر الـرب. فالإنسان ابن العقل في الأرض، وفي كل أرض، بل إنه المهيأ للظهور فـي صـورة النائب الحامل لأسماء الرب. فهو الجامع لها. وكل صور الوجود حامـلة لبعض الأسماء، أما الإنسان فهو موضع العناية الذي جمعت في تكوينه كل الأسماء. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن لله تسعة وتسعين اسماً مـن أحصـاها دخـل الجـنة"(43). أي من استخرجها من ذاته صار موضعاً للأسـرار، ودخل جنته الحقيقية بشهود الحقائق الكونية عن يقين ومشاهدة، فلا ينشغل في البحث عن المستحيل. لأن الإنسان في الوجود آية العقل الإلهي، ولا يدرك عظمة الله إلا الإنسان العظيم.

والإنسان هو عصارة الوجود الذي التقت بين جنبيه أسرار الكلام، وجمال الأكوان ليكون المثال. فهو كنز الوجود، وسره الدفين الذي تحيرت فيه الملائكة وغار منه الشيطان. إنه مجد عظمة العقل، وجمال الطين. لهذا حار من شهوده لعظمـة الأكوان، وحارت فيه العقول ليكون الدليل على من لا يحد ولا يعرف بالدليل. فهو الله المشهود من وراء كل اسم وعنوان، ليصح قول القائل بالتسبيح مـن الحيرة، وقول الشاهد بعظمة مكون الأكوان، وقول المهلل بالتكبير، وقول الـناطق بـالحمد. فهذا شراب العارفين الذين شهدوه في كل اسم فقالوا "الله" ثم قـالوا "سـبحان ربـك رب العزة عما يصفون"(44). عندما عجز اللسان عن الكـلام، وعجز العقل عن إرشاد اللسان إلى النطق بما يناسب المقام. ثم حارت الحيرة فأسعفنا الله بالقول "قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون"(45).

فهو الله الذي تدل عليه العقول ومظاهر الوجود، وهو الذي لا يعرف لأنه **﴿كل يوم هو في شان﴾**(46).

وهـو الكل إن قرأت "هو الأول والآخر والظاهر والباطن". فكان الوجود

مــن فيض أسمائه الذي أظهره الكلام. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الله فــي قبــلة المصلي"(47) لمن شهد هذا التجلي، ورأى أن الله معه أينما كــان "وهــو بكل شيء بصير" فالطبيعة رداء، والعقل شهود للإنسان. والله من وراء وراء فــي مــلكه الــذي لا يحد ولا يوصف، ولا يوصل إليه إلا بالحب والإيمان. لأن العقول مهما حاولت لا تشاهد إلا آثار الملك، والمالك ليس السماء ولا الأرض ولا الــبحار. وأين المالك من الملك. لهذا لا يوصل إلى معرفة الله إلا بالنور الفائض من القلب.

■■■

■ مراجع " خلافة الإنسان في الأرض

مراجع "حدود الخلافة الإنسانية"

1-سورة المائدة- الآية 3

2-كنز العمال- رقم18603/ج7

3-كنز العمال- رقم18631/ج7

4-كنز العمال- رقم36941/ج13

5-س

6-كنز العمال- رقم6232/ج3

7-8-صفي الرحمن- الرحيق المختوم- ص356

9-صفي الرحمن- الرحيق المختوم- ص412

10-كنز العمال- رقم 32849/ج11

11-ابن هشام- السيرة النبوية-ص98/ج4

12-ابن هشام- السيرة النبوية-ص192/ج3

13-كنز العمال- رقم31854/ج11

14-كنز العمال- رقم23512/ج8

15-صحيح مسلم- رقم179/ج3

16-صحيح مسلم- رقم178/ج3

17-صحيح مسلم- رقم178/ج3

18-صحيح مسلم- رقم 177/ج3

19-كنز العمال- رقم1364/ج1

20-كنز العمال- رقم8137-ج3

21-ابن عربي- الفتوحات المكية- ص227/ج1 م

22-ابن عربي- الفتوحات المكية- ص212/ج1 م

23-ابن هشام- السيرة النبوية- ص106/ج2

24-كنز العمال- رقم 23149/ج8

25-ابن هشام- السيرة النبوية- ص97/ج2

26-ابن هشام- السيرة النبوية- ص198/ج3

27-صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص324
28-صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص217
29-سورة الأنفال- الآية 67-68
30-ابن هشام- السيرة النبوية- ص226/ج2
31-سورة الأنفال- الآية17
32-ابن هشام- السيرة النبوية- ص29/ج3
33-كنز العمال- رقم 32178/ج11
34-كنز العمال- رقم 28687/ج10
35-كنز العمال- رقم 42477/ج15
36-كنز العمال- رقم 42487/ج15
37-كنز العمال- رقم 42481/ج15
38-صفي الرحمن- الرحيق المختوم، ص206
39-ابن هشام- السيرة النبوية- ص191/ج2
40-صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص201
41-كنز العمال- رقم 8160/ج3
42-صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص185
43-ابن هشام- السيرة النبوية-ص47/ج2
44-صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص122
45-صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص124
46-صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص124
47-ابن هشام- السيرة النبوية- ص49/ج2
48-كنز العمال- رقم32227/ج11
49-ابن هشام- السيرة النبوية- ص225/ج1
50-ابن هشام- السيرة النبوية- ص226/ج1
51-ابن هشام- السيرة النبوية- ص226/ج1
52-سورة طه- الآيات 66-68
53-صفي الرحمن- الرحيق المختوم- ص119
54-ابن هشام- السيرة النبوية- ص120/ج4
55-ابن هشام- السيرة النبوية- ص120/ج4
56-سورة آل عمران- الآية 128
57-كنز العمال- رقم32737/ج11
58-كنز العمال- رقم32745/ج11
59-كنز العمال- رقم32890/ج11

60-ابن هشام- السيرة النبوية- ص218/ج3
61-كنز العمال- رقم32188/ج11
62-ابن هشام- السيرة النبوية- ص199/ج4
63-ابن هشام- السيرة النبوية- ص199/ج4

مراجع "الرسل وعالم الغيب"

1-سورة لقمان- الآية 34
2-سورة يونس- الآية 24
3-كنز العمال-الحديث رقم31971/ج11
4-سورة البقرة- الآية 282
5-كنز العمال- رقم36991/ج13
6-صحيح مسلم- رقم2542/ج16
7-كنز العمال- رقم37826/ج14
8-كنز العمال- رقم37831/ج14
9-كنز العمال- رقم36855/ج13
10-كنز العمال- رقم34603/ج12
11-كنز العمال- رقم34609/ج12
12-كنز العمال- رقم34605/ج12
13-ابن هشام- السيرة النبوية-ج1/ ص141
14-ابن هشام- السيرة النبوية-ج1/ ص186
15-ابن هشام- السيرة النبوية-ج1/ ص249
16-إنجيل يوحنا- ص213
17-كنز العمال- رقم31981/ج11
18-كنز العمال- رقم32373/ج11
19-كنز العمال- رقم32346/ج11
20-كنز العمال- رقم32456/ج11
21-كنز العمال- رقم31883/ج11
22-كنز العمال- رقم31895/ج11
23-سورة النجم- الآية 3-4
24-سورة البقرة- الآية 285
25-سورة النساء- الآية 171

26-إنجيل متى-ص9

27-إنجيل متى-ص9

28-إنجيل متى-ص11

29-إنجيل لوقا-ص123

30-إنجيل لوقا-ص142

31-إنجيل يوحنا-ص196

32-إنجيل مرقس-ص91

33-سورة الصف- الآية 6

34-كنز العمال- رقم29829/ج10

35-إنجيل متى-ص56

36-موريس بوكاي- دراسة الكتب المقدسة- ص99

37-موريس بوكاي- دراسة الكتب المقدسة- ص99

38-إنجيل برنابا- مقدمة المترجم-ص(ل)

39-إنجيل برنابا- مقدمة المترجم-ص(ط)

40-كنز العمال- رقم38843/ج14

41-إنجيل برنابا-مقدمة المترجم-ص(د)

42-إنجيل برنابا-ص67-68

43-إنجيل برنابا-ص110

44-كنز العمال- رقم33340/11

45-ابن هشام- السيرة النبوية-ج1-ص166

46-ابن هشام- السيرة النبوية-ص165/ج1

47-كنز العمال- رقم1155/ج1

48-سورة الكهف- الآيات 71-74-77-78

49-سورة الكهف- الآيات 67-68

50-كنز العمال- رقم32363/ج11

51-كنز العمال- رقم36969/ج13

52-كنز العمال- رقم36968/ج13

53-كنز العمال- رقم36960/ج13

54-كنز العمال- رقم14294/ج5

55-كنز العمال- رقم30730/ج11

56-كنز العمال- رقم101/ج1
57-كنز العمال- رقم260/ج1
58-سورة الأنبياء- الآية107

مراجع الطريق إلى الخلافة

1-سورة البقرة- الآية 30.
2-سورة فاطر- الآية 39.
3-سورة العلق -الآيات 1-5.
4-كنز العمال- رقم 28789 / ج10.
5-كنز العمال -رقم 28752/ ج 10.
6-سورة البقرة- الآية 282.
7-سورة المائدة- الآية 3.
8-كنز العمال- رقم 38573/ ج14.
9-كنز العمال- رقم 38587/ ج 14.
10-كنز العمال -رقم 38589/ ج 14.
11-كنز العمال -رقم 38588/ ج 14.
12-كنز العمال -رقم 39741/ ج 14.
13-كنز العمال -رقم 7777/ ج 3.
14-كنز العمال -رقم 40791/ ج 15.
15-كنز العمال -رقم 7747/ ج 3.
16-سورة ق- الآية 22.
17-كنز العمال -رقم 29829/ ج 10.
18-سورة البقرة -الآية 31.
19-كنز العمال -رقم 1306/ ج1.
20-كنز العمال -رقم 1275/ ج 1.
21-صفي الرحمن- الرحيق المختوم- ص 398.
22-ابن هشام -السيرة النبوية- ص 104/ ج4
23-كنز العمال -رقم 16674/ ج 6.
24-كنز العمال -رقم 36217/ ج 13.
25-كنز العمال -رقم 18606/ ج 7.
26-كنز العمال -رقم 18609/ ج7.
27-كنز العمال -رقم 18612/ ج 7.

28-كنز العمال -رقم 18602/ ج7.
29-كنز العمال - رقم 18616/ ج 7.
30-كنز العمال -رقم 18628/ ج 7.
31-كنز العمال - رقم 18632/ ج 7.
32-كنز العمال -رقم 18615/ ج 7.
33-كنز العمال - رقم 18637/ ج 7.
34-كنز العمال - رقم 18643/ ج 7.
35-كنز العمال - رقم 18639/ ج 7.
36-العهد القديم- ص 187.
37-كنز العمال -رقم 10924/ ج 4.
38-العهد القديم- ص191.
39-أنجيل لوقا- ص 150.
40-كنز العمال - 29883/ ج 10.
41-انجيل لوقا- ص 167.
42-إنجيل لوقا - ص174
43-كنز العمال - رقم 32346/ ج 11.
44-سورة الأحزاب- الآية 4.
45-كنز العمال -رقم 15651/ ج6.
46-ابن هشام - السيرة النبوية- ص 249/ ج 1.
47-كنز العمال -رقم 7490/ ج 3.
48-كنز العمال -رقم 401/ ج1.
49-كنز العمال -رقم 10913/ ج 4.
50-كنز العمال - رقم 10929/ ج4.
51-كنز العمال -رقم 10930/ ج 4.
52-انجيل متى- ص 21.
53-انجيل متى- ص55.
54-كنز العمال - رقم 43277/ ج 15.
55-كنز العمال - رقم 63/ ج 1.
56-كنز العمال - رقم 95/ ج 1.
57-ابن هشام- السيرة النبوية- ص 114/ ج2.
58-إنجيل مرقس- ص 71.
59-إنجيل متى- ص 47.

60-كنز العمال – رقم 1148/ ج 1.
61-سورة القصص- الآية 56.
62-كنز العمال -رقم 7304/ ج3.
63-كنز العمال -رقم 7204/ ج3.
64-كنز العمال -رقم 156/ ج1.
65-سورة الأنعام- الآية 54.
66-الغزالي-إحياء علوم الدين- ص 15/ ج3.
67-كنز العمال -رقم 1207/ ج1.
68-سورة الحج- الآية 47.
69-سورة المعارج- الآية 4.
70-ابن عربي- تفسير القرآن – ص 697/ ج2.
71-ابن عربي- تفسير القرآن- ص 699/ ج2.
72-الفخر الرازي -التفسير الكبير- ص 123/ ج30.
73-كنز العمال -رقم 24685/ ج 9.
74-كنز العمال- رقم 1386/ ج 1.
75-كنز العمال -رقم 28697/ ج 10.
76-كنز العمال -رقم 28750/ ج10.
77-كنز العمال – رقم 28942/ ج10.
78-كنز العمال – رقم 28730/ ج 10.
79-كنز العمال -رقم 28687/ ج 10.

مراجع العقل والإيمان

1-كنز العمال – رقم 1148/ ج 1.
2-سورة التين -الآية 4.
3-سورة الأحزاب – الآية 72.
4-كنز العمال – رقم 29040/ 10.
5-سورة البقرة -الآية 31.
6-سورة الملك-الآية 14.
7-سورة الأنبياء- الآية 47.
8-كنز العمال -رقم 28730/ ج 10.
9-كنز العمال -رقم 7033/ ج 3.
10-كنز العمال – رقم 7037/ ج3.

11-كنز العمال -رقم 7057/ج3.
12-سورة العنكبوت- الآية 69.
13-سورة البقرة – الآية 282.
14-سورة النور – الآية 35.
15-سورة النور- الآية 36-37.
16-كنز العمال -رقم 1053/1.
17-سورة البقرة -الآية 165.
18-كنز العمال -رقم 1872/1.
19-كنز العمال -رقم 1877/ج 1.
20-كنز العمال -رقم 1871/ ج 1.
21-كنز العمال -رقم 34622/ ج 12.
22-كنز العمال -رقم 34619/ ج 12.
23-كنز العمال – رقم 43673/ ج 16.
24-كنز العمال – رقم 1252/ ج 1.
25-سورة الانشقاق- الآية 6.

مراجع " الأقدار وحرية الاختيار"

1-كنز العمال – رقم 1314/ ج1.
2-كنز العمال – رقم 15146/ ج6.
3-سورة الكهف-الآية 17.
4-كنز العمال -رقم 31867/ ج11.
5-كنز العمال -رقم 1306/ ج 1.
6-كنز العمال – رقم 35695/ ج 12.
7-كنز العمال – رقم 34251/ ج 12.
8-كنز العمال -رقم 44559/ ج 16.
9-كنز العمال – رقم 44557/ ج 16.
10-كنز العمال – رقم 45620/ ج 16.
11-سورة الملك- الآية 14.
12-سورة فصلت -الآية 12.
13-سورة يونس-الآية 5.
14-سورة الفرقان- الآية 2.
15-سورة فصلت -الآية 10.

16-سورة البقرة- الآية 30.
17-كنز العمال -رقم 509/ ج 1.
18-سورة القلم -الآية 35-36.
19-سورة النساء- الآية -79.
20-كنز العمال -رقم 43615/ ج 15.
21-كنز العمال -رقم 5661/ج 3.
22-كنز العمال - رقم 5918/ ج 3.
23-كنز العمال -رقم 43607/ ج 15.
24-سورة الزمر-الآية 7.
25-سورة الأنفال-الآية 7.
26-سورة الحج- الآية 38.
27-سورة الأنعام-الآية 149.
28-سورة البلد-الآيات: 9،8، 10.
29-سورة الإنسان -الآية 3.
30-سورة فصلت - الآية 17.
31-سورة الصف- الآية 5.
32-الغزالي- مكاشفة القلوب- ص 21.
33-سورة الزخرف- الآية 25.
34-كنز العمال -رقم 5524/ ج 3.
35-سورة البقرة - الآية 286.
36-كنز العمال -رقم 28750/ج10.
37-كنز العمال -رقم 43590/ج 15.
38-كنز العمال -رقم 29130/ج 10.
39-كنز العمال -رقم 29131/ ج 10.
40-كنز العمال -رقم 29414/ ج 10.
41-ابن هشام -السيرة النبوية- ص 13/ ج2.
42-ابن هشام -السيرة النبوية- ص 14/ ج2.
43-ابن هشام -السيرة النبوية- ص 222/ ج3.
44-كنز العمال -رقم 29091/ ج 10.
45-كنز العمال - رقم 34151/ ج 15.
46-سورة النحل- الآية 78.
47-سورة الأحقاف- الآية 26.

48-سورة الحج- الآية 46.
49-سورة الفرقان- الآية 43-44.
50-كنز العمال - رقم 28687/ ج 10.
51-كنز العمال -رقم 1595/ ج 1.
52-سورة الملك -الآية 1-2.
53-سورة يونس- الآية 25.
54-سورة البقرة- الآية 221.
55-سورة البقرة -الآية 186.
56-سورة الأنبياء- الآية 45.
52-كنز العمال - رقم 38501/ ج 14.
53-كنز العمال - رقم 38983/ج14.

مراجع " العقل والطبيعة في الوجود"

1-سورة الذاريات - الآية 49.
2-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 309/ج2-م.
3-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 313/ج2-م.
4-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 319/ ج2-م.
5-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 320/ج2-م.
6-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 324/ ج2-م.
7-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 315/ج 2-م.
8-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 340/ج2-م.
9-د. عبد الرحمن بدوي-موسوعة الفلسفة- ص 581/ ج2.
10-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص 582/ ج2.
11-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص 589/ ج2.
12-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص 573/ ج2.
13-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص 572/ ج2.
14-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص 588/ ج2.
15-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص 587/ ج2.
16-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص 579/ ج2.
17-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة - ص 575/ ج2.
18-الموسوعة الفلسفية العربية- ص 1437/ ج2.

19-ابن عربي-شجرة الكون- ص5.
20-ابن عربي -شجرة الكون-ص46.
21-ابن عربي- شجرة الكون- ص 47.
22-ابن عربي -شجرة الكون- ص 46.
23-سورة المائدة- الآية 3.
24-كنز العمال- رقم 29850/ ج 10.
25-سورة الأنبياء الآية 30.
26-كنز العمال - رقم 29851/ ج10.
27-كنز العمال - ص 370/ ج 10.
28-الترمذي -ختم الأولياء- ص 290.
29-سورة المؤمنون - الآية 15.
30-سورة طه- الآية 55.
31-كنز العمال -رقم 38915/ ج 14.
32-كنز العمال -رقم 38908/ ج 14.
33-سورة المائدة- الآية 3.
34-كنز العمال -رقم 10272/ ج 4.
35-كنز العمال- رقم 39029/ ج 14.
36-ابن عربي- الفتوحات المكية- ص 212/ ج1-م.
37-سورة الحديد- الآية 3.
38-سورة الانشقاق- الآية 6.
39-سورة النبأ- الآية 40.
40-سورة الطارق- الآيات 5-10.
41-سورة القيامة -الآية 3-4
42-محمد المحلي والسيوطي - تفسير الجلالين- ص 779.
43-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 349/ ج 1 م
44-سورة الصافات- الآية 180.
45-سورة الأنعام- الآية 91.
46-سورة الرحمن- الآية 29.
47-ابن عربي-الفتوحات المكية- ص 216/ج 7.

■■■

المصادر والمراجع

1-محمد فؤاد عبد الباقي- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- منشورات دار المعرفة- بيروت -لبنان.
2-الفخر الرازي- التفسير الكبير- منشورات دار إحياء التراث العربي- بيروت الطبعة الثالثة
3-علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - منشورات مؤسسة الرسالة -بيروت الطبعة الخامسة - 1405- 1985م.
4-صحيح مسلم بشرح الإمام النووي- منشورات مؤسسة مناهل العرفان- بيروت ومكتبة الغزالي- دمشق
5-جلال الدين محمد بن أحمد المحلي- وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- تفسير الجلالين- منشورات دار المعرفة -بيروت الطبعة الثانية 1403هـ - 1983م.
6-ابن هشام- السيرة النبوية- تحقيق طه عبد الرؤوف سعد- منشورات دار إحياء الكتب العربية- القاهرة
7-علي بن أبي طالب -نهج البلاغة - جمع الشريف الرضي وشرح الشيخ محمد عبده- منشورات دار الفكر
8-محي الدين بن عربي- الفتوحات المكية- منشورات دار صادر- بيروت
9-محي الدين بن عربي- الفتوحات المكية- تحقيق د. عثمان يحيى - مراجعة د. ابراهيم مدكور- الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية 1405 هـ -1985م.
10-محيي الدين بن عربي- تفسير القرآن الكريم- تحقيق د. مصطفى غالب- منشورات ناصر خسرو- تهران- الطبعة الثانية 1978. وهناك من ينسب هذا التفسير للقرآن لعبد الرزاق الكاشاني، لوجود نسخة خطية باسمه محفوظة بالمكتبة السليمانية بتركيا تحت رقم /18017/ والواقع أن أسلوب التفسير لا يدل بأنه للشيخ محيي الدين.
11-محيي الدين بن عربي- شجرة الكون- الناشر مكتبة عالم الفكر- القاهرة- الطبعة الأولى 1407هـ - 1987م.

12-أبـو حـامد بن محمد الغزالي- إحياء علوم الدين- منشورات دار المعرفة- بيروت – لبنان.

13-أبـو حـامد محمد بن محمد الغزالي- مجموعة رسائل الإمام الغزالي- منشورات دار الفكر- بيروت – الطبعة الأولى 1416/ 1996م.

14-العهد القديم – منشورات دار المشرق ش م م – بيروت- الطبعة 1988.

15-العهـد الجديـد- نقله عن اليونانية الأب جورج فاخوري البولسي- المطبعة البولسية- جونية (لبنان)- طبعة 1973

16-إنجيل برنابا- ترجمة د. خليل سعادة- منشورات دار الحكمة – دمشق

17-إسـماعيل بـن السـيد محمد سعيد القادري – الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية- منشورات عيسى البابي الحلبي -مصر.

18-صـفي الـرحمن المـباركفوري- الرحيق المختوم- منشورات دار السلام – الرياض- الطبعة الأولى 1418هـ

19-عباس محمود العقاد- العبقريات الإسلامية – منشورات دار الآداب- بيروت – الطبعة الثانية 1968.

20-خـالد محمـد خالد- رجال حول الرسول- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثانية 1973.

21-د. عـرفان عبد الحميد فتاح- نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها- منشورات دار الجيل- بيروت- الطبعة الأولى- 1413هـ/ 1993م.

22-د. محمود ناظم النسيمي – الطب النبوي والعلم الحديث – منشورات مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية 1407هـ /1987م.

23-د. حسـن إبـراهيم حسـن- تـاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي- منشـورات مكتـبة النهضة المصرية القاهرة – الطبعة السابعة 1964

24-د. محمـد سـعيد رمضـان الـبوطي- كبرى اليقينيات الكونية- منشورات دار الفكر- دمشق- الطبعة الثامنة 1402هـ

25-د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت – الطبعة الأولى 1984.

26-الموسوعة الفلسفية العربية – بإشراف د. معن زيادة -منشورات معهد الإنماء العربي- بيروت – الطبعة الأولى 1986.

27-أبـو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري- لسان العرب- منشورات دار صادر- بيروت

28-محمـد أبـي الهدى أفندي الرفاعي الخالدي الصيادي- قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر

29-بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الشهير بالرواسس- المجموعة النادرة لأبناء الآخرة – منشــورات دار البشـــائر – دمشق- الطبعة الأولى 1415هـ / 1995م

30-أبو المواهب المعروف بالشعراني – تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر – منشورات دار البشائر – دمشق.

31-كليف كيلمستر- طبيعة الكون- ترجمة المهندس محمد بشار حكمت البيطار – منشورات وزارة الثقافة – دمشق 1991

32-عدد من المؤلفين – المادة كما ترى اليوم- ترجمة وائل أتاسي- منشورات وزارة الثقافة – دمشق- 1985.

33-ألكســندر كيــتا يجوروديـــكي – الفوتونـــات والـــنويات، ترجمة داود سليمان المنير- منشوارت دار مير- موسكو- 1985.

34-موريـــس بوكـــاي – دراســـة الكـــتب المقدسة القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم" منشورات دار رشا – بيروت

35-الإمـــام أبـــي يـــحيى بن شرف النووي الدمشقي – رياض الصالحين – تحقيق شعيب الأرناؤوط- منشورات مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة السابعة عشر- 1409هـ – 1989م.

36-الإمـــام أبـــي حامد محمد بن محمد الغزالي- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيـــوب – منشورات دار الكتب العلمية بيروت- الطبعة الأولى 1402هـ –1982م.

37-الشـــيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي- ختم الأولياء – تحقيق عـــثمان يحيى- منشورات بإدارة معهد الآداب الشرقية- المطبعة الكاثوليكية – بيروت

38-ول ديورانـــت- قصـــة الحضـــارة – ترجمة عدد من المترجمين بإشراف جامعة الدول العربية- الطبعة الثالثة – 1968- القاهرة

39-محيـــي الدين بن عربي- فصوص الحكم والتعليقات عليه- تحقيق د. أبو العلا عفيفي- منشورات دار الكاتب العربي- بيروت.

40-د. نصـــر حـــامد أبـــو زيد – فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي- منشورات دار التنوير – الطبعة الأولى 1983- بيروت.

■■■

فهرس المواضيع

■■■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الإشـــراق خلافـــة الإنسان في الأرض: دراسة/ محمد عرب- دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001 – 338 ص؛ 25سم.

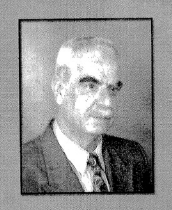
1- 189.15 ع ر ب إ　　　　2- 218.91 ع ر ب

3- العنوان　　　　4- عرب

ع- 2001/9/1792　　　　مكتبة الأسد

□□


اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق



- أديب عربي سوري من محافظة إدلب- بلدة أرمناز- مواليد 1947

- أسهم بدراسات مستقلة في بعض الكتب منها كتاب:

"دراسات في القومية العربية والوحدة" ، الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية.

صدر له عن اتحاد الكتاب العرب كتاب

"الشخصية الصهيونية ملامحها في الرواية الغربية وجذورها التوراتية"



ثمن النسخة ... 500 ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق